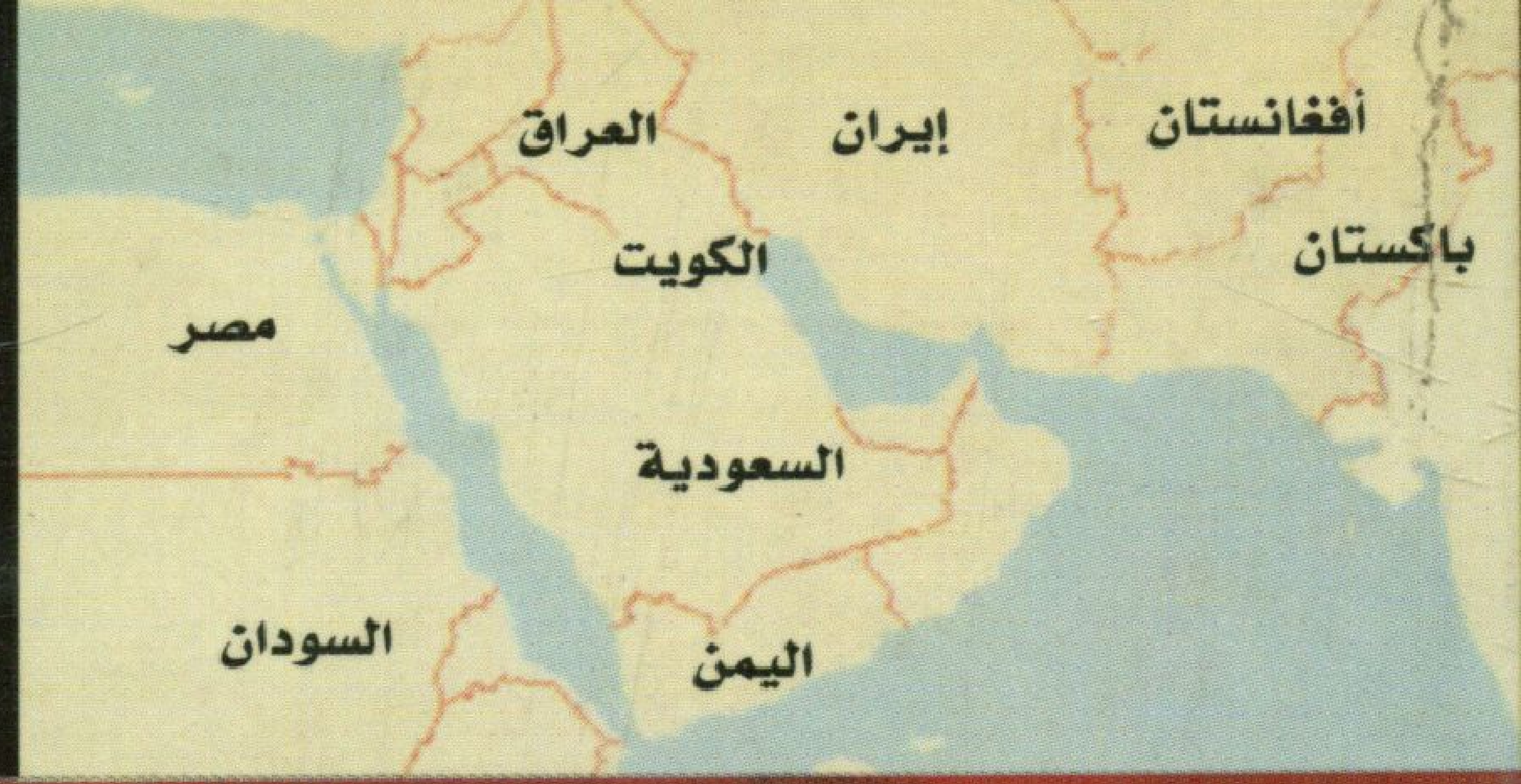


من النيل إلى تورا بورا

الشرق الأوسط والنظام العالمى الجديد

تأليف: هايكو فلوتاو

ترجمة: د. عبد الحميد مرزوق

مراجعة: د. محمد سليمان بدر



من النيل
إلى تورا بورا

الشرق الأوسط والنظام العالمى الجديد

هايكو فلوتاو

ترجمة

د. عبد الحميد مرزوق

مراجعة

د. محمد سليمان بدر



اسـم الكتـاب مـن الـنـيـل إلى تـورا بـورا
الشرق الأوسط والنظام العالمى الجديد
تـرجـمـة: د. عـبـدالحمـيـد مـرزوق.
مـراجـعـة: د. محـمـد سـلـيـمـان بـدر.
إشـراف عـام داليـا محـمـد إبراهـيـم.
تاريـخ النشـر الطـبـعـة الأولى ـ يـنـايـر 2006م.
رقـم الإيـداع: 2005 / 22803
الترقيم الـدولى ISBN 977-14-3351-2

الإدارة العامة للنشر 21 ش أحمد عرابى ـ المهندسين ـ الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة ـ مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) ـ فـاكـس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى ـ الفجالة ـ القاهرة ـ ص. ب: 96 الفجالة ـ القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) ـ فـاكـس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

Title of the original German edition:
Vom Nil bis an den Hindukusch
Heiko Flottau

الإهداء

إلى
إيرينا

محتوى الكتاب

الجزء الأول
نبذة تاريخية عن عمليات التحرير الإمبريالية

الجزء الثانى
صراعات شرق أوسطية ـ صنع فى أوروبا

الجزء الثالث
الخاضعون يدافعون عن أنفسهم

الجـزء الـرابـع
شعوب مكبلة ـ نظم متحجرة

الجـزء الخـامـس
شرق قناة السويس ـ أمريكا بدلاً من إنجلترا

ملحـق الكتـاب

مقدمة بقلم المترجم

لم أتعرف على حقيقة فكر مؤلف هذا الكتاب واتجاهه الإنسانى من خلال بعض مقالات نشرت له فى صحيفة «زود دويتشى تسايتونج» الألمانية، بصفته مراسلاً لها بالقاهرة. وإطلاعنا على مثل هذه النوعية من المصنفات ومنهجية المعالجة الموضوعية لتطور الأحداث بالمنطقة وتقديم رؤية خاصة لها من خلال قراءة تأملية لتاريخ التقاء الغرب بالعالم العربى الإسلامى، إضافة إلى تسلسل العرض التاريخى لأحداث الشرقين الأدنى والأوسط والوقوف الواعى على نقاط الربط والحل، تلك الأحداث التى أدت فى نهاية المطاف إلى ما نحن عليه اليوم من مشكلات بات يصعب وجود حل لها - وفى إطار نقدى لمواقف صناع القرار فى الشرق والغرب، كل ذلك فى كتاب واحد، من شأنه إعلاء قيمة هذا الكتاب الذى بين أيدينا ليتبوأ مكانته ضمن أمهات الكتب المرجعية فى بابه، مما دفعنى إلى القيام بترجمته لإفادة القارئ العربى وإثراء المكتبة العربية بوجهة نظر جديدة فى عالم واقعنا السياسى، بحيث لا يظل حكرًا على الغرب فحسب. وإسناد هذه المهمة لشخصى المتواضع أدين بالشكر فيها لأخى وزميلى الدكتور محمد سليمان بدر الذى أعتز بثقته التى أولانى إياها، ولا يسعنى إلا توجيه الشكر إليه على ذلك، وعلى ترتيبه لقاء جمعنى بمؤلف الكتاب السيد «هايكو فلوتاو»، إلى جانب موافقته على قيامه بأعمال المراجعة التى لا تقل أهمية وجهدا عن الترجمة على الإطلاق.

وحقيقة أهمية هذا الكتاب المرجعى يمكن إرجاعها إلى أسباب كثيرة أهمها الموضوعية والحيادية فى إحقاق الحق لأهله فى الشرق والغرب على حد سواء - سلبًا وإيجابا، وفى الحكم على الأشخاص والمواقف حكمًا يرقى إلى مستوى أحكام القضاء العادل، بعيدًا عن كل ميل إلى انتماءاته الغربية. كما يلاحظ فى اتجاهه غلبة النزعة الإنسانية على كتابته بكل معانيها، من تقدير للقيم الإنسانية التى تدفع بالشعوب نحو مجتمع إنسانى متقدم يسوده الإنسانية والحرية والكرامة والديمقراطية الصحيحة والعدالة. فالكاتب ينشد بكتابه

الوقوف على أسباب الصراعات الحالية والأطماع الغربية فى منطقة الشرق الأدنى والأوسط وقلب آسيا، والتى ترجع أولاً وأخيرًا إلى ثرواتها الطبيعية وموقعها الاستراتيجى من ناحية، وامتلاك الغرب لأسباب التقدم والقوة التى دفعت به إلى التقدم نحو كنوز الشرق من ناحية أخرى. وإلى جانب هذا وذاك تخلص الغرب من العنصر اليهودى ورفضه التعايش معه فى بلاده، بعدما أسفرت عنه هذه التجربة من معاناة الغرب من طباع جبل عليها هذا العنصر اليهودى، حتى انتهت به إلى المحرقة النازية (الهولوكوست). من هنا ارتبطت فكرة هروب اليهود من أوروبا إلى فلسطين بعد لفظ المجتمع الأوروبى لهم، والتذرع بالأصول الدينية لقيام وطن قومى لهم على حساب الشعب الفلسطينى، بأطماع ومصالح الغرب فى الشرق. ربما لا تكون هذه الفكرة جديدة علينا، ولكن الجديد فى هذا الكتاب والشيق أيضًا، رؤية الكاتب لما يطلق عليه اليوم «النظام العالمى الجديد» وإثباته بالوثائق التاريخية بأنه بمثابة الفصل الثانى فى مسرحية استعمارية بدأت أحداث فصلها الأول مع أحداث الحرب العالمية الأولى. وكل ما هو جديد فى الفصل الثانى لا يتعدى سوى تغيير الممثلين على خشبة المسرح - من إنجليز إلى أمريكان. أما موضوع المسرحية والحبكة والأدوار فلم تتغير؛ لذلك تبرز أهمية العمل للقارئ العادى فى تقديم تفسير وعرض تاريخى تحليلى لواقعه الذى يعيشه اليوم، وتنويره بما يجرى حوله من أفعال القوة العظمى الجديدة الوحيدة حتى الآن على ساحة عالمنا الذى نعيشه - الولايات المتحدة الأمريكية. ويؤكد الكاتب على وحدة الصراع الحالى، وعلى أنه لا فرق بين مشكلة فلسطين وحرب أمريكا على العراق وأفغانستان وما يجرى بمنطقة بحر قزوين ونية أمريكا فى السيطرة على منابع النفط خلال حروبها واختلاقها الأسباب فى ذلك - «الحرب على الإرهاب» - الذى صنعته بنفسها وقبلها بريطانيا العظمى. ولا نستبعد من خلال هذا التحليل قيام الولايات المتحدة قريبًا بتوجيه ضرباتها إلى إيران وسوريا، وما أسهل اختلاق الأسباب.

إن ترجمة مثل هذا العمل إلى العربية يعد إضافة حقيقية لكل قارئ غير متخصص، يرغب فى فهم لغز العذاب المكتوب على بلاد الشرق الحزين المنكوب بثرواته وموقعه الاستراتيجى، ولا يفوتنى التنويه إلى أن ما احتوى عليه الكتاب من أفكار وآراء وحكم على شخصيات سياسية أو تاريخية، إنما هى ملك كاتبها وحده ولا تعبر إلا عن رأيه الخاص، ويمكن الرد عليها من المعارضين لها. ونحن

فى عالمنا العربى الإسلامى ما أحوجنا اليوم إلى معرفة رؤية الآخر لنا وحكمه علينا وعلى أفكارنا وعلى مسيرة مجتمعاتنا، حتى ولو كان فى ذلك خروج عن المألوف الذى اعتدنا عليه وألفناه، وحتى يتسنى للقارئ المطلع الاطلاع على مراجع الكاتب، آثرت الإبقاء على وجود الأصل الأجنبى لهذه المراجع كما وردت فى النص الألمانى، وملحق به ترجمة عربية مختصرة لعناوين الكتب ومكان صدورها وتاريخ الإصدار، مرتبة بنفس تسلسلها فى النص الأصلى، دون إعادة ترتيب الأسماء وفقًا للأبجدية العربية، حتى يسهل التعرف على البيانات الكاملة لكل مرجع فى تسلسله.

والله ولى التوفيق ،،،

د. عبدالحميد مرزوق

مدرس الأدب الألمانى

كلية الألسن ـ جامعة عين شمس

تـمهيـد

يهدف هذا الكتاب إلى البحث فى أسباب الصراعات الحالية فى المنطقة، لاسيما ما يتعلق بقضية الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، والأحداث التى تجرى على أرض العراق والمملكة العربية السعودية، مع استشراف الأوضاع المتعلقة بأفغانستان، وذلك من خلال الرؤى الإعلامية اليومية للأحداث عبر شاشات التلفزة ومرآة الصحافة والتى تصل للمتلقى دون تفاصيل. ولاسبيل فى ذلك سوى إضفاء العمق التاريخى الخاص بهذه الأحداث عليها، وذلك من خلال رحلة قصيرة عبر الزمان. وبدون ذلك يصبح كل شىء غير مفهوم. ومرجعية ذلك أن المنطقة الجغرافية الواقعة مابين البحر المتوسط، مرورًا بإيران، حتى أفغانستان لايمكن النظر إليها بنظرة سوى أنها تمثل وحدة واحدة ؛ تلك المنطقة التى وصفتها الولايات المتحدة على الأخص، بسبب منابع الطاقة على بحر قزوين، ووفرة النفط، بأنها ذات أهمية بالغة من الناحية الجغرافية الاستراتيجية.

فإذا تأملنا بؤر التوتر فى فلسطين التاريخية وفى العراق ونظرنا إلى الموقف الغامض حول إيران أو الصراع فى أفغانستان، نظرة انعزالية لكل واحدة منها على حدة، فإن تفسير الأحداث سيشوه وجه الحقيقة على نحو خطير. وقد أكد رئيس وزراء بريطانيا تونى بلير ـ بتلقائية ودون تروٍّ ـ على ضرورة مثل هذه النظرة الكلية، وذلك حين أعلن قبل غزو العراق، فى مارس ٢٠٠٣، أن محاربة صدام حسين من شأنه أن يعمل على حل الصراع بين العرب وإسرائيل. كما أن الرئيس الأمريكى جورج بوش كان قد أعلن أثناء حرب الكويت عام ١٩٩١، أن هزيمة صدام حسين ستؤدى إلى إنهاء الصراع فى فلسطين.

وحيث إن هذا الكتاب لايعالج فقط من بين موضوعاته، النظرة العالمية الإمبريالية القائمة حتى اليوم عن قصد أو غير قصد، والمرتبطة بالمركزية الأوروبية، بل يدخل فى مضمونه أيضًا، تأمل الأثر الذى تحدثه سياسة القوى الغربية حتى اليوم، على الدول المعنية، ولايرجع السبب فى هذا التناول إلى أن

المؤلف يعيش فى القاهرة منذ سنوات، إذ إنه بدون تغيير زاوية رؤية المشكلة من منظور الخط الفاصل حضاريًا وثقافيًا، وإذا شئنا القول من الجانب الآخر للجبهة الاستعمارية، فإن عرض الأحداث الخاص بالمئوية السابقة، سيظل أحادى الجانب فى استعراضه لأحداث التاريخ.

وفى مقدور قارئ الكتاب أن يستنتج تلقائيًا أننا لسنا بصدد إضفاء سمات البطولة على شعوب مقهورة أو محكومة، كذلك يمكنه أن يفهم أن ماورد بالكتاب من تحليلات لا تعبر إلا عن الآراء الشخصية لمؤلفه.

هايكو فلوتاو

القاهرة فى يناير ٢٠٠٤

الجزء الأول

نبذة تاريخية
عن عمليات التحرير الإمبريالية

الفصل الأول

من أوريان الثانى حتى بوش الثانى

«إن ثمة ظاهرة تطبع التاريخ بأسره، دون ارتباط بالزمان والمكان، وهى أن الحكومات والحكام يمارسون سياسات تخالف مصالحهم الشخصية. ففى فن ممارسة الحكم، كما يبدو ذلك، تتراجع إنجازات الإنسانية، بعيدًا وراء ما حققته فى جميع المجالات الأخرى تقريبًا.

فلماذا يصر أصحاب المناصب العليا غالبًا على مسلكهم الذى يناقض العقل ويعارض مصلحتهم الشخصية الواضحة؟».

باربارا توخمان

حماقة الحكام ـ من طروادة حتى فيتنام ١٩٨٤

هناك كلمات تحدث رنينًا فريدًا من نوعه، وتبدو كما لو أنها قادرة على صنع التاريخ مرة واحدة. «ياأهل بغداد، تذكروا معى أجيالا، ذاقت ألوانًا من المعاناة تحت وطأة المستبدين الأجانب ... فلا يمكن للسلام وأسباب التقدم فى الحياة أن تزدهر فى ظل حكم يسوده القهر وسوء الإدارة».

كان من المفترض أن تكون هذه الكلمات الجديرة بالتذكرة نذيرًا لأهل بغداد للإعلان عن الخلاص من استبداد طال زمانه، وبداية عهد جديد. إلا أنها لم تكن وليدة إبريل من عام ٢٠٠٣.

إن مؤلف هذه الدعوة الذى كان من المفترض أن يقود شعب بلاد الرافدين إلى عهد جديد سعيد، هو مارك سايكس وهو أحد كبار موظفى الخارجية البريطانية. وقد بشر بقدوم العصر الذهبى السير ستانلى مود، القائد الأعلى للقوات الإنجليزية الذى دخلت قواته بغداد فى مارس عام ١٩١٧، أى قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى.

والكلمات التى تعبر عن تحرير العراق تطل علينا اليوم من جديد، فقد

صارت من المكونات الأولى لأى خطاب يلقيه الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش، مثل ذلك الذى ألقاه فى ٢٦ فبراير٢٠٠٣ ـ عشرون يومًا قبل بداية حرب جديدة ضد العراق ـ أمام أعضاء «معهد المشروع الأمريكى» (أمريكان انتربرايز) فى واشنطون. وقد كان الهدف من هذا المعهد ـ الذى أنشئ أثناء الحرب العالمية الثانية ـ نشر القيم الأمريكية عن الحرية والديمقراطية، مواجهة الهجوم العسكرى لألمانيا النازية على دول الجوار وردًا على المحرقة النازية. وبعد مرور ستة عقود، حدد مجموعة من السياسيين الإعلاميين من المحافظين الجدد ـ وعلى رأسهم ريتشارد بيرل ـ الاتجاه الأيديولوجى للمعهد. وقد اعترف بيرل أنه كان أحد القوى المحركة التى دفعت حكومة بوش إلى غزو العراق.

وقد كيَّل جورج بوش فى خطابه كلمات الثناء والمديح للحاضرين، وكان من بينهم بعض أفضل أصحاب العقول والمفكرين بأمريكا. كما استخدم الرئيس أساليب الرياء والنفاق التى تفتح شهية المحافظين الجدد على طعام العشاء، ولكنها بالنسبة لأهل البلاد الواقعة بين القاهرة وكابول، وبين إسطنبول وعدن، قلما تجد صدى حسنًا، لأن التاريخ يذكر دائمًا أنه حين يزحف حكام الغرب نحو الشرق رافعين شعارات من الحرية والتحرير، كانت أهدافهم لاتخرج عن أهدافهم الحقيقية ذات الطبيعة الدنيوية الخالصة.

وقد قال بوش إن فى العراق طاغية يخفى أسلحة مخيفة، ويريد أن يسيطر على مقدرات الأمور فى الشرق الأوسط، ويهدد بها «العالم المتحضر»، علينا أن نواجه الخطر. وقد أقسم بذلك بوش لأعضاء مصنع الفكر المحافظ، وذكر أن «عراقًا حرًا» سيتيح لشعوب هذه «المنطقة الإستراتيجية» حياة أفضل من تلك التى يعيشونها، وقد أكد جورج دبليو بوش لمستمعيه أن الجيش الأمريكى لن يبقى يومًا واحدًا فى العراق أطول مما هو ضرورى. وحقيقة الأمر أن تحرير ٢٣ مليون عراقى من نير استبداد صدام حسين لم يكن على الإطلاق هو الهدف الأساسى للحملة الأمريكية التى تحمل شعار « حرية العراق».

فقبل خطابه بشهر كامل، وبالأحرى يوم ٢١ يناير ٢٠٠٣، قام جورج فريدمان، وهو صاحب مؤسسة «رؤى إستراتيجية» الإعلامية، بوضع التحليل التالى بين يدى جمهوره:

إن هجومًا عسكريًا على العراق سيغلق الباب أمام أى حليف محتمل لأسامة ابن لادن، كما أن احتلال العراق سيخلق الفرصة المناسبة لأن تتمركز القوات الأمريكية « فى القلب الإستراتيجى للشرق الأوسط». وفى نهاية المطاف فإن احتلال العراق من شأنه العمل على إضعاف نظم الحكم القائمة بالمنطقة التى تدعم القاعدة بشكل مباشر أو غير مباشر![1].

التحرير ـ تغيير نظم الحكم

بالنظر إلى هذه الأهداف السياسية الحقيقية التى افتضح أمرها بالمنطقة رويدًا رويدًا، لم تجد كلمات مثل المدنية والتحرير والوعود أو مثل تحقيق حياة أفضل للعراقيين، آذانًا مُصغية لدى العرب؛ وذلك لأن التاريخ قد أوضح للجميع أن النظام الجديد الذى صنعه وأدار سيناريوهاته غزاة من الغرب فى الشرق، هو دائمًا نظام يخدم من الدرجة الأولى مصالح المحرِّرين أكثر من المحرَّرين، كما يدعون.

«يا أهل بغداد، تذكروا معى أجيالاً ذاقت ألوانًا من المعاناة تحت وطأة المستبدين الأجانب»، بهذه الرسالة المستشهد بها فى مطلع هذه السطور قدم كل من مارك سايكس والقائد ستانلى مود فى الثامن من مارس عام ١٩١٧ سابقة تاريخية. إن «جورج دبليو بوش» ذلك الزمان كان يسمى دافيد لويد جورج، وكان يعتلى منصب رئيس وزراء بريطانيا. وقد لعب تومى فرانك، وهو القائد الأعلى لقوات التحالف فى حرب العراق ٢٠٠٣، دور البريطانى ستانلى مود عام ١٩١٧. وكذلك كان لدينا شخصية جى جارنر وشخصية بول بريمر بالفعل قبل ٨٦ عامًا من قيام حرب العراق ٢٠٠٣. وكان المنسق البريطانى لشئون العراق يدعى فى ذلك الوقت فى البداية «أرنولد ولسون»، وبعدها تسمى بلقب «بيرسى كوكس»، إلا أن مهمته، على الأقل فيما بعد، كانت أكثر تعقيدًا عن مهمة جارنر وبريمر. ولم يكن هناك فى ذلك الوقت، أى فى الثامن من مارس ١٩١٧، وجود لدولة تسمى العراق بعد. وانحصرت مهمة ولسون وكوكس فى الخروج بادئ ذى بدء بهذه الدولة على أنقاض ماستخلفه تركة الدولة العثمانية متعددة الولايات التى أوشكت على الانهيار والتصدع فى ذلك الوقت، وبالإضافة لذلك فإنه بهزيمة ألمانيا أصبح مصير الدولة العثمانية الواهية آخذًا فى الأفول، وهو أمر كان منذ عشرات السنين محتومًا.

وهناك عبارات أخرى لإعلان بغداد صدرت عن مارك سايكس والقائد ستانلى مود، ولامانع من أن يستعين بها كل من جورج بوش وتونى بلير، كمرجع لهما فى خطبهما. فقد قال مود على سبيل المثال : «إن عملياتنا الحربية تضع نصب أعينها هزيمة العدو، ولتحقيق هذه المهمة، فقد تم تكليفى بالرقابة العليا والمطلقة على جميع أركان المناطق التى تجرى القوات الإنجليزية عملياتها على أراضيها ؛ ولكن جيوشنا لم تأت بصفتها جيوشًا محتلة، بل بصفتها جيوشًا محررة، إن ذلك لم يكن رغبة الملكية البريطانية، بل رغبة جميع الأمم الكبرى التى عقد ملكنا تحالفات معها، وكل ذلك من أجلكم (شعب بلاد الرافدين) ومن أجل حياة كريمة، كما كانت فى الماضى حين كانت بلادكم مزدهرة، وحين صدر أسلافكم للعالم العلوم والآداب والفنون، وحين كانت بغداد إحدى عجائب الدنيا.»[٢].

وقد امتدح ستانلى مود، مثلما فعل جورج بوش بعد مرور ٨٦ عامًا، الإنجازات الحضارية لشعب بلاد الرافدين. وكما جاء تومى فرانكس، القائد الأعلى لقوات التحالف بعد ٨٦ عامًا، فقد جاء ستانلى مود من قبل بصفته «محررًا».

استعملت كلمة المحررين فى ذلك الوقت بشكل تضخمى تمامًا كما تستخدم فى أيامنا هذه. فبعد مرور تسعة أشهر من إعلان بغداد الخاص بستانلى مود، فتح الجنرال الإنجليزى المنتصر سير إدموند اللنبى، فى الثامن من ديسمبر ١٩١٧ معبرًا يؤدى إلى القدس المنزوعة من العثمانيين. وقد بدا اللنبى وكأنه على وعى ودراية بالتاريخ ـ كما بدا وكأنه على اقتناع بتحقيق النصر النهائى للغرب على الشرق: «اليوم وصلت الحروب الصليبية إلى نهايتها»[٣].

وقد كتبت برتا سبافورد فيستر، وهى من «الجالية الأمريكية» فى القدس ومركز التبشير البروتستانتى الذى تم تأسيسه فى بضع عقود قليلة قبل ذلك، فى مذكراتها مايلى: «اعتقدنا آنذاك أننا نعايش الانتصار فى آخر حرب صليبية، فلقد احتلت أمة صليبية القدس»[٤].

وبعد ثلاث سنوات، بالأحرى يوم ٢٦ يوليه ١٩٢٠، احتل الفرنسيون دمشق، وقاموا بطرد الملك فيصل المعين من قبل المنافسين المستعمرين الإنجليز ببريطانيا.

وبعد فترة وجيزة وقف القائد الأعلى للقوات الفرنسية، الجنرال هنرى جوراد،

أمام ضريح القائد العربى العظيم ورجل الدولة صلاح الدين (المعروف فى الغرب باسم صلادين)، وهو مبنى صغير، إلا أنه فى غاية الروعة ويقع بجوار المسجد الأموى الشهير فى الحى التاريخى القديم بدمشق. فوقف الجنرال القادم من الغرب دون حراك ولمدة بضع ثوان أمام لحد من سبقه وكان أكثر شهرة منه بقليل. وفى تحد وعناد وثقة المنتصر بنفسه استحضر الفرنسى على الفور فى فكره الأبعاد التاريخية، ونطق بقوله: «ياصلاح الدين.. لقد عدنا»[٥].

صلاح الدين ـ الحروب الصليبية ـ الغرب ـ الشرق ـ القدس:

إن لتلك المفاهيم وقعها السحرى فى السجال الممتد عبر مئات القرون بين الغرب المسيحى والعالم الإسلامى، إلا أن هناك تفاوتًا شديدًا فى درجة الإيقاع بين الجانبين، فهى فى ذاكرة الغربى مرتبطة باسترجاع الأماكن المقدسة المسيحية التى فقدها فى مواجهته للدين الإسلامى، أما بالنسبة لدلالتها فى الشرق فإن هذه المفاهيم يقصد بها فى مقابل ذلك الخضوع والإذلال تحت وطأة من لايعرف الرحمة.

لقد اكتملت أولى حلقات الفصول الأولى من محاولات التحرير الغربية فى أواخر العصور الوسطى بأوروبا. وفى ذلك الوقت تم سك إحدى المفردات ذات الدلالة التى لايزال وقعها تقشعر منه الأبدان حتى اليوم فى الشرق الأوسط، فقد أعلن البابا أوربان الثانى فى عام ١٠٩٥ أثناء انعقاد اجتماع زعماء الكنائس بسليرمون، فكرته عن «حرب صليبية» وعن حرب مقدسة للمسيحيين، تهدف إلى تحرير القدس من نير المسلمين.

فمسيحية الغرب عليها أن تنطلق تجاه الشرق لإنقاذه، وحين يشارك الفقير والغنى فى هذه الحرب العادلة، يكون بذلك قد لبى إرادة الرب؛ هكذا كانت دعوة البابا لأصحاب القداسة والألقاب الكنسية المجتمعين.

وتخلل خطاب الراعى الأكبر هتافات بين الفينة والأخرى تردد عبارة: «إنها إرادة الرب»[٦].

لم يكن سلوك الجيوش والحشود التى بارك تحركها البابا حينئذ، رغم ذلك، يتوافق مع تعاليم المسيحية. فالمسئولون عن احتلال القدس فى الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ لو كانوا فى أيامنا هذه لحوكموا من قبل أى محكمة لجرائم الحرب.

وقد وصف الكاتب اللبنانى أمين معلوف[٧] احتلال القدس على يد «المحررين» البابويين، بقوله : «لقد ارتعشت فرائس الفارين طويلاً، حين تحدثوا عن سقوط المدينة، وتحجرت عيونهم فى الأفق اللامتناهى، بمجرد أن شاهدوا المحاربين الشقر المسلحين تسليحًا كاملاً يهرعون فى الشوارع، ويحملون سيوفهم فى أيديهم، يذبحون الرجال والنساء والأطفال، ويحرقون المنازل، ويهدمون المساجد. ولم يبق على قيد الحياة بالمدينة فى خلال يومين مسلمًا واحدًا».

وفى نشوة أفراحهم فى عام ١٠٩٩، ألّف المحتلون القادمون من الغرب أغنية تغنوا بها بكل جوارحهم فى حماس: «سيول الدماء كالأنهار/ ولا ملل لنا ليل نهار/اطعنوا شعب الخطيئة/ وافرحى ياقدس الأنوار/ فأحجار المعبد يغطيها أرجل القتلى/ والموتى فى كل مكان/ وافرحى ياقدس الأنوار/ وألقوا بهم فى نار السعير/ هللوا بالفرحة أيها الأبرار/ من سيول دماء الأشرار/ وافرحى ياقدس الأنوار»[٨].

وفى مقابل ذلك، كما كتب أمين معلوف، فإن الفاتح المسلم الأول للقدس، أى الخليفة عمر بن الخطاب، قد أسبغ الرحمة على المدينة، وعفا عن أهلها، حين توغل بجيوشه عام ٦٣٨ إلى القدس، كما طلب من البطريرك سوفرنيوس أن يقتاده فى المدينة. ثم افترش سجادة صلاته خارج كنيسة القيامة، إلا أن الكنيسة ظلت فى حوزة المسيحيين، وبقى من كان مسيحيًا على عقيدته فى طمأنينة وأمان، وكذلك كان مسلك صلاح الدين حين أعاد احتلاله للقدس عام ١١٨٧. والمؤرخ ستيفين رونسيمان، الذى يعد خبيرًا فى شئون الحروب الصليبية، امتدح جيوش المسلمين بكلماته فى قوله: «إنهم سلكوا مسلكًا «صحيحًا وإنسانيًا».

«وفى نفس المكان الذى كان الفرنجة فيه قبل ٨٨ عامًا من هذا التاريخ قد تلوثت فيه أيديهم بدماء الضحايا، لم يتعرض مبنى واحد لعمليات السلب والنهب، ولم يصب فرد واحد بأذى».

وهكذا أصبح صلاح الدين إحدى الشخصيات النورانية النادرة التى يمكن للرأى العام فى الغرب أن يكتشفها فى الشرق الإسلامى المعتم عبر مئات السنين. وحتى كلمات هنرى جوراد العنيدة عند لحد القائد العسكرى المسلم فى دمشق لا تستطيع أن تغير من هذا التقييم شيئًا.

ونصل إلى مستعمر جديد جاء من الغرب وتحدث أيضًا عن التحرير، إلا أن

نواياه كانت تتجه إلى أغراضه النفعية الخالصة، وهو نابليون بونابرت، الذى خرج من عباءة الثورة الفرنسية. فحين نزل بأسطوله الحربى الضخم بأبى قير الواقعة على الشواطئ المصرية بالبحر المتوسط عام ١٧٩٨، وكان ذلك بعد مرور سبعمائة عام بالتمام والكمال على استحواذ فرسان الصليب على القدس، فقد حقق بذلك حلم الثورة الفرنسية، وهدف من أهدافها الأيديولوجية العليا الخاصة بالاستيلاء على بلد بعيد. إلا أن نابليون حاول، كما يتضح بعد ذلك، أن يداهن أهل المكان المحتل باستخدامه لعبارات ومفردات من صميم عقيدتهم الإسلامية:

«بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله». ولأنه يعلم علم اليقين أن المسلمين يعتبرون عقيدة التثليث فى المسيحية من ألوان الشرك بالله والوثنية، فقد أضاف فى خطابه عبارة «ولم يتخذ ولدا». كذلك طالبه الشيوخ والقضاة وعلماء الأزهر أن يعلن على الشعب المصرى أن «الفرنسيين أيضًا مسلمون بحق»[٩].

وفى نهاية الأمر أعلن نابليون عن برنامجه الاستعمارى الفرنسى:

«ومن جانب فرنسا، التى تؤمن بمبادئ الحرية والمساواة فإن القائد الأعلى للقوات المسلحة وقائد الجيوش الفرنسية، بونابرت، يعلن على شعب مصر بأكمله، أن السادة الذين يحكمون مصر، لم يحترموا قوانين وحقوق الأمة الفرنسية وأضروا بها، كما ناصبوا من تعامل معهم فى التجارة العداء، وألحقوا بهم ألوان الذل والظلم».

ووعد المستعمر القادم من الغرب أهل البلاد بنعيم الحضارة الأوروبية، كما توعد فى نفس الوقت باللجوء إلى السيف، وخاطب الأهالى مهددًا أن كل قرية ستقف فى وجه الجيش الفرنسى ستسحق «بإشعال النيران» بها.

ووفقًا لهذا النموذج من التصرف والسلوك الذى تكرر فيما بعد العمل به، بدأت قبل مائتى عام حقبة جديدة من تلاق أو مواجهة بين الغرب والعالم الشرقى الذى يسوده الجمود والركود إلى حد بعيد. فقد دفعت الأقدار نابليون فى حربه ضد إنجلترا إلى مصر التى كانت تخضع اسميًا للدولة العثمانية، وأراد الفرنسى بذلك أن يغلق على الإنجليز أبواب الوصول إلى مستعمراتهم بالهند أو على أقل تقدير العمل على تضييق الخناق على كثير من القوى البريطانية بقدر الإمكان، حتى يمكن إضعاف الخصم على الصعيد القومى الأوروبى.

اصطحب نابليون فى حملته إلى الشرق فريقًا كاملاً من العلماء فى هيئة بعثة

استكشافية. وأمر الرجل العسكرى القادم من الغرب بدراسة الحضارة الفرعونية (وكذلك الإسلامية) على أرض مصر، وأصبح بذلك مؤسسًا لعلم المصريات، وأخذت آلاف من القطع الأثرية طريقها إلى متاحف فرنسا، وتحولت حضارة كاملة إلى غنائم مستباحة للغرب.

وجد احتلال نابليون لمصر من يدافع عنه ويبرره، ونحسب من بين هؤلاء فى نهاية القرن الثامن عشر شارل ـ موريس تاليراند، وهو أشهر رجل دولة فى فرنسا فى تلك الآونة، إذ قال إن مصر كانت فى يوم من الأيام ولاية للجمهورية الرومانية، والآن تصير ولاية للجمهورية الفرنسية. هكذا كتب تاليراند فى مذكرته إلى مجلس رئاسة الجمهورية. وذكر فيها : كان عصر احتلال الرومان يسير نحو الانحطاط ، أما احتلال فرنسا لمصر فهو عصر الازدهار.

وكنظرة أهل القدس قديمًا، فإن سكان القاهرة كذلك نظروا للزائرين القادمين من الغرب دون استئذان بعيون أخرى، ويشهد على ذلك ماكتبه عبدالرحمن الجبرتى، أحد وجهاء القاهرة، فى وصفه التاريخى الشامل لفترة الاحتلال الفرنسى لمصر. فهو لم ينتقد العجز البين للغة العربية السيئة فى إعلان نابليون إلى المصريين فحسب، بل تساءل عن الأسباب التى تجعل شخصًا غير مؤمن إلى أن يسىء استخدام شهادة المسلمين لصالح أغراضه الإمبريالية، وأن يتحدث «ادعاء» عن «القرآن المجيد» وأن الفرنسيين هم المسلمون حقًا! وقد ذكر الجبرتى فى تاريخه: «إن هؤلاء القوم ضد العقيدة المسيحية والعقيدة الإسلامية على حد سواء، وهم لايدينون بدين، ويرى كل منا فيهم أنهم يدينون بالمذهب المادى». كما وصف الجبرتى فترة احتلال القاهرة فى ٢٢ يوليو ١٧٩٨ على النحو التالى:

«كان ذلك العام الأول من مذبحة آخر الزمان، وشدة صروفه وابتلاءاته، حيث تنصب على رؤوسنا الأحداث حتى تصفر وجوهنا، فتضاعف السوء والكرب، وانقلبت الأمور رأسًا على عقب، وتوالت الكوارث وسوء المنقلب، وكثرت غِيَرُ الدهر، ولم يعد هناك ما هو طبيعى، ولم يبق شىء دون ثورة وهياج، وتتابعت صور القبح، وعم الدمار والاضطراب والاستياء والامتعاض كل مكان، فقد شاءت الأقدار أن يدمر الطغاة القرى وينتزعون الراحة والأمان عن رجالاتها»[١٠].

اضطر نابليون أن يقطع رحلة مغامراته بمصر عام ١٧٩٩، ولكن رغم تشاؤم رجل مثل الجبرتى، إلا أن الحملة الاستكشافية التى جاءت من فرنسا الثورية، قد

تركت آثارها العميقة فى مصر، فسرعان ما نجد مصريين قد شدوا رحالهم إلى الغرب حتى يدرسوا إنجازات الحضارة الغربية. ولم تكن حملة نابليون سببًا يطرح على أهل الشرق مسألة كيفية صد هجمات الجيوش الغربية فحسب، بل جعلت الشرق يقف أيضًا منذ نابليون أمام مشكلة كيفية التعامل مع الحضارة الغربية بما تحمله من مفاهيم عن الديمقراطية وفصل الدين عن الدولة والعلمانية (انظر فى ذلك الفصل الحادى عشر).

فى خطابه أمام «المؤسسة القومية للديمقراطية»، أعلن الرئيس جورج بوش فى مطلع نوفمبر ٢٠٠٣ عن دمقرطة الشرق الأوسط، وبكل تأكيد سيقابل مثل ذلك التغيير فى نظم الحكم، بالحفاوة والترحاب من الكثيرين، إلا أن للبشر ذاكرة جيدة، فما يرغبون فيه على وجه الخصوص هو التحرر من السيادة الغربية التى طال عمرها عشرات السنين. فمن المؤلم أن يتذكر أولئك البشر تقسيم المنطقة إلى مناطق نفوذ تابعة للإنجليز وأخرى للفرنسيين بعد الحرب العالمية الأولى، ويومًا بعد يوم يعايشون ما تقوم به أمريكا ـ مادام أن ذلك يصب فى مصلحتها ـ من تدعيم نظم الحكم الأوتقراطية، التى تحول دون حرية رفاهية هؤلاء البشر. والآن، وبعد أن تمخض عن هذه النظم الإرهاب، فإن أمريكا تبحث فى الديمقراطية عن وسيلة مضادة للعنف، ولأن المهمة الأولى لحملتها الصليبية هى الحرب على الإرهاب، فقد استغنت أمريكا فى هذه الحملة من أجل الديمقراطية وتغيير نظم الحكم، من وجهة نظر هؤلاء الناس بالقاهرة والرياض ودمشق وبغداد، عن معانى الشرف والنزاهة.

على أنه فى سياق التلاقى بين الغرب والشرق تطرح عملية تصدير الديمقراطية التى خطط لها جورج بوش على هؤلاء البشر بالعالم العربى الإسلامى مرارًا وتكرارًا قضية وجودية، وهى: كيف يمكن التصدى للهجمة الغربية ـ والأمريكية على وجه الخصوص ـ والتى يطلق عليها البعض الإمبريالية الحضارية؟

الفصل الثانى

نظام عالمى جديد - نظام عالمى قديم

«سعت فرنسا وبريطانيا فى حروبهما بالشرق، والتى لجأتا إليها اضطرارًا نظرًا لطموحات وأطماع ألمانيا، وراء هدف التحرير الكامل والنهائى لشعوب الشرق، التى طالما رزحت تحت وطأة وقهر الأتراك، وكذلك العمل على تعيين الحكومات والإدارات التى تستقى سلطتها من الممارسة الحرة لحق أهل البلاد فى التصويت البرلمانى».

من بيان الإنجليز والفرنسيين الخاص
بأهداف الحرب فى الشرق. بتاريخ ٧ نوفمبر ١٩١٨[1]

وكما يتضح من العودة إلى ذاكرة التاريخ باختصار فإن مشروع تغيير نظم الحكم ليست على الإطلاق وليدة فكر الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش، فالمحاولات المتعلقة بإعادة تشكيل الشرق الأدنى والأوسط، بحيث تقوم على خدمة دول الشرق للمصالح الغربية، لاتعد ولاتحصى.

وترجع أولى هذه المحاولات من حيث شموليتها وعواقبها الوخيمة إلى سنوات الحرب العالمية الأولى، فقد انهارت الدولة العثمانية، ومن ثم كان يتعين على القوى الغربية المنتصرة تدبير شئون التركة الموروثة. ففى بغداد دعا الفريق ستانلى مود المواطنين عام ١٩١٧ إلى التعاون معه، ولكن لو علم هؤلاء حينئذ على الفور، من هو مؤلف تلك الرسالة الشافية، لازدادت شكوكهم بدرجة بالغة تجاه المنقذ القادم من الغرب. ومرجعية ذلك أن مارك سايكس وهو مؤلف البيان الإعلانى لبغداد، قام فى عام ١٩١٦ من سنوات الحرب العالمية بالاشتراك مع الفرنسى جورج بيكو، برسم الخطوط العريضة فى اتفاقية سرية لنظام جديد لايولى على الإطلاق ثمة أهمية للآمال العربية فى إقامة دولة موحدة على الأراضى الإقليمية العربية مع الدولة العثمانية.

وخضعت الاتفاقية بجانب سايكس وبيكو إلى مساومة روسيا ويمثلها وزير

خارجيتها سرجى سازونوف، ونصت الاتفاقية على أن يكون لفرنسا السيادة العليا على المناطق الواقعة اليوم جغرافيًا فى لبنان وسوريا، كما تخضع المنطقة الحالية بأراضى الأردن والعراق إلى النفوذ البريطانى. أما ما يتعلق بالقدس، فقد نصت الاتفاقية على أن تكون تحت إدارة دولية، كما أقرت الاتفاقية بحق بريطانيا العظمى فى المنطقة الخاصة بثغر حيفا، وكان يقصد بذلك فلسطين، (وقد قام الإنجليز فيما بعد بإنشاء خط إمداد النفط من مدينة النفط العراقية كركوك مباشرة إلى ميناء حيفا). وعلى الرغم من أن الاتفاقية السرية تحدثت عن دولة عربية تحت حكم الأسرة الهاشمية الحاكمة بمكة، ولكن حقيقة الأمر أن هذه الدولة خطط لها أن تخضع لسيادة إنجلترا وفرنسا.

أما روسيا فقد خرجت من هذه الاتفاقية بحقها فى الاستيلاء على إسطنبول، عاصمة الدولة العثمانية، واحتلالها لضفتى البوسفور، وبالتوقيع على الاتفاقية فقد اعتقدت روسيا القيصرية خطأً أنها على مقربة من هدف طال اشتياقها إليه، وهو أن يكون لها منفذًا إلى البحر المتوسط، على أن هذه الاتفاقية السرية فى جميع جوانبها «لاتمت بأى اتفاق بشأن الوعود التى أعطيت من قبل للعرب»[٢]، لأنه فى الوقت الذى دارت فيه المفاوضات بين سايكس وبيكو وسازونوف على تقسيم العالم العربى، كان المندوب السامى البريطانى بمصر، السير هنرى مكماهون، قد منح العرب وعدًا طال انتظاره؛ ففى خطاب موجه إلى الشريف حسين، شريف مكة، كتب مكماهون أن بريطانيا العظمى تشارك تصورات العرب فى الرأى الخاص بإقامة دولة مستقلة، ووفقًا لخطط الشريف حسين فإن هذه الدولة ستضم شبه الجزيرة العربية بأكملها ودولة الكويت الحالية والقدس وعمان وبغداد ودمشق وحماة وحمص وحلب.

ومن الناحية العملية فإن هذه الدولة كان لها أن تضم جميع المناطق العربية المحورية، ماعدا الشريط الساحلى حول المناطق التركية الحالية فى مرسين والإسكندرونة (ومن الطبيعى باستثناء مصر المحتلة من قبل بريطانيا). وقد كتب السير هنرى مكماهون فى رسالة بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ إلى شريف مكة: «إن بريطانيا على استعداد لأن تعترف باستقلال العرب وتدعيمهم»[٣].

ولم يف مكماهون على الإطلاق بوعوده، فحين وعد مكماهون العرب بإقامة دولة، كان هناك اعتقاد فى مناصرة العرب للحلفاء فى الحرب ضد الأتراك، لاسيما ما وعد به الشريف حسين الإنجليز بمد يد العون لقيادة جيش التحالف فى

الشرق الأدنى عن طريق تنظيم انتفاضة عربية ضد الأتراك، وقد اندلعت بالفعل هذه الانتفاضة عام ١٩١٦، وكانت فى واقع الأمر انتفاضة مدعومة من قبل ت.ى. لورانس (لورانس العرب) وهو مغامر وضابط مخابرات إنجليزى، ولكن بعد احتلال بغداد والقدس ودمشق لم يعد هناك تفكير لدى العواصم الغربية على الإطلاق فى الوعود التى اتفق عليها أثناء الحرب بشأن تقرير المصير العربى حتى إن رجلاً فى مقام لورانس الذى يوصف فى الأدب بالرومانسى وصديق العرب، لم يشغل باله كثيرًا بفكرة الاستقلال القومى للعرب، كما أعلن ذلك يوم ٥ ديسمبر ١٩١٨ على ملأ من بعض الوزراء البريطانيين.

وقد سجل لورانس فى أحد المحاضر قوله بأن تقرير المصير من جوانب متعددة «فكرة حمقاء»، وأنه يمكن على كل حال الاعتراف بحق الحرية لتلك الشعوب التى وقفت بجانب الإنجليز فى حربها ضد الأتراك، ولكن العرب الذين وقفوا فى وجه الإنجلين، فلا يستحقون بأى حال من الأحوال ذلك الحق، وعليهم أن يقرروا بأنفسهم مصيرهم السياسى. أعلن ذلك الضابط الذى أسبغ عليه الاسم الرومانسى «لورانس العرب».

وقد شخص سكرتير مجلس الوزراء البريطانى موريس هنكى فى مذكراته بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٢٠ كيف صنع تاريخ الشرق الأدنى، حينما قال:

«وصل كليمنصو بعد وقف إطلاق النار إلى هنا (أى لندن) وقد استقبل بترحاب بالغ وتم تكريمه على المستويين العسكرى والعام، ثم توجه كل من لويد جورج وكليمنصو إلى السفارة الفرنسية، وحينما كانا منفردين، قال كليمنصو: «والآن عن أى شىء تريدنا أن نتناقش؟».

«عن بلاد الرافدين وفلسطين»، أجابه بذلك لويد جورج. فرد عليه كليمنصو قائلاً:

«قل لى ماذا تريد؟» وأجاب لويد جورج: «أريد الموصل» فقال كليمنصو: «أتريدها... وهل هناك شىء آخر؟» فاستطرد لويد جورج قائلاً: «أريد القدس أيضًا».

فأجابه كليمنصو: «وتريد القدس».

لم يملك مؤلف هذه اليوميات الخاصة إلا أن يجيبه بجفاء بقوله: «وهكذا يصنع التاريخ»[٤].

وصايـة «الشـعوب المتقـدمـة»

لم يكن فى استطاعة العرب تغيير مصيرهم - على الرغم من أن فيصل، ابن الشريف حسين وملك العراق فيما بعد، قد خاض تجربة عظيمة أثناء حضوره مؤتمر السلام بباريس، فعند ظهوره على الساحة الدولية فى باريس كان يرتدى الملابس العربية التقليدية وبصحبة لورانس الذى قدّم نفسه كذلك فى شكل ومظهر البدوى القادم من الصحراء. وكان مظهرهما الغريب مثارًا لتعجب وإثارة مشاعر المجتمع الدبلوماسى الأوروبى.

وقد دافع لورانس عن الاستقلال العربى الذى كان قد وصفه قبل ذلك بشهرين فى الأوساط المقربة إليه بالحماقة، وتحلى حديث فيصل بكرامة كل أمير عربى من بدو الصحراء، وأقام دليله فى مطالبته بالاستقلال العربى على أساس الإشارة بأن بلاد العرب موطن حضارة ذات قدر، وأنه ينبغى على جميع خلق الله فى الأرض التحلى بمعرفة اللغة العربية الأم، وأن جميعهم ينحدرون من الجنس السامى وأن القبائل العربية قد وقفت إلى جانب الحلفاء ضد الأتراك(٥).

وحين اعترض أحد أعضاء الوفد الغربى بقوله إن العرب ليسوا شعوب حضارة وثقافة. وصل الأمر إلى مايشبه الفضيحة الدبلوماسية، وتصدى فيصل لهذا الادعاء الأوروبى بكل قوة وتمسك برأيه فى أنه ينتمى لشعب كان يملك ذات يوم أسباب الحضارة، وقادم من بلد كأى بلد آخر ممثل فى هذه القاعة لايزال يسكنها برابرة».

وقد فسر رئيس وزراء إيطاليا فيتوريو إمانويل أورلاندو مقولة هذا العربى المعتد بنفسه، بأنها هجوم على روما القديمة. ولكن فيصل الفخور بذاته وأصله تمسك برأيه ورد على ذلك بقوله :

«نعم، وأيضًا حين لم يكن هناك وجود لروما فى التاريخ»(٦).

إلا أن كافة الجهود لم تثمر عن شىء، ففى الثامن من يناير ١٩١٨ أعلن الرئيس الأمريكى ودرو ويلسون فى بيانه المكون من أربعة عشر بندًا - والذى اشتهر فيما بعد - عن رفضه القاطع لابرام اتفاقيات سرية ومفاوضات سرية بين الشعوب، وطالب بتحرير التجارة العالمية، وإزالة الحواجز الاقتصادية، ونزع السلاح فى كل مكان. كما وافق فى البند رقم ١٢ على منح القسم التركى من الدولة العثمانية «استقلالاً مؤكدًا» وعلى منح الأمن للشعوب الأخرى وتطورها

دون فرض قيود على استقلالها. ورغم ذلك صار الأمر على عكس ذلك، ورجحت كفة الأحكام المسبقة ـ ومصالح القوى المنتصرة.

وقد أعرب اللورد كرومر، المعتمد البريطاني في مصر في الفترة من ١٨٨٣ حتى ١٩٠٧، عن رأيه بأن «المسلمين لا يعقدون الأمل بالمرة على أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم»[٧].

وقد تم تقسيم العرب في دستور عصبة الأمم التي تأسست في ٢٨ يونيو ١٩١٩ والتي سبقت الأمم المتحدة، وفقًا لتلك التصورات تحت تلك الصنف من الشعوب «غير القادرة بعد على الأخذ بزمام أمورها بأنفسها في إطار الشروط الصارمة للعالم الجديد»، كما نصت المادة ٢٢ الشهيرة، وقد ورد في هذه المادة أن رفاهية وتطور هذه الشعوب هو «الهدف المقدس للحضارة»، وأن أفضل وسيلة لتحقيق ذلك الهدف هو أن يعهد بفرض «الوصاية على تلك الشعوب للأمم المتقدمة»، وهي التي يمكنها أن تتولى هذه المسؤلية على خير وجه استنادًا إلى مالديها من وسائل وخبرات وموقع جغرافي.

بهذه الكلمات تم اعتماد النظام العالمي الجديد الذي أوجده المنتصرون في الحرب العالية الأولى بمنطقة الشرق الأدنى، واستمر لعشرات السنين. وفي مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠ تم تحديد المناطق الواقعة تحت الانتداب، فحصلت فرنسا بمقتضى ذلك على فرض «الانتداب» على المناطق الخالية بدولتي لبنان وسوريا، كما عهد لإنجلترا بفرض الانتداب على العراق الحالية والضفة الغربية لنهر الأردن وفلسطين، وكان للإنجليز تخطيطاتهم وخططهم الخاصة بشأن فلسطين.

وعلى الرغم من أعداء فيصل السياسيين في مؤتمر السلام من الناحية الاسمية كان كل من حاييم وايزمان، وهو رئيس المؤتمر الصهيوني العالمي، وناحوم سوكولوف، الذي كان رئيس الوفد الصهيوني بباريس بجانب وايزمان، إلا أن القوى الكبرى ممثلة في كل من إنجلترا والولايات المتحدة كانت تقف من الناحية الفعلية خلفهما؛ ففي لقاء خاص بهما مع الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون بتاريخ ١٥ يناير ١٩١٩ استشهد كل منهما من إحدى مذكرات الصهاينة ما يلي: باسم البشرية التي مضى عليها الآن ثمانية عشر قرنًا من العذاب نعرب عن رغبة الاتحاد الصهيوني بعد إبرام السلام في إحاطة إخوانهم في العقيدة في أوكرانيا

وبولندا والمتواجدون فى الأجزاء الأخرى من أوروبا الشرقية بأن «بعض منهم سيتم نقلهم إلى فلسطين بغرض الاستيطان هناك»[٨].

وقد وافقت الإمبراطورية البريطانية بالفعل فى نوفمبر ١٩١٧ على دعم هذا البرنامج الصهيونى. وفى مقابل هذا التفوق السياسى لم يعد أمام الأمير فيصل أى فرصة يمكن استغلالها لصالحه.

تصريـــح بلفـــور

بعد مرور ثمانية أشهر على إعلام الفريق ستانلى مود أهل بغداد فى الثامن من مارس ١٩١٧ بالمنشور الذى وضعه السير مارك سايكس فى لندن - وكان الإنجليز قد جاءوا ليس بوصفهم محتلين، بل محررين للبلاد، نشرت فى لندن فى ذلك الوقت وثيقة ذات عواقب وخيمة حتى الآن. فى هذه الوثيقة التى دخلت التاريخ بوصفها الذى عرفت به وهو «تصريح بلفور»، أكد وزير الخارجية البريطانى اللورد بلفور لأحد زملائه فى العمل من النبلاء وهو اللورد اليهودى روتشيلد أن «حكومة جلالته» تنظر لفكرة إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين «بعين الرضا والاعتبار»، وأضاف أنه لاينبغى القيام بفعل شىء يضر بمصلحة الحقوق الدينية والشعبية لأصحاب البلاد من غير اليهود. واختتم اللورد بلفور خطابه إلى اللورد روتشيلد بقوله: «سأكون فى غاية الامتنان حين تقوم سيادتكم بإبلاغ الاتحاد الصهيونى علما بهذا التصريح»[٩].

وقد كان وقع تصريح أرثر بلفور بمثابة القنبلة الزمنية التى اشتعلت نيرانها فى الشرق الأدنى منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا، فمنذ عام ١٩١٧ حتى اليوم يعد تصريح بلفور بمثابة أحد الأسس الشرعية لإقامة وجود جماعى لليهود، وهذا التصريح يحدد منذ عشرات السنين الأسلوب والكيفية التى يتعامل بها مع السكان المقيمين فى فلسطين، فتصريح بلفور لايتحدث عن «العرب» ولكن عن «تجمعات بشرية غير يهودية من السكان الأصليين»، وبذلك تحددت صفة فى العرب لم تكن فيهم من قبل: أنهم لم يكونوا من اليهود. لقد وهب تصريح بلفور للشعب اليهودى ما هو أكثر من وطن، أى دولة خاصة بهم، فلعل مفهوم كلمة وطن كما طالب به بلفور يقصد به ثمة منطقة يمارس على أرضها مجموعة إثنية نفس الحقوق السياسية والثقافية التى تملكها الأغلبية. ولكن مفهوم كلمة دولة يعنى تحقيق

السيادة على أرض إقليمية، وفوق ذلك السيادة على سكان هذه الأرض الأصليين، كما تجلى ذلك فيما بعد.

لم يرغب جميع اليهود فى تحقيق سيادة دولة على أرض فلسطين؛ ففى عام ١٩١٩ كتب نورمان بنتويتس، وكان يشغل منصب النائب العام فى فلسطين لفترة زمنية تحت قيادة المندوب البريطانى:

«إن السيادة الخاصة بوجود دولة ليست جوهرية لتحقيق الفكرة القومية لليهود. فحرية أن تتطور فى محيطها الخاص بها وفقًا لتراثها الخاص بها هو المطلب الرئيسى، إن لم يكن المطلب بأكمله»(١٠).

وحينما تحول الوطن اليهودى فى فلسطين بالوسائل العسكرية إلى دولة إسرائيل، لاذ بالفرار فى حربى عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧ مايزيد على مليون عربى. وكانت النتيجة هى خروج الاتجاهات القومية العربية من عباءة الاتجاهات القومية اليهودية التى ولدت فى أوروبا فى القرن التاسع عشر. وخرج من العرب الذين عاشوا بالمنطقة الجغرافية بفلسطين، فلسطينيون ذو حس قومى ـ حتى ولو قالت رئيسة وزراء إسرائيل وقتئذ جولدا مائير ما قالته بأنها لا تعرف ما يطلق عليه شعب فلسطين.

لم تدخل آمال السكان الأصليين للبلاد منذ البداية فى حسبان وخطة البريطانيين؛ فقد صرح أرثر بلفور فى مذكرة تقدم بها إلى الحكومة فى لندن بتاريخ ١١ أغسطس ١٩١٩ بقوله: «فى فلسطين لايجول بخاطرنا مناقشة رغبات السكان الحاليين، فقد التزمت القوى العظمى الأربع بالصهيونية، والصهيونية تضرب بجذورها فى تراث وتقاليد مئات السنين، وفى ضرورات يفرضها الحاضر وفى آمال يطويها المستقبل ـ سواء كان ذلك بحق أو بغير حق، سواء أكان ذلك حسنا أم سيئًا. فكل ذلك يعلو فى أهميته فوق رغبات وادعاءات سبعمائة ألف عربى يسكنون الآن ذلك البلد العتيق»(١١).

لقد سمع العرب بأنفسهم ـ على الصعيد الرسمى على أقل تقدير ـ عن تصريح بلفور فقط فى الثامن والعشرين من إبريل عام ١٩٢٠. وفى ذلك اليوم أحاط الجنرال البريطانى وحاكم فلسطين، السير لويس بولس، العرب المسلمين والمسيحيين فى نابلس علمًا بنوايا الحكومة البريطانية، وقبل ذلك بعث بولس ببرقية إلى الحكومة فى لندن ذكر فيها «أن تسعين بالمائة من سكان فلسطين

لايؤيدون الاتجاهات الصهيونية ويواجهونها بقوة، كما اشتملت المعارضة على جميع المسلمين والمسيحيين وجزء لايستهان به من اليهود. وأرغب فى التأكيد على أن مثل هذه السياسة ستكون سببًا بكل تأكيد فى اندلاع ثورة من شأنها العمل على طرد اليهود ولاشك فى ذلك. وذلك الموقف يتطلب تدعيم اليهود بقوات مسلحة قوية من قوات الانتداب البريطانى»[١٢].

إلا أن هذه الثورة التى تنبأ بها السير لويس بولس لم تندلع إلا بعد مرور ستة عشر عامًا. ففى الفترة من عام ١٩٣٦ حتى ١٩٣٩ انتفض العرب ضد الهجرة اليهودية وضد قوى الانتداب البريطاني. وقمعت الانتفاضة ـ واليوم فقط بدأنا نتحدث عن انتفاضة الفلسطينيين ـ لأمد، وقد وجد الصهاينة، كما تنبأ بذلك السير لويس بولس، فى قوى الانتداب البريطانى حليفًا قويًا لهم (انظر الفصل السابع).

وقد استند تصريح بلفور إلى حق المنتصر (فى المستقبل). فحين نشر ذلك التصريح عام ١٩١٧، كان لا يزال هناك وجود لدولة عثمانية معترف بها دوليًا تقع فلسطين فى حدود أراضيها الإقليمية، ولم تخضع دولة فلسطين ولا سكانها لقانون وتشريع السيادة الرسمية للبريطانيين وقد انتقدت نقابة المحامين الأمريكية فى عام ١٩٥٧ ما جاء فى وعد بلفور قائلة إنه: «أعطى شعبًا آخر دولة وأرضًا لا يملكها فى احتفالية مهيبة»[١٣].

وهنا تكمن بالفعل جذور كثير من الصراعات التى ابتليت بها المنطقة وتعانى منها حتى اليوم منذ الفترة من ١٩١٤ وحتى ١٩٢٢، أما السلام الذى أبرم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، فقد انكشف وجهه الحقيقى فى الشرق الأدنى بأنه «سلام يقضى على كل سلام»، كما اطلق عليه بحق هذا الوصف دافيد فرومكين فى مؤلفه الشامل عن النشأة الأولى وتكوين الشرق المعاصر.

على الجانب الآخر من فلسطين

تمتد الصحارى الجرداء الشاسعة بأنواعها المختلفة الرملية والحصوية والحجرية فى الجهة الشرقية لنهر العاصى والمناطق المحيطة بالمدن السورية فى حلب وحماة وحمص ودمشق، وكذلك فى الجهة الشرقية من سهل البقاع بأرض لبنان الحالية وعلى الجانب الآخر لنهر الأردن الخصيب. ويقطع المسافر أكثر من

ألف كيلو متر حتى يصل مرة أخرى إلى المناطق الخضراء، وحتى يرى الرائى أناسًا يفلحون الأراضى الزراعية. وأولى العلامات التى تدل المسافر على اقترابه من بلاد الرافدين، دجلة والفرات، أن يرى أمام عينيه واحات النخيل والأراضى المروية، أما من الناحية السياسية فقد كانت الهضبة العالية الممتدة من نهر النيل حتى الفرات تمثل وحدة واحدة للنفوذ العثمانى. ثم أوجدت بعد ذلك كل من بريطانيا العظمى وفرنسا ما تسمى بالدول القومية التى لم يتوفر لها على الرغم من ذلك شعوب تتكيف معها. فبعد أن كانت الدولة العثمانية تجمع هذه المناطق فى وحدة واحدة يتحرك فيها الناس فى حرية ويسافرون من مكان إلى آخر دون وجود لحدود بين بعضها البعض ودون مطلب لجوازات سفر لعبور الحدود، فقد تبدل الحال بعد التقسيم وأقيمت نقاط التفتيش على الحدود، مما أبعد الناس بعضهم عن بعض، بعد أن عاشوا مئات السنين فى جماعات مترابطة.

إلا أن أولوية تطبيق النظام الجديد كانت بالنسبة للبريطانيين الذين احتلوا فى الحرب العالمية المنطقة الممتدة بين البحر المتوسط والفرات، فوق رغبات البشر. وحتى يمكن تنظيم الأملاك الجديدة للإمبراطورية فقد دعا وزير المستعمرات ونستون تشرشل فى عام ١٩٢١ لعقد مؤتمر بالقاهرة. وكان من بين الحاضرين ت.ى. لورانس، وكذلك جترود بيل وهى إحدى النساء الهاربات من سأم الحياة الفيكتورية، وكان لها حظ فى جمع معارف جمة عن المنطقة من خلال رحلاتها فى بلاد العرب، وكان هدف تشرشل تقسيم المنطقة بحيث لايكون هناك وجود لدولة عربية موحدة، ويتجلى التعسف الخاص برسم الحدود بوضوح تام فى نموذج الأردن. فلم يكن بأى حال من الأحوال سبب مقنع لتكوين دولة خاصة من المناطق الصحراوية البور الواقعة شرق نهر الأردن والتى أطلق عليها البريطانيون اسم ماوراء الأردن، سوى أن ذلك «يخص مصلحة بريطانيا العظمى»، وكان من الأفضل أن تصبح منطقة ماوراء الأردن جزءًا من سوريا والمملكة العربية السعودية والعراق[١٤].

ولكن وفقًا لإرادة إنجلترا فإن منطقة شرق نهر الأردن التى تحولت فيما بعد إلى «المملكة الأردنية الهاشمية» قد خطط لها أن تتولى مهمة الدولة الوسطية الحيادية. ومن شأن هذه الدولة المصنوعة أن تفصل سوريا عن الحجاز (قلب المملكة العربية السعودية الآن) وفلسطين المرتبطة بمستقبل الوطن اليهودى، عن العراق وفى نفس الوقت ينبغى أن تكون هذه التركيبة الجديدة ارتباطًا بالعراق،

ممرًا إستراتيجيًا بين الخليج الفارسى وفلسطين، وقام ونستون تشرشل بتنصيب الأمير الهاشمى عبد الله القادم من مكة، والذى لقب فيما بعد بالملك عبدالله. وقد برر تشرشل هذا القرار بقوله إن عبد الله لديه القدرة على تعميق الحركة الدعائية المناهضة للصهيونية التى عمت المنطقة من ناحية، والوقوف فى مواجهة الموقف العدائى للفرنسيين القابضين على زمام الحكم فى سوريا من ناحية أخرى. أما ت.ى. لورانس فقد رأى فى عبد الله أنه مناسب «لأنه كان شخصًا ليس لديه قوة كبيرة» ولذلك « قام بتشكيل حكومة لجلالته، حتى يحتفظ بمكانته». وقد أنهى ونستون تشرشل الاعتراض القائل بأن ابن سعود بالرياض والمعروف بطموحاته الواسعة، سيدافع بكل مايملك عن نفسه ضد إعلاء شأن منافسه، وذلك بإحكام قبضته على خزانة الدولة فى لندن، وقال : إنه أمر برفع المساعدات المالية السنوية الخاصة بأمير الصحراء الطموح ابن سعود إلى مائة ألف جنيه[١٥].

وقد احتاج الأمير عبد الله نفسه إلى إنجلترا من ناحية أخرى ولا سيما لأن دولته الصحراوية التى أقامتها ولية النعم إنجلترا، لا تستطيع وحدها مواجهة الحياة، ولذلك صار من الضرورى العمل على توسيع أطرافها الإقليمية، ومن ثم قام عبد الله بعد انتهاء حرب ١٩٤٨ بضم أجزاء من الضفة الغربية لنهر الأردن. وقد تحدد ذلك فى واقع الأمر فى قرار الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ والخاص بالتقسيم من أجل دولة عربية فلسطينية لها دعائمها الخاصة بها.

وكذلك حاول البريطانيون العمل على تثبيت أركان وضعهم الإستراتيجى بعد الحرب العالمية من الجهة الشرقية لأرض الرافدين وفى إيران، حيث أبدى اللورد كرزون وزير الخارجية الجديد اهتمامًا بالغًا ببلاد فارس وجيرانها من الجهة الشرقية، أى أفغانستان. وبذل كرزون جم محاولاته فى مواجهة المد السوفيتى المرعب بفرض نوع من الحصار على البلاد المسلمة التى أعربت عن رغبتها فى وصاية وحماية بريطانيا. ولذلك عقد كرزون فى عام ١٩١٩ معاهدة مع إيران للعمل على تقوية البلاد داخليًا لدرجة أنها باتت صالحة للوقوف فى مواجهة التحصينات الروسية أو السوفيتية. كما وعد البريطانيون ببناء شبكة قومية للسكك الحديدية، وتحديث النظام المالى للدولة والجمارك ومنح قروض بمبالغ هائلة. وحتى يحصل على التوقيع على هذه المعاهدة التى رفضها الرأى العام الإيرانى بنسبة كبيرة، كان لزامًا

على اللورد كرزون مثلما فعل من قبل ونستون تشرشل أن تمتد يديه إلى خزانة الدولة. فقام بدفع مائة وثلاثين ألف جنيه إنجليزى للمفوضين الإيرانيين[١٦].

وفى بلاد الرافدين، وهى المحور الارتكازى الجغرافى للوجود البريطانى فى الشرق الأدنى، كانت هناك مهمة أخرى شاقة. فقد بعث أرنولد ويلسون، الحاكم المدنى ببغداد، ببرقية إلى لندن، ذكر فيها أن دولة العراق ماهى إلا «توليفة من الكوارث وهى النقيض لكيان دولة ديمقراطية»، فثلاثة أرباع سكان عراق المستقبل انحدروا من القبائل الذين لم يتقبلوا على الإطلاق الحكم الاستبدادى المركزى. وبادئ ذى بدء لم يعرف أى فرد مرة واحدة اسمًا لما يطلق عليه «ميلاد فرانكنشتاين الاستعمارى»[١٧].

فالاسم الأصلى للمنطقة الجغرافية التى يطلق عليها العراق ـ وتعنى الكلمة من بين معانيها «الضاربة بعروقها فى الأرض» ـ يرجع إلى مقاطعة فى العصر الوسيط للدولة الإسلامية، كانت قد استبعدتها بلاد الرافدين الشمالية، مقابل ضمها لجزء من أراضى غرب إيران[١٨].

ثم استخدم اللفظ رسميًا ولأول مرة فى ١١ أكتوبر عام ١٩٢٠ حينما توجه المندوب السامى البريطانى الثانى، السير بيرس كوكس، بخطابه إلى شخصيات بغداد. وقال كوكس إنه مكلف من قبل جلالته بتشكيل حكومة «لشعب العراق»، حكومة عربية تحت المظلة الرقابية العليا لبريطانيا العظمى.

وحين تعقد مقارنة بين العشرينيات من القرن الماضى، عندما استعد البريطانيون بكل شىء لمنطقتهم التى استحوذوا عليها حديثًا، وبين الشهور التى تلت الاحتلال الأنجلو أمريكى للعراق عام ٢٠٠٣، يتضح لنا نقاط تشابه فى غاية الغرابة. فقد لزم على المحتلين، فى الزمن السابق مثل اليوم، أن يحضروا فى الوقت المناسب مع تزايد المقاومة الشعبية التى ينطبق عليها أى وصف آخر غير أنها متجانسة. وفى الزمن السالف لم يكن غالبية الشعب راضين عن وجود سياسة الاحتلال ـ وبصفة خاصة عانى الناس من عدم وجود تقرير مصير لأنفسهم بأنفسهم. واليوم وقد فرح العراقيون من تحريرهم من يد الدكتاتور صدام حسين، إلا أنهم حرموا من السيادة الكاملة على بلادهم.

وكما فى شرق الأردن المجاور فقد رفع البريطانيون أيضًا فى العراق أحد أفراد البيت الحاكم الهاشمى على عرش البلاد. كان هذا هو الأمير فيصل، أخو الأمير الأردنى عبد الله. كان فيصل قبل ذلك قد اختاره السوريون ليكون ملكًا عليهم، ولكن بعد ذلك، وبعد أن قامت عصبة الأمم بالتقسيم ومنحت فرنسا حق الانتداب على سوريا وبعد ذلك لبنان، فقد طرد الفرنسيون فيصل من دمشق. وقد وضع فيصل على عرش البلاد من خلال تصويت شعبى مدبر تدبيرًا حذرًا، وذلك بعد استبعاد المرشح العراقى الوحيد الحقيقى وغير المزيف.

إن هذا النظام العالمى الجديد لا يحمل من أول وهلة للمتأمل سوى مزيد من الصراعات، كما أنه يزخر بالكوارث المستجدة. ففى شرق الأردن الذى قام فيه البريطانيون عام ١٩٤٦ بتشكيل دولته «المملكة الأردنية الهاشمية»، لا يزال يحكم فيها سلالة الأمير حسين، شريف مكة، والذين بدون المساعدات المالية الضخمة المتدفقة عليهم بانتظام من لندن وواشنطن، ما كان لهم ولدولتهم المصطنعة من قلب الصحراء، وجود. وفى حرب العراق عام ٢٠٠٣ تم مكافأتهم نظير سلوكهم الحسن بمعونة مالية تقدر بنحو ١,١ مليار دولار.

وفى المقابل تدور رحى الحرب بالفعل فى فلسطين منذ عصور الانتداب البريطانى ـ تارة فى شكل انتفاضات، كما حدث فى الفترة من عام ١٩٣٦ وحتى ١٩٣٩، وتارة فى شكل حروب حقيقية، كما حدث فى حروب أعوام ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣. وكذلك الغزو الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ والحرب الأهلية اللبنانية من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٩٠، وحرب حزب الله ضد إسرائيل من عام ١٩٨٢ وحتى عام ٢٠٠٠، ثم الانتفاضة الأولى والثانية (عام ١٩٨٧ حتى عام ١٩٩٣ وكذلك الانتفاضة التى لا تزال مشتعلة منذ سبتمبر عام ٢٠٠٠). كل ذلك ما هو إلى توابع للنظام الذى وضع بعد عام ١٩١٨.

واليوم أُعيدت المنطقة بأسرها فى واقع الحال، إلى المربع الأول فى عام ١٩٢٠، ودار التاريخ دورته الكاملة. الفارق الوحيد هو أن الأمريكان، وهم اليوم المستعمرون الذين يلعبون دور الإنجليز بالأمس، يخوضون تجربتهم ببناء مجتمع مستقر فى المنطقة. إلا أن المؤشرات لا تبشر بأى خير.

وادعاء الأمريكان والإنجليز فى عام ٢٠٠٣، بأنهم مضطرون لغزو العراق فقط لكى يتسنى لهم فيما بعد حل الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، فهو أمر مردود عليه

بالدليل الدامغ من خلال النظر إلى التدهور الذى صار به ذلك النظام الذى قام الإنجليز والفرنسيون على توطيد أركانه منذ ما يقرب من مائة عام فى الشرقين الأدنى والأوسط.

لقد صارت السمات المميزة للمنطقة هى تغيير نظم الحكم والحروب والحروب الأهلية والانتفاضات وأخيرًا العمليات الإرهابية، فلا الغزاة ولا الطغاة من أهل البلاد الذين خلعوهم ساعدوا على حل مشكلات المنطقة. والمعرفة بالتاريخ تعلمنا أن حرب العراق فى عام ٢٠٠٣ لن تكون نهاية الحروب فى المنطقة، ودليل ذلك ما نراه من عواصف سياسية وقلاقل فى الجنوب والشرق من مدينة البصرة وبغداد - والتى ترجع أسبابها لعشرات السنين من قبل، والصراع بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى.

ابن سعود / مصطفى كمال / الشاه رضا بهلوى

لقد أنجبت دولة واحدة فقط زعيمًا استطاع أن يتصدى بنجاح هائل للهجمة الاستعمارية التى قادها المنتصرون. ففى الموقعة التى استمرت فى الفترة من فبراير ١٩١٥ وحتى يناير ١٩١٦ فى شبه جزيرة جاليبولى على الدردنيل ألحق بهم هزيمة ساحقة. كان ذلك الزعيم هو الوطنى التركى مصطفى كمال، الذى أصبح مؤسسًا للدولة القومية الحديثة المستقلة فى تركيا والذى أطلق عليه الأتراك لقب أتاتورك، ويعنى «أبو الأتراك». وهناك زعيم آخر، وهو الشاه محمد رضا بهلوى، حاول أن يدفع ببلاده إلى التحديث والارتقاء بشأنها بما أوتى من قوة. وهناك شخصية ثالثة اتبعت سياسة خاصة بها تتوافق وتراثها العربى الأصيل وهو الرجل الذى دخل التاريخ باسمه: ابن سعود وهو مؤسس «المملكة العربية السعودية».

إلا أن الشريف حسين، شريف مكة، وملوك البيت الهاشمى، فيصل بالعراق، وعبد الله فى شرق الأردن ثم ابن سعود، كل هؤلاء لم يكن فى استطاعتهم أن يتحولوا إلى رجال دولة يعملون على وحدة الأمة العربية - إذا افترضنا وجودها فى زمن ما - ويقودونها بنجاح فى مواجهة الغزاة الجدد.

عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود

فى الوقت الذى دقت فيه طبول الحرب العالمية الأولى فى أوروبا وفلسطين وبلاد الرافدين، تحين أحد أمراء القبائل العربية الكثيرين بالجزيرة العربية أجواء الساعة حتى ينشئ لنفسه ولعشيرته إمبراطورية صغيرة. كان هذا الرجل هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، الذى يعرف اسمه مختصرًا فى الغرب بابن سعود. إذ تحرك ابن سعود بجيش صغير من الكويت عام ١٩٠١ واستولى على الرياض، وبدأ بعد ذلك بغزوة موسعة. ثم انقضت ثلاثون عامًا قام المحارب البدوى بعدها بضم شطر كبير من شبه الجزيرة العربية (انظر الفصل الخامس).

كيف يمكن أن يستمر مثل هذا النوع من الدول مع أنواء الحياة؟ لقد هبط على مؤسس الدولة ابن سعود، من السماء ما يعينه على ذلك: النفط. وحتى يومنا هذا يقود السعوديون زوارهم الكثيرين فى فخر واعتزاز إلى مدينة الدمام على الخليج الفارسى حيثما حفر البئر النفطى السابع الشهير الذى تم الكشف عنه عام ١٩٣٨، أى بعد مرور ست سنوات فقط على تأسيس المملكة. وفى هذا التوقيت بدأ العزف على ألحان الاقتصاد والسياسة بين طرفى عقد لم يكن من الممكن وجود تباين بينهما. فقد استثار التبر الأسود حصان الإنسان الأبيض وقائد الديمقراطية الغربية، الولايات المتحدة الأمريكية. وقبل المحارب البدوى ابن سعود، يد العون الممدودة من أكبر قوة فى العالم بكل ترحاب. ورحب ابن سعود باستقبال حليف قوى فى ظل جو مضطرب من خصومات القبائل العربية. كان حجم اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية لا ينصب على التعاطى مع النزاعات بين العشائر القبلية، بل على النفط فحسب. وألقى هذا الزواج النفعى بظلاله يوم ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١، فقد ثبت أن خمسة عشر شخصًا من بين تسعة عشر من مرتكبى الحادث الأليم كانوا يحملون الجنسية السعودية.

وغمرت على الفور الشركات الغربية والحكومات حالة من النشوة والسكر طلبًا لوفرة النفط السعودى وكأنهم فى حالة غياب عقلى، إذ نسى هؤلاء الحقائق السياسية الخاصة بالمملكة الجديدة وتسابقوا لدى السعوديين للسماح لهم بالتنقيب عن مزيد من منابع جديدة للنفط. ويرجع ذلك إلى أن احتياطيات النفط بالدمام لاتكفى سوى لفترة زمنية لا تزيد على خمسة عشر عامًا.

وكان من الطبيعى أن يضمن الأمريكان لأنفسهم نصيب الأسد فى وفرة النفط السعودى. فظفرت شركات «ستاندرد للنفط بكاليفورنيا» و«تكساكو» و«إسو - إكسكون» بنسبة ٣٠ بالمائة لكل منها من حصص نفط شركة «أرامكو الأمريكية السعودية» وكان نصيب شركة موبيل ١٠ بالمائة. وتجاوزت أرباح شركة أرامكو على وجه السرعة مثيلاتها من الشركات مثل فاير ستون-ربر فى ليبريا وشركة يونايتد فروت بأمريكا اللاتينية. وكان مقياس نجاح شركات النفط الأمريكية أنهم شاركوا بعد فترة وجيزة من اكتشاف النفط فى مارس ١٩٣٨ فى التأثير على السياسة الخارجية لآل سعود[١٩].

وجاء الساسة بعد كبراء النفط، ففى عام ١٩٤٢ سافر أول وفد رسمى أمريكى إلى المملكة العربية السعودية، وفى عام ١٩٤٣ أعلن الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت أن المملكة ينبغى أن تكون «حاسمة» فى مسألة دفاع أمريكا عنها. وفى عام ١٩٥٠ أعلن نائب وزير الخارجية الأمريكى جورج ماك جى، أن الولايات المتحدة الأمريكية تضع كل اهتمامها لضمان أمن المملكة العربية السعودية والنفط السعودى والاستفادة الممكنة للقاعدة الجوية بالظهران على الخليج الفارسى. وبعد مرور ٥٣ عامًا، وبعد الاستيقاظ المفزع على أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، هب أعضاء الكونجرس فى واشنطون لمناقشة الإمكانية (غير محددة المعالم) لاحتلال حقول النفط السعودى.

وهذا يعنى أن نظام الحكم فى المملكة بعد مرور سبعة عقود على تأسيسها يتعرض ولأول مرة لخطر حقيقى. وأزمة الأسرة المالكة تعد أحد الأسباب المتعددة التى قادت إلى حرب الخليج عام ٢٠٠٣، وذلك لأن اقتصاد المملكة العربية السعودية النفطى لديه قدرة لاتمتلكها أى دولة أخرى سوى العراق بشرط إجراء تحديث جوهرى لصناعة النفط به. وفى حالة ارتفاع أسعار النفط فإنه يمكن للمملكة العربية السعودية فى غضون أيام أن ترفع من إنتاجها وتعمل مرة أخرى على استقرار الأسعار. وإذا كان من المخطط سلفًا العمل على إسقاط نظام الحكم السعودى واستبداله بنظام آخر أقل ارتباطًا بأمريكا، فإن أمريكا فى حاجة إلى قاعدة أخرى بالشرق الأوسط.

مصطفى كمال أتاتورك

يعد التركى مصطفى كمال أحد الحكام القلائل بالمنطقة الذين حرروا أنفسهم من يد عتاة الغرب المنتصرين. وفى الوقت ذاته قام بمحاولة تشكيل الدولة القومية التركية الحديثة على غرار نموذج التعددية فى المجتمعات الغربية. وقد تخرج مصطفى كمال من «لجنة الوحدة والتقدم» إبان الحركة التركية الفتية، تلك الحركة التى أجبرت السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٩٠٨ على إعادة وتفعيل دستور ١٨٧٦. وشرع الشباب التركى بصفة خاصة فى العمل على حماية الدولة المتعددة الإثنيات من الانهيار، إلا أن خطى الحرب العالمية الأولى كانت أسرع نحو سقوط تركيا ولم يعد هناك وجود للدولة العثمانية. ومثلما كان الحال بالنسبة للأجزاء غير العربية للإمبراطورية فقد عزم المنتصرون كذلك على تمزيق الدولة الأم وتقسيمها فيما بينهم على أوسع نطاق. وفى العاشر من أغسطس عام ١٩٢٠ وقعت الحكومة التركية القديمة الكائن مقرها آنذاك فى «سفرس» على المعاهدة المفروضة لإحلال السلام والتى بموجبها تتنازل تركيا عن الموصل لصالح بريطانيا العظمى ولصالح العراق المحتلة من قبل لندن، كما تقرر تأسيس دولة كردية فى جنوب شرق الأناضول. أما منطقة «تراكيا» (التى كانت تشكل الشطر الأوروبى للدولة العثمانية) وأجزاء من غرب الأناضول، فكان يتعين التنازل عنها لصالح اليونان. ونصت المعاهدة على نزع السلاح من جميع المنافذ البحرية لمضيق البسفور. كما قامت فرنسا وإيطاليا بتقسيم المناطق الأخرى بالأناضول إلى «مناطق نفوذ».

فى ظل هذا الموقف المحبط للآمال تولى مصطفى كمال قيادة القوى التركية المعنية بالمسألة الوطنية. فقد احتلت اليونان بقيادة زعيمها إيلفتروس فينيزلوس الساحل الغربى بالأناضول حيث كان يستوطن اليونانيون منذ مئات السنين.

إلا أنه فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٢١ أوقعت قوات مصطفى كمال الهزيمة بالفيلق اليونانى عند أنقرة، وفى التاسع من سبتمبر عام ١٩٢٢ استرد الأتراك أزمير على ساحل بحر إيجه من يد اليونانيين، وبذلك ضاع الحلم الأثينى بإقامة «اليونان العظمى».

كان هذا النصر التركى بمثابة الإعلان عن ميلاد جمهورية تركيا. فمع بزوغ شمس مصطفى كمال أصبح هناك قائد بمقدوره التصدى للاستبداد الغربى، وقد مكن هذا النصر البطل الوطنى التركى الجديد من تحقيق برنامج إصلاحى موسع، فأصدر مصطفى كمال فى بادئ الأمر فى نوفمبر ١٩٢٢ قرارًا بإلغاء السلطنة ـ أى الانفراد بالسلطة بالتوريث لأحد السلاطين الذى يختار من داخل آل عثمان فقط ـ ثم عمل على استبدال معاهدة «سفرس» للسلام المهين لتركيا بمعاهدة جديدة تم التوقيع عليها فى ٢٤ يوليو ١٩٢٣ بمدينة لوزان السويسرية، تلك المعاهدة التى اعترفت بكيان جمهورية تركيا. وفى ٣ مارس عام ١٩٢٤ أصدر مصطفى كمال قرارًا بحل الخلافة. وكان السلطان العثمانى يحمل لقب «خليفة» مثلما كان الحال لأتباع النبى محمد من بعده، وذلك منذ احتلال الأتراك للعالم العربى الإسلامى فى القرن السادس عشر، ثم قام أتاتورك باستبدال التقويم الإسلامى بالتقويم الميلادى المسيحى اعتبارًا من مطلع شهر يناير عام ١٩٢٦، وفى العاشر من إبريل ١٩٢٨ أمر الحاكم الجديد بتعديل الدستور الذى ألغى المرجعية الإسلامية للدولة، فلم يعد هناك مايشير إلى أن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة. وأخيرًا أمر كمال أتاتورك فى ١٠ نوفمبر ١٩٢٨ بأن تكتب اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدلاً من الهجاء العربى الذى كان مستعملاً حتى ذلك الحين.

كانت دلالة إلغاء السلطنة والخلافة تعنى على وجه الخصوص الإغلاق التام لباب التعامل مع الماضى الإسلامى، فقد كان الخلفاء على مدار أكثر من ثلاثة عشر قرنًا من الزمان رمزًا لوحدة الإسلام السنى، وبعد ثورة مصطفى كمال الذى كان من أتباع الفلسفة اللاأدرية جرت محاولات باءت بالفشل ولم تجد من يؤيدها لإعادة نظام الخلافة من جديد، كما أن الأمير حسين، شريف مكة، استعذب فكرة إعلان نفسه خليفة للعالم الإسلامى. لقد هز الزلزال الذى أحدثه مصطفى كمال فى جسد العالم الإسلامى جميع الأركان، لدرجة أن حسن البنا، ذلك المسلم المصرى الورع، تأثر بشدة بذلك، ومع تأسيسه لجماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ طرح حسن البنا نموذجًا مناهضًا للعلمانية والقومية التركية (انظر الفصل الحادى عشر). على أنه غير مسموح فى تركيا حتى يومنا هذا بدخول المصالح الحكومية والأماكن الرسمية بغطاء الرأس الإسلامى، وحتى

تتضح صورة الخروج من الماضى العثمانى الإسلامى بشكل أكثر جدية، فقد نقل مصطفى كمال عاصمة تركيا الحديثة من مدينة إسطنبول - التى ارتبطت بالنظام العثمانى، إلى قلب أعالى الأناضول - إلى مدينة أنقرة.

الشـاه رضـا بهلـوى

صارت الجمهورية التركية بمثابة جزيرة الاستقلال فى المنطقة التى يسيطر عليها الحلفاء مابين البحر المتوسط وبلاد الرافدين. فعلى الامتداد الشرقى من دجلة والفرات بدا الوضع مختلفًا بعض الشىء. صحيح أنه فى إيران أدار أحد الحكام سيناريو ثورة قومية، وهو الشاه رضا، مؤسس الأسرة البهلوية، والذى علّم أهل بلده فى السنوات التى تلت عام ١٩٢١ وجوب العمل إذا أرادوا نهضة الغد وضرورة أن يفرغوا من يومهم فى المساء بالعمل - رضا هو الذى انتزع السلطة عام ١٩٢١ من آخر شاه فى أسرة «القيارنة» وأجلس نفسه عام ١٩٢٦ على عرش الطاووس، وأسس بذلك الانقلاب الأسرة البهلوية.

كان مصطفى كمال التركى هو نموذجه العظيم وقدوته، إلا أن الشاه رضا لم تمتد عظمته إلى درجة التنازل عن العرش ويفعل ماقام به مصطفى كمال فى أن يعلن جمهورية لبلاده؛ لذلك كان مؤسس الأسرة البهلوية، كما كان ابنه محمد رضا بهلوى من بعده، طيلة حياته استبداديًا. وبرغم ذلك، فحينما قام رضا بهلوى بزيارة تركيا عام ١٩٣٤ ورأى رأى العين ماحققته إصلاحات مصطفى كمال على أرض الواقع، عاد إلى بلاده إيران بطموحات جديدة، والواقع أن الشاه رضا لم يتوفر لديه الذكاء السياسى الذى تميز به المصلح التركى، مثال ذلك: سمع ذات يوم عن عدم وجود خبز بإحدى القرى، لأن الخبازين يقومون بتخزين الدقيق لبيعه بأسعار أكثر ارتفاعًا، وبلا تريث أمر الشاه بإلقاء الخباز التاجر الذى تحول تابعوه إلى أشخاص جشعين، فى نار مخبزه وحرقه فيه.

أما عن معارضة الشعب له، لا سيما من قبل الطائفة الشيعية، مثلما واجه ابنه نفس المعارضة فيما بعد، فكانت نتيجة حتمية لنزوعه الشديد نحو الحداثة. ورغم ذلك فقد حرر الشاه رضا النساء من فرض ارتداء الحجاب، وأحدث كذلك تغييرات فى قوانين الطلاق لصالح النساء. ومثلما كان الحال مع مصطفى كمال، فقد اعتبر الشاه رضا الغرب النموذج المثالى، وكان رأيه مثل مصطفى كمال، أن الإسلام (فى صيغته الشيعية فى إيران) يعد حاجزًا أمام «تطور» دولته.

وعلى أى حال فقد تعرضت إيران لضغوط أجنبية تفوق تلك الضغوط التى وقعت تحتها تركيا مصطفى كمال الحديثة. وهذه الضغوط لها تقاليد عريقة لايؤمل فى الشفاء منها مطلقاً، إذ زحف القيصر الروسى بطرس الأكبر إلى الأراضى الإيرانية إلى أن وصل لموانى المياه الدافئة على ساحل الخليج الفارسى، وأراد البريطانيون فى القرن التاسع عشر جعل إيران «بوابة لحماية جوهرة تاجها على مستعمراتها بالهند»، وكانت نقطة الحراسة الإيرانية من الأهمية لحماية جوهرة التاج بمكان لدرجة أن اللورد كرزون، وهو الذى شغل نائب الملك البريطانى فى الهند عام ١٨٨٩، كتب كلمات تصل لمرتبة الشعر الرومانسى، إذ قال: «تركستان وأفغانستان وماوراء بحر قزوين وبلاد فارس، ربما تتنفس هذه الأسماء بالنسبة لكثيرين نسيم العزلة البعيدة ليس إلا، أو العيش على ذكريات ماجاءت به الأقدار من الخارج وقصائد البطولات والموت. أما بالنسبة لى، وأعترف بذلك، فإن هذه البلاد ماهى إلا قطع على طاولة شطرنج يمكن تحريكها للوصول إلى السيطرة على العالم»[٢٠].

وفى عام ١٩٠٧ تطابق رأى كل من روسيا وإنجلترا فى العمل على تسوية خلافاتهما ـ على حساب إيران ـ أحد هذه الأسباب : ظهور لاعب جديد، وصولى على مسرح السياسة الاستعمارية، يجرب حظه على طاولة الشطرنج فى السياسة الإمبريالية. وكان هذا اللاعب هو القيصرية الألمانية التى كانت بصدد مد خط سكة حديد يمر عبر أراضى الدولة العثمانية وصولا إلى بغداد والبصرة. وفى الوقت ذاته كانت روسيا قد فقدت نفوذها فى حربها ضد اليابان، واضطرت القيصرية الروسية أن تبحث عن ترتيبات جديدة بوضع يدها فى يد الإنجليز. وبالفعل تم تقسيم إيران، وهى ضحية «التحالف الاستعمارى» بين بريطانيا وروسيا، إلى مناطق نفوذ: تفرض روسيا سيطرتها على المناطق الشمالية، وإنجلترا على المناطق الجنوبية، أما فى الوسط فقد اتفق الطرفان على خلق ما أطلق عليه بالمنطقة المحايدة، وكانت طهران العاصمة تدخل ضمن هذه المنطقة. وفى مجلس العموم البريطانى هب أحد النواب قائلاً: «إن هذه الأمة الصغيرة... ترقد بين الحياة والموت، ويتم تقسيمها وتكاد تتمزق أوصالها، وهى تركع تحت أقدامنا بلا صديق ولاحول ولاقوة».

وقد أسفرت المجلة البريطانية «سبكتاتور» عن وجهها الحقيقى فى ضوء هذا الموقف، كمجلة دعائية خالصة للسياسة الواقعية الغربية، ولكن فى الوقت ذاته

كخبيرة بالأحوال الإيرانية: «حين لاتستطيع بلد ما إدارة شئونها، وحين لاتستطيع بأهلها ورجالها حفظ النظام، فقد فقدت بالفعل استقلالها؛ وهذا المعنى ينطبق على بلاد فارس التى توقفت منذ زمن طويل عن أن تكون دولة مستقلة»[٢١].

وقد جانب الصواب إلى حد كبير ماقدمته مجلة «سبكتاتور» من تحليل للأحوال الإيرانية، فقد باع آخر ملوك أسرة القيارنة بلادهم للبريطانيين حتى يمكنهم الاستمرار فى حياة البذخ والترف التى يحبونها. ففى عام ١٨٧٢ منح الشاه نصر الدين حق الامتياز بثمن بخس للبريطانى البارون يوليوس دى رويتر فى إدارة القطاع الصناعى بالبلاد ورى الأراضى الزراعية واستخراج الثروات المعدنية وبناء شركة للسكك الحديدية وتأسيس بنك أهلى وصك العملة. وقد وصف اللورد كرزون هذه التصفية أو الأوكازيون فى عام ١٨٩٢ بقوله: «إنه منتهى الخضوع أن تقوم مملكة ما بصورة غير مسبوقة على مدار التاريخ بتسليم كافة ثرواتها الصناعية ووضعها فى أيد أجنبية...»[٢٢].

وقد مكن تفشى الضعف فى جسد السلطة المركزية الإيرانية البريطانيين عام ١٩٠٨، بعد اكتشاف النفط فى إيران، من إبرام عقود الامتيازات الخاصة باستخراج المادة الخام، ليس مع الدولة الإيرانية، بل مع الشيوخ فى مناطق التنقيب كل على حدة. وكل مايتعلق بمعدل الإنتاج والسعر والرسوم المفروضة على الشيوخ والحكومة فى طهران، كان يتم تحديده فى بريطانيا العظمى، ولم تستطع إيران أن تضع شروطًا أفضل لها إلا فى فترة متأخرة. أصبح النفط الإيرانى بالنسبة للبريطانيين فى الحرب العالمية الأولى من المصادر الحاسمة. ومما لاشك فيه على الإطلاق أن النفط الإيرانى هو الذى مكن الجيش البريطانى فى الحرب العالمية الأولى من غزو بلاد الرافدين ودفع السير ستانلى مود من التوغل فى أراضيها حتى بغداد. وقد أطلق ونستون تشرشل على الاكتشافات النفطية أنها «كنز من بلد الخيال القصصى، يقع خارج نطاق أحلامنا»[٢٣].

وفى عام ١٩١٩ استغل البريطانيون مرة ثانية صفقة تصفية البيع لإيران التى بدأت بأسرة القيارنة، وأملوا على الشاه الضعيف أحمد، آخر حكام القيارنة، معاهدة يتولى البريطانيون بمقتضاها السيطرة على الجيش وخزانة الدولة ونظام النقل فى البلاد. وكتب اللورد كرزون وزير الخارجية البريطانية آنذاك

مـايـلـى: «لـو سـؤلنـا عـن سبب تـولـينـا هـذه المهمـة علـى الإطـلاق ولماذا لانترك الأمرلبلاد فـارس نفسها وانهيـارهـا بشكل حى مثير، لجاءت الإجابة ناطقة بأن موقـع إيران الجغرافى وخطورة شأن مصالحنا فى هذا البلد ومستقبل الأمن الخاص بإمبراطوريتنا فى الشرق، كل ذلك يجعل الأمر مستحيلاً أن نترك زمام الأمور فى بلاد فـارس يفلت من أيدينا»[٢٤].

بدأ الشاه رضا محاولات تحديث الدولة فى العشرينيات حينما أصبحت صفقة بيع الدولة التى بدأها أسلافه من الجانب العملى أمرًا واقعيًا محكمًا من الناحية القانونية. إلا أنه بعد ذلك بقليل أخفقت كل جهوده فى زحام الحرب العالمية الثانية. وفى الوقت الذى اتسمت فيه تركيا الحديثة حتى بعد موت أتاتورك (١٩٣٨) بالذكاء فى مساعيها وحافظت على أسلوب الحيادية المسلحة، نجد الشاه رضا يقف بجانب ألمانيا النازية ـ بسبب كراهيته لأعدائه القدامى، إنجلترا وروسيا (الاتحاد السوفيتى آنذاك). وقد أظهر رضا قبل ذلك تعاطفًا تجاه موسولينى وهتلر. وكان عليه فى سبتمبر عام ١٩٤١ أن يجنى ثمار مسلكه وحساباته الخاطئة ويترك عرش البلاد. وقد وافته المنية عام ١٩٤٤ فى جنوب إفريقيا.

قلما تكون الصدف صانعة التاريخ، ومن ثم فليس من قبيل الاستغراب، بل أقرب إلى الدليل القاطع على التزام الولايات المتحدة باستمرارية السياسة الاستعمارية حين نجد جيشين أمريكيين بنفس الاسم يعملان على تشكيل المنطقة بطريقة محددة وحاسمة. أب وابن ـ كلاهما يحمل اسم «هـ. نورمان شوارتسكويف».

لقد بعث بالأب، الكولونيل شوارتسكويف إلى إيران، عقب تولى الشاه محمد رضا بهلوى عرش البلاد عام ١٩٤٢، ليقوم على جهاز تدريب الشرطة بالبلاد، إلا أن الأب شوارتسكوف أنشأ بالإضافة إلى ذلك جهازًا سريًا بالشرطة للأمن الداخلى، كانت مهمته بث الرعب فى قلوب المثقفين السياسيين ذوى الاتجاهات اليسارية. وقد حضر الأب شوارتسكويف على الفور حين قام عميل المخابرات الأمريكية كرميت روزفيلت عام ١٩٥٣ بالتخطيط لانقلاب عسكرى للإطاحة برئيس الوزراء العنيد محمد مصدق. وتلقى كرميت، الذى كان يطلق عليه اسم «كيم»، إشارة إلى جاسوس «روديارد كبلينج» الذى كان فى العشرينيات من عمره فى رواية الاستعمار التى حملت نفس الاسم، ـ تلقى من الأب شوارتسكويف

أمرًا بإحاطة الشاه الضعيف محمد رضا بهلوى، علمًا بالسقوط المتوقع حدوثه قريبًا لخصمه[٢٥]. أما الابن، الجنرال «هـ. نورمان شوارتسكويف» فقد كان عام ١٩٩٠/١٩٩١ القائد الأعلى للتحالف فى الحرب على صدام حسين، وكم تمنى أن يسير بجيوشه على الفور حتى بغداد.

كان هناك بالإضافة إلى إيران نقطة حراسة أخرى تقع فى مجال نفوذ التاج الملكى البريطانى الاستعمارى بالهند: ألا وهى أفغانستان. فبعدما ناشدت القبائل التركمانية، مثلما فعل الكازاخستانيون فى القرن التاسع عشر، القيصر الروسى بمد يد العون للوقوف بجانبهم ضد الهجمات الصينية، كان هناك تواجد لجيش روسى أخذ فى الانتشار التدريجى فى المناطق الواقعة شمال أفغانستان، وانبثقت مدينة المآتة التى كانت حتى عام ١٩٩٧ عاصمة الدولة الحديثة كازاخستان، عن نقاط الحراسة العسكرية تلك. وأصبحت نقطة الحراسة «أفغانستان» مهددة من جانبين، فى الشمال من روسيا التى كانت تطمح فى الوصول إلى موانى المياه الدافئة على حدود الهند، وفى الغرب من إيران. ودخل إلى التاريخ التنافس بين الخصمين البريطانى والروسى فى وسط آسيا ومركزها والذى عرف بـ «اللعبة الكبرى» فى هذا المكان الذى يمكن أن نطلق عليه سقف العالم، بين جبال التينتشان وبامير والهندوك، وكانت القوى الكبرى لهذا العصر تعتقد بأنها ستقرر مصير وقدر العالم. فتحارب البريطانيون والروس عدة مرات فى أفغانستان، وفى كل مرة كان عليهم إدراك أن هذا البلد لايمكن السيطرة عليه.

واليوم فإن الثمن الذى يمكن الخروج به من قلب آسيا، لايمكن تصور مداه الذى لاحدود له. فالثروات المعدنية الهائلة ـ مناجم الحديد والذهب، وعلى رأسها النفط والغاز الطبيعى حول منطقة بحر قزوين، قد أغرت القوى الكبرى من جديد، ولكن هذه المرة تأتى على وجه الخصوص أمريكا، وربما من بعدها القوة العظمى فى المستقبل «الصين». فهناك عوامل إغراء أو امتيازات لايمكن تقديرها، وليس من المستبعد نشوب «لعبة كبرى» جديدة، مالم يحدث وفاق سلمى بين الأطراف، وهناك خطر يتمثل فى طرح نسخة جديدة للتنافس والصراع على تلك الرقعة من الشطرنج الخاصة بوسط آسيا والتى سبق وأن تحدث عنها اللورد كرزون.

والمكسب المفترض من وراء ذلك كله هو الظفر بإمبراطورية النفط ـ نفطستان ـ التى تمتد من الموصل، مرورًا بكركوك والبصرة حتى بحر قزوين، ثم من عبادان الإيرانية، عبر الكويت حتى المملكة العربية السعودية. وهكذا فإن منطقة وسط

آسيا ـ ووفقًا للزاوية الجغرافية ـ تعتبر امتدادًا للشرق الأوسط، أو الشرق الأوسط ينظر إليه على أنه ملحقًا لمنطقة وسط آسيا. فإذا نظرنا إلى كل منطقة على حدة دون اعتبار للأخرى، فإن ذلك سيكون خطأً سياسيًا أوسذاجة سياسية.

والخبرة التاريخية تعلمنا أنه عندما يتعلق الأمر بالمادة الخام التى نطلق عليها النفط، فإن العلاقة الطبيعية بين المنتج والمشترى والعملاء تصبح مختلة، فهؤلاء يمثلون فى غالبيتهم دولاً صناعية من نصف الكرة الغربى، لايكتفون بعملية الشراء ويعتبرون البضاعة التى يرغبون فى الظفر بها فى المزاد من الأهمية بمكان حتى وصلت أطماعهم إلى رغبتهم فى السيطرة على أصحاب الأرض محل مطامعهم، وهم ملاك منابع النفط، أو على أقل تقدير وضعهم تحت تحكمهم ورقابتهم. وهنا يكمن أحد أسباب تلك الأزمات التى ابتلى بها العالم مع بداية القرن العشرين.

بعد مرور مائة عام لم تتغير الإحداثيات السياسية بشكل جوهرى، فالسيطرة على مصادر النفط لاتزال هدف بعض الدول الغربية المستهلكة له. ومن ثم لم تتغير الخريطة السياسية بين النيل والهندوكوش، أو بين موسكو والرياض، بشكل أساسى، إذا قورنت بما كانت عليه قبل مائة عام تقريبًا. فالنظام العالمى الجديد الذى تحدث عنه الرئيس بوش الأب فى نهاية حرب الكويت عام ١٩٩١، يكاد يكون صورة منقولة عن النظام القديم الذى تأسس مع بداية القرن الماضى، حتى لوتغير الديكور السياسى للمكان فى تفاصيله عبر عشرات السنين. فقد حصلت «شبه القارة» ـ كما أطلق البريطانيون على جوهرة تاجهم الملكى بالهند ـ على استقلالها. وخرجت إيران عام ١٩٧٩ ـ وإلى حين ـ من مجال النفوذ الأنجلوأمريكى، ولكن فى مقابل ذلك عوقبت بفرض عقوبات قاسية عليها.

وارتكب العراق بقيادة صدام حسين عام ١٩٩٠ خطأً، حين أراد الإفلات من النفوذ الأنجلوأمريكى بهجومه على الكويت. والغزو العسكرى على بغداد بعد هذا الخطأ بثلاثة عشر عامًا ماهو إلا الانتقام المؤجل لمثل هذا العصيان. وسوريا، رائدة القومية العربية ذات يوم، تعيش حياتها وحيدة.. بلا أنيس ولاجليس، ولاتملك فى كل الأحوال سوى القيام بمعارك تقهقرية شفهية. وإسرائيل تقاتل من أجل البقاء، والفلسطينيون يقاتلون من أجل قطعة صغيرة من تلك الأرض التى سلبت منهم ذات يوم. ولانجد بصيصًا من أمل يبشر بحل هذه الصراعات قريبًا على نحو مرضٍ.

الجزء الثانى

صراعات شرق أوسطية
صنعت فى أوروبا

الفصل الثالث

فلسطين ـ شعبان يتقاتلان على أرض

«نحن لا نستطيع أن نعطى ثمة وعود للعرب سواء من كان داخل فلسطين أو خارجها».

«إما أن يتحتم علينا وقف جهودنا من أجل الاستيطان أو يتعين علينا الاستمرار فيما بدأناه دون مراعاة للوضع الذى عليه أهل البلاد الأصليين».

«الوسيلة الوحيدة، التى نصل بها معهم (أى العرب) إلى اتفاق، لا تخرج عن فكرة السور الحديدى، أى بناء قوة فى فلسطين، لا تتأثر بأى شكل من الأشكال بضغوط عربية».

مقتطفات من مقال فلاديمير جابوتنسكى

«السور الحديدى» ـ ١٩٢٣[1]

تحققت تلك النبوءة المشئومة، سور لا يفصل بين الإسرائيليين والفلسطينيين فحسب، بل ويفصل كذلك بين الفلسطينيين والفلسطينيين. بدأت إسرائيل فى تشييده عام ٢٠٠٢. ويصل طول هذا السور إلى ٤٥٠ كيلو مترًا، ويبلغ ارتفاعه فى بعض مراحله نحو ٧,٥ متر. والتاريخ يروى لنا عن الصينيين الذين أرادوا بناء سور عظيم لحماية أنفسهم من أعدائهم. وأطلق على الحاجز الحدودى المنيع والذى تم تزويده بأسلاك شائكة وألغام وكلاب حراسة، حتى يفصل بين شرق أوروبا وغربها، «الستار الحديدى».

وذلك السور الذى أقامته إسرائيل يقسم تلك الأرض الضيقة التى يرتع فيها العنف منذ مائة عام على التقريب، إلى شطرين كبيرين، وفى الجهة الشمالية والغربية والجنوبية من هذا السور تقع إسرائيل. أما فى الجهة الشرقية من هذا الحاجز الجديد تقع الضفة الغربية لنهر الأردن والتى مزقتها مستوطنات إسرائيل وشوارعها التى شيدت خصيصًا للمستوطنين، وفوق ذلك تقطعت أواصر الفلسطينيين بجيرانهم العرب بالأردن بإقامة حد فاصل مزود بسور شائك

مرتفع. ويعيش داخل هذا السجن حوالى ٢,٥ مليون نسمة، يتحركون داخله فى زنزانات يقوم على حراستها مايقرب من ٤٥٠ نقطة تفتيش عسكرية وحواجز طرق يصعب الإفلات من قبضتها. وكثيرًا ما لايستطيع هؤلاء البشر الانتقال من زنزانة إلى أخرى دون توقفهم عند هذه الحواجز.

شيد السور ـ ذلك النصب التذكارى للفشل السياسى ـ بعد مرور ثمانين عامًا بالتمام والكمال، على كتابة رجل يدعى فلاديمير جابوتنسكى فى عام ١٩٢٣ لمقالتين بعنوان «السور الحديدى»، وقد صنعت هاتان المقالتان تاريخًا، حيث تبنى أيديولوجيات جابوتنسكى رؤساء وزراء إسرائيليون أمثال مناحم بيجين وبنيامين نتنياهو، ثم جاء أرئيل شارون ليكون المنفذ لها.

وفلاديمير جابوتنسكى هو أحد الوطنيين اليهود اللامعين، ولد عام ١٨٨٠ بأوديسا الروسية ونشأ فى أسرة يهودية ليبرالية، ثم عمل صحفيًا فى روما وفيينا. إلا أنه اكتسب شهرته الحقيقية ـ كما يرى أتباعه ـ باعتباره مؤسسًا «لحركة الإصلاح» الصهيونية، ويتزعمه لهذه الحركة الإصلاحية فقد عارض مسيرة الصهيونية السائدة بزعامة حاييم وايزمان وأتباعه والتى وصفها ـ من وجهة نظره ـ بالتخاذل الشديد. فصياغتهم للصهيونية كما يراها جابوتنسكى تنطلق بشكل خاطئ من أن العرب الفلسطينيين أغبياء يمكن كبح مشاعرهم عن طريق صياغة بلاغية مخففة للصهيونية. وأخذ جابوتنسكى فى المطالبة «بإعادة النظر» فى هذه السياسة الخاطئة وفقًا لرأيه، وذلك من خلال الاعتراف بسياسة الأمر الواقع، وهذا الأمر الواقع يكمن فى أن «جميع السكان الأصليين لن يتوقفوا عن مقاومتهم للمستوطنين الأجانب مادام لديهم أمل فى التحرر من خطر الاستيطان الأجنبى». ومن ثم فإن العرب سيقاومون الاستيطان الصهيونى بلا توقف بقدر توقعهم للحيلولة دون تحويل فلسطين إلى «دولة إسرائيل». «فإما يتحتم علينا أن نوقف جهودنا من أجل الاستيطان، أو يتعين علينا الاستمرار فيما بدأناه دون مراعاة للوضع الذى عليه أهل البلاد الأصليين. وهكذا يمكن الاستمرار فى الاستيطان تحت مظلة حماية لإحدى القوى التى لاترتبط بالسكان الأصليين، وخلف سور حديدى، لايقدر أهل البلاد على تقويضه»[٢].

حقًا لايقدر الفلسطينيون على تقويض نبوءة جابوتنسكى التى تحولت كلماتها إلى خراسانات مسلحة وأعمدة من الصلب. وقد تصل مراحل هذا السور الذى يقوم على سياسة الفصل العنصرى، فى ارتفاعه لدرجة تحجب رؤية شروق

الشمس وغروبها عن أعين الفلسطينيين الذين يعيشون بالقرب من ذلك السد المنيع. وفى سرعة البرق تغول هذا المارد شيئًا فشيئًا على أرض عربية مصادرة ـ وليس على «الخط الأخضر» الذى يميز الحد غير الرسمي الفاصل بين إسرائيل والأراضى المحتلة. ومع بناء هذا السور انقطعت صلة مايقرب من مائة وستين ألفًا من الفلسطينيين المتواجدين فى إحدى وخمسين قرية ومدينة عن المناطق المحيطة بهم، بل وأكثر من ذلك عن أراضيهم الزراعية. واقتلعت على أثر ذلك مايزيد على مائة ألف شجرة، وصودرت أراض تقدر مساحتها بأكثر من ١٣٤٤٠ دنم (١٣٤٤ هكتار)[٣].

لقد حمل السور الحديدى الذى تصوره جابوتنسكى قبل ثمانية عقود، أكثر من دلالة رمزية. فإن مانطق به أحد الصهاينة من حقيقة مرة، إنما كان يعبر عن استحالة وجود حل وسط وفقًا لطبيعة الأشياء، بين المستوطنين الدخلاء وأصحاب الأرض المستعمرة ـ تمامًا كما حدث ذات يوم بين الأوربيين المهاجرين والسكان الأصليين لأمريكا من الهنود الحمر. أما أن يأتى ذات يوم فيما بعد أحد المصححين لمجرى الأمور من أمثال أرئيل شارون ويقيم سورًا بين الفلسطينيين والإسرائيليين، فهذا لم يخطر أغلب الظن على فكر أحد، حتى على جابوتنسكى نفسه المؤمن بسياسة الأمر الواقع. والمؤرخ الإسرائيلى المرموق أفى شلايم الذى ولد ببغداد عام ١٩٤٥، ويعمل اليوم أستاذًا للعلاقات الدولية فى أوكسفورد، أخذ مفهوم جابوتنسكى عن «السور الحديدى»، وجعله عنوانًا لدراسة شاملة عن إسرائيل والعالم العربى، وانتهى كتابه بما آلت إليه أحداث عام ١٩٩٨. وكان عنوان الفصل الأخير لكتابه «العودة إلى السور الحديدى».

إن الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين الذى بلغ ذروة جديدة من خلال ممارسات أتباع جابوتنسكى ووريثه السياسى شارون، يمضى عليه اليوم أكثر من قرن من الزمان. ورغم ذلك: ففى رواندا وبوروندى، فى الكونغو وفى جنوب السودان وفى ليبريا، تعرض فى حروب أهلية فى العقود الأخيرة ملايين البشر لمذابح حقيقية. ورغم أن هناك تقارير دبلوماسية وصحفية عن هذه الأحداث الدرامية، إلا أن الجهد الذى يبذل من أجل تسوية الأحداث الدرامية الإفريقية يعد جهدًا متواضعًا، إذا ماقورن بمثيله المخطط للصراعات فى الشرق الأوسط. فكيف يمكن تفسير أن صراعًا يدور فى دائرة صغيرة ـ مقارنة بالمذابح الإفريقية ـ يهز ضمير الرأى العام العالمى بشدة، أو على أقل تقدير يشغل بال المشاهدين فى

أمريكا وأوروبا، فى الوقت الذى ينظر فيه إلى ساحات القتال بإفريقيا وما تسفر عنه من ملايين الموتى، على أنها مسرحًا لمعارك ثانوية؟

الواقع هو أن فلسطين تعتبر بالنسبة لكثيرين المصدر الروحى لأوروبا، فعبر مئات السنين كانت فلسطين مقصدًا للرحلات المقدسة حيث تذكر أماكنها فى العهد القديم والعهد الجديد، وحيث يوجد بها روافد القيم الخاصة بالحضارة الأوروبية واليهودية والمسيحية، وقل إن شئت اختصار القول: حيث «نشأ الغرب المسيحى». وكما تسبح أسماك السالمون بمشقة بالغة فى مواجهة اتجاه الأمواج، حتى تصل إلى مراتعها الأصلية (على حد تعبير المؤرخة الأمريكية باربارا توخمان)، فإن الناس يرتحلون حتى اليوم إلى فلسطين بحثًا عن المصدر لوجودهم الأخلاقى والثقافى[٤].

«السبب الذى من أجله نولى وجوهنا شطر فلسطين، يرجع إلى أن فلسطين موطننا. لقد استخدمت ذات مرة هذا التعبير، وتأبى نفسى استخدام غيره عوضًا عنه». بهذه الكلمات القاطعة والتى تكاد ترفض سواها من باب الوسطية، توجه فى عام ١٨٧٥ كبير أساقفة مدينة يورك البريطانية، إلى أعضاء جمعية «صندوق استكشاف فلسطين». إن فلسطين ـ كما ذكر كبير الأساقفة فى حديثه ـ منحته تلك القوانين التى يعيش حياته وفقًا لها.

لم يكن كبير أساقفة يورك هو أول من لم يستبعد القيام باستيطان أو الاستحواذ على الأرض فى فلسطين من أجل البحث عن جذوره الثقافية؛ فقد سبقه آخر وهو أنتونى أشلى كووبر، الدوق السابع لأسرة شفتسبرى. وعن اقتناع بروتستانتى محض، بدأ عام ١٨٤٠ فى نشر فكرته، التى تقوم على توطين اليهود فى فلسطين. وقد نظر الدوق للكتاب المقدس على أنه كل لا يتجزأ، وأطلق على اليهود «شعب الله الأزلى»، وآمن بعودة المسيح المخلص، وكان بصفته محبًا للإنسانية ومسيحيًا مؤمنًا، على قناعة شديدة العمق بمهمته التبشيرية. ولم يقتصر الدعاة الأوائل الذين نادوا بعودة اليهود إلى فلسطين، لم يقتصروا على يهود أوروبا فحسب، بل امتدوا كذلك ليشملوا البروتستانت المتدينين الأنجلوساكسونيين. واليوم يمكن وصف أولئك المفكرين الأوائل المؤمنين بالعودة الأوروبية إلى فلسطين، بأنهم «المسيحيون المتصهينون». ويستند فكر الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش إلى عقيدة إحدى المجموعات البروتستانتية المتصهينة.

لقد احتضن السياسيون بكل سرور المشروع الذى طرحه الأساقفة والنبلاء الخاص بعودة الغرب إلى جذوره. فكتب وزير خارجية إنجلترا اللورد بالمرستون فى ١١ أغسطس عام ١٨٤٠ إلى السفير البريطانى فى إسطنبول، عاصمة الدولة العثمانية العالمية، الخطاب التالى:

«يدور فى الوقت الحاضر بين يهود الشتات فى كل أرجاء أوروبا تصور قوى بأنه قد آن الأوان لعودة شعبهم إلى فلسطين». وأعتقد أن الأمر بالنسبة للسلطان العثمانى، الذى تقع فلسطين فى مناطق سيادته ـ هكذا كتب بالمرستون ـ سيلقى منه «اهتمامًا جليًا» فى تأييد الهجرة اليهودية، نظرًا لأن اليهود بثرواتهم سينعشون مصادر دخل السلطان» وختم الوزير خطابه بتوجيه النصح بأن يتولى السفير أمر مطالبة الحكومة التركية بالعمل على تشجيعها على هجرة يهود أوروبا.

فى هذا الخطاب الذى كتب منذ أكثر من ١٦٠ عامًا، تم تحديد ذلك النموذج التاريخى الذى تحركت بريطانيا العظمى على أساسه فى تصريح بلفورعام ١٩١٧: هناك شعب يطالب شعبًا آخر بأن يفسح المجال لوجود شعب ثالث. إلا أن المشكلة فى ذلك الوقت أن فلسطين، وعلى عكس ما اعتقده البعض، لم تكن دولة بلا شعب. وفى خطاب بالمرستون، وفى تصريح بلفور، وفى النوايا الورعة التى عبر عنها دوق شفتسبرى نرى بوضوح ازدواجية الدافع (ربما نتحدث اليوم عن ازدواجية الأخلاق) فى السياسة البريطانية. إن ما عبر عنه الدوق شفتسبرى يعكس بحث الغرب عن جذوره، وكان الكتاب المقدس هو الأساس الذى اعتمد عليه. وبالمرستون يمثل من ناحية أخرى الإمبريالية البريطانية التى أصبح السيف أساسها الذى تقوم عليه.

أما الطامة الكبرى التى حلت بفلسطين وصارت فجأة من جديد محور الاهتمام الأوروبى، فكانت دائمًا القدس. فعلى مدار مئات السنين كانت المدينة التى امتدحها اليهود والمسيحيون والمسلمون على اعتبارها موطنًا دينيًا، لاتزيد على مدينة صغيرة لاأهمية لها فى ربوع الدولة العثمانية ذات الشعوب المتعددة. إذ عاش حتى أوائل القرن التاسع عشر فى القدس، وهى المدينة «المقدسة» (٤٠٠٠) مسلم و(٢٧٥٠) مسيحيًا و(٢٠٠٠) يهودى. وبعد مرور ستة عقود بعد ذلك، كانت القدس المدينة التى أراد أن يستقر فيها العديد من المؤسسات

المسيحية. ففى عام ١٨٦٠ قامت جماعة الإخوان السويسريين الألمان ببناء دار أيتام، وفى عام ١٨٧١، أسس بروتستانت ولاية فورتمبرج «المستعمرة الألمانية» وكان بها كنيسة ومدرسة ومستشفى. وأخيرًا فى عام ١٨٨٠ جاءت عائلة ستافورد الأمريكية وأسست إرسالية تبشيرية بروتستانتية، تلك التى دخلت فى تاريخ المدينة باسم «المستعمرة الأمريكية»[٥]. والمقر السكنى لعائلة ستافورد هو الذى يضم اليوم نزلاء «فندق المستعمرة الأمريكية».

اندمـــاج أم تحـــرر؟

فى الوقت الذى التمس فيه المسيحيون فى القدس الشفاء الروحى لأنفسهم، أصبحت الهجرة إلى فلسطين وإلى القدس، التى عادت الحيوية إليها من جديد، بالنسبة لكثير من اليهود فى ازدياد مطرد حتى وصلت إلى مسألة حياة أو موت. فعلى مدار مئات السنين كانت تحية الناس لبعضهم «العام القادم فى القدس» أقرب فى دلالتها إلى الجانب الروحانى، ثم أخذ هذا الحنين تدريجيًا طبيعة سياسية وذلك مع انتشار معاداة السامية بشدة فى أوروبا. وما أكثر ماجرى من مناقشات بين اليهود حول سؤال حاسم مؤداه: هل يتعين على اليهود التكيف مع الشعوب المضيفة؟ (وهو سؤال صاغه فيما بعد تيودور هرتزل)، إلى حين إنجاز المهمة المكونة لهويتهم، أم يتعين عليهم الاندماج فى الشعوب الأخرى؟ هل يتعين عليهم الحفاظ على هويتهم اليهودية وتطويرها وتحرير أنفسهم بذلك من الشعوب المضيفة؟

ذهب موسى مندلسون (١٧٢٩–١٧٨٦) لأبعد من ذلك حين قال: إن التحرر والاندماج ليسا ضدين يستعصيان على القهر، فاليهودية ديانة عقلانية والتكيف مع ثقافة الشعوب المضيفة لاتعنى على الإطلاق التخلى عن الهوية الذاتية[٦]. كما عبر بشكل آخر عن ذلك الأديب هاينريش هاينى (١٧٩٧–١٨٥٦). فالتحول إلى المسيحية بالنسبة له يعنى «تذكرة الدخول» إلى الحضارة الأوروبية. كما ابتغى كل من راحيل فارنهاجن ولودفيج بورنهى بتعميدهم الكنسى التكيف مع المجتمع الذى يعيشون فيه. ولكن سرعان ماندم هاينريش هاينى على دخوله المسيحية قائلاً: «إننى الآن مكروه من المسيحيين واليهود، ولاأعيش منذ ذلك الحين إلا فى تعاسة». وقد نظم هاينى فى ذلك الأبيات التالية:

«سعيت إلى الصليب ليحتويك
فما لان الصليب ولا احتواك
زلفت إلى ما لايطاق
فذقت بمره ما لايطاق
حتى أيام مضت أراك شنوطًا من عذاب».

وقد أكد الكاتب اليهودى عاموس إلون على هذه التجربة الأليمة التى خاضها هاينريش هاينى من جراء تعميده بالكنيسة. ففى كتابه «الإسرائيليون ـ آباء وأبناء»، ناقش فكرة أن اليهود عانوا فى ظل العداء للسامية، سواء منهم من اندمج أوتحرر. ورغم جهودهم الرامية إلى التكيف مع المجتمع الذى يعيشون فيه بطريقة أوبأخرى يرتضيها المجتمع، إذ بهذا المجتمع يضن عليهم بالمساواة.

وتزامن مع النقاش حول مسألة الاندماج أم التحرر إثارة موضوع آخر، كان يدور حول التساؤل عن إمكانية وجود حل لمشاكل اليهود فى أوروبا بأفضل الطرق، وذلك من خلال تأسيس وطن قومى لهم. وهناك وثائق أدبية متعددة تشهد على هذا التطور؛ فرئيس وزراء بريطانيا اللاحق بنيامين ديزرائيلى (١٨٠٤-١٨٨١)، الذى تحول عن الديانة اليهودية إلى المسيحية، جعل إحدى الشخصيات الرئيسية فى روايته «ألورى» تقول: «يسألوننى عما أتمناه، وإجابتى تقول أن يكون لنا وجود قومى، وهو ماينقصنا».

وفى عام ١٨٧٦ قال دانييل ديروندا فى رواية جورج إليوت التى تحمل نفس الاسم: «الفكرة التى تسيطر على خاطرى ومشاعرى، هى أن أعيد لشعبى وجودهم السياسى وأن أجعل منهم شعبًا من جديد، أعطيه مركزًا قوميًّا». وأخيرًا فى عام ١٨٦٢ نشر موسى هيس (١٨٨٢-١٩٧٥) كتابًا بعنوان: «روما والقدس ـ آخر إشكالية فى القوميات» يقول فيه: «إن الفكرة التى أعتقدت أنها ستبقى إلى الأبد حبيسة صدرى، تقف الآن حية نصب عينى: إنها فكرة قوميتهم (أى الشعب اليهودى)».

وقد كان هيس على قناعة بأن مشكلة العداء للسامية بألمانيا لايمكن إنقاذ اليهود منها بطريق الاندماج أوالتحرر أو أى إجراءات إصلاحية بالمجتمع: «وحتى التعميد لن يخلص اليهودى من كابوس كراهية الألمان لليهود».

كما رأى ليو بينسكر، الذى ولد بأوديسا، فى مسألة اضطهاد اليهود فى روسيا أن الأقلية اليهودية فى مأزق حقيقى، وكتب مستسلمًا أن مرض المعاداة للسامية لاشفاء منه. وأضحى وضع اليهود، لاسيما فى شرق أوروبا بمرور الوقت لايحتمل. فبعد اغتيال القيصر ألكسندر الثانى عام ١٨٨١، تعرض اليهود فى مدن كثيرة بالقيصرية لأعمال عدوانية مسلحة. وفى عام ١٩٠٣ بطشت غوغاء مقاطعة كيشينو بمولدافيا عدة أيام بالمواطنين اليهود، وأسفر ذلك عن مقتل خمس وأربعين وجرح ستمائة يهوديًا، وتحول عدد ١٥٠٠ منزل ومتجر لليهود إلى أطلال. لقد رأى اليهود الأوروبيون فى الهجرة إلى فلسطين السبيل الوحيد للإنقاذ. ودون عاموس إلون، متأملاً أحداث التاريخ، ملحوظته عام ١٩٨١: «أصبحت الصهيونية (أى الهجرة إلى فلسطين) حتمية بالنسبة لليهود»[٧].

إلا أن الهجرة صارت تعنى الصراع مع العرب المقيمين فى فلسطين، والعرب لاذنب لهم على الإطلاق فى مسألة العداء للسامية المنتشر فى أوروبا؛ لذلك اعتبروا من الظلم البين أن يحملوا أوزار الأوربيين فى عدائهم للسامية وعواقب المحرقة «الهولوكوست». وقد كان العرب على استعداد لاستقبال المهجرين اليهود، ولكن لم يكن لديهم استعداد أن يتركوا حكم بلادهم للاجئين السياسيين. فكتب العالم الفلسطينى وليد خالدى عام ١٩٨٧ يقول: «لم يستطع الفلسطينيون فهم السبب فى ضرورة تحملهم فاتورة الهولوكوست، ولم يدركوا لماذا لم يكن من العدل بالنسبة لليهود أن يعيشوا أقلية فى دولة فلسطينية، ولماذا من العدل فى مقابل ذلك (بالنسبة للفلسطينيين)... أن تتبدد الأحوال فى بلادهم بين عشية وضحاها ليسودها حكم أقلية أجنبية...»[٨].

«الدولة اليهودية» لتيودور هرتزل

فاجأ تيودور هرتزل عام ١٨٩٦ الرأى العام الأوروبى بفكرة مدوية عندما كتب فى منشور صغير يحمل عنوان «الدولة اليهودية» اتسمت صياغته بالاعتداد الشديد بنفسه، يقول: «لو قدر لجلالة السلطان أن يمنحنا فلسطين، فإننا سوف نلتزم فى مقابل ذلك بتدبير كافة الأمور المالية لتركيا، عندئذ سوف يتسنى لنا أن نبنى لأوروبا هناك سدًا منيعًا فى مواجهة آسيا، وسوف نكون هناك بمثابة نقطة الحراسة المتقدمة التى تفصل حضاريًا بين أوروبا وبين البرابرة». لم يفسر

تيودور هرتزل «مشكلة اليهود» بأكثر من كونها مشكلة ثقافية أو من كونها مشكلة سياسية داخلية للشعوب المضيفة. وكتب تيودور هرتزل يقول: إن مشكلة اليهود «مشكلة قومية»، «وحتى يتسنى حلها، فإنه يجب العمل على جعلها مشكلة سياسية عالمية، يتم تسويتها فى إطار مجلس الشعوب المحتضرة»[٩].

ولد تيودور هرتزل فى الثانى من مايو عام ١٨٦٠ كأحد مواطنى دولة الهابسبورج متعددة الشعوب فى بودابست. وظل طيلة حياته يهوديًا لم يهتم بالنواحى الدينية إلا قليلاً. ولكنه كان يمتلك عقلية مثقفة شديدة الذكاء، وصار صحفيًا بارعًا لامعًا. فقام بتدوين يومياته فيما بعد بدقة عن أعماله فى اللوبى الصهيونى وذلك لإيمانه الشديد برسالته، وفكر تيودور هرتزل فى بداية حياته فى اعتناق شكلى للديانة المسيحية حتى يمكنه الإفلات من العداء للسامية، ولكن العداء الذى أحاط به من كل جانب، قضى على جهوده المبذولة من أجل الاندماج. فى نفس الوقت وقعت سلسلة من الأحداث، التى كرست رؤيته وموقفه الشخصى من أن المشكلة اليهودية هى فى واقع الأمر مشكلة قومية. فقد عملت إيطاليا على حل مشكلتها القومية باتحاد جميع مناطقها فى عام ١٨٧٠. وصربيا التى انتفضت فى بداية القرن التاسع عشر لأول مرة فى مواجهة الباب العالى العثمانى، وصلت لاستقلالها الكامل فى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨. وقد تم التوصل إلى حل مشكلة ألمانيا القومية، والتى تقع فى قلب القارة، وذلك عن طريق تأسيس الرايخ الألمانى عام ١٨٧١. وتبلورت بالتدريج فى ذات الوقت وفى ظل هذه التطورات، فكرة القومية اليهودية، هذه القومية الجديدة التى دفعت إلى الأمام من جديد تنشيط الاتجاه الأوروبى التقليدى فى العداء للسامية، ولكن إحياء العداء للسامية هذه المرة شجع بدوره فكرة القومية اليهودية، وأطلق على هذه النزعة القومية اليهودية اسم «الصهيونية» نسبة إلى جبل صهيون بالقدس.

وفى عام ١٨٩٤ شاهد تيودور هرتزل الذى عمل فى ذلك الوقت مراسلاً فى باريس لصحيفة «نويى فرايى بريسى (الصحافة الحرة الجديدة)» المرموقة بفيينا، فشل الاندماج والتحرر وظهور عنصرية جديدة على الساحة. وفى يوم ١٩ ديسمبر ١٨٩٤ بدأت فى باريس قضية التجسس الذى اتهم فيها النقيب الفريد درايفوس وكان أحد أفراد عائلة يهودية رفيعة الشأن. واتهم زورًا فى هذه القضية ببيع وثائق هيئة أركان الحرب الفرنسية إلى الملحق العسكرى الألمانى، وصدر حكم إدانة لدرايفوس وتم تجريده من الرتبة العسكرية وترحيله، ولم يسترد

اعتباره وتبرئته إلا فى عام ١٩٠٦. كانت هذه القضية والموجة المصاحبة لها من العداء للسامية، بمثابة تحول لتيودور هرتزل الذى رأى أنه إذا كان شعب متحضر مثل الشعب الفرنسي، قد انزلق إلى هذا المنحدر، فلا أمل على الإطلاق لليهود فى أوروبا. وبعد مرور عام بالتمام والكمال خرج على الرأى العام بمنشوره عن «الدولة اليهودية».

تحول «المسألة اليهودية» إلى مسألة عالمية

فى أقل من ربع قرن وبعد أن قرر البروتستانت المتصهينون أمثال الدوق شفتسبرى وبالمرستون استخدام الكتاب المقدس والسيف لتحقيق غرض الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ظهر على الساحة بظهور تيودور هرتزل فى ذلك الوقت أصحاب الشأن أنفسهم بكل ما يمتلكون من قوة. ففى السنوات الأخيرة له من حياته ـ توفى هرتزل فى ٣ يوليو ١٩٠٤ عن عمر لم يتجاوز ٤٤ عامًا ـ وضع مؤلف «دولة اليهود» الأسس المعمول بها حتى اليوم بشكل لامثيل له لأعمال اللوبى الصهيونى الخاصة بمشروع عودة اليهود إلى فلسطين، وقد تمكن فى فترة وجيزة، وكما تنبأ بذلك عام ١٨٩٦، أن يحول «المسألة اليهودية» إلى «مسألة عالمية».

وكما كان الحال فيما بعد بالنسبة لرجال من أمثال مارك سايكس واللورد بلفور، فلم تلعب آمال الشعب صاحب الأرض أى دور فى تنفيذ المشروع. سجل تيودور هرتزل فى إحدى يومياته بتاريخ ٢٥ إبريل ١٨٩٦ حديثًا له مع الدوق الأكبر لمدينة بادن، ذكر فيه: «إذا كان مقدرًا تقسيم تركيا فى المستقبل المنظور، فإنه سوف يكون بالإمكان خلق «مركز جذب لإقامة دولة» فى فلسطين. وللحصول على تركيا أتصور مساهمتنا فى أشياء كثيرة. أتصور قدرتنا على التحكم بشكل قاطع فى ميزانية دولة السلطان فى مقابل تخليه عن ذلك الإقليم الذى لاقيمة كبرى له فى الاحتفاظ به».

ورغم أن الدوق الأكبر أبدى اهتمامه بالخطة، إلا أنه لم يرغب فى الربط بينه وبينها فى العلانية، إذ تخوف سموه من تجريده من صفة العداء للسامية. وفى موضع آخر من مدونات يومياته أعاد تيودور هرتزل تدوين حديث قصير له مع الدوق الأكبر: «قمت بعد ذلك بتطوير مايتعلق بالامتيازات العامة التى ستعود

على أوروبا فى إنشاء دولة اليهود. سنعمل على شفاء الشرق من أمراضه؛ سنقوم ببناء شبكة سكك حديدية فى اتجاه آسيا، الطريق العسكرى للشعوب المتحضرة. فقال الدوق الأكبر: وهذا من شأنه أن يعمل على حل المسألة المصرية، إذا إن إنجلترا تقبض بيد من حديد على مصر لا لشيء إلا لأنها مضطرة بذلك لتأمين طريقها إلى الهند. والواقع أن قيمة مصر أكبر من أية قيمة»[١٠].

وحين قام القيصر فيلهلم الثانى برحلته إلى الشرق عام ١٨٩٨، سمح لتيودور هرتزل بمقابلته مرتين. جرت أول مقابلة فى أسطنبول بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩٩٨، علق فيها جلالته متكبرًا ساخرًا، على أنه يوجد بين أبناء جلدة هرتزل «عناصر» «يناسبها تمامًا استيطانها في فلسطين». أما اللقاء الثانى فقد جرى بتاريخ ٢ نوفمبر، حيث التقى كلاهما فى الأرض الموعودة نفسها، فى حيفا. ولمح القيصر الذى كان يمتطى جواده الأبيض، هرتزل يقف فى جمع من الناس. فسأله القيصر «كيف الأحوال؟». «أشكر جلالتكم، أتأمل نفسى وأحوال الأرض»، وأجرى معه حديثًا لم يمتد طويلاً، ثم علق قائلاً إن الطقس فى فلسطين حار جدًا، ويحتاج إلى مياه كثيرة، ولكنها تضم فى جنباتها طاقات جمة.

ويطبيعة الحال فإن العجرفة الإمبريالية التى أرادت بها القوى الأوروبية التصرف فى أرض أجنبية لم تلق قبولاً لدى أصحاب الشأن. فمن المنظور الشرقى، وليس من منظور المحورية الأوربية، فإن المشكلة كانت تبدو مختلفة تمامًا، لاسيما وأن العالم الإسلامى فى جميع أركانه لم يكن يعلم حتى ذلك الحين بالإثم الأوروبى المتعلق بالعداء للسامية. فسكان فلسطين ـ عرب وأتراك وقليل من اليهود ـ كانوا يعيشون فى حياتهم اليومية فى سلام إلى حد كبير جنبًا إلى جنب. ولم يكن العرب حقيقة على مدى أربعة عشر قرنًا من التعايش بين العرب واليهود، يضمرون عداء للسامية فى معظم الأوقات، إن لم يكن فى جميعها؛ وذلك لأن غالبية العرب كانوا على الإسلام، كما أوضح عالم الإسلاميات الأمريكى برنارد لوس، ولكن التعاليم فى الإسلام لاتأخذ مصادرها من الكتاب المقدس، والأطفال المسلمون لا يتم تنشئتهم على قصص اليهود ومابها من فكرة قيام اليهود بقتل الرب، إذا أن هذا التصور عن قتل اليهود للرب يرفضها القرآن ويعتبرها نوعًا من التجديف والسخف[١١].

وكلمة «بوجروم» أى «اضطهاد اليهود»، هى كلمة روسية الأصل وتعنى الانتفاضة، كما تعنى التخريب، وهو مالايعرفه تاريخ العالم الإسلامى. ومع

تشجيع هجرة اليهود، فإن أوروبا قد صدرت مشكلة العداء للسامية إلى الشرق. فلا عجب من أن السلطان العثمانى لم يكن لديه أى سبب وجيه يجعله يحل مشكلة العداء للسامية فى أوروبا، والتى تخصها وحدها دون غيرها، من خلال تنازله لهم عن قطعة ثمينة من الأرض.

ذكر تيودور هرتزل فى إحدى يومياته المؤرخة فى ١٩ يونيو ١٨٩٦ حديثًا دار بين شخص موضع ثقته وبين السلطان العثمانى، حيث قال الحاكم العثمانى المعتلى عرش الدولة العثمانية متعددة الشعوب: «إننى لا أملك التفريط فى شبر من الأرض، لأننى لاأمتلكها، ولكنها ملك شعبى، وقد دافع شعبى عن هذه الولاية بكل نفيس، ويتعين علينا أن نحميها بدمائنا، قبل أن تنتزع منا... فإذا تم تقسيم دولتى فربما يحصلون على فلسطين دون أى مقابل. ولكن عليهم أولا أن يقسموا أحشاءنا، لكنى لن أمنحهم المشرحة اللازمة لإتمام هذا الأمر»[١٢].

لم يكن من اليسير الحصول على فلسطين بسلام، وهذا ماتعين على تيودور هرتزل أن يدركه، حتى لو لم يعلن عن تلك الحقيقة المدركة إلا نادرًا.

«بسم الله ـ اتركوا فلسطين فى سلام» هذه الكلمات ترجع إلى خطاب كتبه عام ١٨٩٩ يوسف ضياء الخالدى، والى القدس من قبل الباب العالى، كان ذلك الخطاب موجها إلى زادوك خان، حاخام فرنسا، واستطرد فى خطابه قائلاً: «أرى من الناحية النظرية أن المثال الصهيونى طبيعى تمامًا، وحسن، وعلى حق. فمن عساه يستطيع إنكار حقوق اليهود فى فلسطين؟» وأضاف قائلاً: «ويعلم الله أن هذه فى الحقيقة أرضكم ويشهد على ذلك التاريخ». لكن فلسطين اليوم أصبحت جزءًا مأهولاً من الدولة العثمانية. فلو استمر الصهاينة فى التمسك بنواياهم، فإنهم يغامرون بذلك فى إحداث انتفاضة لايستطيع حتى الأتراك أنفسهم إخمادها.

وحينما علم تيودور هرتزل بهذه الرسالة، أراد أن يخفف من روع اليهود، فقال: لاينبغى على أحد التخوف فى شىء من الهجرة اليهودية، لأن اليهود لايخفون وراءهم قوة عسكرية[١٣]. وبعد ذلك راح تيودور هرتزل فى روايته «الأرض القديمة الجديدة» ينسج تصوره عن مدينة يهودية فاضلة بفلسطين، وذكر أن فلسطين ستشهد قريبًا جدًا ازدهارًا وسيتوجه العرب بالشكر للصهاينة على حسن الصنيع الاستعمارى. كان ذلك نموذجًا نمطيًا للفكر الاستعمارى وهو

ما أراد تيودور هرتزل الترويج له فى روايته «الأرض القديمة الجديدة»: سواء أرادوا أن يتقبلوا حسن صنيعنا أو يرفضوه، فإن شعوب البلاد المحتلة ستعود عليهم فوائد الإنجازات الحضارية التى يؤديها سادة أوروبا الجدد.

هناك صهاينة عملوا على تهدئة أنفسهم وطمأنتها من خلال كبت مجريات الواقع. ومن بين هؤلاء الذين خدعوا أنفسهم عامدين متعمدين نذكر إسرائيل تسفانجفيل - أحد معاصرى تيودور هرتزل الذى كانت فلسطين بالنسبة له ببساطة شديدة «أرض بلا شعب، تنتظر شعبًا بلا أرض»[١٤].

كانت الكيفية التى تشير إليها جميع التوقعات فى ردود فعل العرب المقيمين بفلسطين على المخططات المكثفة لهجرة اليهود - كانت بمثابة الشغل الشاغل للصهاينة على الدوام. فالمفكر اليهودى أحاد هاعام، يعتبر أحد ممثلى هذا الاتجاه الذى ينظر فيه إلى «العرب على أنهم سذج» وأنهم إلى حد بعيد «مجردون من العقل والذكاء»[١٥]. وعلى الرغم من أن أحاد هاعام توقع محدودية المقاومة العربية، إلا أنه لم ير فى أهل البلاد خطرًا حقيقيًا على المشروع الصهيونى الكبير.

وهناك صهيونى آخر - إسحاق إيبشتاين - وهو مدرس للغة الروسية أقام فى فلسطين، والذى نشر عام ١٩٠٧ مقالاً يحمل عنوانًا مميزًا لمشكلة الصهاينة: «مشكلة خفية». وذكر فى هذا المقال قوله: إن من المشكلات الصعبة التى تولدت عن مشروع الميلاد الجديد للشعب اليهودى على أرضه الحقيقية، السؤال عن «علاقتنا بالعرب»[١٦].

وفى تلك الأثناء لم يكن مؤسس الصهيونية السياسية ولا رفيق عصره الجاهل إسرائيل تسفانجفيل، هما اللذين قد شرعا فى تحقيق خطة هرتزل الكبرى على أرض الواقع؛ إذ بدأت الهجرة اليهودية إلى فلسطين قبل المشروع الأمبريالى المقترح من تيودور هرتزل لدولة اليهود بعقد ونصف. ففى عام ١٨٨٢، فى الوقت الذى عاش فى فلسطين ما يقرب من ٢٤٠٠٠ يهودى، كانوا يعيشون فى ظروف متواضعة بين العرب الذين بلغ تعدادهم حوالى ٦٠٠٠٠٠ نسمة، بدأت الموجة الأولى من هجرة يهود شرق أوروبا (وقد أطلق عليها المؤرخون اسم «علياه»)، وقد ضمت هذه الموجة أولئك الذين أرادوا الهروب من العداء للسامية فى شرق أوروبا، وكان من بينهم لاجئون سياسيون، حصلوا آنذاك على حق اللجوء فى فلسطين، ثم ارتفع عدد السكان اليهود بفلسطين عام ١٩١٤ إلى ٨٥٠٠٠ يهودى. وفى عام ١٩٣١ عاش

بجانب (٧٥٠٠٠٠) مسلم عربي و(٨٨٩٠٧) مسيحي عربي، ١٧٤٦٠٦ يهودى فى فلسطين. ومع نهاية عام ١٩٣١ بلغ تعداد سكان دولة إسرائيل التى تأسست يوم ١٥ مايو على جزء من فلسطين نحو (٨٧٢٧٠٠) نسمة، بلغ عدد اليهود فى ذلك الشطر (٧٢٦٠٠٠)، أما العرب فكان تعدادهم (١٤٦٠٠٠) نسمة[١٧]. فقد لاذ بالفرار ما يقرب من (٧٠٠٠٠٠) عربى من الجيش الإسرائيلى. ونجا فى المقابل عدد لا بأس به من اليهود بأنفسهم من جحيم النازيين. أما بعد عام ١٩٤٥ فقد هاجر إلى فلسطين من كتبت له الحياة إثر أعمال الإبادة النازية لليهود، بالإضافة إلى إدراكهم حقيقة استحالة الحياة من جديد في أوروبا المدمرة من جراء الحرب العالمية، ولم يكن أمامهم من سبيل آخر سوى أرض الميعاد.

وإذا كانت المحرقة (الهولوكوست) قد دفعت بخطوات مسرعة إلى تأسيس دولة تيودور هرتزل اليهودية، إلا أن ذلك لم يكن السبب الوحيد فى تأسيس دولة إسرائيل، لأن المشروع اليهودى البروتستانتى الكبير فى استرداد فلسطين دينيًا وقوميًا، قد سبق الهولوكوست بنحو قرن من الزمان.

لم يكن من المستحيل تحقيق ما تم إحرازه من تقدم على يد المستوطنين اليهود على مدار عشرات السنين قبل حدوث الهولوكوست، لأن كثيرًا من العرب قد وضعوا مصالحهم التجارية فوق وعيهم القومى، آملين فى تحقيق مكسب سريع وله قيمته، فباع كثير من العرب أرضهم إلى المهاجرين الأثرياء الراغبين فى الشراء بأى ثمن. وليس أدل على ذلك من عائلة (سرسق) العربية التى نقلت ملكية أراضيها الزراعية الشاسعة بأكملها، بما فى ذلك أملاكها الزراعية حول منطقة «فوله» بقلعتها التى ترجع إلى عهد الصليبيين، إلى المستعمرين اليهود الجدد، فى الفترة ما بين عامى ١٨٩١ و١٩٢٠ والتى كانت قد حصلت عليها عام ١٨٧٢ من الحكومة التركية بسعر زهيد لا يتصوره عاقل، ولأنهم بخسوا حق أرضهم النفيسة ببيعها مقابل عشرة أضعاف ثمنها الأصلى، فقد ارتكبوا بذلك خيانة فى حق العرب ـ كما يحكم عليهم اليوم كثير من الفلسطينيين. وإذا افترضنا عدم نمو الوعى القومى العربى فى ذلك الحين عما هو عليه اليوم، إلا أن هناك أصواتًا تحذيرية قد ارتفعت بالفعل فى مواجهة ما كان يحدث. كيف ننظر لهذا الصنف من البشر ـ هذا سؤال طرحته جريدة «الكرمل» التى كانت تصدر بحيفا ـ الذين يبيعون أرضهم إلى الصهاينة، والذين «يتصرفون كعملاء لهم» ويقومون على خدمة الصهاينة وهم بذلك خانوا وطنهم؟

وكمـا يبدى اليوم بعض الفلسطينيين فى الخفاء إعجابهم بدولة إسرائيل القائمة على مجتمع ديمقراطى مفتوح، فقد كان هناك أيضًا قبل مائة عام من يحنى رأسه أمام إنجازات الصهاينة. ورغم كل ما وجه من نقد إلى تطاول الصهاينة، فإن رجلاً مثل نجيب نصار وهو مسيحى عربى ومؤسس جريدة «الكرمل» قد أعرب عن تقديره واحترامه المطلق لعبقرية التنظيم السياسى الخاص بالنازحين، لا سيما لشخصية تيودور هرتزل الديناميكية، ويذكر عنه قوله: إن الشعب اليهودى كان مشتتًا فى جميع أرجاء المعمورة لمدة ألفى عام، حتى قدوم هرتزل، ولكن اليوم لديه على نحو مفاجئ منظمة موحدة، فهو يشترى الأرض ويتحدث بصوت واحد، «ولو فعلنا ما يفعلوه سننتصر»، كان ذلك تحذير نجيب نصار، إلى أهل وطنه المترددين فى خطاهم والمصرين غالبًا على الثبات الشرقى، وتعالى صوت الصحفى نجيب نصار فى وجه أبناء جلدته من العرب المترددين الذين أصيبوا بآفة التقاعس التى حلت بالأمم الشرقية: «دعونا نتساوى بهم، لقد علمنا قانون الحضارة أن الأرض لمن يزرعها»[١٨]. نعم لقد باع كثير من العرب أرضهم من ضنك معيشتهم وسوء اقتصادهم، وملاك الأرض لم يكن فى استطاعتهم مقاومة تلك الأسعار المرتفعة بشكل خيالى والتى عرضها عليهم النازحون اليهود.

والسؤال الذى يطرح نفسه يدور حول ما إذا كانت المقاومة المدنية والحضارية أيضًا التى هى مطلب نجيب نصار ـ لأنه لم يتجاوز نداء نصار شيئًا آخر ـ ستكلل بالنجاح، سؤال تعذر الإجابة عليه، إذ أن السياسة الاستعمارية الصهيونية التى عملت بريطانيا العظمى على تدعيمها تركت فى آخر المطاف آثارها على الكيان الشخصى لكل عربى فلسطينى: «لا يوجد عربى واحد لايشعر بجرح من جراء دخول اليهود إلى فلسطين، ولا يرى نفسه جزءًا من الجنس العربى. وفلسطين فى عينيه منطقة مستقلة، وقديمًا كان لها وجه عربى، أما الآن فتغير الوجه»[١٩]. تلك هى الرؤية التى عبر عنها الصهيونى موشى شارت شيرتوك، الذى أصبح فيما بعد وزير خارجية إسرائيل، عام ١٩٣٦ فى إطار اجتماع اللجنة المركزية لحزب ما باى (وهو الحزب السابق لحزب العمل). وقد كان شيتروك على وعى بما أحدثه الاستعمار اليهودى فى نفوس العرب، حين قال: «إن الخوف ـ الخوف وحده ـ هو العامل الرئيسى المؤثر فى السياسة العربية».

وهذا الخوف هو الذى وصل بالأمر إلى الاصطدام بالمعارضين على الملأ، ثم فى النهاية إلى عنف مطلق بلا حدود. ففى عام ١٩٢١ قام عرب القدس بمظاهرات ضد الصهيونية، وفى عام ١٩٢٩ قُتل يهود فى الخليل على يد عرب ثائرين، وفى الأعوام من ١٩٣٦ حتى ١٩٣٩ انتفض الفلسطينيون العرب وأعلنوا العصيان لمدة ثلاث سنوات فى وجه سلطة المفوضية البريطانية وضد الاستعمار الصهيونى (انظر الفصل السابع). ورغم ذلك لم تتوقف سياسة سلب الأرض من أهلها، نظرًا لاستمرار ولاء وإخلاص بريطانيا العظمى تجاه سياستها المعلنة فى تصريح بلفور، وبعد الاضطهاد اليهودى بالخليل أكد حزب ماباى مرة أخرى أن اليهود لم يأتوا كمستعمرين، بل كمعمرين. «العمل، السلام، الدفاع عن النفس» ـ كان ذلك هو المنطلق الأخلاقى الدفاعى لليهود فى بادئ الأمر كما عبرت عن ذلك المؤرخة الإسرائيلية أنيتا شابيرا.

وفيما يتعلق بالهولوكوست، فقد واجه الشعب اليهودى فى بداية الأربعينيات أكبر كارثة تحل به فى تاريخه. ففى مايو عام ١٩٤٢ انعقد بفندق بلتمور بمدينة نيويورك مؤتمر الصهيونية الذى طالب بفتح باب هجرة اليهود إلى فلسطين دون قيد أو شرط، وقد كان زعماء المؤتمر على وعى تام بما سيحدثه هذا المطلب من آثار على المدى البعيد؛ لذلك توقعوا أن تحقيق برنامج بلتمور على أرض الواقع سيقابل «برفض غير عادى من الشعب الآخر بالبلاد»: «نحن أمام حرب بين شعبين»، كانت تلك العبارة تمثل وجهة نظر الزعامة الصهيونية[٢٠]. ثم تغير المنطلق الأخلاقى شيئًا فشيئًا، ذلك المنطق الذى استخدمه ـ ادعاءً ـ المستوطنون اليهود الأوائل، ليصبح قاعدة أخلاقية للهجوم» (أنيتا شابيرا). ·

ولم يكن للشعب الآخر فى البلاد ـ يعنى الفلسطينيين ـ أى ذنب على الإطلاق فى الهولوكوست. ولكن رغم ذلك فإن الفلسطينيين هم أصحاب الذنب الذى يتحملون جزءًا من عواقبه حتى اليوم جزاء تفريطهم فى أرضهم. وهناك واقعة سجلها التاريخ حدثت فى يوم ١٤ فبراير ١٩٤٥، أى قبل تأسيس دولة إسرائيل بشهرين، حيث وقعت على هامش ذلك العام الذى يموج تاريخه بالأحداث، وصارت اليوم فى طى النسيان. كان ذلك على ظهر السفينة الحربية «كوينس» التى كانت ترسو فوق مياه قناة السويس. فى هذا المكان التقى الرئيس الأمريكى فرانكلين د. روزفلت، الذى بدت عليه بوضوح علامات المرض، والرجل القوى الصاعد نجمه فى سماء شبه الجزيرة العربية ـ الملك ابن سعود ـ ملك العربية

السعودية. أراد روزفلت ـ الذى عاد لتوه من مؤتمر يالتا، تلك المدينة الساحلية الروسية فى بحر القرم ـ اكتساب تأييد الرجل العربى للمغامرة الصهيونية فى فلسطين؛ فقام رجل أمريكا بشرح مستفيض للرجل العربى بسلسلة تاريخ العذاب الطويل ليهود أوروبا. وأطلعه على الأخص بما يتعلق بحجم الهولوكوست، فأجابه الملك العربىُ فى أدب: من كلمات سيادة الرئيس يتضح أن العرب غير مسئولين بأى حال من الأحوال عن آلام وعذاب اليهود، بل الألمان هم أصحاب المسئولية، لذلك يتعين على الألمان ـ وليس العرب ـ دفع فاتورة الحساب. «امنحوا اليهود وعائلاتهم أفضل أراضٍ، وأروع منازل عند الألمان»، قال ذلك إبن سعود لروزفلت. وحين عارضه الرئيس رد عليه الملك بقوله: «يجب أن يدفع المجرم الثمن، وليس على الإطلاق الشاهد الذى لا ذنب له»[٢١].

الآن وقد انقضت ثمانية عقود على نبوءة جابوتنسكى المشئومة، التى قال فيها: يجب علينا بناء سور بين العرب واليهود. وتحققت آمال تيودور هرتزل وحاييم وايزمان: فمنذ عام ١٩٤٨ توجد فى فلسطين دولة يهودية معترف بها على المستوى العالمى. والفلسطينيون ـ ومعهم العالم العربى ـ أعلنوا فى تلك الأثناء عن استعدادهم للتعايش مع إسرائيل، وهذا القرار ينبع بصفة خاصة من حالة الإغماء التى يعيشها العالم العربى فى عمومه، والتى ظهرت مؤخرًا فى حرب العراق ٢٠٠٣. بل إن العرب غالبًا ما كانوا الضعفاء فى الحروب التى أدت إلى تأسيس إسرائيل ومن بعد ذلك لتثبيت وجودها.

فى مقابل ذلك وصل الإسرائيليون فى حرب الشرق الأوسط الأولى ١٩٤٨/ ١٩٤٩ بذلك العمل الذى شرع فيه الصهاينة الأوائل مع بداية القرن العشرين إلى نهايته. والقاعدة التى تأسست عليها دولة إسرائيل فى مايو ١٩٤٨ على يد دافيد بن جوريون، استندت إلى قرار من «الأمم المتحدة» التى تأسست عام ١٩٤٥. والبريطانيون الذين أجهدهم الانتداب فى أقل من ثلاثين عامًا، وضعوا مصير فلسطين فى أيدى منظمة الأمم المتحدة، وتعين وقتئذٍ على الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة اتخاذ القرار فى كيفية حمل العرب «عبء العصر الحديث»، الذى حماهم منه قبل ذلك بأقل من ثلاثين عامًا مؤسسو عصبة الأمم. وعليه قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ قرارها رقم ١٨١ الذى قضى بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية وعلى أية حال فإنهم اعتبروا الفلسطينيين العرب أخيرًا قادرين على تأسيس وتشكيل دولة.

وعلى الفور أعرب الصهاينة عن قبولهم للقرار، ورفض العرب ـ وكان ذلك قرارًا خاطئًا من جانب العرب، كما برهنت على ذلك التجارب الأليمة فى السنوات اللاحقة، فقد اعتقدوا فى إطار مبالغاتهم المعتادة لقوتهم العسكرية والسياسية أنهم قادرون على سحق القوى المسلحة للمهاجرين اليهود بسهولة، ولم تتح الفُرقة العربية التقليدية أى فرصة أمام القيام بعمل حربى مشترك ضد دولة إسرائيل الفتية؛ وهكذا دافعت إسرائيل عن نفسها فى حربها الأولى بالشرق الأوسط ١٩٤٨/١٩٤٩ بنجاح فى مواجهة الجيوش العربية.

وحيثما توجد الحرب، يوجد اللاجئون. رغم ذلك فإن حرب الشرق الأوسط الأولى لم تكن من عدة وجوه حربًا عادية، لأن هذه الحرب قادها «شعب بلا أرض»، أراد أن يستقر فى «أرض بلا شعب». فشعار تسفانجفيل عن «شعب بلا أرض»، الذى ينتظره فى فلسطين «أرض بلا شعب»، يكون قد تحرك على هذا النحو قليلاً فى الاتجاه الصحيح للواقعية. فقد تشرد عن الديار الفلسطينية عام ١٩٤٨/١٩٤٩ (٧٥٠٠٠٠) فلسطينى. وكثير منهم لاذوا بالفرار، وكثير منهم طردوا وشردوا عن عمد، كما اقتربت من هذه الحقيقة أحدث الدراسات الإسرائيلية.

إنها إسرائيلية بارزة ـ جولدا مايرسون ـ التى عرفت فيما بعد كرئيسة وزراء إسرائيل بجولدا مائير، التى وصفت عام ١٩٤٨ الوضع بعد احتلال مدينة حيفا، على النحو التالى: «إنه شيء مخيف أن ترى المدينة بلا حياة. وعلى الساحل وجدت أطفالاً ونساءً ورجالاً كهولاً ممن كانوا فى انتظار الأمل فى الفرار. ودخلت إلى المنازل. كان هناك منازل حيث لا تزال توجد القهوة على الطاولة، ولم يكن بوسعى إلا أن أتذكر أن هذه الصورة التى تمثل أمام عينى هى نفسها فى واقع الأمر التى كانت عليها الحال فى كثير من المدن اليهودية (فى أوروبا عقب الحرب العالمية الثانية)»[٢٢].

أما أن تربط جولدا مائير وهى اليهودية هروب الفلسطينيين بمصير يهود أوروبا الشرقية، فهذا ما يجعل هول الموقف أكثر تصديقًا مثلما يتحدث عنه حتى اليوم كثير من اللاجئين الفلسطينيين، إلا أن دولة إسرائيل الجديدة كان يتعين عليها أن تصبح دولة يهودية وليست دولة لها طابع القومية العضوية بحضارتين. وقد كتب دافيد بن جوريون ـ أول رئيس وزراء لإسرائيل ـ بعد زيارة له فى حيفا، أنه ينبغى على اليهود معاملة «العرب بمماثلة مدنية وإنسانية». «ولكن ليس من مهمتنا أن نعبأ بقضية عودة العرب الفارين من بيوتهم». فبعث

موشى شارت، الذى أصبح وزيرًا لخارجية إسرائيل فيما بعد، ببرقية من نيويورك حيث كان يقوم بزيارة، جاء فيها: «أقترح توجيه تحذير إلى العرب بأن يمعنوا التفكير فى أنه ليس هناك وعد بالعودة»[٢٣].

واكتمل فى عام ١٩٤٨ ـ وبعد ذلك فى حرب ١٩٦٧ ـ ما ارتسم يومًا ما فى مخيلة تيودور هرتزل. ففى إحدى يومياته بتاريخ ١٢ يونيو ١٨٩٥ يتحدث مؤسس الصهيونية السياسية عن طرد العرب من فلسطين بطريقة سلسة ناعمة: «نسعى على تحريك الشعب المسكين بطريقة غير ملحوظة عبر الحدود وذلك بخلق فرص عمل له فى مناطق العبور، ولكن نرفض أى نوع من العمل فى أرضنا»[٢٤].

انهار حلم تيودور هرتزل عن الترحيل الناعم السلس باندلاع حرب الشرق الأوسط الأولى. ففى نهاية مايو وبداية يونيو ١٩٤٨ كان بين يدى دافيد بن جوريون كتاب تذكارى يحمل عنوان «الترحيل الانتكاسى» جاء فيه: «يجب أن يسكن اليهود فى ربوع إسرائيل كلها... ويتعين أن ينظر إلى طرد وتشريد العرب على أنه حل للمسألة العربية فى دولة إسرائيل»[٢٥]. وعلى ذلك قرر الإسرائيليون هدم ما يمكن هدمه من قرى مهجورة، حتى يمكن الحيلولة دون رجوع العرب الفارين من ديارهم، وكذلك منع العرب من تعمير بلادهم وتم تشجيع عملية استيطان اليهود فى المناطق المهجورة، حتى لا ينشأ «فراغ مكانى»[٢٦]. وكان تصرف الدولة الفتية يستند إلى أوروبا التى تشد من أزرها. ففى عام ١٩٤٤ استقر ضمير مؤتمر حزب العمل البريطانى إلى قرار: «دعونا نعمل على تشجيع العرب على الخروج (من فلسطين)، فى نفس الوقت الذى يدخل فيه اليهود. دعونا نسعى فى تعويضهم (أى العرب) بسخاء... ونقوم بتمويل سخى لمقر استقرارهم فى مكان آخر»[٢٧].

هل وصلت الصهيونية بانتصارها فى حرب الشرق الأوسط الأولى عام ١٩٤٨ إلى هدفها المنشود؟

لقد تعالت وقتئذٍ أصوات تحذيرية بأن إسرائيل ستكون بذلك أقرب إلى قلعة محصنة عن كيان دولة حرة غير مكروهة. كان ذلك صوت الفيلسوفة اليهودية المرموقة حنا أرندت: «وحتى لو كسب اليهود المعركة... سيحاط اليهود المنتصرون بسكان عرب تملأ صدورهم العداوة، ويسيطر عليهم فى داخل صدورهم المهددة على الدوام مشاعر الانشغال الدائم بالدفاع المادى عن النفس»[٢٨].

لم يكن حال الدول العربية على الإطلاق فى وضع استعداد للتفكير فى القيام بعملية عسكرية ثانية. ورغم ذلك فقد استحكم فى السنوات التى تلت تأسيس إسرائيل على مجلس وزراء مؤسس الدولة دافيد بن جوريون منطق التفكير التحصينى الذى يسوده المخاوف وفقًا لتحليل الفيلسوفة اليهودية حنا أرندت.

فأيد كثير من الوزراء، وليس جميعهم، فكرة القيام بحرب وقائية ضد مصر. كان من بين هؤلاء الصقور فى إسرائيل موشى ديان. وفى أكتوبر ١٩٥٥ أوكل إليه دافيد بن جوريون مهمة الاستعداد لمواجهة عسكرية مع مصر. وفى الثانى من نوفمبر أعلن رئيس الوزراء أمام الكنيست ـ البرلمان الإسرائيلى ـ أنه فى حالة تعرض الحقوق الإسرائيلية برًا وبحرًا إلى أخطار تهددها، وإذا بدأت مصر فى «حرب الاتجاه الواحد»، فلن يظل مثل هذا الهجوم على حالة «حرب الاتجاه الواحد». وحتى يمنح تهديده نوعًا من التأثير والجدية، قام «الجيش الإسرائيلى» بعد ذلك بقليل بتحطيم نقطة حراسة عسكرية مصرية بالقرب من المنطقة منزوعة السلاح بين البلدين، وأسفرت هذه العملية عن مصرع خمسين جنديًا مصريًا، وكذلك سقوط كثيرين فى الأسر الإسرائيلى[٢٩].

كان المقصود من هذه الضربية رجلاً أهابته إسرائيل من حيث المبدأ دون وجه حق. كان ذلك الرجل هو جمال عبد الناصر الذى أسقط فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى انقلاب عسكرى غير دموى أسرة الملك فاروق عن عرش البلاد فى مصر. كان ذلك الانقلاب أيضًا ردًا على التصور الفاضح الذى لصق بالقوات المسلحة المصرية فى حرب الشرق الأوسط عام ١٩٤٨ فى مواجهة إسرائيل. وقد حاول البكباشى عبد الناصر أن يجمع ملوك وسلاطين وأمراء العرب، على أقل تقدير تحت لواء الوحدة الأيديولوجية ضد إسرائيل. واعتبر الإسرائيليون الدعاية التى يسعى من أجلها عبد الناصر تحت اسم الوحدة العربية تهديدًا لكيانها، انطلاقًا من ذلك ظهر أول اختبار حقيقى يواجه الصهيونية بسلاحها الذى قامت عليه فى الأساس ـ سلاح أيديولوجية القومية.

أما بالنسبة لمصر التى رزحت تحت الوصاية البريطانية منذ عام ١٨٨٢، فكان الاتجاه السياسى الجديد لعبد الناصر يعنى الخروج من دائرة النفوذ الغربى التقليدى. لذلك فهم الغرب، وعلى رأسه أمريكا وبالطبع إسرائيل، نداء عبد الناصر للوحدة العربية بأنه إعلان للحرب. إلا أن عبد الناصر كان يعلم أن العرب، رغم الكلمات الرنانة الحماسية التى تشد من أزرهم، غير قادرين على القيام بعمل عسكرى لمواجهة إسرائيل.

كانت إسرائيل تتلمس أى فرصة لقيامها بحرب وقائية. وجاءت هذه اللحظة فى أكتوبر ١٩٥٦.

فبعد أن رفض وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس المشاركة فى تمويل السد العالى بأسوان، أعلن الرئيس المصرى دون سابق إنذار تأميم شركة قناة السويس التى كانت تحت الرقابة البريطانية. وفى مناورات سياسية مدروسة شنت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل الحرب على مصر عبد الناصر.

فقوى الاستعمار القديمة وربيبتها إسرائيل لم ترغب فى السماح لأحد على الإطلاق بكسر النظام الذى استقر عليه عام ١٩٢٠. وقد قام المؤرخ الإسرائيلى أفى شلايم بتحليل حرب السويس بقوله: إن خطة الحرب قد كشفت عن نوايا بن جوريون فى تشكيل اتحاد مع «القوى الإمبريالية» ضد «القومية العربية». بالإضافة إلى ذلك فإن خطة الحرب فتحت شهية إسرائيل فى التوسع على حساب العرب. كما أن غزو السويس عمل على تشجيع «ابن جوريون على اتخاذ «موقف الفروسية» فى مواجهة نزعة الاستقلال والسيادة والاندماج الإقليمى الذى ساد الدول العربية[٢٠]. والواقع أن إسرائيل لم تتمالك نفسها، فاحتل النجم الصاعد فى سماء المنطقة سيناء المصرية بأكملها. ورغم ذلك فإن حرب الحلفاء الإمبرياليين انتهت إلى مأزق سياسى أخلاقى.

ففى الوقت الذى انتصرت فيه قوات إسرائيل على أرض سيناء، أصدر الزعيم السوفيتى نيكيتا خروشوف أوامره بسحق الانتفاضة الشعبية بالمجر. فاعترض الغرب بجملة استياء أخلاقى على تأكيد وجود الإمبراطورية السوفيتية فى جنوب شرق أوروبا. ولكن فى الوقت ذاته دافعت قوى الاستعمار الغربية عن مملكتها فى الشرق الأوسط. واضطرت إسرائيل إلى الانسحاب من سيناء تحت ضغط الولايات المتحدة الأمريكية وعلى رأسها الرئيس إيزنهاور وانتصر الذكاء السياسى والأخلاق السياسية - على سبيل الاستثناء. وارتفعت أسهم مكانة جمال عبد الناصر إلى القمة على الرغم من خسارته الحرب عسكريًا.

وإلى جانب مصر، كانت هناك دولة أخرى شعرت إسرائيل بأنها مهددة من جانبها - سوريا.

والسبب فى ذلك يرجع فى واقع الأمر إلى أن سوريا شعرت أيضًا بأنها ضحية النظام العالمى الجديد الذى خلقته قوى الغرب فى الشرق الأوسط لصالحها، فبعد

كارثة حرب السويس تطلع موشى ديان إلى سوريا ومرتفعاتها الهامة إستراتيجيًا بالجولان. وفى الشهور التى سبقت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ كان حديث الصحافة العالمية الدائم هو الاستفزاز السورى لإسرائيل: إن المدفعية السورية تقذف من مرتفعات الجولان الفلاحين الإسرائيليين المسالمين. وفى لحظة من لحظات الحقيقة نادرة الحدوث وعلى الأخص فى الشرق الأوسط، وضع موشى ديان بنفسه وليس شخص آخر مقدمات حرب ١٩٦٧ فى نصابها الصحيح. ففى عام ١٩٩٧ وبعد مرور ستة عشر عامًا على وفاته نشر الصحفى الإسرائيلى رامى تال حديثه الخاص مع موشى ديان. فى هذا الحديث الذى جرى قبل ذلك بعشرين عامًا كشف ديان، الذى كان وزيرًا للدفاع الإسرائيلى من عام ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤، النقاب عن خلفيات اشتباكات الجولان، نستنتج منها أن ٨٠ ٪ من تحرشات الجولان حدثت على أثر استفزازات من الجانب الإسرائيلى. «كنا نرسل دائمًا جرارًا إلى منطقة، لا يمكن أن يعمل بها أى شىء، وبالذات فى المنطقة المنزوعة السلاح، وكنا نعلم مسبقًا أن السوريين سيبدأون فى إطلاق النار، وإذا لم يطلقوا الرصاص، نأمر الجرار دائمًا بالتحرك من جديد إلى الأمام، وهكذا حتى يستثار السوريون ويطلقون النار». وكتب أفى شاليمك: «إن إستراتيجية إسرائيل الخاصة بتصعيد العمليات على الجهة السورية، كانت أغلب الظن العامل المؤثر الوحيد الأكثر أهمية الذى هوى بالشرق الأوسط إلى الحرب فى يونيو ١٩٦٧»[٣١].

وقد ارتكب جمال عبد الناصر خطأ لا يستهان به فى ظل هذه الأجواء المحمومة؛ فقد كان الرئيس المصرى لا يريد حربًا، ولكنه اعتقد أنه مضطر لإظهار قوته أمام الرأى العام العربى الغاضب، فأمر قواته بالتحرك فى اتجاه سيناء، وأمر بعودة قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام التى كانت متواجدة بسيناء، وأغلق ممر تيران الواقع على حافة الجهة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة العربية والقرن الأفريقى، وذلك من خلال سدود مائية فى مواجهة حركة السفن الإسرائيلية. فكانت ذلك بمثابة لعبة الحظ، التى أفضت فى النهاية إلى كارثة الهزيمة العربية فى يونيو ١٩٦٧. ولاشك فى أن إغلاق ممر تيران المائى أمام إسرائيل لم يكن محل تهديد للكيان الإسرائيلى، لأن جميع الطرق الملاحية الأخرى بالبحر المتوسط بقيت مفتوحة أمامها، إلا أن من الناحية النفسية كانت الضربة فى العمق، فقد تراءى لموشى ديان فرصة ذهبية لكى يعوض هزيمته السياسية عام ١٩٥٦، وفى هذه الجولة لن يتلقى الإسرائيليون فيها من أحد أمرًا بالتراجع.

وكان الخطأ الثانى الذى وقع فيه عبد الناصر هو أن عمل على تصعيد الحرب الكلامية مع إسرائيل فى وقت كانت فيه أفضل رجالاته بالقوات المسلحة لاتزال تحارب فى الحرب الأهلية باليمن فى صفوف الجمهوريين ضد نظام الإمام السلفى. فأصبح الأمر هينًا بالنسبة لإسرائيل أن تدمر القوات الجوية المصرية فى فجر ٥ يونيو، وأن تسحق الجيوش المصرية والسورية والأردنية فى ستة أيام

وكان على الملك حسين أيضًا أن يدفع الثمن من جراء اقترافه أكبر خطأ فى حياته السياسية، وهو دخوله العمليات الحربية بجانب مصر فى مواجهة إسرائيل، وذلك بفقدانه الضفة الغربية لنهر الأردن. وخسرت سوريا مرتفعات الجولان، وتعين على مصر أن تترك سيناء لإسرائيل. وكذلك احتلت القوات الإسرائيلية قطاع غزة الذى كان حتى ذلك الوقت ومنذ عام ١٩٤٨ تحت الإدارة المصرية. ولكن أكثر ما أوجع العالم العربى والإسلامى فقدانه القدس الشرقية التى تضم مسجد عمر بن الخطاب (قبة الصخرة) والمسجد الأقصى.

وحتى يومنا هذا لا تزال مرتفعات الجولان فى حوزة إسرائيل (التى ضمتها إليها)، وفلسطين بأكملها ـ من نهر الأردن حتى البحر المتوسط، ومن الحدود المصرية حتى لبنان، ولم تسترد إلا مصر سيناء عقب توقيع معاهدة السلام بكامب دافيد فى عام ١٩٧٩.

عن عمد يزيد فى درجته ما فعلته من قبل بتسعة عشر عامًا، استغلت إسرائيل الفرصة فى تشريد وطرد المزيد من الفلسطينيين أو دفعهم إلى الهروب من البلاد. ففى ١٩ فبراير ١٩٨٨ كتب الصحفى الإسرائيلى يوسى ميلمان تقريرًا ذكر فيه أن القيادات العسكرية الإسرائيلية تحينت الفرصة «لتقليص عدد السكان الفلسطينيين». وعليه قاموا بتدمير حى المغاربة بالتحديد فى القدس الشرقية، وطردوا سكانه بحجة أنهم سكنوا بديار قريبة جدًا من حائط المبكى اليهودى، كما دفعوا نحو عشرة آلاف من سكان قرى بيت نبا أقواس ويالو، دفعًا إلى الهروب، بحجة أن منازلهم تقع على مقربة من حى لاترون بالقرب من القدس، وهى منطقة هامة من الناحية العسكرية والإستراتيجية[٢٢].

وفى ٣ إبريل عام ١٩٧٠، أعلن حاييم هرتزوج، وهو أول حاكم عسكرى للضفة الغربية المحتلة فى ١٩٦٧، والذى أصبح بعد ذلك رئيسًا لإسرائيل من ١٩٨٣

حتى ١٩٩٣: «لو كان بأيدينا أن نقضى على مليون فلسطينى، ونقوم بطردهم وتشريدهم، لكان ذلك هو الأفضل». وفى نوفمبر ١٩٩١ اعترف حاييم هرتزوج حين كان رئيسًا لإسرائيل، أنه قام ومعه القيادات العسكرية بالقدس عقب نهاية حرب ١٩٦٧ بالعمل على إجبار مائتى فلسطينيًا على ترك البلاد[٣٢].

كانت هذه الحرب الخاطفة الإسرائيلية ذات وقع وتأثير عميقين فى أوروبا وأمريكا. فصورة الدولة الصغيرة المحاصرة من جميع الجوانب وتدافع عن نفسها بشجاعة ضد طوفان من الجيوش العربية أثارت انطباعات شديدة فى نفوس الناس لأعوام طويلة لا سيما فى جمهورية ألمانيا الاتحادية القديمة. وبالإضافة إلى ما صارت عليه إسرائيل من ثقل عسكرى فقد حققت على الأرض نصرًا على مستوى العلاقات العامة، وفى مقابل ذلك أدت الهزيمة الساحقة التى لحقت بالعرب إلى سقوط جيوشهم فى حالة من الاكتئاب واليأس العميقين. ففقدان جزء من فلسطين فى عام ١٩٤٨ كان فى حد ذاته بمثابة النكبة فى نفوس العرب وعلى مستوى الكارثة الثانية، تلك الضربة القاصمة فى ١٩٦٧، فقد كانت ردود فعل القادة العرب تتسم بالعناد: لا لإسرائيل، لا للمفاوضات، لا للسلام. قذف بهذه اللاءات رؤساء الدول العربية المجتمعون فى لقاء قمة الجامعة العربية بالخرطوم فى خريف ١٩٦٧ فى وجه إسرائيل المتغطرسة بقوتها، وعلى عكس ماكان متوقعًا فقد تبين أن السياسة العربية المقترحة فى اجتماع الخرطوم ما هى إلا خطأ قاتل، فلو أن العرب قبلوا فى ذلك الوقت عرض إجراء تفاوض، لكان من المحتمل ألا تحتل الضفة الغربية وغزة حتى اليوم.

حاول اثنان من الزعماء العرب كسر حالة الاكتئاب واليأس عن طريق توجيه ضربة تحرير عسكرية.

كان هذان الزعيمان هما الرئيس المصرى أنور السادات، والرئيس السورى حافظ الأسد.

وكان السادات قد تولى رئاسة مصر عام ١٩٧٠ عقب وفاة جمال عبد الناصر. فقام الزعيمان بالهجوم على إسرائيل فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣، فى عمل يدل على قدرة الفعل والأداء من الناحية العسكرية. ولكن اليوم ضعفت الأصوات الممجدة لبطولاته بدرجة أقل بكثير من قبل. عبرت القوات المصرية قناة السويس، وهاجمت سوريا إسرائيل من جهة الشمال. أما إسرائيل التى كانت فى حينها

تحتفل بعيدها المعروف بيوم كيبور، فقد فاجأها الحدث لدرجة الذهول. ورغم ذلك تمكنت إسرائيل من الرد على هجمات سوريا ومصر بعد إحرازهما نجاحات أولية. ولولا تدخل وزير الخارجية الأمريكى آنذاك هنرى كيسنجر، لكان من الجائز أن تصل القوات الإسرائيلية حتى القاهرة. فقد كان كيسنجر على دراية بما يمكن أن تؤدى إليه هزيمة شاملة للعرب من عواقب وخيمة، ولذلك سعى لوقف إطلاق النار.

وعلى أية حال فقد ازدادت ثقة المصريين بأنفسهم إزاء الانتصارات الأولية التى حققوها وتمكن الرئيس السادات، حتى ولو تأخر ذلك سبع سنوات، فى جرأة من الدخول فى مفاوضات مع إسرائيل لإبرام اتفاقية سلام معها فى ظل وساطة الرئيس الأمريكى جيمى كارتر، تعين من خلالها على رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجين إعادة سيناء المحتلة من جديد، مقابل التزام مصر بعدم قيامها فى المستقبل بالدخول فى أى أعمال عسكرية ضد إسرائيل.

كان لزامًا على مصر، من أجل استرداد سيناء، أن تدفع ثمنًا دبلوماسيًا باهظًا، حيث تم تجميد عضوية مصر بالجامعة العربية مؤقتًا، ونقل مقرها من القاهرة إلى تونس. ثم دفع أنور السادات حياته ثمنًا لسياسته، ففى السادس من أكتوبر ١٩٨١، وأثناء الاحتفال بالعام الثامن لعبور قناة السويس، سقط السادات ضحية عملية إغتيال أثناء العرض العسكرى الذى كان ينظم سنويًا بهذه المناسبة.

أما الفلسطينيون فقد حصلوا فى اتفاقية كامب دافيد على تضميد للجراح وغسل ماء الوجه ـ فقد لاحت فى الأفق تباشير الأمل فى دخولهم مفاوضات تهدف فقط إلى منحهم درجة الحكم الذاتى، ولكن المحادثات لم تصل مرة واحدة إلى نجاح يذكر. ولا شك فى أن إسرائيل حين اضطرت إلى تسليم سيناء، فقد اكتسبت تلك البقعة ميزة إستراتيجبة لا تقدر بثمن بالنسبة لإسرائيل. فإسرائيل استبعدت من خلال ذلك ثمة خطر من جانب مصر التى هى بالنسبة لها الخصم العربى الأكثر قوة من حيث الكفاءة. فلا خوف على مستقبل إسرائيل فى الدخول فى حرب على جبهتين. وبالفعل بعد مرور ثلاث سنوات استغلت إسرائيل هذه الحرية الإستراتيجية الجديدة. وبدون أى خطر يهددها من جبهة ثانية، أى الجبهة المصرية، استطاع وزير الدفاع أرئيل شارون عام ١٩٨٢ من الانقضاض على أراضى لبنان حتى يتخلص من ميليشيات ياسر عرفات فى بيروت ويطردهم منها.

كان من الممكن أن تفتح اتفاقية كامب دافيد للسلام الطريق بأى شكل أمام عقد اتفاق سلام آخر مع دول عربية أخرى، وبالتحديد مع سوريا، إلا أن حافظ الأسد رفض حتى الحديث مع دولة يعتبرها جسمًا غريبًا فى الأرض العربية. وكان وضع الأردن ضعيفًا للغاية دون تأييد الفلسطينيين والسوريين حتى تتفاوض مع إسرائيل وفقًا للنموذج المصرى.

بقيت مصر منبوذة من العرب، حتى عقد المؤتمر القومى الفلسطينى فى الجزائر عام ١٩٨٨ الذى قدم عرضًا لإسرائيل بالاعتراف لها بحدودها حتى يوم ٤ يونيو ١٩٦٧ فى مقابل إقامة دولة خاصة للفلسطينيين على المناطق المحتلة عام ١٩٦٧. وهذه الخطوة التى طال انتظارها أعطت الفرصة لمصر عام ١٩٨٩ بالعودة إلى الجامعة العربية، حيث لم تعد مصر وحدها هى الدولة الوحيدة التى اعترفت بإسرائيل.

هل كان ذلك بريق أمل؟ لم تمكث المنطقة وقتًا طويلاً حتى سقطت مرة أخرى فى دوامة الحرب. وهذه المرة لم يكن لها علاقة بمشكلة فلسطين. فالموضوع كان يتعلق بنفط الكويت. حاول الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات أن يخرج من حرب الكويت عام ١٩٩١ بمنفعة لشخصه واعتباره. فبمجرد غزو الدكتاتور العراقى صدام حسين الإمارة الصغيرة فى ٢ أغسطس ١٩٩٠، انضم عرفات إلى خطاب مواطنيه المعادى للأمريكان. كان ذلك خطأ ذا أبعاد تاريخية، فبدلاً من أن يظهر فى ثوب زعيم الفلسطينيين ليس فقط من الناحية العسكرية، ولكن من الجانب الأخلاقى، إذ بياسر عرفات يكشف النقاب عن نفسه على أنه رجل تكتيكات محض، وفاته أن يشرح لشعبه الفلسطينى أن أى اعتداء يجب أن يرفض - سواء اعتداء إسرائيل على الفلسطينيين أو اعتداء صدام حسين على الكويت على حد سواء. فقد كان الغزو العراقى على الكويت لحظة من تلك اللحظات التى كان من الممكن لياسر عرفات أن يحقق فيها مكسبًا من الناحية السياسية والأخلاقية - وعلى المستوى الاعتبارى الدولى.

ومقابل هذا الفشل كان لزامًا عليه أن يدفع الثمن غاليًا بعد ثلاث سنوات. فقد وعد الرئيس الأمريكى جورج بوش الأب أثناء حرب تحرير الكويت، ثم بعد تحقيق النصر، بأنه سيسعى إلى حل الصراع الفلسطينى الإسرائيلى. كما أعرب بوش عن نيته فى إقامة «نظام عالمى جديد». وادعى مثلما فعل ابنه بعد اثنتى عشر عامًا بأن حل مشكلة العراق سيمكن من حل الصراع الإسرائيلى الفلسطينى. وفى مؤتمر

مدريد فى خريف ١٩٩١ كانت هناك صياغة للسلام ـ هكذا فهم العرب على الأقل. لقد وعد العالم العربى إسرائيل بالسلام والاعتراف بحدودها حتى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧، وفى المقابل تقوم إسرائيل بإعادة جميع المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ بما فى ذلك القدس الشرقية.

وفى أقل من عامين بدت هذه الاتفاقية تأخذ شكل قبول على أرض الواقع، فقد وصل الجانبان الإسرائيلى والفلسطينى فى المفاوضات السرية بينهما التى عقدت فى العاصمة النرويجية أوسلو، إلى اتفاق فى وجهات النظر، «للعمل على إنهاء المواجهة والصراع الذى دام عشرات السنين، ولاعتراف كلا الجانبين بالحقوق السياسية والمشروعة لكل منهما، بغرض الحياة فى تعايش سلمى وكرامة متبادلة بينهما».

وبناء على هذا الاتفاق تقرر عودة ياسر عرفات بمنظمته (منظمة التحرير الفلسطينية) إلى فلسطين، على أن يكون تواجدهم أولاً فى قطاع غزة وأريحا الواقعة على البحر الميت، ثم بعد ذلك (وفقًا لاتفاق ١٩٩٥) العودة إلى باقى مناطق الضفة الغربية لنهر الأردن.

لقد مثلت هذه الخطوة تقدمًا عظيمًا ـ كما بدا للجميع. إلا أن جميع المشكلات الجوهرية بقيت بلا حلول، فلم يتطرق الحديث إلى عودة اللاجئين، ولا إلى مسألة وضع القدس، ولا إلى موضوع الحدود. ولم تطرح بالإضافة إلى ذلك خطط تفصيلية دقيقة بشأن مستقبل المستوطنات، حيث قيل إن جميع هذه النقاط ستكون محل مناقشات وتفاوض بعد مرور ثلاث سنوات على الأكثر من تنفيذ اتفاقية أوسلو. إلا أنه حتى يومنا هذا لم تجد هذه المشكلات حلولاً لها، ودائمًا ما كان يجرى إزاحتها جانبًا عن طاولة المفاوضات. أما فى هذه المفاوضات فقد تم استغلال ضعف الوفد الفلسطينى أسوأ استغلال بكل معنى الكلمة، وبذل ياسر عرفات، الذى أصبح بعد الانتهاء من حرب تحرير الكويت منبوذًا على الصعيد الدولى، جميع المحاولات للخروج من العزلة. فكان من الضرورى إبرام اتفاقية ما، حتى ولو كانت اتفاقية غير جيدة بالنسبة للفلسطينيين. وأما أعضاء الوفد الفلسطينى الذين كانوا يقيمون فى تونس لمدة مايربو على عشر سنوات فلم يكن لهم أية دراية بالمعطيات والبيانات الجغرافية عن فلسطين. فلم يحضر أحد منهم ولو مرة واحدة خرائط صحيحة ودقيقة لبلدهم. وبلغ الأمر بعد ذلك إلى أن عرفات قبل أن يستقر مقره الرسمى بأريحا على البحر الميت ـ بعيدًا بمسافة كبيرة عن المناطق السكنية للفلسطينيين. فكل ما جلبته

مفاوضات أوسلو (١٩٩٣-١٩٩٥) فى مجملها للفلسطينيين، لم يكن سوى مجموعة من «الإدارات البلدية» فى مناطق (معزولة عن بعضها البعض) تشبه البانتوستانات بجنوب إفريقيا[٣٤]. كما جاء فى تعبير المفكر والحجة الفلسطينى المرموق إدوارد سعيد، المتخصص فى علوم الأدب والذى كان يحاضر بجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية حتى وفاته فى سبتمبر عام ٢٠٠٣.

لقد قامت اتفاقيات أوسلو على تقسيم الضفة الغربية وقطاع غزة إلى ثلاث مناطق يمارس فيها الإسرائيليون فى نهاية الأمر سلطاتهم الرقابية بدرجات متفاوتة. وعلى الرغم من انتقال الرقابة الشرطية فى المدن الكبرى مثل رام الله إلى الفلسطينيين، إلا أنه وكما أوضحت ذلك أحداث الانتفاضة الأخيرة، كان من السهل على الإسرائيليين احتلال هذه المدن مرة أخرى. وإذا نظرنا إلى اتفاق أوسلو ١٩٩٣ ثم إلى خطة كامب ديفيد للسلام (سبتمبر ٢٠٠٠) التى فشلت، من منظور منعزل عن السياق العام ومن واقع اعتبارات السياسة اليومية، لكان من المحتمل رؤية منطلقات واعدة. وانطلاقًا من توقعات تيودورهرتزل لخطط فى الاستيلاء على فلسطين بأكملها على المدى البعيد، فإن أوسلو لم تكن شيئًا آخر سوى مانح شرعى للاحتلال بمساعدة الفلسطينيين.

تشير العديد من الوثائق التى يرجع تاريخها لعشرات السنين بوضوح إلى أن إسرائيل فى حقيقة الأمر لم تفكر مرة واحدة فى إعادة المناطق المحتلة إلى أهلها. جاء فى ورقة عمل للبنتاجون مؤرخة فى يونيو ١٩٦٧ ما هو نصه أن إسرائيل يجب أن تحتفظ ببعض أراضى الإقليم المحتل، فإذا تأملنا ذلك من منظور عسكرى صارم[٣٥]. ووفقًا لما ذكرته صحيفة «تايمز» التى تصدر بلندن فقد أعرب موشى ديان فى ٢٥ يونيو ١٩٦٩، عن أنه فى حرب الأيام الستة وصلت إسرائيل إلى السويس والأردن والجولان، وأن خطوط وقف إطلاق النار القادمة ستمتد إلى «ما بعد الأردن، ربما إلى لبنان وإن أمكن حتى منتصف سوريا»[٣٦]. وفكر الجنرال إيجال عالون الذى كان يشغل آنذاك منصب نائب رئيس الوزراء فى حكومة حزب العمل بعد ١٩٦٧، فى ضم ثلث الضفة الغربية لنهر الأردن. وألف أرئيل شارون عام ١٩٦٧ وثيقة كتب فيها: «إن الصهيونية تعد ثورة انتصارات تفوق التصور، وهى التى تمخض عنها إقامة دولة إسرائيل، ولكن هذه الانطلاقة الثورية بدأت تذهب أدراج الرياح فى الخمسينيات. لذلك فإنه من الضرورى إعادة الحياة إلى هذا البعد الثورى للصهيونية من خلال متابعة وملاحقة أهداف جديدة»[٣٧].

واقترح شارون الذى كان يشغل آنذاك منصب وزير الزراعة والاستيطان، فى وثيقة أخرى صدرت بعنوان «حلم إسرائيل فى نهاية القرن» فى عام ١٩٧٧ بناء حزام من المستوطنات على منطقة فلسطينية على حدود إسرائيل. وفى عام ١٩٧٨ طالبت المنظمة الصهيونية العالمية ببناء مستوطنات حول المدن الفلسطينية. وخلال فترات تولى شارون لمناصبه المختلفة تزايدت معدلات الاستيطان اليهودى بشكل مطرد وليس أدل على ذلك مما فعله شارون عام ١٩٨٧ حين اشترى مسكنًا له فى القدس الشرقية العربية - ووسط عشرين ألفًا من العرب[٣٨].

وفى سنوات مؤتمر مدريد للسلام الذى كان شعاره المقترح لحل المشكلة «الأرض مقابل السلام»، سعت جميع الحكومات - سواء مجالس الوزراء بدءًا من إسحق رابين وشيمون بيريز إلى إيهود باراك، أو حكومات كتلة الليكود من بنيامين نتنياهو وأرئيل شارون - إلى دفع وتشجيع بناء المستوطنات بشكل مكثف. وفى السنوات العشر منذ أوسلو تضاعف عدد سكان المستوطنات إلى مائتى ألف نسمة تقريبًا. وبالإضافة لذلك لايزال يعيش نحو (١٨٠,٠٠٠) مستوطن على تلك المنطقة حول القدس التى قامت إسرائيل بضمها إليها بعد حرب ١٩٦٧[٣٩].

علاوة على ما جرى فى السنوات السابقة فقد تم تطويق الضفة الغربية لنهر الأردن من الخارج بما نطلق عليه الطرق الالتفافية أو الممرات، وقد تم تشييد هذه الطرق المرورية العريضة على أراض فلسطينية مصادرة لتمكين المستوطنين من السفر إلى القدس وتل أبيب بطريقة الالتفاف حول القرى والمدن الفلسطينية. بل إنه بعد اتفاقات أوسلو فقد شرع الإسرائيليون ولأول مرة فى طرد الفلسطينيين من الجزء شرق القدس أى من الشطر العربى من المدينة. وكانت حجة الإسرائيليين أن هؤلاء الفلسطينيين الذين لا يقيمون بشكل دائم فى القدس قد فقدوا كل حق لهم فى الإقامة هناك. ففى الأعوام من ١٩٩٥ حتى ١٩٩٩ سلب الحق من ٣٠٩٦ فلسطينيًا فى العيش والحياة فى مدينتهم الأم. وكان للفلسطينيين حتى عام ١٩٩١ حق الإقامة حتى فى القدس أيضًا، فى حالة إقامتهم بالضفة الغربية فى أغلب الأوقات. ولا يفقد أوروبى أو أمريكى حقه فى الإقامة فى باريس أو نيويورك لأنه أقام بالخارج فترة طويلة. ويستنتج المؤرخ الإسرائيلى أفى شلايم من أن عملية أوسلو أدت فى جوانب متعددة إلى

تفاقم سوء الأوضاع فى المناطق المحتلة، كما ثبطت أو أحبطت آمال الفلسطينيين فى إقامة دولتهم[٤٠].

وكان يتعين إنقاذ ما أطلق عليه عملية السلام التى بدأت فى أوسلو فى صيف عام ٢٠٠٠ بطرح خطة كامب دافيد الثانية، إذ أراد الرئيس الأمريكى بيل كلينتون إبرام اتفاقية سلام اقتداء بسلفه الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر. إلا أن هذه المرة لم يقبل ياسر عرفات الدخول فى اتفاق ليس فى صالح الفلسطينيين. فقد استهدفت هذه الاتفاقية وفقًا للرواية الإسرائيلية إقامة دولة فلسطينية على ثلاثة أقسام بسبب أحزمة المستوطنات الحالية حول نابلس والقدس، كما كان من المفترض أن تظل السيادة الجوية ورقابة الحدود الخارجية فى قبضة إسرائيل.

وقد جرى الترويج فى سياق النقاش الدائر حول كامب دافيد للادعاء القائل بأن الفلسطينيين قد حصلوا على عرض سخى من إسرائيل يتضمن إعادة ٩٧ بالمائة من الضفة الغربية وقطاع غزة ـ ورفضوه. والسؤال الذى يطرح نفسه هو: نسبة ٩٧ بالمائة من أى شيء؟ فقرار الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ الخاص بالتقسيم خصص ٤١ بالمائة من فلسطين التاريخية للعرب. وفى حرب ١٩٤٨ ضاع على الفلسطينيين أراضى شاسعة من نسبة الـ ٤١ بالمائة. والضفة الغربية التى كانت بعد عام ١٩٦٧ تحت التصرف لإقامة دولة فلسطينية، كانت تمثل حينذاك نسبة ٢٢ بالمائة من فلسطين التاريخية، ثم أقامت إسرائيل العديد من المستوطنات منذ عام ١٩٦٧ على هذه النسبة البالغ مساحتها ٢٢ بالمائة، وصادرت أراضى، وشيدت أخيرًا الطرق والممرات الالتفافية. والأهم من ذلك هو أن إسرائيل طوقت القدس بحزام عملاق من المستوطنات، والذى يمتد تقريبًا حتى البحر الميت. ثم إن الأرض التى أقيمت عليها هذه المستوطنات التى لافرق فى شكلها، والقلاع الهجومية، كانت من قبل فى عداد نسبة الـ ٢٢ بالمائة، التى كانت لاتزال باقية للفلسطينيين حتى بعد ١٩٦٧؛ لذلك تمسك ياسر عرفات برأيه فى أنه وافق على حلول وسطى للسيادة الإقليمية بما فيه الكفاية سواء فى الجزائر عام ١٩٨٨ أو فى أوسلو عام ١٩٩٣ وأنه تنازل لإسرائيل عما يقرب من أربعة أخماس فلسطين؛ لذلك يستحيل عليه تقديم المزيد من التنازل عن الأرض.

وكان هناك شاهد لاتشوبه شائبة، وهو روبرت ملى الذى كان يشغل منصب مستشار الرئيس كلينتون لشئون العلاقات الإسرائيلية الفلسطينية، وكان حاضرًا

فى مفاوضات كامب دافيد عام ٢٠٠٠، وكتب فى أغسطس عام ٢٠٠١ ـ أى بعد عام من كامب دافيد ـ تقريرًا مفصلاً عن سير المحادثات بين الوفد الإسرائيلى والفلسطينى، وكانت الجملة الأساسية التى وردت بهذا التقرير تقول:

«كانت تكتيكات باراك تكمن فى صيغة نهائية كان يتعين ألا تتسرب على نطاق واسع، مؤداها أنه وباختصار شديد لم يكن ليقدم عرضًا إسرائيليًا ولو لمرة واحدة، والإصرار فى حالة فشل المفاوضات على الثبات على الموقف، وكذلك الإصرار على ألا يسمح للفلسطينيين بالخروج بأية مزايا من الحلول الوسطى المقدمة من جانب واحد؛ لذلك لم يقدم الإسرائيليون مرة واحدة وحتى النهاية أى عرض من جانبهم، لم تخرج الأفكار محور الحديث بكامب دافيد مرة واحدة إلى نص مكتوب، بل تم نقل كل شىء شفاهة. وعرضت هذه الأفكار فى عمومها على أنها مقترحات أو تصورات أمريكية، وليست على أنها إسرائيلية... ولأنه تخوف من أن الزعيم الفلسطينى يطلب تدوين التنازلات الإسرائيلية، فقد امتنع باراك عن التفاوض مع عرفات بشكل شخصى حول القضايا الجوهرية»[٤١].

هل كان فشل كامب دافيد إذن سببًا فى اندلاع الانتفاضة الثانية؟ فى ٢٨ سبتمبر عام ٢٠٠٠، أى بعد شهرين من فشل مؤتمر السلام، قام أرئيل شارون بتدبير أحد المشاهد التمثيلية العسكرية على جبل الهيكل، الحرم القدسى الشريف، إذ كانت معركة الانتخابات الإسرائيلية قد بدأت، وكان شارون يزمع أن يصبح رئيسًا للحكومة. وزود رئيس الوزراء إيهود باراك، الذى كان من قبل جنرالا مقلدًا بأعلى الأوسمة والنياشين، شقيقه فى السلاح شارون بحراسة من قوات الشرطة لأداء هذا المشهد.

خرج مشهد معركة انتخابات شارون أمام قبة الصخرة والمسجد الأقصى فى ثوب مظاهرة تطالب بحق إسرائيل المدعى فى ملكية القدس بأكملها، بما فى ذلك الأماكن الإسلامية المقدسة. كان رد الفلسطينيين على هذا الاستفزاز بالانتفاضة الثانية منذ تأسيس دولة إسرائيل وربما تكون الثالثة إذا أضفنا لذلك انتفاضة أواخر الثلاثينيات.

أما القول بأن هذه الانتفاضة قد سبق التخطيط لها من جانب عرفات، كما يدعى البعض من آنٍ لآخر، فإن ذلك لايعدو كونه حدوتة ضمن كثير من الحواديت التى تنسج فى معركة كسب الرأى العام، فالزعماء أصحاب السلطة المطلقة أمثال

عرفات لايقومون بتنظيم أية انتفاضات شعبية؛ لأنه من الممكن أن تخرج مثل هذه الانتفاضات عن السيطرة وينتهى بها الأمر إلى الإطاحة بالحكام أيضا. فلم يبق أمام عرفات بعد اندلاع الانتفاضة سوى خياران: كان فى استطاعته الوقوف فى وجه الشباب الثائر ـ وفى هذه الحالة كان من الجائز أن يفقد سلطته، لذلك عقد العزم على البديل الثاني: أن يمتطى صهوة جواده ويتصدر الانتفاضة، حتى يمكنه الإمساك بزمام مسيرة الانتفاضة قليلاً. ورغم فشله فى ترويض الانتفاضة، إلا أن عرفات ظل فى منصبه.

لقد وقعت أحداث خمس حروب حتى الآن بسبب فلسطين : ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ ثم ١٩٨٢ (فى لبنان). وبجانب هذه الحروب كان هناك ثلاث انتفاضات: من ١٩٣٦ حتى ١٩٣٩، ثم من ١٩٨٧ حتى عام ١٩٩٣، ثم انتفاضة سبتمبر ٢٠٠٠، التى استمرت حتى عام ٢٠٠٤. وتم توزيع جائزة نوبل للسلام خمس مرات نظير الجهود المبذولة من أجل السلام فى الشرق الأوسط: فتقاسم كل من مناحم بيجين وأنور السادات جائزة السلام بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩ فى كامب دافيد، ثم منحت الجائزة لكل من إسحاق رابين وشيمون بيريز وياسر عرفات على جهودهم المبذولة من أجل اتفاقيات أوسلو عام ١٩٩٣. هذا التضخم فى الجوائز يعبر عن رغبة لجنة الجوائز، بل العالم بأسره، فى غلق ملف صراع قرن من الزمان. ورغم ذلك فلا تبدو فى الأفق بارقة أمل فى السلام ـ ولم يغير من هذه الحقيقة وصف جورج بوش لأرئيل شارون مرارًا وتكرارًا بأنه «رجل سلام».

وفى عام ١٨٩٦ افتتح تيودور هرتزل مع إصداره كتيبه الذى يحمل عنوان «الدولة اليهودية» الجولة الأولى فى الصراع من أجل فلسطين. ثم أدخل اللورد بلفور ذلك الصراع عام ١٩١٧ ضمن أهداف إمبريالية لبريطانيا العظمى. وصارت دولة إسرائيل التى انبثقت عن ذلك حليفًا إستراتيجيًّا لقوة عظمى واحدة فى الوقت الراهن، أى أنها تشكل ركنًا ركينًا فى ذلك المشروع الإمبريالى الذى أصبح معروفًا باسم «إستراتيجية القرن الأمريكى» (انظر الفصل الثانى عشر). أى أن الصراع سوف يمتد بناء على ذلك إلى أعماق القرن الحادى والعشرين؛ لأن أى اتفاق يمكن التوصل إليه بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وكما يطلق على ذلك الآن الحل النهائى أو المؤقت، سيطرح حلاً وسطًا. ولم يجب أحد حتى الآن تحديدًا على السؤال عن كيفية تعايش دولتين مستقلتين وذات سيادتين جنبًا إلى جنب فى سلام على أرض إقليمية ضيقة المساحة بين منخفض نهر الأردن والبحر

المتوسط. فمن الناحية الاقتصادية لاتضم هذه الأرض فى جنباتها إلا القليل من الموارد، ومن الناحية السياسية فهناك حمل يفوق أى تصور ضارب بجذوره فى التاريخ، ومن الناحية الثقافية هناك فجوة هائلة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، ومن الناحية العاطفية نجد نفورًا عميقًا بين كل منهما، ازداد تفاقما مع الصراع المتواصل منذ بداية القرن العشرين. ولكل هذه العوامل مجتمعة فلا تستطيع بالتحديد «دولة فلسطينية مؤقتة» وبعد عشرات السنين من الحروب أن تقضى بجرة قلم على هذه العداوة الغائرة فى النفوس بين عشية وضحاها، ووفقًا لقراءة كل النبوءات، فإنه لا يلوح للناظرين مؤشر على إبرام سلام حقيقى.

ولو افترضنا حدوث معجزة، فلن تصل حكاية فلسطين إلى نقطة نهاية، ففى غضون عشر سنوات سوف يشكل الفلسطينيون أغلبية السكان فى المنطقة التى تسمى اليوم إسرائيل وفى المناطق المحتلة من قبل إسرائيل. وكان من الممكن أن يتحقق اليوم هذا الموقف الذى يضرب التصور الأساسى للصهيونية فى مقتل لولا انهيار الاتحاد السوفيتى الذى هاجر على إثره إلى إسرائيل مليون نسمة (الأغلبية من أصول يهودية). وهذه الزيادة العنيفة فى معدل النمو السكانى الفلسطينى وفقًا لبعض الأرقام كفيلة بإقناعنا بصعوبة الموقف ببساطة شديدة. كان تعداد سكان قطاع غزة عام ١٩٣١ (١٤٥,٧٠٠) نسمة، وفى عام ١٩٤٥ بلغ عدد سكان القطاع (١٩٠,٠٠٠). واليوم يتعدى الرقم السكانى المليون نسمة، يعيشون على بقعة أرض من أكثر مناطق العالم كثافة للسكان[٤٢]. وعلى مستوى فلسطين بأسرها (بما فى ذلك دولة إسرائيل الحالية)، فقد عاش فى عام ١٩٣١ نحو مليون نسمة، وفى عام ١٩٤٥ تزايد إلى ١,٧ مليون نسمة. أما اليوم فقد زاد تعداد السكان (يدخل فى ذلك إسرائيل والمناطق المحتلة) عن تسع ملايين نسمة (من ذلك ست ملايين فى إسرائيل). ويعيش فى إسرائيل ذاتها مليون عربى، أما فى المناطق المحتلة نحو ٣,٥ مليون. ولمواجهة هذا التحدى الديموجرافى فقد فتح أرئيل شارون بعد اختياره رئيسًا للوزراء مباشرة فى عام ٢٠٠١ باب الهجرة أمام مليون يهودى آخر. وهذا السباق الديموجرافى سيؤدى إلى صراعات جديدة - وعلى وجه التحديد فيما يتعلق باستيطان الأرض واستغلال احتياطيات المياه المحدودة. وسيصبح من الصعب على كثير من الفلسطينيين توضيح السبب فى حرمان اللاجئين بشكل متزايد بعد حروب الشرق الأوسط أعوام ١٩٤٨ و١٩٦٧،

ومن جاء من بعدهم، من حق العودة، فى الوقت الذى فتحت الأبواب أمام العودة الحرة إلى إسرائيل لكل من له أصول يهودية من جميع أنحاء العالم، أو هل من الممكن التساؤل عن عدد الفلسطينيين الذين سيطالبون بحق العودة إلى فلسطين التاريخية؟!

أما الانتفاضة الثانية التى بدأت بما يشبه الثورة الوديعة الهادئة لشباب لايملك سوى حجارة ليلقيها فى وجه المحتل، فسرعان ماتحولت إلى حرب حقيقية، فإسرائيل تحت قيادة أرئيل شارون قامت باحتلال جديد فى الأعوام التى تلت عام ٢٠٠٠ وبعد اتفاقيات أوسلو (١٩٩٣ و١٩٩٥) للمناطق الفلسطينية التى تم إخلاؤها. والموازنة الخاصة بهذه الحرب على المستويات البشرية والاقتصادية والسياسية طاحنة، ففى السنوات الثلاث الأولى للانتفاضة ـ أى من نهاية سبتمبر ٢٠٠٠ حتى نهاية سبتمبر ٢٠٠٣ ـ وصل مجموع من لقى حتفه ٣٠٢٧ شخصًا. وكان من بين الضحايا ٢٢٠١ فلسطينيًا، وكان عدد الضحايا من الشباب فى هذا الرقم ٤٠١ شابًا، قتل منهم ٢٠٧ شابًا فى إطار سياسة الاغتيالات التى تنتهجها إسرائيل. ويقدر بالإضافة إلى ذلك عدد الأطفال الذين لقوا مصرعهم من الفلسطينيين بـ ٣١ طفلاً، فقدوا حياتهم عند نقاط التفتيش الإسرائيلية نظرًا لأن الجنود اليهود امتنعوا عن السماح لهم بمواصلة السير بمركباتهم إلى أقرب مستشفى.

وعلى وجه العموم فإنه يوجد ٥٠٦ نقطة للتفتيش تابعة للجيش الإسرائيلى بالإضافة إلى حواجز الطرق، تعمل جميعها على إعاقة حرية الحركة للفلسطينيين بين المدن والقرى. وقد لقى ٧٠٤ إسرائيليًا حتفه من جراء عمليات انتحارية فلسطينية على الجيش الإسرائيلى، وكان حصاد المدنيين بين هؤلاء ٥٤٨ مدنيًا. وهذه الخسائر الإسرائيلية تعد بالفعل أكثر بكثير من تلك التى تكبدتها إسرائيل فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧. كما أن الجيش الإسرائيلى قام بتدمير ٤١٤٩ منزلاً فلسطينيًا، وصادر ٣٣٨٣٢٧ دونمًا (٣٣٨٣٢ هكتارًا) من الأراضى، وإضافة لذلك فإن العمليات العسكرية الإسرائيلية تضع نصب أعينها تدمير أحد روافد الحياة الأساسية للفلسطينيين، فقد اجتثت من الأرض مايقرب من ٩٥٢,٠٠٠ شجرة، معظمها من أشجار الزيتون، على أيدى قوات الجيش الإسرائيلى(٤٢).

واليوم يجرى سلب مزيد من الأراضى من الفلسطينيين، ولاتجد شخصًا آخر مثل أفى بريمور، سفير إسرائيل السابق لدى جمهورية ألمانيا الاتحادية، الذى قام

بتوجيه النقد واللوم لأرئيل شارون بسبب رغبته فى رد أربعين بالمائة فقط من الضفة الغربية الصغيرة والمكتظة بالسكان إلى الفلسطينيين. (ولايفوتنا أن نذكر أن الضفة الغربية لاتشتمل إلا على ٢٢ بالمائة من أرض فلسطين التاريخية). وفى المقابل تحتفظ إسرائيل بنسبة ستين بالمائة، وقريبًا ستضمها إليها. «لذلك»، كتب أفى بريمور متسائلاً: «هل يمكن استمرار وجود المستوطنات على هذه الأرض؟ وهل يجوز بناء مستوطنات مجاورة دون أية معوقات؟» وأضاف: فى جنوب إفريقيا، التى قام بزيارتها شارون فى نفس توقيت إقامة حكم فى إسرائيل على أساس الفصل العنصرى، جمع رئيس الوزراء الحالى «أمثلة ملموسة» لإستراتيجية يقوم بتفعيلها منذ توليه السلطة «خطوة بخطوة على أرض الواقع»[٤٤].

إلا أن كِلا الشعبين قد سئم الحرب، فغالبية الإسرائيليين يوافقون على إقامة دولة فلسطينية، ويعربون عن استعدادهم لإخلاء أغلب المستوطنات التى هى على أية حال غير شرعية بحكم القانون الدولى، لو أن ذلك سيؤدى إلى سلام حقيقى. ويرغب معظم الفلسطينيين أيضًا بعد هذا المشوار الطويل فى حياة هادئة نوعًا ما وتحقيق مستوى حياة كريمة. فهم يقبلون بوجود إسرائيل حتى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧، وسيرضون أغلب الظن بدولة صغيرة منزوعة السلاح ـ لو أن فى ذلك فقط نهاية للاحتلال المستمر منذ عام ١٩٦٧.

فلم يكد يمر مايقرب من مائة وعشرة أعوام على نشر تيودور هرتزل لكُتيبه «الدولة اليهودية»، حتى تبلور الآن فى إسرائيل رأيان متعارضان تعارضا جذريًا بشأن الصهيونية. وجهة النظر الأولى يمثلها أرئيل شارون الذى يرمى هدفه البعيد إلى احتلال فلسطين بأسرها دون توقف. لقد وصف المؤرخ البريطانى وكاتب سيرة الرئيس الأسد، باتريك سيل، رؤية شارون الإمبريالية على النحو التالى: «إن هدف شارون الأساسى هو بناء إسرائيل العظمى على أنقاض القومية الفلسطينية. وأحدث وسيلة للوصول لهذا الهدف هو السور الفاصل، الذى يجعل الفلسطينيين يعيشون فى أسر على مساحة كسر عشرى من أرضهم. إن ذلك السور يعزل الفلسطينيين من كافة الوجوه عن إخوانهم العرب»[٤٥].

أما أبراهام بورج عضو الكنيست عن حزب العمل فقد شكك فى البعد الأخلاقى للاتجاه التوسعى للصهيونية. وقد عبر بورج، الذى كان المتحدث باسم حزبه فى الأعوام من ١٩٩٩ حتى ٢٠٠٣، عن رأيه قائلاً: «لقد قامت الثورة الصهيونية منذ

بدايتها على دعامتين أساسيتين: طريق مشروع وتفوق أخلاقى. ولانجد أيًّا منهما اليوم على أرض الواقع. فالأمة الإسرائيلية تركن اليوم إلى قاعدة من الفساد، وتستند فى أسسها على القهر والظلم... نحن لانستطيع الإمساك بأغلبية الفلسطينيين تحت نِعالنا، ونتوهم فى نفس الوقت أننا وحدنا الديموقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط، فلا توجد ديموقراطية على الإطلاق دون حقوق متساوية لكل هؤلاء الذين يعيشون هنا ـ عرب ويهود»[٤٦].

الفصل الرابع

العراق - ميلاد فرانكنشتاين الاستعمارى

«يجب أن تسير حركة تحرير العراق من الطغيان وتحرير فلسطين من الاحتلال جنبًا إلى جنب. فإذا أخذت المدرعات الأمريكية طريقها إلى شوارع بغداد، وانطلقت المدرعات الإسرائيلية فى شوارع الخليل ورام الله، فربما نكون بذلك قد دخلنا فى مواجهة مع مائتين وخمسين مليون من سكان العالم العربى، يستحيل أن نفوز فيها أبدًا. ونحن نعرض بذلك سلام وأمن إسرائيل للخطر، وهما مهمان بالنسبة لنا من حيث المبدأ».

كارل بلدت ـ مجلة فاينينشال تايمز

٢٠ أبريل ٢٠٠٣

«تم تنفيذ المهمة» ـ كان ذلك عنوان لافتة وضعها فريق حاملة الطائرات «أبراهام لنكولن» فى مكان مناسب لها بأعلى سقف الطائرة فى برج القيادة، حين نزل الرئيس جورج دبليو بوش فى ٢ مايو ٢٠٠٣ بإحدى المقاتلات وكشف بالجزء العلوى بالطائرة عن تلك اللافتة. ولم يكد يمر ستة أشهر على شهر الانتصارات مايو، وإذا بقوات الاحتلال الأمريكى تجد نفسها معرضة لهجمات عسكرية بلغ متوسط حدوثها اليومى ثلاثين هجمة قام بها مقاتلون تابعون لتنظيمات سرية من العراق وعناصر عربية مجاورة للعراق. كان عدد من لقى مصرعهم من الجنود الأمريكيين يزيد على ١٦٠ جنديًا، وذلك فى الفترة الممتدة من النهاية الرسمية لعمليات القتال وحتى بداية نوفمبر عام ٢٠٠٣ ـ أى أكثر من عدد من سقطوا فى حرب العراق فى مارس وأبريل من نفس العام. أما كم عدد العراقيين الذين لقوا حتفهم فى فترة شهور احتلال العراق خلال المصادمات التى وقعت بين العراقيين والأمريكان، فلم توفر سلطة الاحتلال أية إحصائيات عن ذلك.

ينحدر الأمريكان من سلسلة طويلة من الأجداد الغزاة، وقد أغوتهم جميعًا ثروات بلاد الرافدين، فمنذ آلاف السنين وهذا البلد الذى يقع بين دجلة

والفرات كان هدفًا لمآرب الطامعين وأحلام الجشعين من أصحاب القوة والسلطان، وقد كانت كنوز بلاد الرافدين مطمع الغرباء بحيث إن أى ملك أو قائد عسكرى لم تمنعه المخاطرة من أن تطأ قدماه أرضًا تصل فيها درجات الحرارة فى شهر يوليو إلى خمسين درجة مئوية أو أكثر، بلاد قال عنها الجغرافى «بانزى»: إن طبقات هضابها وسهولها تلونت باصفرار «جثث الموتى». فما تملكه هذه الأرض من وفرة احتياطيات المياه التى تعين أهلها على البقاء فى الحياة فى ظل سعير الصيف، ومن أرض زراعية خصبة، ثم ظهور النفط فى الفترة الأخيرة، كل ذلك صار بمثابة قوى مغناطيسية متجددة لاتقاوم. «فلا غرابة» - كما كتب مؤرخ الحضارات إيجون فريدل - «أن يشكل هذا البلد تربة خصبة لنوع من الجنون يتجاوز بكثير الحد المألوف من الجنون البشرى قاطبة»[1].

بغداد - «هبة الله»

إن عدد المعارك التى هاج فيها هذا الجنون وماج لاتعد ولاتحصى، ففى عام ٤٠١ ق.م. اندحر القائد الإغريقى «أكسنوفون» ومعه عشرة آلاف مقاتل إغريقى أمام جيوش الفرس عند بلدة كوناكسا جنوب غرب بغداد حاليًا. وجاء الإسكندر الأكبر فى عام ٣٣١ وهزم الفرس عند جوجاميلا بالقرب من المدينة الكردية إربيل شمالى العراق، ثم عاشت بغداد بعد تأسيسها عام ٧٦٢ ميلادية فى سلام إلى حد كبير، ولكن سرعان ما هجم عليها المغول عام ١٢٥٨ وتحطمت على أيديهم المدينة فى هجمة شرسة، ونهب قائد جيوش المغول هولاكو كل نفيس بها، كما قام بحرق مكتبتها الشهيرة وأمر بذبح أهلها، ومنذ تلك الكارثة لم تقم قائمة بغداد وبلاد الرافدين مرة ثانية، ففى الفترة الممتدة بين عامى ١٣٩٣ و١٤٠١م عاود المغول إغارتهم على العاصمة الواقعة على نهر دجلة تحت قيادة قائدهم الجديد تيمور لنك. وفى هذه المرة وجدوا أنفسهم أمام بغداد أخرى، فتصدى أهلها للاحتلال الجديد بشكل أقرب إلى الجمود وفقدان الشعور.

ثم تحولت بغداد على مدار السبعمائة والخمسين عامًا التى أعقبت هجمات التتار إلى مدينة للسلب والنهب من قِبَل الغزاة، وقد حدث ذلك ثمان مرات على وجه التحديد:

أيقظت بغداد فى عام ١٤١١م وعام ١٤٦٩م غريزة الغزو لدى القبائل التركية. وفى عام ١٥٣٤م انقض السلطان العثمانى سليمان العظيم على المدينة التى أنهكتها صروف الدهر. ثم جاء إليها الفرس أيام الدولة الصفوية عام ١٦٢٣، وسرعان ماسترد العثمانيون عام ١٦٣٨ بقيادة مراد الرابع بغداد التى سُلب منها فى تلك الأثناء رونقها وبهاؤها. وفى نهاية المطاف ظهر على الساحة البريطانيون مع السير ستانلى مود.

ولولا ما مُنيت به تلك المدينة الواقعة على نهر دجلة من حروب، لتفرغ أهلها للقضاء على كوارث أخرى كثيرة حاقت بها، ويكفينا ذكر بعض السنوات لنبين قصة آلام بغداد. تعرضت البلاد فى عام ١٦٢١ إلى مجاعة - وفى عام ١٦٢٣ وقعت مذابح لأهل السنة على يد الفرس الذين باعوا من بقى حيًا فى سوق العبيد - وفى عام ١٦٣٥ تفشى فيها وباء الطاعون - وفى عام ١٦٨٩: مجاعة وطاعون - عام ١٧٣٣: حصار الفرس لها ومجاعة عام ١٧٨٦: سوء الحصاد، ومجاعة عام ١٨٠٢، ١٨٠٣: طاعون - عام ١٨٢٢: طاعون - عام ١٨٣١: طاعون وفيضانات وحصار ومجاعة؛ وانخفض عدد السكان من ٨٠,٠٠٠ نسمة إلى ٢٧,٠٠٠ نسمة - ثم عام ١٨٧٧، ١٨٧٨: طاعون ومجاعة.

لم تعرف الراحة طريقًا لها بالمدينة المنكوبة حتى فى ظل الوجود البريطانى. ونظرًا لأن العراق الذى أنشأته بريطانيا أظهر لها أثناء الحرب العالمية الثانية وجه المعاندة وانقلب عليها، كما أعرب عن رغبته فى إقامة تحالف مع ألمانيا الهتلرية، فكان لزامًا أن يحتل السادة الجدد عام ١٩٤١ من جديد مستعمرتهم القديمة. ولم يلتقط العراق أنفاسه طويلاً من فترات الاستعمار والاحتلال، فكانت آخر فترة له من الراحة لحق بها هو ربيع عام ٢٠٠٣. وتحت ستار تدمير أسلحة الدمار الشامل، وبحجة الرغبة فى تحرير الشعب العراقى، قام كل من البريطانيين والأمريكان باحتلال ذلك المركز فى أرض الرافدين البالغ الأهمية من الأزل من الناحية الإستراتيجية والذى حرمهم منه المغتصب صدام حسين. والتاريخ يوضح لنا المراحل الغريبة لتطور هذه المدينة: مرحلة صعود سريع وازدهار من العدم لتصبح عاصمة الإمبراطورية وعبر مئات السنين مركزًا للعالم الإسلامى، ثم - بين عشية وضحاها - سقوط وانحدار إلى مرحلة تتسم بالغموض والظلام، وأخيرًا مركزًا «لأول حرب فى القرن الحادى والعشرين» (الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش) - ومن ثم يصعب علينا أن نجد بعد كل ذلك مدينة أخرى بالمنطقة

عاشت مثل هذه الأقدار. فإذا كانت كلمة «بغداد» تعنى «هبة الله»، وإذا كان مؤسسها الخليفة المنصور قد أطلق عليها أيضا «مدينة السلام»[٢] فإن أحداث تاريخ هذه المدينة التى كانت يومًا عاصمة الدولة الإسلامية لاتذكرنا إلا بالويل والخراب الذى تواتر عليها.

وبعد أن سقط الأمريكان كآخر ضحية مؤقتا لحالة «جنون» أرض الرافدين، كما عبر عن ذلك إيجون فريدل، وقاموا باحتلال بغداد فى ٩ أبريل ٢٠٠٣، فلا يكاد يتحرك ساكن لمقاومة تذكر إلا قليلاً. فمنذ عهد هارون الرشيد مرورًا بسليمان الأعظم ووصولاً إلى فيصل الأول وعبدالكريم قاسم وصدام حسين، عاشت هذه البلاد أغلب أوقات زمانها ترزح تحت وطأة الجبارين وأولى القوة الذين لامكان للرحمة فى قلوبهم، تتفاوت فيما بينهم درجات العنف والغلو، فيندر أن نجد من يخاطر بحياته فى مواجهة أحد هؤلاء الطغاة المرعبين الذين سجلهم تاريخ بلاد الرافدين.

وبلا مقاومة تذكر، أفسح الغزاة من جانبهم الطريق إلى العاصمة لكل من أراد القيام بأعمال السلب والنهب. والمتحف القومى بالعراق، بما يضمه من كنوز حضارة بلاد الرافدين ترجع إلى المدن التاريخية ـ أور (موطن إبراهيم عليه السلام، تلك المدينة التى ظهرت فيها الكتابة لأول مرة فى التاريخ) ومدن عروك وبابل وأكّد ونينيف ونمرود ـ كل هذه الآثار صارت ضحية موجة عاتية منظمة لأعمال السرقة والنهب. وانطلقت أيادى العابثين من الرعاع بلا رادع ولارقابة من المحتلين، لتصل كجماعات النمل إلى الجامعات والمكتبات والأرشيفات والمتاحف ومجموعات التحف الخاصة والوزارات والمستشفيات والفنادق، بل والمساكن الخاصة ـ تمامًا كما فعل من قبل المغول. وكان من بين هؤلاء الناهبين المخربين كثير من أولئك المجرمين الذين يقدر عددهم بثلاثين ألفا، ممن قام صدام حسين بإطلاق سراحهم ببغداد قبل شهر واحد من بداية الحرب. على أنه كان بينهم كذلك خبراء فى الفن والمتاحف، عملوا على سرقة كنوز بلاد الرافدين وإخراج هذه الغنائم على وجه السرعة إلى خارج البلاد، لقد فقد العراق الكثير من وثائقه التاريخية، إن لم يكن معظمها. فحين جاء الجيش الأمريكى عام ١٩٤٥ إلى ألمانيا، ليضع حدًا ونهاية لأعمال الإرهاب وقتل الشعوب التى قام بها النازيون، أحضروا معهم ضباطًا مختصين بحماية التحف الحضارية، وكان تركيز هؤلاء المختصين التابعين للقوات الأمريكية بالدرجة الأولى هو عدم

وصول الوثائق التاريخية التى لم تصلها الأعمال التدميرية للحرب، إلى أيد العابثين المخربين والإبقاء عليها فى أمن وأمان. أما فى حرب العراق عام ٢٠٠٣ فقد غاب مثل هؤلاء الحراس والحماة للحضارة والتاريخ. ولم تجد صرخات علماء أمريكيين مرموقين فى وجه القائمين على إدارة وتخطيط الحرب بالبنتاجون ـ أىَّ صدى يذكر لخطر وقوع هذه الكارثة الحضارية بالعراق.

على أن الوثائق التى كانت تسجل الثراء الاقتصادى للعراق ظلت آمنة، لأن الغزاة قاموا بحمايتها بكل عناية ـ أى كل مايتعلق بالنفط من وثائق. فإذا كان «على بابا» ـ تلك الشخصية المشهورة فى حكايات بغداد فى مجموعة «ألف ليلة وليلة»، وهى فى عراق اليوم مرادف لكلمة لصوص ـ قد سرق العاصمة، إلا أن هناك مئات من الجنود الأمريكيين المسلحين تسليحًا عظيمًا، يسهرون على حماية وحراسة وزارة النفط العراقية ليل نهار.

من أراد أن يحفر بئر ماء فى العراق لكى يعد نفسه لمخاطر وأهوال حروب عديدة، فسوف يخرج له من البئر نفط بدلاً من الماء. إلا أن الخليفة المنصور الذى أنشأ مدينة بغداد، كان له أسباب أخرى وجيهة لاتخاذه عاصمة ملكه عام ٧٦٢ ميلادية فى هذا المكان على وجه التحديد، حيث تنساب مياه نهر دجلة فى فروع عظيمة إلى أنحاء البلاد: «هنا نهر دجلة الذى يربطنا ببلاد تبعد عنا بمسافات عظيمة مثل الصين التى تأتى إلينا بكل ماتحويه البحار، بالإضافة إلى كل ما تحتاج إليه بلاد الرافدين وأرمينيا والبلاد المحيطة بها من ضرورات الحياة».

وفيما يقرب من مائة ألف شخص ـ مهندسون معماريون وحرفيون وعمال من جميع أنحاء الإمبراطورية الإسلامية ـ تسابقوا فى إبداع القصور الرحبة والمنازل والأسواق والطرق. وهارون الرشيد، الذى عاصر فى زمانه الإمبراطور كارل الأكبر ـ المعروف بشارلمان ـ هو واحد من الحكام الذين يرجع إليهم هذا الزخم من الكنوز الأسطورية، إلا أن سلطانهم جميعًا فى أرض الرافدين قام على عنف لا حدود له. فقد أمر هارون الرشيد بقطع رأس أحد خصومه وتعليق الرأس على جانب أحد جسور نهر دجلة وعلى الجانب الآخر تم تعليق الجسد فى شطرين.

حازت الإنجازات الحضارية التى ترجع إلى العباسيين صيتا وشهرة حتى يومنا هذا. ففى عام ٨٣٠م أسس الخليفة المأمون فى بغداد «بيت الحكمة»، حيث جمعت المخطوطات التى ترجمت إلى العربية عن الفلاسفة اليونانيين، ونقلت

بهذه الطريقة إلى الغرب. وازدهرت العلوم الطبيعية. «حدث ذلك حين كانت أوروبا لاتعلم شئًا عن الفكر اليونانى والعلوم اليونانية» كما عبر عن ذلك المؤرخ اللبنانى فيليب ك. حتى.

وفى عام ١٠٠٠م نشر الوراق البغدادى ابن النديم «فهرست العلوم» فى عشرة أجزاء، وفيه سجل جميع المؤلفات التى صدرت حتى ذلك الحين من فلسفة وفيزياء وفلك وطب. واتسمت الدولة العباسية بالإبداع فى النظام والتنظيم لجميع شئون أركانها، وكان لديها نظام فعال فى إدارة البريد، وكان الحمام يقوم بنقل الرسائل من مكان لآخر، إلا أن رئيس شئون البريد كان فى نفس الوقت «رئيسًا لجهاز استخباراتى إمبريالى» (راجع فيليب حتى). ولم يتول العرب المناصب الهامة فى الدولة، بل الفرس واليهود. وكانت الزراعة التى قامت على نظام رى غاية فى الذكاء فى حل مشكلاتها، هى العماد الاقتصادى للدولة. توضح هذه الشهادة التاريخية لإنجاز حضارى رائع مدى الجرم الذى ارتكبته الهجمة التتارية الشرسة. وقد ظهرت علامات نهاية الدولة العباسية قبل احتلال المغول لها بوقت طويل. فقبل إغارة جيوش التتار عليها بنحو مائة وخمسين عامًا، كتب الرحالة العربى المقدسى يقول: «بغداد تهوى ويبعد أن ذهب بهاؤها». ولكى تحمى نفسها من خصومها وأعدائها داخل البلاد، قامت الدولة العباسية ببناء حاضرة جديدة لها شمال بغداد، وهى مدينة سامراء. وحتى يومنا هذا لانزال نشاهد هناك الجامع الكبير بمئذنته الحلزونية الشهيرة.

وقلما نرى بأعيننا اليوم الآثار المعمارية الأولى التى أنشأها الخليفة المنصور مثل تلك القصور البهية ذائعة الشهرة التى أنشئت لهارون الرشيد. فبغداد اليوم مدينة قاتمة مظلمة لا شىء فيها يجذب إليها أحد. فالقصور الكثيرة التى بناها صدام حسين، وهو حتى هذا التاريخ آخر طاغية اتخذ المدينة مقرًا لحكمه، اختفت جميعها وراء الأسوار العالية، وربما يمر بها أهل بغداد ولايعرفون عنها شيئًا؛ لأن كل من كان يشير بيده فقط إليها، كان يدرج اسمه لدى البوليس السرى المتواجد فى كل مكان ضمن المشتبه فيهم على أنه عدو النظام الحاكم. وتعانى اليوم المدينة الواقعة على نهر دجلة المآسى فى ظل الغزو الأنجلوأمريكى. نعم يمكن القول: إن الأضرار المادية التى نجمت عن الحرب محدودة مقارنة بغيرها، إلا أن الجروح النفسية التى عانى منها الناس وفقدان الأمن اليومى والإغارات والاعتداءات وأعمال السلب والنهب ستظل آثارها غائرة فى نفوس العراقيين لأمد بعيد.

البريطانيــون فــى بــلاد الرافــديــن

عندما وطئت قدم الإنجليز فى نهاية عام ١٩١٤ شبه جزيرة الفاو الواقعة أسفل شط العرب، حيث يتعانق النهران دجلة والفرات ـ وهو بالمناسبة نفس المكان الذى بدءوا منه وبعد ٨٩ عامًا غزوهم للعراق فى ١٧ مايو ٢٠٠٣ ـ كان ذلك التاريخ يتوافق وبداية اندلاع الحرب العالمية الأولى، التى أعلنت فيها الدولة العثمانية تحالفها مع ألمانيا، وبالتالى صارت عدوة لبريطانيا العظمى. وتوجهت عناية الإنجليز الأساسية إلى تأمين مستعمراتها بالهند. وقد تمكن المنتجون من خلال مرور السفن التجارية المتجهة إلى دجلة والفرات وكذلك من خلال التوسع بدرجة كبيرة فى زراعة أراضى بلاد الرافدين عن طريق إصلاح نظم الرى بها، من رفع معدلات صادراتهم من المحاصيل إلى منطقة الخليج وإلى الهند البريطانية إلى درجة عالية. وتأمين هذه القاعدة من الإمدادات كان هدفًا آخر للبريطانيين أثناء الحرب[٢]. وتلاقى ذلك مع ما تم الكشف عنه عام ١٩٠٨ فى إيران من تلك المادة الخام التى لا تزال تمثل حتى اليوم عصب الاقتصاد العالمي: النفط.

بعد عام من هذا الاكتشاف تم تأسيس شركة نفط أنجلو-إيرانية، ومع بداية عام ١٩١٤ انطلقت عملية تصدير النفط من معامل تكريره فى عبدان بمعدل سنوى يقترب من ٢٥٠,٠٠٠ طنًا من منتجات النفط. وقد أدرك ونستون تشرشل، الذى كان أسطوله فى ذلك الحين سيد البحار، أهمية تلك الاكتشافات الإيرانية على المدى البعيد، حيث يمكنه استبدال نفط منطقة خليج المكسيك البعيدة بنفط إيران، وربما يدخل فى ذلك ما يسفر عنه البحث والتنقيب عن نفط العراق.

على أنه لاحت فى الأفق مؤشرات صراع جديد، ظهر بظهور القيصرية الألمانية التى دخلت مؤخرًا فى السباق الاستعمارى، ففى عام ١٨٩٨ قام القيصر الألمانى فيلهلم الثانى بزيارة إسطنبول، وحصل من السلطان العثمانى على امتياز إنشاء خط سكة حديد بغداد. وتقرر مد خط يصل بين بغداد والبصرة، ثم خط آخر فرعى يربط ما بين داخل بلاد الرافدين والإسكندرونة الواقعة على البحر المتوسط. وبذلك يتسنى نقل الأفراد والبضائع من البصرة والخليج الفارسى إلى البحر المتوسط. كان ذلك المشروع بمثابة هجوم صريح على الانفراد بالسيطرة والصدارة البريطانية فى المنطقة. وقد كتب جورج أنطونيوس عام ١٩٣٨ عن

سكك حديد بغداد قائلاً: «وهى (السكة الحديد) بالنسبة لألمانيا تعنى تحقيق نفوذ كبير، وثراء فى الأسواق والثروات المعدنية، وهى أمان ضد تهديدات أى قوة بحرية، وتحمل فى طياتها آمال إمبراطورية. وهى (السكة الحديد) بالنسبة لبريطانيا العظمى ظهور منافس عملاق لها... إنها التحدى فى مواجهة صدارتها وسياستها بالخليج الفارسى»[٤].

تضمن امتياز إنشاء سكة حديد بغداد حقوق الحفر والتنقيب عن النفط والثروات المعدنية الأخرى على مساحة تقدر بعشرين كيلو مترًا على كل من الجانب الأيمن والجانب الأيسر لإنشاء خط السكة الحديد. إلا أن الإنجليز كان لهم سبق تأمين سيطرتهم على أماكن توفر النفط المعروفة بالمنطقة فى ذلك الحين. وفى عام ١٩١١ تأسست «شركة النفط التركية» (TPC)، التى احتفظ البريطانيون لأنفسهم فيها بحصة كبيرة. وفى عام ١٩١٣ اندمجت هذه الشركة مع شركة النفط الأنجلو-إيرانية. وحين اندلعت الحرب أصبح للإنجليز مصالح اقتصادية بالغة الأهمية فى المنطقة على عمومها، لاسيما فى تلك المنطقة التى صارت بعد بضع سنوات دولة العراق الحالية.

وعندما احتل الإنجليز عام ١٩١٤ البصرة، وقع وفقًا لرواية شهود عيان معاصرة حادث أخذ منه الغزاة بعد تسعة عقود من هذا التاريخ عبرة لا تنسى. فقد كتبت الإنجليزية إيليانو فرانكلين إيجان، التى كانت قد جاءت مع القوات القادمة من الهند البريطانية، التقرير التالى: «نهبت مدينة (البصرة)، واختبأ جميع المواطنين المسالمين... وعلى الفور أعلن بيان طلب فيه من السكان الحفاظ على النظام ووقف أعمال السلب والنهب. ثم ذكر فى البيان الإعلامى بعد ذلك أنه سيتم معاقبة المجرمين على جرائمهم من أعمال السطو المسلح فى محاكم عسكرية... ونظرًا لأن عمليات السطو المسلح من الأعمال التى يقوم بها العرب فى حياتهم بشكل أساسى فقد بات من الصعب تطبيق هذا البيان الإعلامى... أما القوات فقد كانت منهكة فى اشتغالها بأعمال فى نواح أخرى بدرجة لا تجعلها قادرة على ممارسة الرقابة المطلوبة فى مواجهة هذه الأعمال»[٥].

وبعد احتلال البصرة تهيأت الحملة البريطانية العسكرية لمواجهة العثمانيين، ولم تكن مهمة سهلة فى البداية مثلما حدث فى الزحف الأمريكى ضد العراقيين. «كان لزامًا علينا أن نسير طريقًا طويلاً على الأقدام من البصرة إلى بغداد»، كما جاء على لسان قائد الفرقة شارل فير فيرير تاونسهند، بناء على أمر من رئيسه

الطموح السير جون نيكسون. أما على الصعيد التركى فقد تولى الجنرال الألمانى كولمان فون دير جولتز، أمر القيادة العليا على القوات العثمانية فى بلاد الرافدين. وانتهت الحملة العسكرية عند «قوت العمارة» الواقعة على نهر دجلة، فى أبريل عام ١٩١٦ بكارثة نظرًا لسوء الإعداد لها. فقد دفع الأتراك ببقية الجيش البريطانى المهزوم إلى الأناضول سيرا على الأقدام، حيث لقى معظم الأسرى الإنجليز مصرعهم فى أعمال تشييد السكك الحديدية. وسُمح فى مقابل ذلك لتاونسهند، كما كان ذلك أمرًا طبيعيًا لأى قائد عسكرى على عكس قواته، أن يعيش بإسطنبول فى منفى تتوفر فيه أسباب الراحة[٦]. ولم ينجح عبور القوات البريطانية إلى بغداد إلا فى عام ١٩١٧ ـ ذلك العام الذى وعد فيه وزير خارجية بريطانيا اللورد بلفور الشعب اليهودى بـ «وطن قومى» لهم فى فلسطين. وفى عام ٢٠٠٣، حين وصلوا إلى منطقة «قوت العمارة» قام الأمريكيون بإصلاح وترميم مقابر الجنود البريطانيين بها ـ كنوع من رد الدين، وإن جاء متأخرًا، إلى أولئك الذين سقطوا قتلى فى حملة عسكرية هوجاء.

«أنـــا مولـــى المنتصـــر»

ولكن كيف تكونت فى السنوات التى تلت الحرب العالمية الأولى دولة من أرض الرافدين بما تحويه من غالبية شيعية فى الجنوب وأقلية سنية حول بغداد وتكريت وعناصر ذات أصول كردية من الناحية الإثنية؟ وقد رأى الإنجليز آنذاك وجوب إنشاء دولة قومية ـ وهو مشروع أقرب إلى الغرابة على عقلية العرب وعلى الإسلام ـ حتى يمكن إدارة الحكم فى البلاد واستغلال مواردها الطبيعية والاستفادة منها. كانت لحظة تكاد توصف بأنها رومانسية فى تاريخ الاستعمار الغربى، حين شرع البريطانيون بمساعدة امرأة فى تأسيس دولة تحمل اسم العراق. «أحيانًا ينتابنى إحساس بصعوبة بالغة فى هذا الأمر، مثل ذلك الإحساس الذى ينتابنا حين نفكر فى قصة الخلق. فالخالق لم يخلق الكون عبثًا، وهو سبحانه الذى خلقه بتدبير دقيق. فينبغى أن نتدبر أيضًا كيف انتهى الله من خلقه على أكمل وجه»[٧]. هذه الكلمات كتبتها جرترود بيل، وقد صاغتها فى خطاب لها إلى والديها بإنجلترا بتاريخ ديسمبر ١٩١٨.

ولدت جرترود بيل عام ١٨٦٨ بالقرب من مدينة دور هام بشمال إنجلترا،

وهى التى لاذت بالفرار من المجتمع الفيكتورى الصارم، لتصبح بعد ذلك المعلمة والمؤرخة والأثرية والباحثة والكاتبة ومتسلقة الجبال وعاشقة البساتين. تعلمت جرترود بيل اللغة العربية، وصالت وجالت فى بوادى شبه الجزيرة العربية، واكتسبت معارف جمة عن الحياة فى بادية العرب وأسدت خدمات جليلة لوطنها. كانت تجلس فى بغداد (حيث وافتها المنية عام ١٩٢٦ وقبل ثلاثة أيام من احتفالها بعيد ميلادها الثامن والخمسين)، ترسم على خرائط أمامها حدود العراق فى المستقبل. ولو كان لنا أن نصف المهمة المكلفة بها بأنها كانت مهمة جسورة، ربما كان فى هذا الوصف نوع من التقليل من شأنها جاء فى محله. إذ حذرها أحد المبشرين الأمريكان قائلا: «إنك تضعين نفسك فى مواجهة تاريخ عمره أربعة آلاف سنة، حين تحاولين بجرة قلم رسم خط حول العراق، ثم تضعين كل شىء تحت مسمى وحدة سياسية»[٨].

بعث مفوض الإدارة المدنية البريطانى أرنولد ديلسون ببرقية إلى لندن، ذكر فيها أن الخطط البريطانية فى العراق تعد «روشتة كارثية». ثم عاود مراسلة لندن بكتاب جاء فيه أن «نحو مليون مسلم شيعى فى بلاد الرافدين» ليس لديهم استعداد للاعتراف «بسيطرة الأقلية السنية على مقاليد الحكم فى البلاد». وأضاف قائلاً: إن ٧٥ بالمائة من السكان كانوا يعيشون وفقًا للنظم القبلية وهم لا يدرون على الإطلاق ما معنى أن يندرجوا تحت نظام حكومة مركزية[٩].

وبعد مرور ثمانية عقود، فى عام انتصار الحلفاء ٢٠٠٣، يسعى المحتلون القدامى الجدد فى خلق مشهد متوازن شبيه إلى حد كبير بالمشهد السابق. فهم يدركون أنهم لا يستطيعون هذه المرة استبعاد الأغلبية الشيعية عن الحكم. وفى نفس الوقت يحاولون إغلاق الطريق أمام أولئك الشيعة الذين يرغبون فى إقامة دولة ذات توجه إسلامى.

وما ينقص المحتلين فى عام ٢٠٠٣ هو شخصية من طراز جرترود بيل. نعم لقد كانت المغامرة والرحالة العالمية «مستشرقة وإمبريالية» (كما جاء على لسان جانيت والاش) فى الوقت ذاته، ولكنها عشقت فنها وأجادت فى أدائها على عكس المغنيين والعازفين فى الوقت الحاضر. فقد وهبت كمستشرقة كل ماتملك من مشاعر حب لبلاد العرب ولحضارتها وأهلها، ولكنها كراعية للإمبراطورية البريطانية العالمية كانت تؤمن مثل أولئك الأمريكان اليوم بنظرية تفوق الحضارة الأوروبية ورسالة بلدها الحضارية. وقد كتبت جرترود بيل إلى والديها

فى بريطانيا العظمى تقول: «إن الاستشراق يشبه إلى حد كبير طفل هرم طاعن فى السن». وهذا الطفل - على حد قولها - يجب أن يتغذى ويتربى ويتدرب على الاعتناء بنفسه. وفى حديث مطول مع عبد الرحمن الجيلانى، نقيب بغداد - وهى أعلى مرجعية دينية سنية فى المدينة - أسر إليها الرجل الوقور قولته أنه يُكِن حبًا للثقافة الفرنسية، ولكنه يكره أسلوب الحكم الفرنسى. وقد قال النقيب عن إنجلترا، دولة جرترود بيل: «إن أمتكم عظيمة وثرية وقوية. ولكن أين قوتنا؟... أنتم الحاكمون وأنا المحكوم، وإذا سئلت عن رأيى فى استمرار السيادة البريطانية، فستكون إجابتى أننى مولى المنتصر»(١٠).

هكذا تخيلت جرترود بيل ومعها البريطانيون الشعوب العربية وهكذا تمنوا أن يكونوا - مطيعين مثل شاب يافع يقبل بكل سرور الجانب الأبوى للإمبريالية. إلا أن الأمس غير اليوم، فسرعان ما تنقلب الأمور وتأتى الرياح بما لا تشتهى السفن. ففى عام ١٩٢٠ انتفض الناس فى وجه السيادة البريطانية، حيث توفرت الأسباب لذلك. فقد قام البريطانيون بمنطقة سد هندية بتغيير مفاجئ لنظام توزيع المياه اللازمة لرى الأراضى الزراعية والذى كان يعمل بانتظام منذ عشرات السنين. وأدى هذا التغير إلى نقص فى المحاصيل والحصاد. كما طلب الإنجليز فجأة من العشائر جباية غريبة عليهم كانوا يطلقون عليها كلمة «ضرائب»، أدى ذلك إلى سقوط ضحايا من بين الضباط الإنجليز. وتعالت صيحات الشيعة فى كربلاء «بالجهاد» ضد المحتلين القادمين من أوروبا. وتساءل أحد المعلقين فى صحيفة «تايمز» الصادرة فى لندن: إلى متى نبذل الأموال ونغامر بحياة أبنائنا حتى نجبر شعبًا لم يسأله أحد مطلقًا إذا كان يقبل العيش تحت إدارة أجنبية(١١).

إلا أن حجم المغامرات فى العراق كان أكبر مما يتصوره عقل. شاركت جرترود بيل، بالإضافة إلى الأمير فيصل و ت. ى. لورانس، فى مؤتمر السلام بباريس عام ١٩١٩. ولم يتطرق الحديث على الملأ بالطبع إلى شئون الحياة مثل النفط. وكان من الأفضل، كما ورد بعد ذلك فى المادة ٢٢ لعصبة الأمم التى تأسست حديثًا فى يونيو ١٩١٩، التطرق إلى حديث المسئولية التى تقع على العالم المتحضر تجاه هذه الشعوب التى لم تبلغ بعد مستوى الاضطلاع بأعباء الحداثة. ولكن كان يدور خلف الكواليس الحديث حول هذه المادة الخام السوداء الزيتية التى يطلق عليها النفط. وامتلأت قاعات المؤتمر وأجوائه برائحة مادته العبقة، أو كما عبرت

جانيت والاش بقولها: تحت أشجار النخيل الصغيرة التى تملأ قاعات استقبال الفندق وفى كل ركن من أركان قاعاته الخاصة، انطلق نهر الحديث والكلمات «مغلفة بلون واحد من الرغبة فى الحصول على النفط»[١٢].

وعلى الصعيد العملى فقد قامت سلطة الاحتلال البريطانى عام ١٩٢١ ومن جانب واحد بتعيين الأمير فيصل ملكًا على العراق. وعلى العكس تمامًا من رغبة أغلبية الشعب العراقى فقد استندت الحكومة العراقية بقيادة الملك فيصل الأول بشكل متزايد فى كل تصرفاتها إلى التواجد والتوجه البريطاني، وأبدى هؤلاء البريطانيون على سبيل المثال استعدادهم لمد يد العون ـ وانطلاقًا من مصلحتهم الشخصية ـ فى استصدار قرار حاسم من عصبة الأمم بشأن المستقبل الاقتصادى للعراق. وكان تأثير دور اللوبى البريطانى فعالاً لدرجة أن عصبة الأمم أقرت للعراق بشكل نهائى المنطقة الثرية بالنفط حول الموصل ـ وليس لتركيا غير المخلصة التابعة لمصطفى كمال أتاتورك. وقد منحت الحكومة العراقية قبل ذلك القرار الصادر فى يوليو عام ١٩٢٥ ببضع شهور «شركة النفط التركية» (TPC) امتيازات حفر وتنقيب سخية. ونظرًا لأن أغلبية حصص نفط شركة TPC تقع فى أيد إنجليزية، فقد حصلت بريطانيا العظمى بهذه الطريقة على حق الرقابة على نفط الموصل[١٣]. وأكسبت منطقة كردستان العراق أهمية استراتيجية لامثيل لها، ففى عام ١٩٢٧ تم اكتشاف حقول نفط فى غاية الأهمية فى منطقة كركوك. ومن ثم باءت طموحات الأكراد فى الحصول على الاستقلال منذ البداية بالفشل.

وقد ظهر على نحو مفاجئ وقبل أوانه شعور قومى محفوف بإرادة شعوب بلاد الرافدين وكردستان، الذين جمعهم البريطانيون بين عشية وضحاها تحت اسم عراقيين، والذين لم يرتضوا مطلقًا على أنفسهم الحياة فى ظل الانتداب البريطانى فى بلاد الرافدين وفى ظل السيادة البريطانية على دولتهم الفتية. وطالب الجميع بالاستقلال فمنحتهم بريطانيا العظمى إياه، وأعربت السلطة الاستعمارية عن إنهاء الانتداب وعن دخول العراق فى عصبة الأمم، إلا أن الإشارة السخية من الوهلة الأولى كان لها ما يقابلها من ثمن. ففى الاتفاقية التى عقدت بين إنجلترا والعراق كان لزامًا على الدولة الحديثة عام ١٩٣٢ التسليم بتمركز القوات البريطانية ومنح بريطانيا العظمى يد الرقابة العليا على السياسة الخارجية العراقية، بالإضافة إلى إطلاق اليد البريطانية فى مراقبة النفط العراقى، الذى ظل تحت قبضتها حتى بدون اتفاقية.

لم تبرهن السنوات الست والعشرون التى أعقبت ذلك حتى نهاية الملكية عن طريق الانقلاب الذى قام به العقيد عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٨، على أنها سنوات ترسيخ ديمقراطية عراقية. ونظرًا لما اعتبرته بريطانيا العظمى تهديدًا لها من جانب الاتحاد السوفيتى، فقد نشأ حلف بغداد عام ١٩٥٥. وعمل هذا الحلف على تأكيد أمن الأراضى المستعمرة الخاضعة لسلطان لندن فى الشرق الأدنى والأوسط والغنية بالنفط. وتألفت عضوية هذا التحالف من تركيا وإيران والعراق وباكستان. وبعد الانقلاب العسكرى الذى وقع عام ١٩٥٨ انسحب العراق من هذا الحلف، ثم تفكك الحلف الذى لم يكن له فعالية تذكر على طول دوامه، بعد أن تولى زمام السلطة فى إيران عام ١٩٧٩ آية الله الخمينى، وحمل ميلاد المشروع على الأعناق إلى قبره.

ولم تنعم أجواء العراق على صعيد السياسة الداخلية إلا بقليل من الهدوء، حيث كان يحسب بقاء الحكومات فى الحكم بالشهور وليس بالسنين، فحكومة نورى السعيد وحده الذى أطاح به الانقلاب العسكرى عام ١٩٥٨ وقتل على إثره، نظرًا لأنه كان واحدًا من أكثر التابعين المخلصين للسيادة البريطانية، قامت بتأليف أحد عشر مجلسًا للوزراء. وقد تم الإعداد طويلاً لهذا الانقلاب العسكرى، كانت هناك من وقت لآخر مؤشرات على اختمار عملية سياسية متنامية. فقد أيقظ الملك الشاب غازى، الذى تولى العرش عام ١٩٣٣ عقب الموت المبكر لفيصل الأول، مشاعر الحماس فى البلاد بسبب مواقفه المعادية للإنجليز (انظر الفصل السادس). وفى عام ١٩٤٨ اندلعت مظاهرات عاصفة معادية للإنجليز على أثر عدم تمكن رئيس الوزراء صالح جبر، وهو أول شيعى يتولى هذا المنصب، فى اتفاقية بورتسموث من التوصل إلى إعادة النظر بشكل جوهرى فى اتفاقية عام ١٩٣٢ المبرمة بين العراق وبريطانيا، فجاء ذلك عكس توقعات العراقيين، علاوة على ذلك جاء تأسيس دولة إسرائيل دليل آخر للعراقيين على استمرار قهر العرب من جانب القوى الغربية.

أما فيما يتعلق بإمكانية ظهور مقاومة، فقد قدمت الجارة إيران عام ١٩٥١ الدليل على ذلك، حيث قام البرلمان بتأميم صناعة النفط الإيرانية وسحب بذلك من الإنجليز قبضتهم عليها، وخرج الشعب العراقى إلى الشوارع ليعرب عن فرحته للإيرانيين. وبعد خمس سنوات أسقط الرئيس المصرى جمال عبد الناصر ركنًا آخر مهما من أركان الإمبراطورية، وذلك حين أعلن تأميمه لقناة السويس. وصفق

لذلك الحدث طويلاً كثير من العراقيين، ومما عزز من شعور العرب بالفرحة هو أن المشهد الجيواستراتيجي الذى أسسه الإنجليز شرق وغرب السويس، بدأ يبدى تبرمه واستنكاره الواضح.

وبعد كل هذه النكسات التى كان على الإنجليز تقبلها، أصبح المشهد السياسى فى نهاية الخمسينيات حتى فى العراق ممهدًا لاستقبال تغيرات، ففى عام ١٩٥٨ أسقط العقيد عبد الكريم قاسم ومعه حركته «الضباط الأحرار» الأسرة الحاكمة التى أجلسها على عرش البلاد فى العراق بريطانيا العظمى، وقام معاونو عبدالكريم قاسم باغتيال فيصل الثانى وكثيرين من عائلته.

ويجدر بنا إلقاء الضوء قليلاً على «حركة الضباط الأحرار» بالعراق. لم تكن المجموعة التى أسقطت الأسرة الحاكمة على الإطلاق عصابة من المجرمين والقتلة مدفوعة بنهم السلطة. ولم يكن أعضاؤها إسلاميين ولا وطنيين شوفينيين ولا قوميين عروبيين. ذكر الكاتب الفلسطينى حنا بطاطو عام ١٩٧٨ فى دراسة ضخمة عن العراق أن مايميز هذه المجموعة هو أنها كانت «حركة قومية عروبية ذات سياق إسلامى». ويستشهد بطاطو بنص وصية نديم الطبخالى، أحد الضباط فى الحركة، حيث اختتم وصيته بالكلمات التالية: «نسألك الرحمة يارب وأنا الذى آمنت برسالتك، وآمنت بأمتى وعروبتى. فاغفرلى يارب وأشهد أنه لا إله إلا أنت، وأشهد أن دينك هو حق والعروبة حق وأن القرآن حق وأن الإسلام حق»[١٤].

أيد كثير من العراقيين الحركة الإسلامية-القومية، «حركة الضباط الأحرار»، كما كان من رأيهم أن الملكية كانت متيمة بالإنجليز وأنه حان الوقت للتخلص من السيادة الغربية العليا تحت لواء الإسلام وحركة الوحدة العربية، وكانوا يتوقون لسماع الكلمات التى كان يتلوها أحد المتآمرين وهو عبد السلام عارف، بالإذاعة صباح كل يوم الساعة السادسة والنصف، وكان يبشر العراقيين بالتحرر من أولئك المحررين أنفسهم، الذين جاءوا إلى البلاد عام ١٩١٧، قائلا: «أيها الشعب العراقى الأصيل، بدافع من إيماننا بالله وبمساعدة أبناء الشعب المخلصين وبقواته المسلحة الوطنية، عقدنا العزم على تحرير الوطن الحبيب من أولئك الفسدة من الرجال الذين صنعتهم الإمبريالية»[١٥]. وقد اتخذ المواطنون العراقيون تمثال السير ستانلى مود «محرر» بغداد، رمزًا لانتصارهم.

لو اتحدوا لاستحالت هزيمتهم

أولاً: الأكراد

خرج فى بداية شهر نوفمبر ٢٠٠٣ الآلاف مهللين فى شوارع مدينة السليمانية الكردية الواقعة فى شمال العراق، ليحتفلوا ويعبروا عن مشاعر فرحتهم بحدث أسعد قلوبهم. فلأول مرة فى الثمانين عامًا الأخيرة من تاريخ العراق يقف جلال طلبانى أحد الأكراد، على الأقل من الناحية الشكلية، على رأس الدولة - حتى ولو كان ذلك أيضًا لبرهة من الزمان. وكان مرجع ذلك إلى نظام تناوب السلطة داخل مجلس الحكم بصفة شهرية، ذلك المجلس الذى شكله الأمريكان وعينوا أعضاءه. إلا أن هذه الفترة الرسمية القصيرة التى يرأس فيها أحد الأكراد المجلس، كانت تعد اعترافًا متأخرًا بحقيقة، مؤداها: أنه حتى الأكراد لهم حقوق سياسية فى هذا العراق الذى صنعه البريطانيون. إذ كان الخطاب السائد فى العراق حتى هذه اللحظة يتحدث عن «مشكلة الأكراد».

ويسير هذا الاستخدام اللغوى وفقًا لتصور فكرى غير مجد من الناحية السياسية من حيث إلصاق مفهوم كلمة «مشكلة» دائمًا بهذه المجموعات أو بالأحرى الأقليات التى لم تشكل وحدها هذه المشكلة. فتعبير «مشكلة الأكراد» يعد فى الواقع مثالاً نمطيًا على الاستخدام اللغوى الخاطئ فى مثل هذه الحالات. ومرجعية ذلك أنه ليس الأكراد المتواجدون فى تركيا أو فى العراق هم فى المقام الأول المشكلة، ولكن تلك الحكومات التى تعمل على تصنيف الأكراد - وكما حدث منذ فترة وجيزة فى تركيا - بوصفهم «أتراك الجبال»، أو التى قامت باغتيال الأكراد أو ترحيلهم من وطنهم، كما حدث ذلك فى عهد صدام حسين.

هناك نحو ٢٧ مليون كردى يعيشون فى الشرق الأدنى. وينتمى الأكراد إلى مجموعة الشعوب الهندو - إيرانية، أما العرب فينتمون إلى مجموعة الشعوب السامية. ويتوزع الوجود الكردى على كل من تركيا وسوريا وإيران والعراق. وهناك حوالى ٧٠٠,٠٠٠ كردى يعيشون فى أوروبا، بالإضافة إلى ٤٠٠,٠٠٠ آخرين يتواجدون فى أذربيجان وأرمينيا. وفى دولة العراق التى صنعها البريطانيون يعيش اليوم مايقرب من خمسة ملايين كردى بجانب ثمانية عشر أو تسعة عشر مليون عربى. ويعتنق معظم الأكراد المذهب السنى، وقد عملوا كجنود فى كثير من جيوش الدولة العثمانية وكذلك فى الإمبراطورية الفارسية.

ومنذ تأسيس دولة العراق ومشكلة العلاقات بين العرب والأكراد تتصدر قائمة المشاكل التى واجهت جميع نظم الحكم والحكومات المعنية من قبلها. ولأن البريطانيين كانوا يترقبون منذ وقت مبكر الكشف عن منابع نفطية ضخمة فى منطقة كردستان، فلم تكن مسألة قيام دولة كردية مستقلة (فى شمال بلاد الرافدين) بالنسبة لهم مطروحة على الإطلاق على جدول أعمالهم بالمنطقة. واعتقد البريطانيون بالإضافة إلى ذلك فى ضرورة إحكام سيطرتهم على أكبر قدر ممكن من مساحة الأراضى المتواصلة جغرافيًا، بحيث توفر لهم عمقًا إستراتيجيًا لا جدال فيه للقيام بعمليات أخرى محتملة على الخليج - مثلما فى الهند وفى إيران المجاورة، وبالتالى فإن تقسيم الإقليم إلى دول قومية صغيرة؛ سيكون حائلاً دون تحقيق هذه الضرورات السياسية والعسكرية أيضًا من حيث الكفاءة. وقد حكمت مثل تلك المعايير توجهات الدول الأخرى حتى الآن، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية. فلكى يتسنى للأمريكان إحكام مراقبتهم على الخليج، فإنهم كانوا فى حاجة إلى عمق إقليمى هادئ يؤمن ظهورهم؛ للقيام بأية عمليات عسكرية محتملة فى إيران والمملكة العربية السعودية.

على أن انفراط عقد العراق مسألة قائمة حتى الآن. فالأكراد يطمعون فى إقامة نظام فيدرالى صارم. وإذا لم يوافق العرب شيعة وسنة على ذلك النظام، فلا يستبعد نهاية نظام الدولة المركزية العراقية القائم حتى الآن.

وقد ظهر إبان الاحتلال البريطانى بين العناصر الكردية طبقتان من النخبة القيادية[١٦]. تألفت الطبقة الأولى من زعماء العشائر التقليدية وهم الأغوات والشيوخ، واستقر فى أيدى هذه الطبقة عبر مئات السنين الإمساك بزمام القيادة المرنة تحت إمرة العثمانيين. أما الطبقة الثانية من النخبة الكردية فتشكلت من أولئك المثقفين الذين لم يرثوا كثيرًا من التفكير العشائرى التقليدى، وتلقوا تعليمهم بمدن الإمبراطورية، وكان حظهم فى استيعاب مفهوم القومية الأوروبية وفيرًا، وقد فضل أتباع هذه الطبقة الأخيرة فكرة تأسيس دولة كردية، أما الإنجليز فقد استطاعوا إقناع الطبقة العتيقة المؤلفة من زعماء العشائر بتأييد فكرة الاندماج فى عراق يسوده العنصر العربى. وقد حصل الحاكم المدنى البريطانى أرنولد ويلسون أثناء قيامه بزيارة السليمانية الكردية فى نوفمبر ١٩١٨ على موافقة الشيوخ الذين أبدوا موافقتهم على تأسيس دولة العراق التى يرغب فى إقامتها الإنجليز، والتى يسودها العنصر العربى.

ولم يخطر ببال الأكراد فكرة السيادة البريطانية على هذه الدولة، بل تعلقت آمالهم على مساحة كبيرة من الخصوصية التى تتوافق وطبيعة حياتهم. وحين تبددت آمالهم على أرض الواقع، هب الشيخ محمود بالسليمانية فى تنظيم انتفاضتين للوقوف فى وجه تحول مصير الأكراد، وعلى الفور أرسل البريطانيون قواتهم التى أخمدت ثورة الثائرين. وفجأة لم يشأ المنتصرون فى الحرب العالمية سماع أى شىء يذكرهم بأن الأكراد أنفسهم هم من تلك الشعوب «المحررة» من الظلم العثمانى. ولم يبقَ فى واقع الحياة السياسية اليومية شىء آخر يذكر عن ذلك الوعد الأصيل. أما فيما يتعلق بما يمكن أن يتوقعه الأكراد من معاملة، فقد ورد ذكره على لسان أحد الضباط الإنجليز فى مدينة أربيل الكردية: «وللكردى طبيعة تشبه طالب المدارس... أحياناً تضطر أن تضربه، وفى اليوم التالى يجب أن تعطيه قطعة من البونبون»(١٧).

وتغير الموقف قليلاً فى السنوات التالية، فكانت الانتفاضات دائمًا ما تندلع فى شمال العراق. كما قام مصطفى كمال مؤسس الدولة التركية المجاورة بمواجهة الأكراد. وفى عام ١٩٣٢ تيقن الأكراد بالعراق فى ذهول ودهشة بالدليل القاطع أن الاتفاقية العراقية البريطانية التى أفضت من الناحية الشكلية إلى استقلال البلاد، لاتتضمن أى نص يتعلق بالحكم الذاتى للأكراد. ولهذا السبب تنامت فى السنوات التالية جهود وطموحات الأكراد للحصول على حالة الحكم الذاتى فى المملكة العراقية، إلا أن الحكومة المركزية نظرت دائمًا إلى المطالبة بالحكم الذاتى على أنها خطوة أولى للانفصال عن العراق. ورغم ذلك كان هناك تمثيل للأكراد فى البرلمان العراقى وكذلك فى الحكومات التى كانت سرعان ما تتبدل. يضاف إلى ذلك أن كثيرًا من زعماء العشائر قد رتبوا أمورهم مع الملكية. وكان الهاشميون بزعامة الملك فيصل وغازى بالنسبة لهم زعماء ينحدرون من سلالة قوية يتعين التوصل إلى تفاهم معهم لتدبير شئون حياتهم.

وكانت الطبقة الجديدة التى تربت فى أحضان التعليم الجامعى، وهم طبقة المثقفين، منغمسة فى التفكير فى مقابل ذلك بمفاهيم قومية كردية. وكان الملا مصطفى برزانى هو أحد هؤلاء الذين أخذوا أماكنهم بين هذه الصفوف. فتارة يجابه ذلك الزعيم العشائرى القوى البيت الملكى، وتارة كانت تنتهى مجابهته إلى حالة وقف إطلاق نار عسكرى وسياسى هش. وفى عام ١٩٤٥ أرسلت حكومة بغداد قوات عسكرية مكونة من أربعة عشر ألف جندى لإحكام سيطرة بغداد على

كردستان العراق عقب وقوع قلاقل متعددة. فلاذ مصطفى برزانى بالفرار مع أتباعه إلى منطقة مهاباد الإيرانية، ولم تستطع جمهورية كردستان التى تم الإعلان عنها الاستمرار إلا بقدر الدعم الذى تلقته من الاتحاد السوفيتى. وبعد أن طالب كل من الأمريكان والبريطانيين مع بداية الحرب الباردة بانسحاب جميع القوات الأجنبية، وضع ذلك نهاية لجمهورية مهاباد، وهرب مصطفى برزانى إلى موسكو، وظل بها حتى سقوط الملكية العراقية فى عام ١٩٥٨.

وبعد أن أسقط العقيد عبد الكريم قاسم الملكية، تغيرت العلاقات بين العرب والأكراد قليلاً. وطالب مصطفى برزانى بالحكم الذاتى لكردستان. ولم يكن لدى قاسم اعتراض على ذلك، إلا أن بعض أعوانه حالوا بينه وبين تنفيذ الأمر. وقد ظهر إبان حركة الوحدة العربية التى بشر بها الرئيس جمال عبد الناصر تنافس فى العراق على قومية عربية وأخرى كردية، إلا أن قاسم استطاع تهدئة برزانى، فمنحه فيلا يقيم فيها وأغدق عليه براتب سخى[١٨].

ولكن الهدوء لم يستمر فى كردستان، ففى عام ١٩٦١ انتفض زعماء العشائر الكردستانية فى وجه عبد الكريم قاسم. واختار الأغوات مصطفى برزانى ليكون زعيمًا لهم - رغم عدم وضوح سياسته، وكانت المطالبة بالحكم الذاتى سببًا لانتفاضة الثوار، كما أن الإصلاح الزراعى الذى أقر قوانينه نظام الحكم ببغداد كان سببًا آخر لثورة العشائر الكردية التى استشعرت ظلم قوانين الإصلاح الزراعى الواقع عليهم. فتحديد ملكية الأرض، كما أبدى الشيوخ مبرراتهم بهذا الشأن، أدت إلى تراجع الإنتاج فى كردستان. وقد استمرت الانتفاضة حتى اغتيال عبد الكريم قاسم فى الثامن من فبراير عام ١٩٦٣ بمساعدة حزب البعث.

كان عبدالسلام عارف هو الرجل الجديد القوى، وكان من أنصار عبد الناصر. وأصبح نائب عارف هو أحمد حسن البكر - أحد أعضاء حزب البعث (والذى أصبح بعد ذلك رئيسًا للدولة). وفى ١٠ فبراير ١٩٦٣ عقد عارف مع مصطفى برزانى هدنة، ولم تتضمن وثيقة الهدنة شيئًا يخص الحكم الذاتى الكردى، بل إن اسم كردستان لم يذكر بها على الإطلاق. وكانت الوثيقة الخطية تتحدث عن «المناطق الشمالية» للعراق فحسب. ومن ثم فقد أدان إخوان برزانى من الأكراد الوثيقة على اعتبارها صفقة بيع للحقوق الكردية. وتصاعدت حدة الصراع مرة أخرى، وانتهى الأمر من جديد إلى حالة الحرب، ثم التوصل مرة أخرى إلى اتفاق مؤقت. وفى مايو عام ١٩٦٦ ألحق برزانى، الذى أحسنت إيران تسليحه، الهزيمة بأحد جيوش

الحكومة المركزية. وعلى الفور اعترفت بغداد «بالحقوق الوطنية» للأكراد، كما أعلنت أن العراق «دولة ثنائية القومية»[19]. وفي مارس ١٩٧٠ ـ كان حزب البعث قد أحكم قبضته الرقابية الكاملة على العراق فى عام ١٩٦٨ ـ أبرم كلا الحزبين اتفاقية سلام، منح فيها الأكراد عمليًا جميع الحقوق الخاصة بالحكم الذاتى. وبدا للأكراد أنهم وصلوا إلى نهاية صراع طويل. ولكن لم يكتب للنجاح الباهر الاستمرار طويلاً. فقد أرجأت حكومة بغداد مجددًا التعداد السكانى المنصوص عليه فى الاتفاق. وشرعت الحكومة فى مقابل ذلك فى العمل على استيطان العرب فى المناطق الكردية. واستمر ذلك النهج فى واقع الأمر حتى نهاية حكم نظام صدام حسين.

وفى ١١ مارس ١٩٧٤ أعلنت حكومة بغداد قانونًا خاصًا بالحكم الذاتى لكردستان، الذى أكد من الناحية اللفظية الاتفاقية السابقة، ولكن فى واقع الأمر أفسح المجال لحق الحكومة المركزية التى يسودها العنصر العربى، فى أن تسيطر على كردستان، كما يحلو لها وفى عامى ١٩٧٤، ١٩٧٥ انفجرت الحرب فى كردستان من جديد. فقد تسلح مقاتلو مصطفى برزانى بأفضل سلاح لدى شاه طهران ـ حتى التقى كل من نائب رئيس الجمهورية صدام حسين والشاه رضا بهلوى فى مارس ١٩٧٥ بالجزائر. وكان الأكراد كما كان الحال دائمًا محل مساومات تالية وكأنهم كرة يتقاذفها اللاعبون فى موضوع المفاوضات. فلم يكن موضوع الأكراد محل اهتمام الشاه، بل انصبت اهتماماته على اكتساب حدود جديدة على شط العرب، أى عند ملتقى مياه دجلة والفرات قرب مصبهما فى الخليج الفارسى. فقد أراد الشاه مد الحدود إلى منطقة وادى النهر أى إلى منتصف الشط. ووافق صدام حسين على خط الحدود الذى يرغب فيه الشاه بين البلدين، ولكن بشرط توقف مساندة الشاه العسكرية للأكراد. وبعد هذا الاتفاق بالجزائر مباشرة أغلق الشاه باب الإمدادات الخاصة بأكراد مصطفى برزانى، وخسر الأكراد من جديد ساحة الحرب.

وفى عام ١٩٧٩ قام نائب الرئيس صدام حسين بتحديد إقامة رئيس الجمهورية حسن البكر، وعين نفسه رئيسًا للدولة. وكان هذا التغيير فى السلطة يعنى بالنسبة للأكراد الطريق إلى الكارثة بشكل نهائى. وحلت هذه الكارثة عام ١٩٨٨ بمدينة حلبجة الواقعة على الحدود الإيرانية، وذلك فى الحرب التى ابتدأها صدام حسين فى سبتمبر ١٩٨٠ ضد إيران والأكراد الموالين لإيران دائمًا وأبدًا.

وفى عام ١٩٨٨ قامت كتائب الزعيم الكردى جلال طلبانى بالتعاون مع كتائب إيرانية بمحاولة ضرب القوات العراقية المتواجدة بكردستان. وكانت تلك المحاولة واحدة من آخر المحاولات الإيرانية تحت زعامة آية الله خمينى لإرضاخ العراق، ولذلك لم تحارب قوات صدام حسين على الجبهة الإيرانية فحسب، بل وكذلك على الجبهة الكردية. وفشلت المحاولة الإيرانية فى الوصول إلى قرار مبدئى، على أقل تقدير بشأن كردستان. أما حلبجة فقد حلت الكارثة بأهلها حين أمر صدام حسين قواته بضربها بالأسلحة الكيماوية، قتل على أثرها ما يقرب من خمسة آلاف كردى. كان القائد العراقى المسئول عن هذا القتل الجماعى للأكراد العراقيين هو على حسن المجيد، الذى أطلق عليه منذ ذلك الحين «على الكيمياوى»، وهو ابن عم صدام حسين. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، وعملاً بهذه الآية من سورة الأنفال بالقرآن الكريم تم تنفيذ تلك العملية العسكرية ذات الصحيفة السوداء وتسمت باسمها، وراح ضحيتها عام ١٩٨٨ زهاء عشرة آلاف كردى، وتراوحت بين حالات قتل فى الحرب واغتيال وموت بالغاز السام فضلاً عن من تم تشريدهم. وحين حلق صحفيون فى صيف ١٩٨٨ بطائرات هليوكوبتر من الجيش العراقى فوق كردستان، لم يروا على بعد أميال أمام أعينهم سوى قرى مشتعلة بالنيران. فى هذا التوقيت كان قد مضى على حرب الخليج الأولى ثمانية أعوام.

وبعد أن أرهقت الأرض وجدبت بفعل المجازر التى دامت ثمانى سنوات عقد البلدان: العراق وإيران فى أغسطس ١٩٨٨ اتفاق وقف إطلاق النار. إلا أن الأهوال التى عاشتها حلبجة لايزال يحمل بلاءها الأكراد فى نفوسهم. فبعد مرور سنوات كتب شهود عيان من الأكراد تقريرًا عن أهوال الإبادة الجماعية[٢٠]. وجاء رد فعل العالم الخارجى على هذه المذابح كمن يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى. فكثير من الدبلوماسيين والسياسيين اعتبروا هذه المعلومات المروجة ببساطة بمثابة قصص خيالية عن بشاعات يروج لها الأكراد. وآخرون حاولوا أن يقللوا من شأن هذه الأخبار. وفى نهاية الأمر أعربت أمريكا على الأخص عن اهتمامها بالحرب الدائرة بين القوتين المتحاربتين العراق وإيران لفرض السيطرة على الخليج، لأن كلاً من آية الله خمينى وصدام حسين أظهرا روح العداء والتعنت تجاه بعضهما البعض. كما أن كلا الخصمين قد سقطا بحرب المقابر السياسية والعسكرية عن غير قصد

فى حبائل الأمريكان الذين انتهجوا سياسة «الاحتواء المزدوج» فى منطقة الخليج، للقيام بدورهم فى احتواء متزامن لقوتين إقليميتين نفطيتين، هما إيران والعراق.

كانت مذبحة حلبجة التى تجاهلها الغرب بدرجة كبيرة «أسوأ حالة خرق لنصوص اتفاقية جنيف الخاصة باستخدام الأسلحة الكيميائية الموقعة عام ١٩٢٥، وهى النموذج الأوحد منذ هجوم موسولينى على الحبشة عام ١٩٣٥». ووفقًا لرواية صحيفة «الفاينانشيال تايمز» الصادرة فى ٢٥ مارس ١٩٨٨، فإن رد فعل المجتمع الدولى بشأن استغاثات الأكراد لم يكن سوى «هدوء أصم». وفى أبريل ١٩٨٨ شرعت مجموعة من علماء بريطانيين فى العمل على إرسال مجموعة من أجهزة الكشف عن التلوث الكيميائى وإزالته إلى كردستان لمد يد العون لمن بقى على قيد الحياة بحلبجة، إلا أنه تم إحباط هذه الخطة الجميلة بعد أن أوعزت الحكومة البريطانية إلى الشركات المنتجة بالامتناع عن ذلك[٢١].

تعالت عقب حرب تحرير الكويت فى ربيع ١٩٩١ صيحات الأكراد فى شمال العراق والشيعة فى الجنوب، فقام الأمريكان والإنجليز بإعداد منطقة حماية بكردستان لنزع سلطة صدام حسين منها، ورغم ذلك تعرضت الطوائف الشيعية بالجنوب لمزيد من التعسف والاستبداد الذى يمارسه النظام.

وبعد مرور اثنتى عشرة سنة من حرب تحرير الكويت عام ١٩٩١ حتى حرب العراق عام ٢٠٠٣، سنحت الفرصة للأكراد أن يقيموا فى منطقة حمايتهم حكومة مشتركة. فقد نعم الأكراد خلال هذه الفترة بحماية الحلفاء من قبضة صدام حسين. إلا أنه كان هناك حتى عام ٢٠٠٣ إدارتان بين الأكراد ـ الأولى يتزعمها مسعود برزانى بأربيل، والثانية بزعامة جلال طلبانى بالسليمانية. وحتى اليوم لا يزال التنافس قائمًا بين مسعود برزانى الذى يمثل «الحزب الديمقراطى الكردستانى» (KDP)، وجلال طلبانى الذى يمثل «الاتحاد الوطنى الكردستانى» (PUK). ولم يبد أى من الكتلتين روح التعاون حتى فى «مجلس الحكم العراقى» المعين من قبل الإدارة الأمريكية فى مطلع صيف ٢٠٠٣. هكذا ظل تاريخ الأكراد على ما كان عليه دائمًا فى فتراته الطويلة: سلسلة من المآسى صنعها أصحابها أنفسهم. ففى واحدة من تلك النزاعات الكثيرة فى شئون الأكراد الداخلية اضطر مسعود برزانى عام ١٩٩٦ لمناشدة قوات صدام حسين لمد يد المساعدة. ولكن زبانية الطاغية توغلت فى سبتمبر ولمدة قصيرة حتى أربيل، أى حتى منطقة الحماية الكردية التى أقامها الحلفاء، لتدعيم برزانى.

«لو اتحد الأكراد لاستحالت هزيمتهم»، عبارة قالها الجنرال الألمانى هيلموت فون مولتكى بعد رحلة له إلى كردستان. ولكنهم لم يتحدوا حتى يومنا هذا.

لو اتحـــدوا لاستحالت هزيمتهم

ثانيًا: الشيعـــة

كانت تلك بمثابة مسرحية لم يشهدها العراق على مدار ربع قرن من الزمان. فمن الشمال والجنوب، ومن الشرق والغرب، شد ما يقرب من مليون شيعى الرحال إلى الأماكن المقدسة بكربلاء والنجف. كان هذا الطريق الذى يبلغ طوله أكثر من مائة كيلومتر ويقطعه المرتحلون غالبًا سيرًا على الأقدام، ـ كان بمثابة مظاهرة كبرى للحرية فى العراق بعد سقوط الطاغية صدام حسين. وكانت بغداد قبل هذه المسيرة بعشرة أيام قد وقعت فى أيدى القوات الأمريكية، ثم باتت الطرق المؤدية إلى الأماكن المقدسة فجأة مفتوحة ومزودة باستراحات تم إنشاؤها بشكل غير منتظم حتى يجد الحجاج المؤمنون ما يعينهم من زاد وزواد فى رحلتهم الشاقة. كان الهدف المنشود لرحلة الحج التى منعها صدام حسين أثناء توليه السلطة هو مشهد الإمام على بالنجف ومسجدى الحسين والعباسى بكربلاء حيث مثواهما. وكانت مناسبة هذا الشكل المصغر لحركة تجوال الشعوب المعروفة تاريخيا هى الاحتفال بيوم عاشوراء، الذى يتذكر فيه الشيعة سنويًا آلام الحسين، الذى سقط شهيدًا لخصومه عام ٦٨٠ فى معركة كربلاء.

وفى عام ٢٠٠٣ شاهد الشيعة من آن لآخر فى طريق مسيرتهم الطويل القوات الأمريكية التى أعادت إليهم حرية ممارسة شعائرهم، فى حين تمتعت قوات التحالف فى المناطق الشيعية بالعراق بالأمان النسبى نظرًا لأن هؤلاء الشيعة على الأخص كانوا ضحية ويلات القهر الوحشى من جانب صدام حسين، أما الآن فقد حررهم الأمريكان والإنجليز من هذا النير غير المحتمل.

وشيعة على أو حزب على، الذى يرجع إليه تسمية الشيعة، هم فى الأصل حزب على بن أبى طالب، أحد أبناء عمومة النبى محمد. وقد نسب للنبى قبيل وفاته عام ٦٣٢ المقولة التالية لجماعته من حوله: «أمرت عليًا على كل من أُمرت عليهم» إلا أن خليفة المسلمين بعد النبى لم يكن عليًا، بل تولى أبو بكر الخلافة وعمر من

بعده، ثم عثمان الذى ينتمى للأسرة الأموية التى حكمت الدولة الإسلامية من دمشق حتى عام ٧٥٢.

أما على الذى يعتقد البعض فى اختيار النبى له للخلافة، فقد ارتضى ما حدث من تطور بعد ذلك. وقد مثل عثمان الطبقة الحاكمة من أصحاب المصالح قديمًا بمكة، والتى عادت نبى الإسلام طويلاً.أما على فكان رجلاً يتبع الرسول ويسير على دربه من أول لحظة فى الرسالة. ولذلك وصل الأمر بين المعسكرين إلى الخلاف والصراع. فاغتيل عثمان بالمدينة عام ٦٥٦، وتعالت صيحات أشياع على مطالبين بأن يكون على خليفة المسلمين، لأنه من وجهة نظرهم كان هو الرجل الذى اختير لخلافة محمد، وهو الوحيد الأحق بشغل هذه المكانة وتحقيق أغراضها.

لم يكد يمر بعض الوقت على تولى على بن أبى طالب الخلافة حتى سقط ضحية عملية اغتيال عام ٦٦١ بالكوفة. ومسجده الذى يضم ضريحه بالنجف هو اليوم أحد الأماكن المقدسة لدى الشيعة. وبعد اغتيال على تم اختيار الحسن وهو أحد أبناء على، لخلافة الرسول. وحين أرسل أحد خصومه من البيت الأموى، وهو معاوية بن أبى سفيان، إليه جيشًا تنازل الحسن له عن الخلافة. وبعد موت على بتسعة عشر عامًا حاول الحسين، وهو ابن آخر لعلى، أن يسترد الخلافة لعائلة على ابن أبى طالب، إلا أنه سقط فى معركة كربلاء جنوب بغداد، على أيدى قوات الخليفة معاوية عام ٦٨٠[٢٢]. ولا يزال مسجد الحسين الذى يضم مثواه كائنًا بكربلاء حتى اليوم.

وقعت معركة كربلاء فى اليوم العاشر من شهر محرم من التقويم الإسلامى (الهجرى). ومنذ ذلك التاريخ يحتفل الشيعة كل عام بيوم عاشوراء الذى يطاردون فيه ـ فى مسيرة احتفاليه ـ شبح معركة كربلاء. فكثير من الشيعة المتشددين يضربون أنفسهم بالسياط ويشقون جباههم بالمدى، ويعرضون أنفسهم لكل ألوان العذاب، فهم بذلك يكفرون عما ارتكبوه من خطيئة وضعف كانت سببًا ـ كما يعتقدون ـ فى أن لحقت بهم الهزيمة فى معركة كربلاء. وفى ظل حكم صدام حسين تم تجريم هذا المشهد العقائدى ومنعه منعًا باتًا. فكان أول احتفال بيوم عاشوراء بعد سقوط صدام حسين فى اليوم الموافق ٢١ أبريل عام ٢٠٠٣. وكان هذا الانطلاق بالأقدام نحو كربلاء هو فى المقام الأول بمثابة الإعلان عن العقيدة المضطهدة عشرات السنين. إلا أن كثيرًا ممن تسموا بآية الله وآخرين من رجال

المذهب الشيعى قد رأوا فى هذا التجوال الجماعى أيضًا نوعًا من التصويت لقيام نظام حكم إسلامى.

ومثل الأكراد، فقد عاش أيضًا الشيعة واليهود والمسيحيون فى الدولة العثمانية متعددة الشعوب إلى حد كبير دون مضايقات من السلطة - وإن كان الحديث آنذاك عن المساواة السياسية لم يكن واردًا. ولكن عندما تم جمع الأكراد السنة والعرب من أهل السنة والشيعة، والمسيحيين واليهود العرب تحت مظلة دولة قومية واحدة على النمط الأوربى، فقد بدأت تظهر المشاكل وتتخذ أبعادًا أكثر خطورة. ولم يتمكن البريطانيون من حل هذه المشكلات عند قيامهم بإنشاء دولة عام ١٩٢١. واليوم يقف الأمريكان أمام نفس المشكلة. ولكن هذا الهدف يصعب حقيقة الوصول إليه، ذلك لأن الأمريكان - كما فعل الإنجليز من قبل - وضعوا لأنفسهم هدفًا هو فى حد ذاته مشكلة: فهم يرغبون بقدر الإمكان فى تحديد أو تحجيم سلطة الأغلبية الشيعية، أو سلطة الشطر السياسى من تلك الأغلبية.

كان من الممكن لغزاة العراق من الأمريكان والإنجليز عام ٢٠٠٣ أن يقللوا حجم مشكلاتهم مع الشيعة، لو لم يكن هناك أداء جماعى معقد التركيب، قوامه تطورات متنوعة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قلبت كيان التركيبة السكانية بأكملها فى بلاد الرافدين. فعلى مدار قرون طويلة لم يكن هناك حديث عن أغلبية شيعية فى المنطقة الإقليمية التى أصبحت بعد ذلك العراق. تتضح معالم هذا التطور المعقد بشىء من التبسيط على النحو التالى[٢٣]: فى نهاية القرن الثامن عشر علا شأن ابن سعود السياسى فى شبه الجزيرة العربية، وكان ابن سعود هذا هو أحد أجداد عبد العزيز ابن سعود الذى أسس عام ١٩٣٢ المملكة العربية السعودية (راجع الفصل التالى). وكان السعوديون أتباع مذهب محمد بن عبد الوهاب الذى اعتنق الفكر الإسلامى التطهيرى بشكل متشدد ونادى به من على المنابر. كما فعل الوهابيون بعد ذلك مع بداية القرن العشرين، فقد هاجم أيضًا أسلافهم المدن الشيعية المقدسة بالنجف وكربلاء. وكان يعيش آنذاك على أرض عراق اليوم كثير من الأصول العربية التى يرجع موطنها الأصلى إلى الجزيرة العربية وتعتنق المذهب السنى. وللحيلولة دون انضمامهم إلى قوات ابن سعود فقد شرع رجال الدين بالنجف وكربلاء فى غزو فكر تلك العشائر تبشيريا، ومع مرور الوقت تزايد على هذا النحو عدد السكان الذين اعتنقوا المذهب الشيعى.

تزامن مع ذلك تطور آخر على درجة من الأهمية أفضى إلى زيادة اعتناق الفكر

الشيعى، وكان تطورًا ذا طابع اقتصادى. ففى منتصف القرن التاسع عشر بدأ استغلال «قناة هندية»، التى قام بتمويلها الشيعة الهنود، فى استصلاح مساحات من الأراضى لم تكن صالحة للزراعة حتى ذلك الحين. وساعدت هذه القناة على مد مياه نهر الفرات إلى مساحة تصل إلى مائة كيلومتر عن طريق إنشاء بحيرة صناعية عند منطقة النجف، والتى يطلق عليها بحر النجف. وتعددت النتائج الإيجابية لهذه الوفرة من المياه الجديدة. فقد تزايد عدد السكان بالمنطقة مع توافر مساحات صالحة للزراعة. وبذلك انتهى مقام كثير من الأصول العربية المرتحلة من شبه الجزيرة العربية باستقرارهم واستيطانهم لهذه الأراضى الزراعية وتحولهم من حياة البداوة إلى حياة الفلاحة. فتحول على هذا النحو كثير من تلك الأصول السنية فى نهاية الأمر إلى التيار الدينى الشيعى فى الإسلام. ولذلك وجد الإنجليز أنفسهم عند احتلالهم بلاد الرافدين فى الحرب العالمية الأولى، إنهم يمارسون السلطة بمنطقة كانت قبل مائة عام يدين أغلبية أهلها بالمذهب السنى.

أما العثمانيون الذين كان لهم وجود فى بلاد الرافدين على مدار أربعة قرون فلم ينشغلوا بالأغلبية الشيعية إلا فى وقت متأخر من حكمهم. إذ نسوا فى هذه الفترة المتأخرة أحيانًا تسامحهم المعهود تجاه الأقليات. وبعد أن تولى محمد نجيب باشا فى عام ١٨٤٢ ولاية بغداد من قبل الباب العالى، قرر غزو كربلاء. وكان نجيب باشا قبل ذلك واليًا على دمشق ومارس نظامًا فظًا فى مواجهة المعارضة الشديدة للقوى الأوروبية وضد الأقليات، لاسيما المسيحيين[٢٤]. أما الآن فقد أراد نجيب باشا استعادة قوة السيطرة السنية التى اندثرت فى ظل الأغلبية الشيعية. إلا أن الاستيلاء على كربلاء انتهى بمذبحة. وقد روى أحد شهود العيان أن القتلى تكدست جثثهم فوق بعضهم البعض وأنه لم يتمكن من عبور الشارع دون أن تطأ قدماه جثث الموتى. وقام نجيب باشا بتعيين حاكم للمدينة وقضاة من السنة.

ليس بالضرورة أن تكون الأصول العربية المهاجرة من شبه الجزيرة العربية إلى الشمال، أى البدو السنة الذين تحولوا بمرور القرن التاسع عشر إلى مزارعين شيعة، قد غيرت أسلوب حياتها فى نطاق معيشتهم الجديدة. وقد تيقن من تلك الحقيقة المتكشفة بالتجربة أهل البصرة بالتحديد عام ١٩١٤، حين سلبت ونهبت مدينتهم إبان فترة فراغ السلطة، والذى تولد آنذاك عن الاحتلال البريطانى

للمدينة. وأسفرت هذه الكارثة عن ظهور رياضة شعبية هى السلب والنهب، وتطورت بمرور الزمن لتتضح بالبصرة وبغداد عام ٢٠٠٣، حين نهب اللصوص كل ما يمكن سرقته هناك. وقد أظهرت التحليلات الأولية أن أغلب من قام بأعمال السلب والنهب والسطو كانوا من الشيعة. وهؤلاء هم أتباع وورثة الأصول والعشائر البدوية الذين رحلوا فى القرن التاسع عشر من الجنوب واستقروا فى هذه المناطق الشمالية وتحولوا من الفكر السنى إلى العقيدة الشيعية. عرفت شبه الجزيرة العربية نوعًا من الرياضة الشعبية وهى رياضة «الغزو» (ومنها كلمة «غزوة» Razzia فى اللغة الألمانية)، وكان البدو يغيرون على القوافل التجارية لأخذ ما تيسر من غنائم وليس بغرض قتل التجار. وكثير من هؤلاء البدو قديمًا شدوا رحالهم إلى مدن العراق، ولم يتحولوا على الإطلاق إلى سكان مدن، ولم يستشعر هؤلاء الناهبون يومًا ما وعلى وجه العموم أى رابطة تربطهم بمحيطهم الجديد الذى صاروا يعيشون فيه.

ولايزال الشيعة يكافحون حتى اليوم من أجل مشاركة مقبولة فى السلطة بالبلاد. ويعد تدنى المستوى التعليمى أحد تلك الحواجز التى تواجه الشيعة فى ذلك الأمر. فعلى مدار مئات السنين تولى إدارة شئون بلاد الدولة العثمانية تلك الطبقة العليا السنية التى تلقت تعليمها وتخصصت وتأهلت فى المدن. أما الشيعة وهم المارقون فى الإسلام فقد أغلقت الأبواب فى وجوههم فى أغلب الأحوال، بل إن مملكة العراق أيضًا لم تكن سوى مؤسسة سنية. ورغم ذلك فقد أظهر الشيعة ولاء، حتى ولو كان بدرجات متفاوتة تفاوتًا كبيرًا. ففى صيف عام ١٩٢٧ اقترح أحد أشراف الشيعة البارزين على المندوب السامى البريطانى فى ذلك الحين، بورديلون، أن يضع العراق من جديد تحت الرقابة الكاملة للبريطانيين:

«نحن نعلم أننا قوم لم نحظ بنصيب من التعليم، ولذلك لن يثمر إسهامنا فى الحياة العامة بما هو جدير بها. نحن نرغب - وهذا كل ما نريده - فى حماية بريطانية توفر لنا حريتنا تجاه السيطرة السنية فى البلاد، حتى يتلقى أبناؤنا تعليمًا جيدًا. بعد ذلك سنصبح ونحن الأغلبية الحقيقية، ممن يحتلون مناصبهم الجديرة بهم فى حكومة البلاد. وبعد ذلك لانرغب فى أية رقابة بريطانية على الإطلاق، بل نرغب فى الاستئناس بمشورتكم ونصائحكم فحسب، كما نتلقاها منكم الآن»[٢٥].

وما إن مرت سنوات قليلة حتى انتفض الشيعة فى وجه السيطرة السنية. وكان

سبب هذا التمرد تصرف تمييزى ضد الشيعة من جانب سلطات بغداد فى سبتمبر ١٩٣٤. فقد ألغى موظفو الدولة من قوائم الانتخابات البرلمانية أسماء هامة لأشراف الشيعة ورؤساء العشائر. وفى صيف عام ١٩٣٥ بلغ الأمر حد الانتفاضة. أطلقت هذه الواقعة إنذارًا لا يبشر بخير، فقد دق العنف أبواب السياسة العراقية: «لم يصبح العنف أداة فى يد الحكومة تمكنها من ممارسة الرقابة السياسية فحسب، بل أصبح كذلك أداة يتخذها الناس ملجأ لهم، حين يحاولون أن يلعبوا دورًا مؤثرًا فى سياسة الحكومة».

لم تنتقل صورة الشيعة إلى الغرب منذ عام ١٩٧٩ إلا من خلال شخصية واحدة فى الأساس - إنه روح الله موسوى الخمينى. وكثير من النصوص والصور التى عرضت هذا الرجل فى الصحافة الأوروبية والأمريكية قدمته على أنه شيطان إسلامى، وتناسى الإعلام غالبًا فى ذلك التحليل مثل غيره من التحليلات المسطحة لدوافعه الحقيقية أن الخمينى - شأنه فى ذلك شأن بعض رفاقه على الدرب - ما هو إلا نتاج للسياسات الاستعمارية الإنجليزية ثم الأمريكية. ولد الخمينى عام ١٩٠٣ فى الوقت الذى انتهت بالأمس فيه «اللعبة الكبرى» حول السلطة فى أفغانستان وفى إيران والتى وضع سيناريوهاتها روسيا وبريطانيا العظمى. وفى عام ١٩٠٧ قسمت القوتان العظميان إيران إلى مناطق نفوذ. وفى العصر الذى حلت فيه الهزيمة الأجنبية بالبلاد تلقى الخمينى تعليمه بمدينة «قم» الإيرانية. وبسبب نقدهم اللاذع للسادة المستعمرين البريطانيين فقد قام البريطانيون بترحيل بعض رجال الدين الشيعة من العراق إلى مدينة قم. «لقد تحولت قم إلى ما يمكن وصفه بالبوتقة التى تجمع فيها النخبة المعارضة للإمبريالية من الشباب المثقفين ذوى الميول الدينية، والاهتمامات بالسياسية: من هؤلاء وممن تعلموا على أيديهم تلقت فيما بعد الثورة لمدة عشرات السنين نبضاتها الدافعة»[٢٦].

أيقن الخمينى صحة موقفه المعادى لبريطانيا وأمريكا حين عزل رئيس الوزراء الإيرانى مصدق عام ١٩٥٣ من منصبه بفعل انقلاب عسكرى مدعوم من جهاز المخابرات المركزية الأمريكية (CIA). وفى هذه السنوات بالتحديد كان من الضرورى أن يعى الخمينى الدرس ويقتنع بصواب موقفه إزاء محاربة السيطرة الغربية. وعلى العكس من ذلك رأى الغرب فى الخمينى الشخصية الثورية المعادية له والتى جرأت على انتزاع بلده من مجال النفوذ البريطانى والأمريكى. وقد أدى

هذا التوجه الانفرادى ذو الصبغة القومية إلى أن أعلن جورج بوش فى نهاية المطاف عام ٢٠٠٢ أن إيران جزء من «محور الشر».

وقد ساعد موقف الخمينى المعادى للاستعمار بشكل جوهرى فى تسييس الشيعة. فعلى مدار مئات السنين لم تكن الثورة سمة العقيدة الشيعية، بل الألم والمعاناة ـ آلام أتباع الحسين، شهيد كربلاء. ويمكن تلخيص أسباب دخول الشيعة حلبة السياسة فى ثلاث مراحل تطورية: معاناة الشيعة والتمييز ضدهم فى مملكة العراق السنية ثم ملاحقتهم واضطهادهم خلال فترة استبداد صدام حسين، وأخيرًا ظهور آية الله الخمينى على المسرح السياسى.

عمل الخمينى على إضفاء بعض الأفكار الأيديولوجية على التوجه الجهادى الجديد لدى الشيعة. أطلق على هذه الأيديولوجية باللغة العربية «ولاية الفقيه» وهى تعنى «إسناد حكم الدولة للخبراء»، هؤلاء الخبراء يتم اختيارهم من طبقة رجال الدين الشيعى ـ «العلماء». ويندرج «المجتهدون» فى طبقة العلماء، ويقصد بالمجتهدين المراجع الدينية فى المدن مثل مدينة قم الإيرانية أو النجف وكربلاء فى العراق.

وقد تبنى دستور إيران تصور الخمينى المقترح بإسناد الحكم إلى فقهاء الدين الإسلامى، ولكن لا يعنى قيام نظام مؤسسى للثورة الشيعية على هذا النحو الذى أنجزه الخمينى أن جميع علماء العقيدة الشيعية فى العراق الآن يرغبون فى السير وراء النموذج الإيرانى بجميع تفاصيله وجزئياته. وبرغم ذلك وبرغم جميع الفوارق القائمة بين الجماعات الشيعية فى العراق، إلا أن الهدف بعيد المدى الذى يرمون إليه مجتمعين هو تنصيب حكومة ذات توجه إسلامى فى العراق، ولقد جاهد الإنجليز لدرء مثل ذلك التطور الذى يضر بمصالحهم الإمبريالية. ولايزال الأمريكان يواجهون منذ دخولهم العراق نفس مجموعة المصالح التى وقفت فى وجه البريطانيين من قبل.

ويعد مقتدى الصدر، الذى لم يبلغ الثلاثين من عمره بعد، أحد خصومهم. فبينما تدور رحى القتال ما بين بغداد والموصل والفلوجة وبعقوبة يديرها أتباع حزب البعث ممن لاسبيل إلى إصلاحهم، وإرهابيون أجانب متعاطفون مع أسامة بن لادن ضد قوى الاحتلال الأمريكى، كان مقتدى الصدر يبدى مقاومة من نوع آخر. بدأ الموضوع بأن تولت جماعة شيعية فى أحد أحياء العاصمة الكثيف

بالسكان زمام الحكم بُعيد احتلال القوات الأمريكية بغداد فى ٩ إبريل ٢٠٠٣. وكان الاسم الأصلى لهذا الحى هو «مدينة الثورة». ويرجع تاريخ إنشائه إلى عهد قيام الثورة عام ١٩٥٨ تحت قيادة عبد الكريم قاسم. وقد وضع فى الاعتبار أن يأخذ الحى الجديد الطابع الشيعى، لاسيما وأن والدة عبد الكريم قاسم كانت من الشيعة الأكراد. ثم جاء بعد ذلك صدام حسين وأطلق على الضاحية اسمه، وبعد سقوطه وصل أتباع الزعيم الشيعى مقتدى الصدر من النجف واستولوا على السلطة فى مدينة صدام، ثم غير السادة الجدد اسم الحى إلى «مدينة الصدر». وأحكم أتباع مقتدى الصدر سيطرتهم فجأة على المستشفيات والإدارة المحلية والمساجد، وأسست الجماعة فى مدينة الصدر وفى النجف محاكم شرعية خاصة بها، وعلى هذا النحو واصلت جماعة الصدر إنشاء بنية أساسية خاصة بها يصعب فى المستقبل التخلص منها فى حالة تشكيل حكومة ما منتخبة.

وينحدر مقتدى الصدر من عائلة رفيعة القدر من رجال الدين بالنجف. ومحمد باقر الصدر، أحد أقربائه قتل عام ١٩٨٠ بتكليف من صدام حسين. واغتيل والد مقتدى، محمد صادق الصدر، عام ١٩٩٩ بأمر صادر من عدى حسين، الابن الأكبر لصدام حسين. أما الابن مقتدى، الذى كان يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاما فحسب عند ظهوره على المسرح السياسى فى مشهد النجف عام ٢٠٠٣، هو اليوم أقرب فى انتمائه إلى القادة الشيعة المتشددين. وأتباعه يطلقون على أنفسهم «الصدريون»، أى أتباع الصدر. ولهذه الجماعة ميليشيا خاصة بهم ـ «جيش المهدى». ويعتقد البعض أن هذه الميليشيا ربما تكون هى المسؤولة عن اغتيال آية الله عبد المجيد الخوئى. وقد عاد الخوئى الذى كان يحسب على الجناح الشيعى المعتدل، فى ١٠ إبريل ٢٠٠٣ من منفاه بلندن إلى النجف، ونادى آية الله بالتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية، ثم طرح أرضًا وهو يسير بساحة مسجد ومقام الإمام على ليلقى حتفه.

وبعد مقتل الخوئى تمرغ حشد كبير أمام منزل آية الله أكبر على السيستانى. كان الشريف النجفى العجوز الوقور قد نادى قبيل ذلك بتحمل الغزو الأمريكى فى إطار الحملة العسكرية التى جردتها الولايات المتحدة الأمريكية ضد صدام حسين. وعلى السيستانى الذى كان يبلغ من العمر ٧٤ عامًا إبان حرب العراق، والذى ولد بمدينة مشهد الإيرانية، هو أحد معارضى نظرية الخمينى المعروفة بـ«ولاية الفقيه» ، هذه النظرية التى تنادى بإسناد الحكم فى الدولة إلى رجال الدين

الإسلامى. وقد درج على السيستانى على انتقاد انتهاك حقوق الإنسان بجمهورية الخمينى الإسلامية. وقد شرح موقف على السيستانى تجاه الغزو الأمريكى ابنه الأكبر محمد رضا السيستانى فى إبريل ٢٠٠٣، فقال: «نحن وإن كنا نرحب بالأمريكان، إلا أننى أعتقد أنه ليس من المحبذ أن يمكثوا وقتًا طويلاً فى البلاد».

وهناك رقعة ألوان سياسية أخرى فى هذا القسم الخاص بالأحزاب الإسلامية المتنافسة، وهى تخص «المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق» والمعروف اختصاره بالإنجليزية بـ (SCIRI)، والذى يرأسه ويديره آية الله محمد باقر الحكيم. وقد اغتيل محمد باقر الحكيم بالنجف أمام مسجد ومقام الإمام على أيضًا فى ٢٩ أغسطس ٢٠٠٣. وتمتد أصابع الاتهام بدءًا من أعوان صدام حسين حتى خصومه من داخل الجماعة الشيعية. وترجع سمعة وسلطة باقر الحكيم بصفة خاصة إلى شهرة والده آية الله العظمى محسن الحكيم. وكان محسن الحكيم قائد الانتفاضة التى اندلعت عام ١٩٢٠ فى وجه الإنجليز. كما كان فى الستينيات عضوًا قياديًا فى الحوزة العلمية بالنجف.

قاد «المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق» عملياته من طهران أثناء ممارسة صدام حسين للاستبداد. وكما ظهرت جماعة الصدر فجأة فى ميدان الثورة قبل أن يستشعر ذلك الأمريكان، فقد وصلت جماعة «المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق» إلى بعقوبة ـ التى تقع شمال غرب بغداد ـ قبل أن يزحف إليها الأمريكان. وكانوا قد شغلوا جميع أركان المدينة بألوية بدر القوية التى تتألف من عدة آلاف من المقاتلين، حين وصل الأمريكان فى يوم ٢٨ إبريل ـ أى بعد أسبوعين ونصف من الاستيلاء على بغداد ـ كما وصلوا إلى بعقوبة مؤخرًا. وقد عبر أحد الضباط الأمريكان عما رآه بقوله على حد تعبيره: رأيت «أيقونات إيرانية»، (وهو يقصد بذلك صورًا لآيات الله) وكميات هائلة من السلاح. وبعد مضى فترة قصيرة انتقل الرجل الثانى فى المجلس الأعلى للثورة الإسلامية (SCIRI)، وهو عبد العزيز الحكيم، من طهران إلى بلدة الكوت واستقبل هناك بحرارة وحماس وشوق من مجموعة كبيرة من الناس يصل عددهم نحو عشرين ألفًا[٢٧].

تندرج «الحوزة العلمية» كذلك تحت جماعات الطيف السياسى الشيعى، وهذه المؤسسة عبارة عن مركز بحوث إسلامية تأسس فى مدينة قم، ويوجد مركز نظير لها فى النجف. ويدير حوزة النجف أربعة من كبار علماء الشيعة، ولايوجد بينهم

سوى شخصية عراقية واحدة ـ وهو آية الله العظمى محمد سيد الطبطبائى الحكيم (عم محمد باقر الحكيم، قائد المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق (SCIRI) والذى قتل يوم ٢٩ أغسطس ٢٠٠٣ فى هجوم بسيارة مفخخة. أما بقية رؤساء حوزة النجف فهم: على السيستانى وإسحاق فياض وبشير النجفى. أما السيستانى فهو إيرانى وفياض أفغانى والنجفى باكستانى. تتفرع الحوزة إلى مؤسسات دينية، يطلق عليها «مرجعيات» تتسمى بأسماء بعض معلميها. وللطلبة حق اختيار الأساتذة الذين يرغبون فى طلب العلم عندهم، ويوجد لدى كل مرجع مكتب مفتوح أمام الجمهور يقدم المشورة والفتوى للمتدينين من المريدين[٢٨].

ولاشك أن الحوزة تكرس جهودها فى المقام الأول للدراسات الدينية، إلا أنها دائمًا وأبدًا أخرجت إلى العالم قيادات لحركات إسلامية ذات دوافع سياسية. وآية الله محمد حسن فضل الله وهو الزعيم الروحى لحزب الله اللبنانى، ولد عام ١٩٣٤ بالنجف ودرس بالحوزة على يد آية الله الخوئى، وكان فضل الله من الأعضاء المؤسسين لحزب الدعوة الإسلامية، ثم أصبح فيما بعد نائبًا للخوئى فى لبنان. وقد وقف فضل الله دائمًا بالمرصاد فى وجه أية سلطة إيرانية على شيعة العراق ولبنان. وقد درس حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله جنبًا إلى جنب مع فضل الله فى حوزة النجف، ثم استقر المقام آخر المطاف بآية الله الخمينى بدءًا من عام ١٩٦٥ بالنجف ـ حتى قام صدام حسين بطرده عام١٩٧٨[٢٩].

وقد أدى هذا الاتجاه السياسى التنافسى داخل مؤسسة الحوزة، التى هى فى الأساس ذات طابع علمى وروحى، إلى أنها جنت ثمار ذلك التطور ونتائجه الحتمية فى الستينيات من القرن العشرين. فقد قرر رجال الدين أن يكون لهم باع فى حلبة السياسة، فأسسوا حزب «الدعوة الإسلامية». وكان محمد باقر الصدر واحدًا من القوى الدافعة لهذا الحزب عند تأسيسه عام ١٩٦٨. فى مقال له نشر فى مجلة (صوت الدعوة) التى كانت تصدر فى الخفاء، كتب الصدر الكلمات الآتية: «منذ أن أمسكت القوى الإمبريالية بزمام السلطة فى العالم الإسلامى، فقد الإسلام وظيفته كقاعدة أساسية تقوم على خدمة النظام الاجتماعى، وأخذ مكانتها المبادئ الأجنبية مثل الديمقراطية الإمبريالية والاشتراكية الماركسية»[٣٠].

وفى أثناء حكم الديكتاتور صدام حسين كان حزب الدعوة يعتمد العمل السرى، كما أن كثيرًا من قيادته انتقلوا إلى خارج البلاد. وقد أعلن حزب الدعوة مسؤوليته عن الهجوم على عدى حسين، الابن الأكبر لصدام حسين فى بغداد فى عام ١٩٩٦

وأصابته إصابة بالغة، كما أن حزب الدعوة يعارض التعاليم السياسية لآية الله الخمينى والتى تنادى بأن يتولى علماء الدين الحكم، إلا أن حزب الدعوة استهدف دولة بعينها تدار شؤونها وفقاً لمبادئ إسلامية، وكان موقفه فيما بعد تجاه زحف الأمريكان يتسم بالإيجابية: فرحب بسقوط نظام صدام حسين، إلا أنه طالب مع جماعات شيعية أخرى الولايات المتحدة ألا تسلك مسلك القوة الاستعمارية[٣١].

هل يريد الشيعة إقامة دولتهم فى جنوب العراق؟ هناك سؤال يطرح نفسه بين الحين والآخر منذ قيام دولة العراق عام ١٩٢١ بشأن تلاحم أركان الدولة، وبرغم الوصف الذى أطلق ليس بدون وجه حق على نشأة هذه الدولة على أنها تشبه «ميلاد فرانكنشتاين الاستعمارى»، إلا أن الترابط الداخلى لهذه الدولة قد برهن بما يدعو للدهشة على وجوده بقوة. وحتى الشيعة لم يشككوا فى هذه الدولة حتى الآن بالقدر الذى يدعو للقلق، وذلك لأنه كان يوجد فى التاريخ العراقى حقبة زمنية، كان الشيعة خلالها مفعمين بالآمال المتعلقة بمشاركتهم فى السلطة بشكل أكثر فعالية عنه فى السنوات الأولى لقيام هذه الدولة. وعلى أقل تقدير فقد امتدح بعض الشيعة ذوى التوجه الأقرب للعلمانية نظام حكم العقيد عبد الكريم قاسم على سبيل المثال، حيث رأوا فيه بالنسبة لهم «عصر الدعة»[٣٢].

كان عبد الكريم قاسم أول حاكم عراقى من أصل نصف شيعى، وعاش على المستوى الشخصى حياة بسيطة أقرب تعاطفاً إلى الشيعة. كما أن الشيعة كان لهم حظ تقلد مناصب عليا داخل الأحزاب، لاسيما فى حزب البعث والحزب الشيوعى.

إلا أن النهضة التى كانت من حظ الشيعة فى عهد عبد الكريم قاسم لم تستمر طويلاً، فسرعان ما قضى نظام صدام حسين الإرهابى بما فيه من اضطهاد على الآمال السياسية للشيعة وأجهز عليها. ولكن رغم التجارب الأليمة فى ظل الهاشميين وفى عهد صدام حسين إلا أنه لايزال الشيعة مهتمين بترابط العراق وتماسكه، فعلى الأقل لا يزالون يتطلعون لمستقبل يحكمون فيه بصفتهم الأغلبية عراقاً كان فى الماضى القريب من أغنى البلاد، ويأملون بكل تأكيد فى المساهمة فى تشكيله. أما إذا تفكك العراق إلى مكوناته الأولى الأصلية، فسوف يعيش الشيعة فى منطقة تواجدهم الرئيسية فى الجنوب منعزلين عن قلب العراق والعاصمة بغداد، ولكن نصف سكان بغداد من الشيعة، ومن ثم سيفقد الشيعة حينئذ رحابهم المقدس فى الكاظمية بالقرب من بغداد وفى سامراء شمال العاصمة[٣٣]. ثم إن هناك رباطاً يربط أهل الشيعة وأهل السنة فى أغلب الأحوال

وهو رباط الزواج الذى ليس بقليل. وعليه فإن تفكيك العراق سيجلب معه مئات الآلاف من المآسى على المستوى الشخصى.

إن استقرار العراق مسألة حياة أو موت بالنسبة لأهل السنة أكثر من الشيعة. فقيام دولة سنية فى قلب العراق على حدود بغداد سيكون من شأنه إضعاف وضعها الاقتصادى، لأن تلك الدولة ستنقطع عن حقول النفط الكبرى فى الشمال والجنوب، كما أنها ستقع بين فكى الأسد، جنوب شيعى غنىٌ وشمال كردى غنى.

ولكى يتسنى استمرار الحياة فى عراق جديد، فلا مفر من تنازل أهل السنة عن جزء من سلطانهم المتوارث فى حكم البلاد، ومرجعية ذلك أن الشيعة لن يسمحوا هذه المرة ببساطة كما حدث عند تأسيس العراق، باستبعادهم عن المشاركة فى الحكم. إن تمثيل الشيعة وفقًا لأعدادهم على أقل تقدير ـ فى مجلس الحكم المعين من قبل الولايات المتحدة فى صيف ٢٠٠٣ ثم فى الحكومة المؤقتة المنبثقة عن هذا المجلس ـ يعد فى تاريخ العراق بمثابة عهد جديد وخطوة لتوسيع مشاركة الشيعة فى حكم البلاد. فضلاً عن ذلك فإن مجلس الحكم قد اعترف صراحة بأن أهل العراق من الشيعة يمثلون الأغلبية فى تعداد السكان، بل أكثر من ذلك: فى الحكومة الانتقالية وضع الشيعة أيديهم على وزارتين سياديتين ـ وزارة الداخلية ووزارة النفط، إلا أن مثل هذه التعيينات وفقًا لمبدأ الانتماء الطائفى أو العرقى تنطوى على خطر مؤداه أن يصبح الانتماء الدينى والعرقى هو المبدأ الوحيد للهيكل التنظيمى فى العراق الجديد. وهناك دول أخرى مثل يوغسلافيا تحديدًا، تعاملت بنفس المبدأ فغربت عنها الشمس.

ويمكن أن يمنع الشيعة على المدى البعيد حائل واحد يحول بينهم وبين المشاركة الجوهرية فى السلطة. هذا الحائل يعمل الشيعة أنفسهم على بنائه، وهو الحائل المتوفر لدى العرب جميعهم وكذلك الأكراد، ألا وهو التشرذم والتمزق والفرقة، وأول محك اختبار لترابط الجماعة الدينية الشيعية فى العراق يتلخص فى السؤال التالى: «كيف أتصرف وأتعامل مع الأمريكان؟». لقد تعرض آية الله على السيستانى بسبب موقفه الإيجابى والحريص فى الوقت ذاته تجاه الأمريكان ـ للتهديد فى ربيع عام ٢٠٠٣ من قبل عدد غفير من الناس، الذين بعث بهم أغلب الظن خصمه مقتدى الصدر إليه. كما تم توجيه تهديدات بالقتل إلى كل من الطبطبائى الحكيم وممثل السيستانى فى بغداد على الواعظ. إنه نذير شؤم للمستقبل لو اعتمد الشيعة عقب سقوط صدام حسين العنف كوسيلة سياسية.

خرج بول بريمر ـ الحاكم المدنى الأمريكى فى العراق ـ ظهر يوم ١٤ ديسمبر ٢٠٠٣ على الصحفيين فى بغداد، وتلى عليهم بضع كلمات تم إعدادها بعناية فائقة يرغب بها الأمريكان فى كتابة صفحة جديدة فى تاريخ العراق: «حضرات السيدات والسادة، لقد أمسكنا به». كانت إحدى وحدات الجنود الأمريكيين قد أخرجت صدام حسين فى اليوم السابق من أحد الجحور المزرية بالقرب من مسقط رأسه تكريت، كان الدكتاتور الذى عاش حياة القصور الباهرة الفخمة، قد أوى إليه، فقد انتهى للأبد من الاستبداد الشرقى الذى امتد أكثر من ثلاثين عامًا، وبدا ذلك واضحًا على مرأى العالم أجمع، ولكن سرعان ما تبين أن الذى انتزع منه القوة منذ ثمانية شهور لم يكن فى استطاعته قيادة الأعمال (الإرهابية) ضد الجنود الأمريكيين وضد المدنيين العراقيين، لا من الجحر الذى كان قد أوى إليه، ولا من القرية الصغيرة الواقعة فى مكان قريب، فقد استمرت أعمال المقاومة دون هوادة، لاسيما فى المناطق الشمالية والجنوبية من بغداد، والتى يطلق عليها المثلث السنى، حتى بعد إلقاء القبض على صدام حسين.

لقد كان إلقاء القبض على الحاكم المستبد السابق بكل تأكيد نجاحًا كبيرًا يحسب للأمريكان، ولكن المشاكل الناجمة عن سلطة الاحتلال لم تصل إلى حلول لنهاية عهد صدام حسين التى تم الإعداد لها إعلاميًّا بشكل تأثيرى بالغ المدى على المشاهدين، وذلك لأنه ثبت أنه كلما توغل الأمريكان لاحتلال أماكن جديدة، أطاحت ضربات المقاومة العراقية برؤوس ضحايا أمريكان وعراقيين. أما على الصعيد الإستراتيجى، فقد راح القائد الأعلى لقوات التحالف ريكاردو سانشين، يصرح فى سخرية واستخفاف، بأن هذه الخسائر «ليس لها أهمية تذكر».

وأغلب من لاقوا حتفهم كانوا من الشباب الذين لم يكادوا يخرجون عن طوق المراهقة، والذين كانوا يرغبون من خلال خدمتهم بالجيش أن يصقلوا تربيتهم الاصطناعية، أرسل هؤلاء إلى العراق ساسة من أمثال نائب وزير الدفاع الأمريكى بول ولفوويتس. جلس المخططون الإستراتيجيون من أمثال بول ولفوويتس على مكاتبهم بعيدًا عن فيافى العرب الواسعة وبعيدًا عن المحيطات والقارات والثقافات التى فصلت بينهم وبين الواقع، وراحوا يرسمون نظمًا عالمية جديدة قالوا عنها إنها تخدم المصالح الأمريكية.

كاد بول ولفوويتس نفسه أن يلقى حتفه فى بغداد يوم ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٣، وفى أقل من ثوان معدودة كتب له عمر جديد عندما أفلت من محاولة اغتيال. وبعد مضى أسبوع لقى ستة عشر جنديًا أمريكيًا مصرعهم عند الفلوجة غرب بغداد، عقب قصف نارى أصاب طائرة هليوكوبتر عسكرية أمريكية. ورجل مثل دونالد رامسفيلد نفسه حاول أن يتمالك نفسه وأعصابه عقب سماعه نبأ موت هؤلاء الجنود الذين صعدوا الطائرة لتوهم ليقضوا إجازتهم فى مسقط رأسهم - وقع ذلك أمام كاميرات التلفزة، وكل ما استطاع قوله هو إن مصرع هؤلاء الجنود بالفلوجة «مأساة للشعب الأمريكى».

ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى وقعت مأساة حل بلاؤها بالمملكة العربية السعودية، كما حلت بالولايات المتحدة الأمريكية بصورة غير مباشرة. ففى عشية يوم التاسع إلى العاشر من نوفمبر ٢٠٠٣، سقط بالعاصمة السعودية الرياض سبعة عشر شخصًا ضحية عمل انتحارى. لقد هز هجوم المقاومة العراقية العابر للحدود فى العملية التى عرفت باسم «هجوم رمضان» والتى تم تنفيذها بالاشتراك مع القاعدة، أركان أمريكا. وعقب ذلك مباشرة وللمرة الثانية تم استدعاء الحاكم المدنى بالعراق بول بريمر إلى واشنطون فى الأسبوعين التاليين، بدت الأمور وكأن القوة العظمى فى حيرة من أمرها.

ولكن ما الذى يجعل العاصمة السعودية الرياض والعاصمة العراقية بغداد تتحولان إلى ميدانيين للعمليات العسكرية يسقط فيها دائمًا مزيد من الضحايا المدنيين وكثير من الجنود الأمريكان؟ تتمتع الرياض - شأنها فى ذلك شأن بغداد، فكلاهما يقع على هضبة - كما ذكرت الولايات المتحدة - بموقع جغرافى إستراتيجى، إذ تضم فى جنباتها مع الكويت وإيران والإمارات العربية المتحدة أكثر من ستين بالمائة من احتياطيات النفط العالمى المعروفة. ومنذ تقسيم إيران بموجب الاتفاقية الأنجلو - روسية المبرمة عام ١٩٠٧، واحتلال بغداد على يد البريطانيين عام ١٩١٧، توفرت النية لدى الإنجليز أولاً وحدهم، وبعد ذلك الإنجليز والأمريكان معًا، فى فرض السيادة على هذه الهضبة الإستراتيجية. كانت هناك محاولات عديدة لأعمال المقاومة لوقف هذه التدخلات الأجنبية (راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب)، ومن ثم فإنه يمكن القول إن الحرب الدائرة بين الولايات المتحدة والقاعدة من ناحية، والإسلام المسلح من ناحية أخرى ماهى إلا مرحلة متأخرة من صراع دائم مضى عليه الآن ما يقرب من قرن من الزمان.

إن احتلال العراق بالنسبة للأمريكان يعنى خوض مرحلة جوهرية فى الحرب ضد القاعدة. صرح جورج فريدمان، وهو مؤسس ومدير خدمة الإنترنت الأمريكية الخاصة «ستراتيجيك فوركاست» المعروفة اختصارًا بـ (Srat for) ـ صرح فى ٥ مارس عام ٢٠٠٣ فى محاضرة له كانت فى حينها سرية ثم بعث بها فيما بعد فى بريد صوتى إلى عملائه بما يلى: إن الولايات المتحدة لم يكن لديها مرة واحدة على الإطلاق أدنى فكرة عن أسلوب عمليات القاعدة، وأصبحت للأسف المملكة العربية السعودية مرتعًا لتغلغل الكثير من أنصار القاعدة، وتجد الحكومة السعودية صعوبة بالغة فى مواجهة هذه العناصر، كما أظهرت حكومة الرياض كراهية بالغة للتعاون مع الولايات المتحدة ضد أعضاء القاعدة بالمملكة، أضف إلى ذلك أن أمريكا لاتملك وسائل الضغط السياسية والاقتصادية لإرغام المملكة العربية السعودية وسوريا والعراق على القيام بتعاون مشترك بينهم لمواجهة أسامة بن لادن. ثم دفع جورج فريدمان بحجته، وقال إن وجود الولايات المتحدة فى دول الخليج الصغيرة، لايكفى كقاعدة أساسية للانطلاق فى مواجهة القاعدة. فهذه الدول أقرب إلى أن تكون «دولاً هامشية». أما الموقع الأكثر ملاءمة من الناحية الإستراتيجية فهو الإقليم العراقى بحدوده مع إيران وتركيا وسوريا والأردن والمملكة العربية السعودية، ويفضل هذا الموقع المثالى يمكن انطلاقًا من العراق تنفيذ «عمليات متتالية» فى المنطقة بأسرها.

ولم يمض وقت طويل على وقوع الحرب حتى أكد نائب وزير الدفاع الأمريكى بول ولفوويتس وبصورة غير مباشرة صحة نظرية تحليل جورج فريدمان. وقد قال ولفوويتس بيقين المنتصر إن البحث عن أسلحة الدمار الشامل لم يكن سوى ذريعة ندفع بها من أجل غزو العراق. كان ذلك الكلام المعلن أمام مجلس الأمن الدولى بنيويورك فى فبراير ٢٠٠٣ مغايرًا لما أعلنه من قبل وزير خارجية الولايات المتحدة كولن باول فى ٢٤ فبراير ٢٠٠١ بالقاهرة، حينما صرح بأن صدام حسين لايملك ترسانة أسلحة دمار شامل تدعو للقلق. وذكر باول فى تصريحاته: «إنه غير قادر على أن يفعل شيئًا ضد جيرانه بما يمتلكه من أسلحة تقليدية».

لقد أدى الهجوم الأمريكى على العراق، والذى بدأ فى يوم ٢٠ مارس ٢٠٠٣، إلى وضع نهاية مؤقتة لعملية تطور طويلة المدى. فمتى بدأ هذا التطور؟ ـ طرح هذا التساؤل فى عدة محاورات، فالبعض يرى بدايته مع سقوط الأسرة المالكة

فى عام ١٩٥٨، فى حين يرى فريق آخر بدايته فى تأميم «شركة النفط العراقية» عام ١٩٧٢ على يد حكومة حزب البعث. ورأى فريق ثالث أن هذا التطور بدأ باعتداء صدام حسين على الكويت فى ٢ أغسطس عام ١٩٩١. وكل هذه التواريخ تحمل نفس السمة السياسية المشتركة بينها: إنها المؤشر على الخروج التدريجى للعراق ذى الأهمية البالغة إستراتيجيًا من ذلك المشهد السياسى الذى وضع أركانه الإنجليز وبعدهم الأمريكان فى المنطقة.

كان عبدالكريم قاسم هو أول من قاد حركة المقاومة ضد الهيمنة، ففى عام ١٩٦١ انتزع هذا الرجل «شركة النفط العراقية» من براثن السيطرة الغربية بإلغائه جميع حقوق التنقيب عن النفط فى العراق وأدى ذلك إلى نزاع امتد إلى سنوات وحكومات عديدة. وفى نهاية الأمر حول حزب البعث الحاكم بشكل نهائى منذ عام ١٩٦٨ صناعة النفط بأسرها إلى ملكية عراقية. وأبت الحكومة السورية إلا أن تسرع هى الأخرى فى تأميم فروع «شركة النفط العراقية» القائمة بأعمال التنقيب على أرضها[٢٤].

فى ذلك الوقت، أى فى منتصف السبعينيات وبداية الثمانينيات، بلغ عدد سكان العراق حوالى ١٢ مليون نسمة (اليوم نحو ٢٤ مليونًا). وقد ساعدت واردات النفط المتزايدة على حدوث نهضة إنشائية سريعة الخطى فى مجال البنية الأساسية وشئون التربية والتعليم والمستشفيات. ومن الناحية الاقتصادية كانت تلك السنوات بمثابة العصر الذهبى للعراق- شعبًا ونظامًا. واستطاع حزب البعث فى تلك السنوات من خلال الانتعاش الاقتصادى الضخم أن يؤكد مشروعيته فى حكم البلاد، فقد حصل الموظفون والعاملون بالدولة والعسكريون على رواتب سخية، وجرى تقدير العلماء العراقيين بقدر درجاتهم العلمية، إلا أن جنة الله التى اعتقد الناس فى وجودها بالعراق والتى لاح للجميع أنها استعادت بسرعة دولارات النفط المتدفقة، سرعان ما انطفأت شعلتها بضربة واحدة وانزوت عائدة من جديد إلى الأفق البعيد.

وباعتلاء صدام حسين عام ١٩٧٩ السلطة بشكل نهائى بدأ عصر الآلام بالنسبة للشعب العراقى، وهى آلام فاقت بمراحل جميع الكوارث التى تجرعها العراقيون من قبل. بدت ملامح فترة حكم صدام حسين الاستبدادى جلية منذ البداية سواء بالنسبة لأتباعه الذين امتلأت قلوبهم رعبًا منه أو بالنسبة لخصومه الشجعان والموتورين على السواء. فبينما كان الحاكم الجديد يتولى رئاسة جلسة

حزبية، وكان إذ ذاك يدخن سيجاره منتشيًا، وإذا به يأمر بحبس من أطلق عليهم «الخونة» - وهم أولئك الذين قيل عنهم إنهم دبروا له انقلابًا عسكريًّا بمساعدة السوريين - ووضع كل واحد منهم في سجن منفردًا، ثم أمر أتباعه بتنفيذ الإعدام فيهم. لقد أرسى صدام حسين وعصابته العائلية، وهم من مدينة تكريت الواقعة شمال بغداد قواعد نظام حكم إرهابي. وكثيرون ممن هم على معرفة بتاريخ أرض الرافدين استطاعوا أن يستحضروا في ذاكرتهم القائد العسكري الحجاج بن يوسف الثقفي (٦٤٧-٧٠٥)، الذي صاح في وجه خصومه، وكان ذلك في نهاية القرن الثامن، قائلاً: «إنني لا أرى إلا رؤوسًا دانية قد أينعت وحان وقت قطافها... فإذا سرتم على الصراط المستقيم أفلحتم، وإذا حدتم عنه فإني متربص بكم، ولن أغفر لكم خطأ ولن أقبل لكم عذرًا».

ليس من المعروف حتى الآن على وجه التحديد، كم عدد من أطاح صدام حسين وزبانيته برؤوسهم. وهناك تقارير أولية تقدر عدد الضحايا بـ ٣٠٠,٠٠٠ ضحية، وقد اشترك في عمليات الإعدام كبار القادة في النظام جميعهم بأنفسهم - بدءًا من صدام حسين وأولاده ووصولا إلى حسن على المجيد وآخرين. وتشكل بمرور الوقت عن ذلك النظام نوع خاص من العصابات الدموية: فالجرائم التي ارتكبت على المستوى الشخصي كانت من تدبير شلة النظام الحاكم.

أراد صدام حسين على صعيد السياسة الخارجية أن يفرض سيطرة العراق على الخليج. إلا أن إيران التي وصفها العرب بالعدو اللدود، حالت منذ زمن طويل دون حدوث ذلك، وقد خشي صدام حسين من أن تمتد ثورة الخميني الشيعية إلى شيعة العراق أيضًا، وكان الخميني قد أعطى انطباعًا في تصريحات مختلفة بأنه يريد تصدير ونشر أفكار ثورته أيضًا في المملكة العربية السعودية والعراق، وحين زحفت القوات العراقية في سبتمبر ١٩٨٠ على الأراضي الإيرانية، اندلعت الحرب التي استمرت ما يقرب من ثمان سنوات وكلفت البلدين حياة مئات الألوف، كما التهمت اقتصاد الجانبين ودمرته. وكان الأمر مختلفًا آنذاك عنه بعد عشر سنوات، حين قامت العراق بالهجوم على الكويت، ففي هذه الحرب لم تطالب الولايات المتحدة بفرض عقوبات ولا بتوقيع حظر على النفط. فمادام أن القوتين النفطيتين على الخليج ستستنزف كل منهما الأخرى من خلال تلك الحرب، فإن ذلك كان يتوافق تمامًا والحسابات السياسية لأمريكا وإنجلترا؛ فقد أرادت الولايات المتحدة أن تحول دون حدوث أي شيء من شأنه أن يخرج أحد طرفي

الحرب منتصرًا فيها بوضوح، لذلك اهتم كل منهما بإمداد كلا الطرفين بما يلزمهما من معلومات هامة إستراتيجيًا بشأن الموقف العسكرى للطرف الآخر، والتى كانت تصلهما عبر أقمار التجسس الاصطناعية.

ويعتبر هجوم صدام حسين على إيران هو بداية سلسلة الحسابات الخاطئة التى كلفته فى نهاية المطاف عرشه على البلاد. كان كل أمل صدام حسين هو أن يحقق انتصارًا سريعًا على إيران التى أضعفتها الثورة، كما عقد آماله على أن يقوم سكان محافظة خوزستان الإيرانية، وأغلبهم من أصول عربية، بالانضمام إلى الفاتح بكل سرور، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، فالعرب فى إيران تمسكوا بوطنهم القومى - أى إيران - وظلوا على وفائهم له، تمامًا كما أن شيعة العراق تمسكوا ببلدهم. كان أغلب الجنود العراقيين على الجبهة الجنوبية من الشيعة الذين اضطروا بناءً على أوامر صدام حسين أن يحاربوا إخوانهم فى العقيدة على الجانب الآخر من الحدود، وقد برر صدام حسين قيامه بالحرب بقوله أنه يخوض نيابة عن كل العرب حربًا لا مفر منها ضد العدو الإيرانى اللدود وضد الثورة الشيعية، وقد تدفقت القروض الضخمة من الكويت والمملكة السعودية على العراقيين بكل سخاء، وفى عام ١٩٨٨ استخدمت دول نفط عربية غنية سلاح النفط - ولكن على نحو مختلف عن حرب يوم كيبور عام ١٩٧٣ بين إسرائيل ومصر وسوريا، فقد قامت تلك الدول العربية الغنية بإغراق السوق العالمية بالنفط بأرخص الأسعار حتى تهوى موارد إيران على وجه السرعة، وبمجرد أن فقدت إيران من بين ما فقدت شبه جزيرة الفاو العراقية الواقعة على شط العرب من جديد والتى كانت قد احتلتها من قبل على نحو مفاجئ، اضطر الخمينى إلى الموافقة على وقف إطلاق النار، وبذلك انتهت حرب لافائدة منها استمرت ثمانية أعوام، بل إن النهضة التى عاشها العراق من قبل فى جميع مجالات الحياة، انطفأت شعلتها ومضى العصر الذهبى القصير للعراق.

قامت الدول الغربية، لاسيما فرنسا، إبان سنوات الحرب بتزويد صدام حسين بما كان يحتاجه من سلاح وعتاد. ولم يستثن من ذلك الولايات المتحدة، فقد بقيت على علاقتها بصدام حسين، وفى عام ١٩٨٣ قام دونالد رامسفيلد بزيارة العراق بتكليف من الرئيس رونالد رجان، بل إنه فى يوم ٢٠ ديسمبر من ذلك العام أسدى رامسفيلد خدمة لصدام حسين. كان الجميع فى الولايات المتحدة يعرف سجل صدام الأسود فى مجال حقوق الإنسان، كما كانوا يعرفون أنه أحد

الآثمين المنحطين، إلا أن هذا الوغد لا يزال يؤدى الدور الذى تريد الولايات المتحدة منه أن يلعبه.

تغير هذا التوزيع فى الأدوار فجأة ودفعة واحدة يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠، فحينما شن صدام حسين هجومه على الكويت فى الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم الحزين، فإنه تجاوز بذلك خط الديمقراطية، وأصبح بذلك خلف الخط الذى لا رجعة لمن يتعداه على الإطلاق إلى وضعه الراهن الذى استمر سنوات طويلة، فقد قاد دكتاتور العراق نفسه إلى نهايته ـ حتى لو جاءت هذه النهاية متأخرة ثلاثة عشر عامًا. ومرة أخرى أخطأ الحاكم الجبار فى حساباته، فلم يقبل مشروع توسيع إمبراطورية النفط العراقية. أما القول بأن صدام حسين قد وقع فى شرك نصب له حين اعتدى على الكويت، كما يردد كثير من العرب، فإنه قول يتعين ألا يتوقف المرء عنده بالمرة، إن صدام حسين الذى أراد أن يكون الرئيس الأكبر المتحكم فى نفط الخليج، هو الذى ورّط نفسه بصورة مصيرية فى شباك مصيدة سياسته الخاصة به.

ورغم كل ذلك استطاع صدام حسين أن يسوق سلسلة طويلة من التصريحات والأقوال، لمح فيها على الأخص سياسيون غربيون بأن الكويت فى حقيقة الأمر جزء من العراق، وقد استندت تلك الإشارات إلى حقيقة أن الكويت على عهد العثمانيين كانت جزءًا من ولاية البصرة، وبأنه ليس هناك فى الواقع مبرر لفصل الكويت عن دولة العراق الجديدة وحرمانها من منفذ ذى موقع متميز على الخليج الفارسى. وقد صرح المفوض السامى البريطانى فى بغداد عام ١٩٣٠ أن بريطانيا يتعين عليها تشجيع الامتصاص التدريجى للكويت عن طريق العراق. كما عبر بعض الموظفين البريطانيين آنذاك عن أن الكويت فى نهاية المطاف ما هى إلا دولة صغيرة يمكن الاستغناء عنها دون تردد كبير ويمكن التضحية بها فى حالة مطالبة القوى المنافسة بذلك، وحين حاول عبد الكريم قاسم أثناء فترة رئاسته (١٩٥٨–١٩٦٤) احتلال الكويت، كان البريطانيون قد نسوا رأيهم القائل بأن الكويت بلد يمكن الاستغناء عنها، وتم إيقاف جيش عبد الكريم قاسم على وجه التحديد عند الطريق الذى يفصل بين مدينة الكويت والبصرة وهو نفس الطريق الذى قامت الطائرات الحربية الأمريكية فى ربيع عام ١٩٩١ بإلقاء القنابل منه على الجيش العراقى المهزوم أثناء انسحابه[٢٥]. وكان من بين القادة العسكريين البريطانيين الذين ردوا الجيش العراقى على أعقابه زعيم حزب الأحرار فيما بعد ـ بادى أشدون.

بعث دبلوماسيون غربيون قبيل الغزو العراقي للكويت بإشارات تدعو للغرابة، ففي ٢٤ يوليو ١٩٩٠ أعلنت مارجريت تتوايلر، المتحدثة باسم وزارة الخارجية الأمريكية، أنه لايوجد اتفاقية دفاع بين الولايات المتحدة والكويت. وفي ٢٥ يوليو ١٩٩٠ صرحت السفيرة الأمريكية في بغداد آنذاك، أبريل جلاسبي، أمام صدام حسين بعبارة لها جرى الاستشهاد بها كثيرًا، إذ قالت لصدام حسين: «وفقًا لقناعتنا فإنه ينبغي أن يكون لديكم الإمكانية لإعادة بناء بلدكم... ونحن ليس لدينا رأي في الصراعات العربية العربية، كما أنه ليس لدينا رأي في نزاعكم بشأن الحدود مع الكويت»[٣٦].

لم يكن هناك شيء يعوق الولايات المتحدة بعد غزو الكويت من أن تسوي أزمة الخليج وفقًا لرؤيتها. وعندما قام الملك حسين، ملك الأردن، بزيارة الرئيس جورج بوش الأب في شهر أغسطس في مقره الصيفي «كينبونكبورت»، صرح الرئيس الأمريكي له بكلمات واضحة كل الوضوح أن الأمريكان لن يقبلوا «حلاً عربيًا» للأزمة، وعرض الملك حسين على الرئيس الأمريكي أن يسعى لحث صدام حسين على الانسحاب من الكويت، إلا أن بوش رد قائلاً: «لن تمر هذه المسألة دون عقاب». وقد خرج أحد أعضاء الوفد الأردني المشارك في اللقاء بالاستنتاج التالي الذي كان بالنسبة له مبعثًا على الاكتئاب: «لم يرغب الأمريكان في حل عربي»[٣٧].

ومن جانبه لم يعقد الملك حسين أملاً على أية تضامن من جانب إخوانه العرب، ولأسباب متباينة إلى حد كبير تنصل كل من الملك فهد، ملك المملكة العربية السعودية، والرئيس المصري حسني مبارك والرئيس السوري حافظ الأسد من السعي إلى اتخاذ مبادرة عربية. فالأسد وجد في هذه الأزمة فرصة ذهبية لكي يلحق بعدوه اللدود صدام حسين هزيمة مؤثرة، أما مصر فقد حصلت على معونات مالية كبيرة من الولايات المتحدة ودول غربية أخرى استطاعت من خلالها أن تخفض ديونها الخارجية المستفحلة إلى ما يقرب من النصف، وأما الملك فهد فقد وقع تحت ضغط الأمريكان. وقد وضع كل من الأمريكان والسوريين والمصريين والسعوديين في حسابهم أن صدام حسين لن ينجو بسلام من الهزيمة المؤكد وقوعها في الحرب من أجل الكويت.

وفي يوم ٦ أغسطس ١٩٩٠ فرضت الأمم المتحدة بقرارها رقم ٦٦١ حظرًا اقتصاديًا لا هوادة فيه على العراق، فلم يسمح له إلا باستيراد المواد الغذائية والأدوية وبشروط خاصة، بالإضافة إلى بيع وشراء النفط العراقي.

وما حدث بعد ذلك لم يكن حربًا لطرد صدام حسين من الكويت، فقد استمر القصف الجوى لأكثر من خمسة أسابيع، لم ينصب على البنية التحتية العسكرية فحسب، بل وإلى حد كبير على البنية المدنية الأساسية للبلاد. ووفقًا لاتفاقية جنيف الصادرة عام ١٩٤٩ (ملحق عام ١٩٧٧، المادة ٥٢، بروتوكول رقم ١) فإنه يحظر هدم الكبارى (مالم تستخدم فى إمدادات عسكرية) ومحطات الكهرباء ومراكز الاتصالات الهاتفية ومحطات تنقية ومحطات معالجة النفايات والمصانع التى تنتج سلعًا مدنية. فقد نصت الاتفاقية نصًا صريحًا على ما يلى: «يجب ألا تتجاوز الهجمات تحت أى ظرف من الظروف حدود الأهداف العسكرية». أما هدم البنية الأساسية المدنية وما تلى ذلك من عقوبات وحظر صارمين فى العراق، فقد استهدف أيضًا، وفقًا لآراء دبلوماسيين غربيين معتمدين ببغداد، العمل على إضعاف دولة عربية تقف من الناحية التحضيرية على أعلى درجة فى درجات التنمية، بحيث لا تمثل على المدى القريب أى خطر على جيرانها[٢٨]. ومن ثم فإنه بانتهاء الحرب فى ٢٨ فبراير ١٩٩١ فإن صدام حسين لم يكن هو الذى تلقى الضربة القاسمة فحسب، بل إن العراق تراجع من خلال ذلك عشرات السنين عن مسيرته فى التنمية، إلا أن هذا التراجع المفجع عن مسيرته فى التنمية قد بدأت علاماته فى الوضوح قبل ذلك بعشرات السنين، لقد بدأت هذه الانتكاسة التراجيدية قبل ذلك بأحد عشر عامًا عندما اعتدى صدام حسين على إيران.

أثبت الواقع عدم صحة التوقعات التى رأت أن هزيمة صدام فى حرب الكويت ستكلفه عرشه على البلاد، وقد تحملت الولايات المتحدة الأمريكية قسطًا وافرًا من الذنب فى التدليل على أن هذه الآمال لم تكن إلا محض سراب، ثم إن الولايات المتحدة امتنعت بعد هزيمة صدام حسين عن تدعيم انتفاضات الشيعة والأكراد، كما امتنعت عن تقديم المساعدة التى وعدت بها، فلم تكن الفوضى التى سادت فى جنوب وشمال العراق تتسق مع التصور السياسى لواشنطون، إذ انعقد الأمل هناك على وقوع انقلاب عسكرى من داخل القصر ببغداد، وليس على ثورة الشارع. وكان نداء الانتفاضة موجهًا إلى الضباط والمعاونين فى محيط الطاغية ولم يوجه للشعب. كانت الولايات المتحدة وبريطانيا بصدد البحث عن حاكم مستبد آخر يكون أقل بشاعة بقليل وأقل فظاظة بقليل وأكثر ديمقراطية بقليل من صدام حسين، ولكن من أهم ما يجب أن يتحلى به من مؤهلات هو أن يكون لديه استعداد لتوجيه العراق من جديد نحو مجال نفوذ الغرب. إلا أن الأمريكان لم يحصلوا مرة

أخرى على ثورة القصر المنشودة، ولم تندفع الحشود العسكرية نحو بغداد، كما تمناها القائد الأعلى للقوات الأمريكية نورمان شوارتسكوف، فلم يكن هذا الزحف متوافقًا مع قرارات مجلس الأمن الدولى، وكان من شأنه أن يقضى على الفور على التحالف المنعقد مع الدول العربية.

بقى صدام حسين فى السلطة، ولكن الشعب العراقى راح يترنح بشكل أعمق على أثر الأزمة، فقد أدت العقوبات المفروضة عليه ـ وكانت فى حقيقتها استمرارًا للحرب ولكن بوسائل اقتصادية ـ إلى كارثة إنسانية. وتحملت الأمم المتحدة نتائج ذلك. ففى قراره رقم ٩٨٦ سمح مجلس الأمن لأول مرة من جديد منذ عام ١٩٩٠ بتصدير كمية محددة من نفط العراق، وتقرر أن يتم إدارة وتوجيه عائدات النفط بمعرفة لجنة فرض العقوبات بالأمم المتحدة، واستخدمت العائدات النفطية فى شراء المواد الغذائية والأدوية وقطع غيار المنشآت الصناعية، ومنذ تلك اللحظة عاش أغلبية الشعب العراقى فى واقع الحال على الصدقات؛ إذ حدد برنامج «النفط مقابل الغذاء» على سبيل المثال عن عام ٢٠٠٣ الحصص التموينية الشهرية التالية لكل عراقى بالغ: ١٨ كجم دقيق ـ ٦ كجم أرز ـ ٤ كجم سكر ـ ٤٠٠ جم شاى ـ ٢٥٠ جم فول ـ ٥٠٠ جم حمص ـ ٢,٥ كجم زيت نباتى ـ ١٥٠ جم ملح ـ $\frac{1}{4}$ لتر لبن ـ ١ كجم منظفات ـ ٥٠٠ جم صابون[٣٩]. ويغيب تمامًا عن تلك السلة من السلع اللحم والفاكهة والخضراوات.

وخضع العراق لضرورة الحصول على إذن من لجنة فرض العقوبات بالأمم المتحدة لإبرام أى تعاقد على مشتريات. وكثيرًا ما قامت اللجنة بشطب سلع من قائمة المشتريات، مثل أقلام الرصاص بحجة أن ما تحتويه تلك الأقلام من مادة جرافيتية يمكن أيضًا استخدامها استخدامًا عسكريًا، وهذا ما دفع به على الأخص الأمريكان والإنجليز. وقد أصبحت حجة «الاستخدام المزدوج» بصفة خاصة هى القاعدة التى يحتج بها لشطب مزيد من السلع، ولم يسلم من الشطب كذلك بعض الأدوية والمواد الطبية، وبمرور الأعوام تم حظر استيراد السلع التالية: كريات تنس الطاولة، غذاء الأطفال، ملابس الأطفال، الأحذية برقبة، أربطة الأحذية، كتب المدارس، المواد اللاصقة، مضارب كرة الريشة، الدراجات، الأغطية، أقلام الشفاة، طلاء الأظافر، الصابون، مزيلات العرق، معجون الأسنان، ورق الحمامات، الشامبو[٤٠]. علاوة على ذلك فقد تم إيقاف أى نوع من التبادل الثقافى مع العراق، لدرجة أن الكتب التعليمية وضعت هى الأخرى على قائمة الحظر المفروضة.

وفى يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٩٥ نشر برنامج الغذاء العالمى التابع للأمم المتحدة بيانا صحفيًا، لخص فيه الانطباعات الشخصية لبعض العاملين به: «تسببت ندرة المواد الغذائية المنذرة بالخطر فى حدوث أضرار لاسبيل إلى إصلاحها لجيل كامل من الأطفال... فبعد أربع وعشرين عامًا من العمل فى هذا المجال، بدءًا من إفريقيا، لاسيما فى بيافرا، لم أكن أتصور أن شيئًا آخر يمكن أن يصدمنى بخلاف ما رأيته... فهناك أربعة ملايين نفس بشرية، خمس سكان العراق، يعانون أشد المعاناة من مشاكل نقص التغذية. ويضم هذا العدد ٢,٤ مليون طفل تحت سن الخامسة، وحوالى ٦٠٠,٠٠٠ سيدة حامل ونساء بأطفال رضع .. وكذلك مئات الآلاف من المسنين الذين لايجدون شخصًا ما يمكن أن يقدم لهم يد المساعدة».

وقد عبرت «لجنة التنمية الدولية» التابعة لمجلس العموم البريطانى عن تلك الحقيقة بنغمة ناقدة ولكن بشيء من الحذر فى تقرير لها صدر بتاريخ ١٠ فبراير عام ٢٠٠٠. وجاء فى تقريرها الختامى بعد بحث مكثف لتقصى الحقائق فى العراق مايلى:

«هناك إجماع واضح على أن الموقف الإنسانى بالعراق قد ساءت أحواله بدرجة جادة منذ فرض العقوبات الشاملة عليه... ولايغيب عن أعين الجميع أن صدام حسين وصفوته الحاكمة لايزالون يعيشون حياة خاصة شديدة التمين، فالعقوبات التى فرضت لم تمس أولئك المسؤولين عن الخروج على القانون الدولى... ورغم ذلك فإنه يصعب علينا التسليم بأنه ربما سيوجد فى المستقبل حالة تكون فيها الأمم المتحدة محقة فى فرض عقوبات اقتصادية شاملة على أى بلد»[٤١].

احتجاجًا على خنق بلد وشعب بأكمله تقدم اثنان من المنسقين ببرنامج المساعدة التابع للأمم المتحدة «النفط مقابل الغذاء» باستقالتهما، وهما ـ الأيرلندى دينس هاليداى، والألمانى هانس جراف فون شبونك.

نجح نظام الحكم بالعراق فى أن يلقى بالمسئولية على الأمريكان وحدهم دون غيرهم عن العواقب الوخيمة الناجمة عن فرض العقوبات عليه. ويضاف إلى ذلك أن برنامج الأمم المتحدة ـ عن غير قصد ـ أطلق مرة أخرى يد صدام حسين فى ممارسة رقابة كبرى على كل فرد من رعاياه، فقد تم تسجيل كل عراقى، وكل طفل خرج إلى الدنيا، حتى يمكن حصول كل فرد على مايلزمه من حصة من المواد

التموينية. ومن خلال ذلك المشروع حسن النية، وقع في يد الحكومة قائمة كاملة بكل أفراد الشعب دون أية كلفة مادية، لقد سقط في هذه الحرب الاقتصادية كثير من الضحايا، وقبلت الولايات المتحدة هذا الثمن راضية مرتاحة الضمير. طرح الصحفي ليسلي ستال من مجلة CBS في عام ١٩٩٦ السؤال التالي على وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت:

«لقد سمعنا أن نصف مليون طفل لقوا حتفهم. أقصد أن ذلك العدد يفوق عدد الأطفال الذين ماتوا في هيروشيما. هل تعتقدين أن هذا الثمن لابد أن يدفع؟» وجاءت إجابة أولبرايت كما يلي: «أعتقد أن ذلك اختيار بالغ القسوة، ولكن ذلك، كما نعتقد، يستحق هذا الثمن»[٤٢].

بدت ملامح الفقر على الشعب، وهبط المرتب الرسمي للموظف من الطبقة المتوسطة إلى خمسة عشر حتى عشرين دولارًا في الشهر، وانهارت دعائم الاقتصاد والعملة، واختفت الطبقة الوسطى الميسورة وضرب الفساد في الأرض.

لم يبال طاغية العراق منعدم الضمير بأي حال كان بآلام العراقيين ومعاناتهم من تراكم الديون التي يتحمل وحده مسؤوليتها، وبقي النظام على قيد الحياة رغم الكارثة، يعيش على التهريب، ونشأت طبقة من الأثرياء الجدد، صنعت أموالها من خلال الخروج على قواعد العقوبات المفروضة على الدولة، والتي أصبح في إمكانها شراء كل شيء في الأحياء الراقية ببغداد مثل حي المنصور أو عرسات هندي، كما يحلو لها. أما الولايات المتحدة فقد أعاقت من جانبها قدرة العراق على شراء قطع غيار لمنشآت ضخ النفط التي ساءت حالتها بوضوح في تلك الأثناء، وحينما تم إزالة المعوقات أمام منشآت النفط العراقية في نهاية المطاف، لم يقدر العراق على ضخ النفط بكميات كبيرة كما أراد، لأن المنشآت الفنية كانت في حاجة إلى الإصلاح. وحتى ذلك الحين لم يطرد صدام حسين من البلاد.

ولكن سرعان ما جاء ـ على الأقل بشكل غير مباشر ـ الرجل الذي سيعينهم على الأمريكان، ذلك الرجل الذي يقاتله الأمريكان منذ أعوام ـ أسامة بن لادن. فبعد أن قتل الإرهابي السعودي في يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بنيويورك وواشنطون مايزيد على ثلاثة آلاف إنسان، كان قد مر على الحظر الذي فشل في إسقاط صدام حسين حتى ذلك الحين، إحدى عشرة سنة وشهر. وفي إحدى الجلسات الأولى لمجلس الأمن القومي الأمريكي طرح وزير الدفاع دونالد رامسفيلد السؤال التالي:

لماذا نريد أن تظل ضرباتنا الانتقامية مقصورة على القاعدة وحدها، دون أن تمتد إلى العراق أيضًا؟ كان كل من يجلس على المائدة يعتقد أن الرئيس العراقى صدام حسين يشكل خطرًا، وزعيمًا يريد تطوير واستخدام أسلحة الدمار الشامل(٤٢).

وربما يمكن مقارنة الصدمة التى تلقتها أمريكا وعانت منها فى ١١ سبتمبر بالاعتداء اليابانى على ميناء بيرل هاربر عام ١٩٤١. كما أن الأوربيين قللوا من شأن الرعب الذى ألم بالأمريكان زمنًا طويلاً. وشعرت القوة العظمى وشعبها فجأة أنه لاعاصم لهم. لقد هوجمت أمريكا، وأعلن حلف الناتو توافر شروط حالة الدفاع المشترك. وكان غالبية الأمريكان لايزال يعتقد بعد حرب العراق أن صدام حسين وراء اعتداءات ١١ سبتمبر. إلا أن الربط بين صدام حسين وأسامة بن لادن، ذلك الربط الذى تحدث عنه أيضًا وزير الخارجية الأمريكى كولن باول أمام مجلس الأمن الدولى، لم يثبت مطلقًا، ومما يتنافى مع هذا الربط أن أتباع الإسلام الأصولى وأعوان أسامة بن لادن كان عليهم أن يتوقعوا عقوبة الإعدام لو كانت أقدامهم قد وطئت أرض العراق تحت حكم صدام. أما الشىء الحاسم الذى يجعل صدام حسين يرفض أسامة بن لادن، فقد ظلت الولايات المتحدة تخفيه عن عمد بين. إن الحكام الدكتاتوريين من أمثال صدام حسين يخافون ويحق من الإرهابيين المستقلين والمتحللين من الخضوع لأية رقابة. إذ إنه من اليسير أن يشكل رجال عصابات الإرهاب خطرًا داهمًا على نظم الحكم المطلقة، ومن ثم لم يقدم صدام حسين فى فترة حكمه على العراق أية مساعدة لتنظيم القاعدة.

إلا أن مصير صدام حسين كان قد حسم بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. فقد قرر الأمريكان أن يجهزوا أولاً على طالبان، وعلى الأخص أسامة بن لادن، ثم يأتى الدور على الدكتاتور العراقى، وحجة الهجوم التمسها فى حينها الأمريكان والبريطانيون فى أسلحة الدمار الشامل المزعوم وجودها فى العراق. أرسلت منظمة الأمم المتحدة فى خريف ٢٠٠٢ لجنة التفتيش عن الأسلحة التابعة للأمم المتحدة المعروفة اختصارًا باسم (UNMOVIC). وقد أمهل الأمريكان والبريطانيون هذه اللجنة ثلاثة شهور ونصف، إلا أنه لم يتم العثور على الأسلحة البيولوجية والكيميائية المزعومة. وبعد انتصارهم بعث الأمريكان والإنجليز بمفتشى أسلحة تابعين لهم، لكن هؤلاء لم يجدوا أيضًا أثرًا لهذه الأسلحة فى خلال ثمانية شهور وحتى نهاية عام ٢٠٠٣. فكثير من تلك الأسلحة كان قد تم تدميرها

من قبل على يد مفتشى لجنة التفتيش (UNMOVIC) التابعة للأمم المتحدة، حتى إن وزيرة خارجية الرئيس كلينتون، مادلين أولبرايت، قد شهدت فى نهاية التسعينيات للجنة التفتيش (UNMOVIC) وحمدت جهودها قائلة إن اللجنة أنجزت عملها على خير وجه. كما أن مفتش الأسلحة الأمريكى والرجل السابق فى وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) سكوت ريتر، كان قد أعلن أن العراق لا يمتلك على الإطلاق أسلحة دمار شامل، وقد افترض هانز بليكس رئيس لجنة التفتيش (UNMOVIC) فى أواخر صيف عام ٢٠٠٣ أن صدام حسين قد تخلص مما تبقى من الأسلحة المحتملة.

ونظرًا لأنه تعذر الإيقاع بصدام حسين، لا عن طريق الحظر ولا عن طريق التفتيش، فقد قررت أمريكا وبريطانيا العظمى مهاجمة الديكتاتور دون تفويض من الأمم المتحدة. لقد أصابت الحرب بلدًا وشعبًا استنزفت كل طاقاته تلك الحروب التى شنها صدام حسين علاوة على الحرب الاقتصادية التى بادرت بها الولايات المتحدة، ومن ثم فلا عجب من تحقيق نصر سريع فى غضون ثلاثة أسابيع. وإذا كان أكثر من ثلاثة آلاف شخص قد لقوا مصرعهم فى الهجوم الإرهابى على نيويورك وواشنطون، فإن أعداد الضحايا من المدنيين فى حرب العراق تخطى هذا الرقم بمراحل. فبعض التقديرات تذكر أن العدد يصل إلى ثمانية آلاف وأخرى تقدر العدد بتسعة آلاف من القتلى (ولا يدخل فى تلك الأعداد من لقى مصرعه من الجنود).

حقق الأمريكان نصرًا سهلاً، ورغم ذلك لم يكونوا مستعدين لما بعد النصر، كما لم يكن لديهم أى استعداد لبناء دولة منهارة سياسيًا واقتصاديًا على وجه السرعة. يضاف إلى ذلك أنهم أسقطوا من حساباتهم إمكانية ظهور مقاومة. ولم تأت هذه المقاومة من جانب أنصار النظام القديم الذين لا يتعظون، ولا من جانب إرهابى القاعدة الذين خرجوا من عباءة المملكة العربية السعودية فحسب، إذ صرح أحد الضباط من السنة أمام ممثلى «مجموعة الأزمات الدولية» فى صيف ٢٠٠٣ قائلاً: «لايزال هناك مئات من الضباط العراقيين على استعداد للموت فى سبيل بلدهم»[٤٤].

لم تكن فقط عملية إعادة إعمار العراق على وجه السرعة وإعادة فرض النظام من التحديات التى واجهت الأمريكان وقدراتهم فى مرحلة ما بعد الحرب، بل إنهم فوجئوا بأنهم قدموا بجنودهم إلى العراق وليس لديهم أدنى درجة من الوعى

بأمور فى غاية الحساسية الحضارية، فقد أعرب أحد العراقيين عن مخاوفه إزاء ما يحدث بقوله: «إن الأمريكان يلقون بأناس فى السجون بطريقة لا يمكن وصفها إلا بالوحشية والقسوة، دون أن يتحروا الدقة فى معلوماتهم، فيضعون فى أيديهم القيود ويطرحونهم أرضًا فى إذلال على مرأى من أهاليهم وجيرانهم. ولا تعنى كلمة الكرامة والشرف بالنسبة لهم شيئًا على الإطلاق. ونحن العراقيين أيضًا مثل كل البشر لنا كرامتنا، وندافع عن ديننا ووطننا وكرامتنا. نعم ليس لدينا الوسائل التى نحقق بها مقاومة حقيقية، ولكن بفضل الهجمات الفردية المتفرقة سنتمكن من إجبارهم (أى الأمريكان) على احترامنا وأخذ مشورتنا»[٤٥].

وكما حدث فى عام ١٩٢٠، حين انتفض العراقيون فى وجه الاحتلال البريطانى، فقد تصاعدت المعارضة ضد السادة الجدد بعد مرور ٨٣ عامًا على الاحتلال. ففى عام ١٩٢٠ وقف هؤلاء الناس الذين جعل منهم البريطانيون فجأة «عراقيين» فى مواجهة مستقبل لم يشاركوا فى البداية إلى حد بعيد فى صياغته. ثم أدركوا فى نهاية عام ٢٠٠٣ أن الأمر لم يختلف اختلافًا جوهريًّا عن ذى قبل. فالمعطيات الحاسمة فرضت عليهم من الخارج. ورغم أن شعار التحرير فى عام ١٩٢٠، وكذلك فى عام ٢٠٠٣ كان رخيصًا ومبتذلاً، إلا أن الأسباب الحقيقية للتدخل العسكرى كانت تكمن دائمًا فى المصالح القومية للغزاة. لقد كان غزو العراق عام ٢٠٠٣ جزءًا من حرب «كونية» قادتها الولايات المتحدة فى مواجهة «الإسلام القتالى»، كما عبر جورج فريدمان مدير خدمة الإنترنت الأمريكية الخاصة (STRATFOR): «يقع العراق فى مركز النظام الجيوإستراتيجى المعاصر، ونحن نعيش الآن حربًا كونية تقودها الولايات المتحدة ضد الإسلام القتالى. ومن خلال هذه الحرب سيتم صياغة النظام العالمى صياغة جديدة تمامًا».

ولا يوجد هدف آخر لهذه الصياغة الجديدة التى تطمح إليها الولايات المتحدة وتنفذها بقوة السلاح، سوى استعادة فرض الهيمنة الغربية، والتى تعرضت للمخاطر على يد صدام حسين أولاً ثم على يد أسامة بن لادن من بعده. إن نجاح هذه المقامرة ليس مؤكدًا، فقد بدأت فى صيف ٢٠٠٣ حرب عصابات ضد الوجود الأمريكى بالعراق تشنها القاعدة وأتباع صدام حسين الذين لايتعظون وربما كذلك ضباط عراقيون ذوو ميول قومية. وتوجد وفرة هائلة من الأسلحة والذخائر اللازمة لهذه الحرب، ومن الواضح للعيان أن هناك عددًا كافيًا من العراقيين الذين يشنون هذه الحرب بطريق العمل السرى.

وفى كلمة له أمام «المؤسسة القومية للديمقراطية» زعم جورج دبليو بوش فى ٦ نوفمبر ٢٠٠٣ بأن القاعدة قد فقدت تحت قيادته بلدين هما أفغانستان والعراق. وعكس هذا الكلام هو الأقرب للواقع، لأنه إذا كان أسامة بن لادن اضطر فى بادئ الأمر إلى التنازل عن أفغانستان إلى حد كبير، إلا أنه لا يمكن القول بأن القاعدة لم يعد لها هناك وجود البتة حتى يومنا هذا. يضاف إلى ذلك أن بن لادن قد اكتسب أجزاء من العراق جعل منها قاعدة له، وهناك يتواجد بلا شك أتباع بن لادن الذين كانوا سيلقون حتفهم بكل تأكيد لو كان صدام حسين مازال فى السلطة. كل ذلك بفضل الحملة الأمريكية التى اتخذت لنفسها شعار «الحرية للعراقيين». وفى نهاية المطاف لا يمكن وصف هذه الحملة بوصف آخر سوى أنها نوع من حركة تصحيح للمسيرة الاستعمارية، فالدولة التى أوجدها البريطانيون عام ١٩٢٠ تغولت، لاسيما أنها تخلت عن الخطوط السياسية التى تحددت عام ١٩٢٠. ولايزال مثل ذلك التمرد يلقى عقابه حتى اليوم.

الفصل الخامس

المملكة العربية السعودية

من ابن سعود إلى عبد العزيز

«اذهب إلى ساحة الوغى واثقًا من النصر متوكلاً على الله، ولا يساورك الظن في نصرة وعونه».

من أقوال عبد العزيز بن سعود[1]

اعتلى عرش المملكة العربية السعودية ملك جديد، ألا وهو الملك عبد الله، سادس الملوك الذين حكموا المملكة العربية السعودية منذ أن أسسها عبد العزيز بن سعود عام ١٩٣٢. إن سبعة عقود من الزمان لا تعتبر فترة طويلة فى عمر أى دولة، لكنه كثيرًا ما تنبأ مراقبون فى الغرب، بل وفى العالم العربى نفسه، بسقوط أسرة ابن سعود الحاكمة، إلا أنها أثبتت أنها أسرة مستقرة استطاعت على الأقل حتى الآن أن تصمد حتى أمام التحدى الأخير المتمثل فى الهجمة المباشرة التى شنها تنظيم القاعدة.

وإذا كان فى مقدور حاكم أن يعمل على استتباب أركان الأسرة المالكة، وأن يستوعب الأصوات المتعالية المطالبة بإشراك الشعب فى الحياة السياسية، فإن هذا الحاكم لن يكون سوى الملك عبد الله، ذلك الملك الذى يفتح قلبه لدعوات الإصلاحيين. فبعد أن اعتلى سدة العرش مباشرة أطلق سراح ثلاثة من المعارضين السياسيين. ومن المعروف عن الملك عبد الله استعداده إلى التوصل إلى حلول توافقية، فهو يحاور ممثلى القبائل وأئمة المساجد على حد سواء، ولكى يشرك طبقات عريضة من الشعب السعودى بصورة جادة فى هذه المحاورات فقد أسس ـ حينما كان وليًا للعهد ـ منبرًا أطلق عليه اسم «الحوار الوطنى»، وهو ملتقى يضم ممثلى الطوائف الاجتماعية (بمن فيهم النساء) يتناولون فى إطاره مناقشة الموضوعات المهمة. وكان الموضوع الأخير الذى دارت حوله المناقشات

فى مدينة أبها هو موضوع «نحن والآخرون» أو موضوع «من نحن». وقد جرى لأول مرة دعوة عناصر شيعية وصوفية وإسماعيلية لحضور هذا اللقاء الذى استغرق ثلاثة أيام ونقلته محطات التليفزيون. إن مثل هذه المنابر الحوارية تعتبر تقدمًا جوهريًا فى مجتمع قليلاً ما يشهد مثل هذه الحوارات والمناقشات العلنية. ومن ثم فإن الكثيرين ينتظرون من الملك عبد الله أن يواصل دعم تبادل الآراء والفكر مما يساهم فى انفتاح المجتمع السعودى. وهناك الكثير من المراقبين الذين يرون فى هذا المسلك بارقة أمل بعد سنوات من الانغلاق الداخلى وعدم الاستقرار الخارجى من جراء ثلاثة حروب دارت رحاها حول العراق. كما أن ارتفاع أسعار النفط التى لا يتوقع الكثير انخفاضها إلى المستوى السابق سوف تسهم فى زيادة استقرار الدولة والأسرة المالكة. إلا أنه يتعذر فهم المملكة العربية السعودية دون معرفة تاريخها بخلاف كثير من دول المنطقة.

فى صيف عام ١٩٩٠ تقدم رجل يدعى أسامة بن لادن بعرض وطنى للملك فهد بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، إذ عرض المواطن السعودى على كبير الأسرة المالكة أن يقاتل صدام حسين الذى احتل الكويت. وكان أسامة بن لادن قبل ذلك باثنى عشر عامًا قد كون جيشًا من المتطوعين المسلمين من أصول عربية على وجه الخصوص، وبمساعدات مالية سخية قدمتها له وكالة الاستخبارات المركزية وطارد هؤلاء «المجاهدون» فى حرب عصابات لا هوادة فيها الوجود السوفيتى بأفغانستان، وبذلك قاموا بمساعدة الولايات المتحدة فى إحراز نصر كان لهم بداية النهاية بالنسبة لـ«مملكة الشر» على حد تعبير رونالد ريجان.

أراد المقاتل الفدائى إسداء خدمة مشابهة لبلده الذى تربى فيه. وإن كان لا أحد يحب الكويتيين الأغنياء الذين ـ كما يعتقد البعض ـ أفسدتهم الحياة الرغدة، ولا أحد يطاوعه قلبه فى القيام بمواجهة عسكرية ضد ما يطلق عليه «شعب عربى شقيق» مثل العراق، إلا أن صدام حسين وعصابته التكريتيين على رأس هرم السلطة فى العراق كانوا بالنسبة لأسامة بن لادن، شأنهم شأن السوفييت، زنادقة، وذلك لأن هؤلاء تجرأوا على إقامة دولة علمانية دنيوية تكون فيها العقيدة الدينية أمرًا شخصيًا. ولأنه أراد أن يحارب حاكمًا مارقًا فى بغداد، فقد عرض بن لادن على البيت الملكى السعودى أن يرسل كتيبته الإسلامية المنتصرة المغترية بأفغانستان ـ التى أطلق عليها القاعدة ـ مرة ثانية إلى الجهاد.

كانت القاعدة عند تأسيسها فى بادئ الأمر ما هى إلا قاعدة بيانات رقمية موسعة تضم قائمة بأسماء المجاهدين الأفغان وأسماء المتطوعين الذين التجأوا إلى معسكر أسامة بن لادن[٢]. ومن هذه «القاعدة المعلوماتية» تم تكوين منظمة إرهابية تنشط فى بلدان كثيرة.

إلا أن عائلة سعود رفضت العرض المقدم من أسامة بن لادن، وذلك لأن أمريكا، وهى الراعى السابق لأسامة بن لادن، قد طلبت من السعوديين رفض العرض. وبكلمات واضحة طلب ريتشارد تشينى الذى كان وثيق الصلة بصناعة النفط الأمريكية من السعوديين السماح له أن يرسل قوات أمريكية إلى المملكة لاسترداد الكويت انطلاقًا من الأراضى السعودية. ولانت حكومة الرياض فى نهاية الأمر أمام الضغوط الأمريكية وألقت بمهمة الدفاع عنها فى أيدى الأمريكان. كانت هذه الخطوة فى سياق التاريخ السعودى تعد بمثابة الكفر بالله. فلم يحدث من قبل على الإطلاق أن دنست قوات أجنبية تلك الأرض المقدسة، وهى التى بشر النبى محمد فيها بالإسلام، وهو بالنسبة للمؤمنين بالله رسالة السماء الخاتمة.

انصرف أسامة بن لادن فى وقت مبكر عن عائلته فيما يتعلق بالشأن السياسى، وكان هو الابن الوحيد من بين عشرة أطفال أنجبتهم أمه. وقد قضى على ما يبدو فترة شبابه فى وحدة تامة، ومال فى وقت مبكر إلى التدين والورع. ودرس فى وقت مبكر أيضًا كتابات جماعة الإخوان المسلمين المصرية، وكان المؤلف المحبب إلى نفسه كتاب «معالم على الطريق» للكاتب سيد قطب الذى يعد واحدًا من أكثر ممثلى جماعة الإخوان المسلمين نفوذًا. وقد طالب سيد قطب بضرورة أن يرد إلى الله تلك السلطة التى سلبها منه أولئك الحكام العرب المفتقدون للشرعية. وأثرت أيديولوجية الإخوان المسلمين فى أسامة بن لادن وطبعت فكره بدرجة تفوق تأثير المناخ الإسلامى الأصولى بالسعودية الذى نشأ فيها.

كان قرار الأسرة الحاكمة السعودية بعدم وضع قيادة المعركة ضد صدام حسين فى أيدى المسلمين، يعنى بالنسبة لأسامة بن لادن نقطة تحول فى توجهات البيت الحاكم، إذ إن تخليهم عن الدفاع عن بلدهم فى نظره بمثابة الخطيئة الكبرى، إذا جاز لنا التعبير بالمجاز المسيحى، التى ارتكبتها

عائلة آل سعود. وهنا اعتقد أنه يتعين عليه تلبية نداء سيد قطب لـ «الجهاد فى الإسلام». وهنا تشكلت لدى المنتصر على السوفييت صورة عدو جديدة تمامًا. وشرع من الآن فصاعدًا يجاهد ـ كما قال ـ سواء «العدو القريب» وهو الأسرة المالكة السعودية التى انحرفت عن الصراط المستقيم للإسلام، أو «العدو البعيد» وهو أمريكا.

يعتبر إعلان القتال هذا هو السبب الرئيسى فى أن المملكة العربية السعودية أصبحت مهددة اليوم بحرب العصابات. وقد وجد منظمو هذه «الحرب المقدسة» فى كثير من البلدان الإسلامية مأوى لهم، مثلما هو الحال فى اليمن وباكستان والصومال وأفغانستان. ولدحض ذرائع أنصار بن لادن فى هجماتهم الإرهابية على آل سعود، فقد قررت الولايات المتحدة سحب قواتها بقدر كبير من المملكة. فلا يصح الإضرار باستقرار أكبر مالك لمستودعات النفط فى العالم. ونظرًا لأن الولايات المتحدة بعد احتلال العراق ستكون من الناحية العملية بمثابة الجار للسعوديين، فإنها تستطيع بذلك التدخل عسكريًا انطلاقًا من العراق لمواجهة أى تهديد للبيت السعودى من قبل الثوار الإسلاميين. ولكى نوضح حرب أسامة بن لادن على «العدو القريب» ـ المملكة العربية السعودية ـ وعلى «العدو البعيد» ـ أمريكا ـ، فإنه يتعين علينا أن نقوم برحلة قصيرة عبر التاريخ السعودى تعيننا على الفهم. إن التحالف بين المملكة العربية السعودية، تلك الدولة القائمة فى تصورنا على أنها دولة دينية إسلامية، وبين الولايات المتحدة الأمريكية، تلك القوة العظمى ـ هذا التحالف الذى يعتبر أيضًا بالنسبة لبعض العرب منتهى التناقض، يتعارض وفقًا لتصور أسامة بن لادن مع أيديولوجية تأسيس المملكة بأسرها. لكنه أيضًا لا يتوافق من ناحية أخرى مع المثل العليا للآباء المؤسسين الأمريكان. فقد انزلقت أكبر ديمقراطية فى العالم إلى الدخول فى تحالف مع المملكة العربية السعودية، تلك الدولة الإسلامية المحافظة، فكان هذا التحالف بمثابة زواج غير متكافئ أيديولوجيًا ليس له مثيل. وقد مرت عقود من الزمن أغفل فيها الأمريكان مطالبة الحكام السعوديين بإدخال الصيغ الديمقراطية للحياة. إلا أنه تحت ضغط الاعتداءات الإرهابية من جانب أسامة بن لادن وجدت المملكة، التى يكون قد مر على تأسيسها حتى عام ٢٠٠٣ قرابة ٧١ عامًا، نفسها مضطرة لإجراء انتخابات بلدية.

إن تـأمين احـتـيـاطـى الـنفط، الذى لا يكـاد يـنضب أبدًا، كـان ولايزال يـحتل بـالنسبة للولايات المتحدة الأولوية القصوى عن هداية السعوديين إلى طريق الديمقراطية. ولايوجد تفسير لسر بقاء واستقرار دولة قامت على أنقاض حرب استمرت ثلاثين عـامًا، وهـى المملكة العربية السعودية، وحتى ظهور أسامة بن لادن - سوى وجود المادة الخام المسماة النفط وجهود الأسرة الحاكمة فى إشاعة السلام والسلم فى ربوع المملكة.

لقد حالت على مر القرون الخصومات القبلية والصراعات التى لا نـهاية لها فى صحارى شبه الجزيرة العربية دون قيام مناطق حكم واضحة المعالم ثـابتة يمكن أن ينطبق عليها مدلول أو وصف «دولة». وقد ساعد النمط الاقتصـادى فى شبه الجزيرة أيضًا على الحيلولة دون قيام دول بـالمفهوم المعاصر. فقد اضطر البدو إلى التنقل مع قطعانهم من مرعى إلى مرعى ومن نبع إلى آخر حتى يتسنى لهم ولحيوانـاتهم البقاء على قيد الحياة. إن أسلوب الحياة البدوية فى حاجة إلى آفاق وربوع الفيافى والبرارى، أمـا الحواجز الاصطنـاعية، كما هو الحال فى حدود الدولة القومية، فإنها تضع قيودًا على ممارسة مثل هذا النمط من الحياة. وفى مطلع القرن العشرين غير النفط بين عشية وضحاها النمط الاقتصادى السائد القائم على تربية المـاشية، إذ جعل اقتصـاد النفط مثل هذا اللون التقليدى من حياة البداوة لا يطاق. فلم تعد القبائل البدوية فى حاجة على الإطلاق إلى الترحال، بعد أن ذاقت طعم الاستقرار، فنشأت دول من هذه القبـائل. وأصبح النفط أكبر عـامل فى استقرار المملكة القبلية العربية السعودية منذ تـأسيسها فى عام ١٩٣٢.

يضاف إلى ذلك ركن آخر قامت عليه المملكة، ألا وهو الركن الدينى. وضع هذا الركن الدينى بـالسعودية أحد المتحمسين للدين الإسلامى وهو محمد بن عبد الوهـاب فى منتصف القرن الثـامن عشر. نـادى الداعية ابن عبد الوهـاب بـالتوحيد المطلق للألوهية، كانت تعاليم ابن عبد الوهـاب بصفته مصلحًا دينيًا تنص على أنه لا ينبغى عبـادة أو تقديس أحد غير الله، ويجب ألا نشرك بـالله أحدًا حتى ولو كـان من الأنبيـاء مثل موسى وعيسى أو محمد نفسه أو حتى الأوليـاء الصـالحين. ومـن يـنـكـر وحـدانـيـتـه وتـفـرده فـهو فـى نـظر ابن عـبد الـوهـاب من المـارقين الخـارجين عن الدين الصحيح. وقد أطلق بعد ذلك على أنصاره القليلين لقب «الموحدين» - أى أولئك الذين يدعون إلى توحيد الله. وقد عرفت هذه الحركة

التجديدية للدين الإسلامى فى التاريخ، لاسيما فى التاريخ الغربى، باسم «الحركة الوهابية». إلا أن السعوديين يرفضون هذا الوصف بشكل قاطع، فوصف الوهابيين ـ من وجهة نظرهم ـ يوحى بأن أتباع ابن عبد الوهاب ما هم إلا أتباع طائفة دينية، لكن هؤلاء الأتباع ـ كما يقولون ـ فى حقيقة الأمر يدعون إلى الدين الإسلامى القويم.

سافر ابن عبد الوهاب إلى دمشق وبغداد والبصرة لكى يعمل على نشر تعاليمه، إلا أنه لم يجد هناك من يؤيده ويناصره، كما أنه لم يتلق أى دعم مالى فى هذه البلدان يعينه على القيام بحملات يخطط لها باسم «توحيد الله» فعاد إلى شبه الجزيرة العربية والتقى فى مكان يطلق عليه الدرعية بالقرب من الرياض برجل يدعى محمد بن سعود أحد زعماء القبائل الكثيرين المنتشرين هناك. وهنا اغتنم محمد بن سعود الفرصة التى واتته فى شخص المتحمس الدينى والداعية ابن عبد الوهاب الذى أمده بالأساس الأيديولوجى لشن غزواته المزمعة ضد العشائر الأخرى. وبذلك تزود ابن عبد الوهاب فجأة بقوة مسلحة استطاع بها نشر مذهب التوحيد بشكل أكثر فعالية بين العشائر.

كانت العتبات الشيعية فى النجف وكربلاء بالعراق بمثابة شوكة خاصة فى عين ابن عبد الوهاب منذ زمن طويل، فتقديس الأولياء عند الشيعة أمثال على والحسين وما يتصل بذلك من زيارة أضرحتهم كانت تتعارض والتعاليم الحنبلية لابن عبد الوهاب. وفى ٢٠ أبريل ١٨٠١ هاجم أحد جيوش الحركة الوهابية على كربلاء بقيادة عبد العزيز بن سعود الذى خلف ابن سعود بعد وفاته، وقاتلوا الشيعة[٣].

وبطبيعة الحال لم يرض السلطان العثمانى بإسطنبول الذى تخضع له شبه الجزيرة العربية ـ على الأقل اسميًا ـ بمثل ذلك العصيان. ومن ثم أمر واليه محمد على بالقاهرة بتجريد حملة تأديبية لهؤلاء العصاة. وسقطت أول مملكة سعودية عام ١٨١٨، وفشلت محاولات أخرى فى القرن التاسع عشر لتأسيس مملكة قبلية كبرى، كما أن المحاولات الجريئة المتكررة من جانب عائلة سعود فى إخضاع شبه الجزيرة لنفوذها تشهد على تمتعهم بقدر كبير من المثابرة وعزيمة لا تلين. كما برهن ذلك على أنها تجاوزت فى سهولة ويسر أوقات الشدة والعسر السياسى والدينى. ففى نهاية القرن التاسع عشر جاء أحد أحفاد محمد بن سعود وربط مستقبله السياسى بأكمله من جديد بهذا المشروع. كان سليل آل سعود فى هذه المرة هو عبد العزيز

ابن سعود، الذى ولد أغلب الظن عام ١٨٧٦ بالرياض. فى تلك المرة تكلل التحالف الإمبريالى الأيديولوجى القائم بين زعيم عشيرة ومجاهد دينى بالنجاح التام. فقد ضم عبد العزيز فى حملات ومعارك استمرت ثلاثين عامًا أجزاءً كبيرة من شبه الجزيرة العربية. ثم قام فى عام ١٩٣٢ بتأسيس مملكة أسرية هى المملكة العربية السعودية، وفى الغرب اشتهر ذلك العربى الذى خرج من بطون الصحراء العربية باسم «ابن سعود».

يحكم التاريخ على حياة مؤسسى الدول وقادة الحرب غالبًا من خلال ما يحققونه من نتائج لسياستهم. فإذا ما أسسوا إمبراطورية، فكثيرًا ما يدخلون التاريخ بصفة «العظماء». وهذا الأسلوب الأحادى الجانب فى التفكير نادرًا ما يطرح سؤالاً عن الذين بذلوا دماءهم من أجل تأسيس الملك. وقد كان ذلك أيضًا هو مسلك ابن سعود. فزعيم العشيرة الذى أسس إمبراطورية كان قد حقق بلا شك نجاحًا عسكريًا وسياسيًا، وامتد ذلك النجاح نفسه حتى بعد وفاته عام ١٩٥٣.

إلا أن الصلف الأوروبى فى هذا المقام لا يكاد يكون ملائمًا. إذ إن أوروبا لم تعرف الاستقرار إلا بعد أن خاضت حربين عالميتين، دفع فى الأخيرة منهما خمسون مليون إنسان حياتهم ثمنًا لها. فإذا ما قورن حجم الخسائر التى نجمت عن الحروب القبلية بشبه الجزيرة بحجم خسائر الحرب العالمية الثانية، فسوف نجد أن خسائر الأولى لا تستحق الذكر. وعلى أية حال فقد وضع ابن سعود نهاية للخصومات والمنازعات القبلية بالجزيرة والتى امتد عمرها لمئات السنين. ونظرًا لأن تأسيس مملكة ابن سعود (وكذلك اكتشاف النفط) دفعا بشبه الجزيرة العربية فى منتصف القرن العشرين بغاية السرعة إلى معترك السياسة الدولية، فإنه يجدر بنا إلقاء نظرة على معارك زعيم العشائر القادم من الرياض المتُربة برمال الصحراء الحمراء. فسرعان ما انخرط فى صراع مع القوى العظمى فى تلك الحقبة الزمنية، ومع الدولة العثمانية ثم مع بريطانيا العظمى.

بدأت حرب ابن سعود فى عام ١٩٠١ وكان قبلها قد طرد من الرياض على أثر هزيمته فى مواجهة مع قبيلة شمر المناوئة له. ولاذ ابن سعود وأتباعه إلى أسرة الصباح بالكويت. وانطلاقًا من الكويت استرد ابن سعود بعد مسيرة صحراوية شاقة بقواته مقر قيادته القبلية عام ١٩٠١. وشرع ابن سعود بعدها فى شن غزواته، التى نتوقف عند ثلاث محطات منها لأهميتها.

أهم ما حققه من مكاسب فى أولى محطاته كان استيلاؤه على إقليم الأحساء الواقع على الخليج الفارسى وذلك فى ٤ مايو ١٩١٣. وكم كانت هذه القطعة من الأرض غالية لا تقدر بثمن، كما كشفت عنه الأيام بعد ذلك التاريخ بخمسة وعشرين عامًا، حين اكتشف أول منابع النفط الوفيرة بالقرب من الدمام. ولكن الأحساء كانت فى عام ١٩١٣ معروفة من حيث منفذها السهل إلى البحر ومن خلال ما تحتويه من كميات هائلة من نخيل التمر.

ولا ريب فى أن إخضاع هذه المنطقة جلب معه توابع سياسية: فقد استقر البريطانيون فى الشمال والجنوب لأنه مع بداية القرن التاسع عشر لم تهدأ تهديدات قراصنة البحار لطرق إمدادات واتصال إنجلترا بمستعمراتها بالهند. ولهذا السبب أطلق الإنجليز فى ذلك الوقت على هذا الجزء ـ الساحل المطل على الخليج الفارسى، والذى يطلق عليه اليوم جغرافيًا دولة الإمارات العربية المتحدة وعمان ـ اسم «ساحل القراصنة».

وفى عام ١٨٣٩ أبرم الإنجليز معاهدات مع شيوخ المناطق الساحلية الذين تعين عليهم حماية وتأمين حركة السفن البريطانية من وقوع هجمات أو اعتداءات عليها. وقد كانت هذه «الهدنة» (truce) سببًا فى إطلاق اسم آخر على الساحل (ساحل الهدنة) وعلى الإمارات المطلة على الساحل (دول ساحل الهدنة trucial-States).

وقبل ظهور ابن سعود فى الأحساء بعشر سنوات قام اللورد كرزون ـ حاكم بريطانيا العظمى بالهند ـ بزيارة لتعرُّف شيوخ المنطقة وأوضح لهم أن الخليج الفارسى «بحر إنجليزى» يجب الحفاظ على الهدوء والنظام على سواحله[1]. وعلى الجنب الآخر من البحيرات الداخلية المطلة على الخليج جلس أحد كبار المراقبين الإنجليز ليحرس جوهرة التاج الملكى للإمبراطورية ـ الهند ـ من أى خطر يتهددها من جانب القراصنة أو من أى جانب آخر يتربص شرًا بهم. وفى خطابه الذى وجهه إلى شيوخ المنطقة قام اللورد كرزون بتذكيرهم بأفضال القوة الاستعمارية عليهم: «كان النزاع هو سمة المكان قبل مجيئنا، أما الآن فقد فرضنا النظام. لقد أنقذناكم من الهلاك على أيدى جيرانكم». وفى هذه الخطبة ذكر أن جهود بريطانيا فى الخليج الفارسى تعد بمثابة مغامرة باهظة التكاليف، إلا أن النصر كان حليفها.

والآن وبعد مرور عشرة أعوام، وصل ابن سعود إلى ساحل القراصنة سابقًا. وكان الإنجليز على علم تام بمخططات ابن سعود، من خلال ممثلهم السياسى بالكويت الكابتن وليم شكسبير. ويبدو أن حملة ابن سعود قد توافقت فى جميع جوانبها مع المشروع السياسى لبريطانيا الذى سعت لتحقيقه فى شبه الجزيرة العربية. وقد صرح اللورد كرزون قائلاً: «كل ما نريده هو ألا تكون هناك جزيرة عربية موحدة، ولكن مقسمة إلى إمارات تحت سيطرتنا»[٥].

وفى عام ١٩١٥ أبرمت بريطانيا العظمى مع ابن سعود نوعًا من معاهدات الصداقة. وللحيلولة دون وقوع اعتداءات من جانب ابن سعود على شريف مكة، فقد دفع الإنجليز لابن سعود فى أثناء الحرب العالمية الأولى شهريًا خمسة آلاف جنيه استرلينى[٦]. وذلك لأنهم كانوا لايزالون فى احتياج إلى أمير الحجاز ـ أى أمير المنطقة التى تضم مكة والمدينة ـ الذى كلفه الإنجليز بأن يكون على رأس ثورة عربية ضد الأتراك. وقد عبَّر اللورد كرزون فى نوبة من الولاء اعترته لفترة قصيرة جدًا عن أن بريطانيا العظمى ستضطر إلى تأييد وتدعيم شريف مكة لو هاجم ابن سعود فى ذلك الوقت الهاشميين[٧].

وحين جاءت تلك اللحظة من القتال عام ١٩٢٥، أصبح وعد الإنجليز بمساعدة الهاشميين فى طى النسيان. فقد كسب ابن سعود حملته ضد الأسرة الهاشمية وأحرز نجاحًا فى المرحلة الثانية فى حرب الثلاثين عامًا التى خاضها، وذلك لأنه وجه عنايته إلى عقد تحالف مع أحد الحلفاء الأقوياء، ألا وهم «الإخوان»، وهؤلاء الإخوان ما هم إلا ورثة المحاربين الوهابيين الذين سبق أن هاجموا كربلاء. وقد استقر الإخوان عام ١٩١٢ فى منطقة الأرطاوية. وتربع ابن سعود على قمة هذه الحركة المحاربة. وقام الإخوان عام ١٩١٩ فى إطار التجهيز للاستيلاء على الحجاز عند منطقة طربة بدحر أحد الجيوش التابعة لقيادة عبد الله، وهو أحد أبناء الشريف حسين. فقد فوجئ القوم بالاعتداء عليهم أثناء النوم ولقى كثير منهم مصرعه. واستطاع عبد الله، الذى أصبح فيما بعد أول حاكم للمملكة الأردنية، أن يفلت بشق النفس من هذه الواقعة[٨].

وفى أغسطس عام ١٩٢٤ اتجه الإخوان إلى مدينة الطائف بالحجاز للسيطرة عليها، وهم ينشدون: «هلت نسائم الجنة حيث نكون ـ إننا نبحث عنها ـ فأين هى؟» واستطاعوا دخول المدينة. ثم دخلوا مكة بعد ذلك فى يوم ١٦ أكتوبر ١٩٢٥ ـ وهى أقدس بقعة فى ديار المسلمين ـ بلا قتال. كان ابن سعود فى ذلك الوقت

بالرياض، وحينما جاءه الخبر، خطب بالمسجد الكبير: «يا ألله ـ إننى هنا ـ جئت ملبيًا نداءك ـ جئت لعبادتك يا ألله». بعد ذلك بقليل أعلن ابن سعود نفسه «ملكًا على الحجاز»[٩].

تنافس كل من ابن سعود والشريف حسين منذ البداية على السيادة والحكم فى الجزيرة العربية. وقد استطاع الشريف حسين أن يدلل على أنه انحدر من قبيلة قريش التى ينتمى إليها النبى محمد. إلا أن الشريف حسين قد صنع لنفسه كثيرًا من الأعداء. وقد اعترض مسلمون فى الهند البريطانية على انضمام الشريف حسين للإنجليز، وقالوا إنه بهذه المناورة السياسية قد عرض سلطة الخليفة العثمانى للخطر، وعضد قبضة بريطانيا العظمى على فلسطين والقدس. وهناك آخرون قد استاءوا وامتعضوا من أن الشريف حسين أراد أن يعلن نفسه خليفة جديدًا بعد إلغاء الخلافة على يد مصطفى كمال، دون أن يستشير إخوانه فى العقيدة. وقد وجهت إليه قبائل عربية النقد فى أنه قام برفع رسوم الحج السنوى إلى مكة بشكل مخيف حتى يتسنى له تمويل جيشه، وفى أنه أقر للإنجليز والفرنسيين بأن تكون لهم اليد العليا على المنطقة التى وعدوه بإقامة ملكه عليها آنذاك وهى تمتد من سوريا عبر الأردن حتى شبه الجزيرة العربية[١٠].

اضطر الشريف حسين عام ١٩٢٥ فى النهاية أن يعلن تنازله عن عرش البلاد مستسلمًا للهزيمة مهجورًا من الجميع، وتوجه إلى العقبة. وهناك أبلغه البريطانيون ـ وهم حلفاؤه القدامى ـ بعد ذلك بوقت قصير أن وجوده هناك غير مرغوب فيه. فقد اعترض ابن سعود ـ وهو المنتصر فى هذا السباق بين الطرفين المطالبين بعرش البلاد، على إقامة خصمه هناك. فتوجه الشريف حسين إلى قبرص (حيث يسيطر عليها الإنجليز أيضًا)، ومات حزنًا وكمدًا فى عام ١٩٣١ بعمان فى قصر ابنه عبد الله، ولكنه كان مقتنعًا بقضيته وموقفه ورأيه.

كان الإنجليز يشاهدون هزيمة الهاشميين دون أن يحركوا ساكنًا، صحيح أنهم حالوا من خلال ذلك دون وصول الشريف حسين إلى السلطة فى شبه الجزيرة، لكنه أصبح لزامًا عليهم الآن أن يتعاملوا مع قوة أخرى، ألا وهى قوة ابن سعود. إن خيانة البريطانيين للشريف حسين كانت تعد بمثابة نقض للعهد، لأن الشريف حسين قد قام بتنظيم ثورة عربية ضد الأتراك عام ١٩١٦ بناءً على رغبة الإنجليز. وكان الإنجليز قد وعدوه فى مقابل تلك الخدمة التى أسداها لهم بمملكة

عربية. إلا أنهم سرعان ما نكصوا بوعدهم له فى تأسيس مملكة عربية عندما أبرمت الاتفاقية السرية بين مارك سايكس وچورچ بيكو. ولكن أبناء الشريف حسين - عبد الله وفيصل - عملوا رغم إذلال والدهم على تسخير أنفسهم لصالح الأهداف العسكرية البريطانية. فأصبح - أولاً - عبد الله أميرًا على المنطقة الواقعة خلف نهر الأردن، ثم بعد ذلك فى عام ١٩٤٦ صار ملكًا على الأردن. وفى عام ١٩٢١ حصل فيصل على تاج العراق بفضل من بريطانيا العظمى. وحتى اليوم لا ترتبط الأسرة الهاشمية والأسرة السعودية بأية روابط صداقة بينهما. وحتى اليوم لا يخطر على بال أى أمير هاشمى أو أية أميرة فى الأردن الارتباط عن طريق الزواج ببيت سعود، على الرغم من أن ذلك الرباط سيكون له مزايا مادية تعود على دولتهم الأردن - تلك الدولة المصطنعة التى هى فى حاجة دائمًا إلى المال. ويضم مكة والمدينة يكون ابن سعود قد حقق هدفه الأساسى. فقد أصبح سيد الديار الإسلامية المقدسة.

من العسير ألا نرى فى هذه التطورات خطوطًا متوازية لما حدث فى الفترة الأخيرة فى أفغانستان. فقد كانت عالمية أسامة بن لادن الإسلامية وعالمية حركة طالبان متوافقة تمام التوافق مع ما تريده الولايات المتحدة الأمريكية ماداموا يحاربون السوفييت. ثم أصبح بعد ذلك المارد المخيف الذى يشكل خطرًا عليها، وهى التى حبته بالرعاية والعناية بكل معانيهما.

توافر لتأسيس وقيام المملكة العربية السعودية شروط أساسية مرت بمراحل ثلاث - مرحلة ضم الأحساء عام ١٩١٣، وضم مكة عام ١٩٢٥ واستبعاد الإخوان. اتجه تفكير ابن سعود فى بداية الأمر إلى اسم «السعودية» لإطلاقه على المملكة. والعرب يطلقون من باب التبسيط اسم «الجزيرة» على «شبه الجزيرة العربية»، وراح سفير ابن سعود فى لندن يتشاور فى الأمر مع موظفى وزارة الخارجية الذين تقع فى نطاق اختصاصهم شبه الجزيرة التى تحمل فى الغرب وصف «عربية». وكان وقع مسمى «سعودية» على آذان البيروقراطيين الإنجليز مبتذلاً، ورأوا ضرورة أن يشتمل اسم القوة القيادية الإقليمية الجديدة على شىء ذى صلة بـ«بلاد العرب». ومن ثم أعلن ابن سعود قيام «المملكة العربية السعودية» فى ٢٣ سبتمبر ١٩٣٢. ويطلق العرب على المملكة العربية السعودية اسم «السعودية» من باب التبسيط.

نقطة تحول

لا توجد أحداث تاريخية كثيرة فى تاريخ شبه الجزيرة العربية يمكن أن يصفها البعض بأنها كانت نقطة تحول. فظهور الإسلام هو أحد التحولات الهامة فى هذا التاريخ، ثم يأتى اكتشاف النفط فى عام ١٩٣٨. وأخيرًا قيام وتأسيس المملكة القبلية لآل سعود بوصفه نقطة التحول الثالثة فى المنطقة. وبين عشية وضحاها صار هناك حدود بشبه الجزيرة. كانت الحدود بالنسبة لابن سعود وآخرين من زعماء العشائر حتى ذلك الحين إلا «خطوطًا تخيلية فى الصحراء، تتجمع عندها القبائل» (روبرت لاسى). فقد عاشت القبائل والعشائر مئات السنين فى تناحر ونزاع فيما بينهم. واستمرت أحداث هذه القصة تتوالى دائمًا على نفس المنوال: توضع «حدود» للقبائل ثم يتم إلغاؤها، تعقد التحالفات ثم يتم نقضها، يتم الاتفاق على هدنة، ثم سرعان ما يندلع القتال من جديد. ولم يحرص على تحقيق الاستقرار فى المناطق الخلفية للساحل سوى البرتغاليين ومن بعدهم الإنجليز الذين قادوا سفنهم فى مياه الخليج الفارسى فى اتجاه شرق آسيا.

ولكن بتأسيس المملكة العربية السعودية وباكتشاف النفط توقفت فجأة السنة القديمة المتكررة على طول الخط من تغيير لحدود القبائل وتغيير لتحالفات العشائر، وجاءت لحظة الختام وتوقف الزمن عند تبديل حدود القبائل إلى حدود دول. وتحولت المناطق مثل الكويت والبحرين وعمان إلى دول، ووصفت العشائر نفسها بأنها «شعوب» أو حتى «أمم»، وتزينت البيوت الحاكمة بالأعلام الخاصة بكل منها وصدرت الجوازات الخاصة بالسفر من مكان لآخر - باختصار: تم تفعيل مبدأ إقامة دولة قومية على النموذج الأوروبى على منطقة شبه الجزيرة العربية، وانتهت الحروب القبلية، وحل محلها الآن التنافس بين الدول الحديثة.

عاد الأمن والأمان والسلام بقدر كبير ليسود منطقة شبه الجزيرة العربية، وتحقق ذلك من خلال الفوائد الجمة التى سرعان ما استفادت منها تلك الدول من الرواج النفطى. لقد أصبح النفط بمثابة عامل الاستقرار العظيم للمملكة القبلية السعودية التى لاتزال تنعم بالاستقرار التام. كان ذلك الاستقرار يرجع إلى اهتمام القوى العظمى البريطانية والأمريكية للحفاظ على مصالحها، ولا عودة مطلقًا إلى الحملات والنزاعات تريد من خلالها قبيلة أن تنزع من أخرى مصدرًا من مصادر

النفط. وقد بذلت قصارى جهدها فى تحقيق ذلك الاستقرار أيضًا «شركة النفط العربية الأمريكية» المعروفة باسم «أرامكو»، حتى تدعم الرجل القوى الجديد فى شبه الجزيرة وتسد جميع الاحتياجات العسكرية للقوة العظمى المتمثلة فى الولايات المتحدة الأمريكية. وفى عام ١٩٥٠ كانت شركة أرامكو قد انتهت من مد خط أنابيب نفط من مواقع آبار النفط الشرقية حتى البحر المتوسط. وكان هذا الخط الذى أطلق عليه (ترانس أرابيان) يعنى بإمداد الأسطول السادس الأمريكى بما يحتاج إليه من وقود. كما شيدت شركة أرامكو عام ١٩٥١ خطوطًا للسكك الحديدية بتكلفة ١٥٠ مليون دولار، تمتد من العاصمة الرياض حتى الدمام الواقعة على الخليج الفارسى، وأقامت فضلاً عن ذلك المدارس والمستشفيات بالمملكة العربية السعودية.

ويمكن فى حقيقة الأمر القول بأن أرامكو لعبت دورًا مهمًا فى المملكة العربية السعودية، وحتى عام ١٩٤٧ كان ابن سعود قد حصل على مائة مليون دولار معونات مالية من الولايات المتحدة، وذلك لأن عائدات النفط لم تكن تكفى فى ذلك الحين الاحتياجات المتزايدة للحاكم[١١]. وفى عام ١٩٥٠ سمحت مستشارية الأمن القومى للولايات المتحدة لشركة أرامكو بأن تعفى جميع المدفوعات المالية لابن سعود من الضرائب المقررة فى الولايات المتحدة (راجع فى ذلك الفصل الثالث عشر). واعتبارًا من عام ١٩٥٠ لم تدفع شركة أرامكو للضرائب سوى مبلغ خمسة ملايين دولار من جملة المبلغ الأصلى وهو ثلاثون مليون دولار[١٢].

كان لابن سعود علاقات جيدة مع الإنجليز فى بادئ الأمر حينما كان فى مرحلة بسط سيطرته على الأقاليم. وفى العقود الأولى تحولت هذه العلاقات الجيدة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. فالمملكة تمد الولايات المتحدة فى الوقت الراهن بحوالى ١,٧ مليون برميل من النفط يوميًا. فى حين تستورد الولايات المتحدة من الخارج ما يقرب من عشرة ملايين برميل يوميًا بصفة إجمالية. وحتى تحافظ على استمرار حصتها العالية فى السوق العالمى، فإن السعودية تعطى للولايات المتحدة تخفيضًا قيمته دولار واحد على كل برميل نفط عن سعر السوق العالمى المعلن. ويعنى ذلك أن مبلغ الخصم الذى تعطيه السعودية للولايات المتحدة يصل فى شكل معونة مالية سعودية تصل قيمتها السنوية للولايات المتحدة ما يقرب من ٦٢٠ مليون دولار[١٣]. وبذلك فقد تعمقت العلاقات بين كِلا الطرفين باطراد، لا سيما بعد الكشف عن المصدر النفطى رقم ٧ فى الدمام عام ١٩٣٨.

مات ابن سعود عام ١٩٥٣، ووفقًا للتقاليد الوهابية فقد ووري الثرى بمنتهى البساطة، فلا ضريح ولا مبنى فاخرًا يذكر الناس بمؤسس الدولة. وكما هو الحال غالبًا مع من يوصفون «بالعظماء» من قادة العالم فقد بدأت المشكلات الحقيقية فى الظهور على الفور بمجرد موت مؤسس الدولة.

تولى العرش من بعده سعود ـ الابن الثانى لابن سعود ـ وتوج ملكًا على البلاد فى ٩ نوفمبر ١٩٥٣، ثم جرى عزله عن العرش فى ٣ نوفمبر عام ١٩٦٤ لأنه قاد المملكة إلى الإفلاس من خلال رغبته العارمة فى الإنفاق، وتجلى بذلك على وجه السرعة خطأ فى ميلاد المملكة: حق الحاكم فى التصرف الشخصى بلا حدود فى موارد الدولة التى تتشكل من عائدات النفط فى كل جوانبها. فقد ارتفعت على عهد الملك سعود المصروفات عن الإيرادات بنسبة الربع، والتهم قصر الأنصارية وحده الذى شيده سعود بالرياض خمسة وعشرين مليون دولار ـ وكان هذا المبلغ بمقاييس ذلك العصر يعد ثروة ضخمة. وفى عصر حكومة الملك سعود حدث أن ضخت المملكة ١,٤ مليون برميل فى اليوم الواحد، ولم تدفع شركات النفط للملكة سوى دولارين عن كل برميل[١٤].

وبعد إقالة سعود تولى عرش البلاد فيصل الذى حكم حتى عام ١٩٧٥ بعد محاولة فاشلة لعودة سعود إلى العرش، حين أطلق ابن أخيه فيصل بن مساعد الرصاص عليه. وقد اشتهر اسم هذا الشاب وذاع صيته أثناء إقامته فى الولايات المتحدة من خلال مغامراته وشططه، وجلب العار على المملكة السعودية وفقًا لرأى الملك فيصل الذى عرض على ابن أخيه أن يغادر المملكة.

دخل فيصل تاريخ المملكة العربية السعودية على الأخص عن طريق حظر النفط الذى فرضه أثناء حرب يوم كيبور فى أكتوبر ١٩٧٣ على الدول الصناعية، فقد شنت مصر وسوريا حربًا على إسرائيل حتى يمحى عار هزيمة ١٩٦٧. وأراد فيصل عن طريق الحظر أن يجبر الإسرائيليين على الرحيل من الأراضى التى احتلوها عام ١٩٦٧ (الضفة الغربية لنهر الأردن ـ غزة ـ القدس الشرقية). وعقب اندلاع الحرب فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ أعلنت المملكة العربية السعودية وبعد ذلك دول أخرى منتجة للنفط تخفيض ضخ النفط المصدر بنسبة خمس بالمائة. وفى منتصف أكتوبر تقرر خفض آخر للنفط المصدر لتصل النسبة إلى عشرة فى المائة. وقد هددت الدول المصدرة للنفط فى مواصلة خفض الإنتاج شهريًا بنسبة خمس بالمائة. وقدم الملك فيصل لمصر معونة عسكرية وصلت

قيمتها إلى ٢٠٠ مليون دولار. وبعد أن قامت الولايات المتحدة الأمريكية بتقديم مساعدة لإسرائيل قيمتها ٢,٢ مليار دولار، أوقف الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة ضخ النفط المصدر.

كانت هذه الإجراءات ذات بعد سياسي أكثر منه اقتصادى، فالإنتاج المحدود للإمارات على سبيل المقارنة لم يقدر على إحداث خلل فى التوازن الاقتصادى فى الغرب. وحتى يكون سباقًا فى عدم حدوث قلقلة وتوتر بين أهل بلده اضطر الملك فيصل أن يسير على نفس الدرب: أوقف تصدير النفط. إلا أنه فى نفس الوقت التمس ـ من خلف الكواليس ـ وجود حل للأزمة. فقد ألمح الملك فى مفاوضات له مع هنرى كسنجر ـ وزير خارجية ريتشارد نيكسون ـ أنه يرغب فى إعادة النظر فى موقفه الذى يبدو للعيان معاديًا للغرب. وفى ١٩ مارس ١٩٧٤ قرر الملك رفع الحظر ـ بعد تأكيدات أمريكا المتكررة أنها ستبقى حامية حمى الديار السعودية. أما الحظر فقد انتهى بالنسبة للعالم العربى بفشل سياسى، لأن فيصل لم يصل لهدف واحد من أهدافه، فإسرائيل على سبيل المثال لم تكن على استعداد للانسحاب من الأراضى المحتلة. ومنذ ذلك الحين لم يقدم حاكم عربى مرة أخرى بجدية على استخدام هذا السلاح الحاد الوحيد للعالم العربى ـ تحديدًا لمساعدة الفلسطينيين من الناحية السياسية.

استقر سعر النفط قبل فرض الحظر عند ما يقرب من ثلاثة دولارات للبرميل. وبعد الارتفاع الأول أثناء الحظر وصل سعر البرميل إلى خمسة دولارات. وفى منتصف ديسمبر ١٩٧٣ ـ أثناء الحظر ـ وصل السعر المقدم للبرميل إلى ١٢ ثم إلى ١٧ دولارًا. وفى يناير عام ١٩٧٩ كان السعر المقرر للبرميل قد وصل إلى ٢٨ دولارًا[١٥]. واستفاد الملك فيصل من هذه الأموال على وجه الخصوص فى إقامة بنية تحتية للمملكة، وحقق بذلك خلفيات دولة حديثة.

أما اليوم ورغم ارتفاع أسعار النفط، فلايزال المال يشكل من وقت لآخر عبئًا على المملكة. ويمكن تفسير ذلك التناقض من خلال الاستثمارات التى تخطت جميع الأبعاد فى البنية التحتية وما يرتبط بها من أموال عملاقة تبذل من أجل الحفاظ على هذه البنية الأساسية. ففى خلال بضع عقود تطورت الحياة فى الرياض مثلاً من صحراء جرداء إلى مدينة فى غاية الحداثة منفتحة على العالم الخارجى.

وهناك تفسير للفراغ الذى لحق بخزائن السعوديين يتعلق بتكاليف الحرب التى اضطرت المملكة العربية السعودية لدفع فواتيرها إلى الولايات المتحدة لتحرير الكويت. وقد بلغت هذه التكاليف ستين مليارًا من الدولارات بالتمام والكمال. فمنذ أيام حرب الخليج سجلت ميزانية المملكة عجزًا ماليًّا. وهناك استنزاف آخر للدماء السعودية يتمثل فى صفقات السلاح التى لا معنى لها فى أغلب الأحيان، والتى تجبر الولايات المتحدة الحكام عليها بحجة حماية المملكة. وقد صارت تلك الصفقات باهظة التكاليف لدرجة تفوق كل التصورات، وذلك بفضل «اللجان» التى تحصل أموالها من المفوضين السعوديين شخصيًّا.

مثل هذه السلوكيات وتلك أدت إلى أن أغنى دولة فى العالم ـ كما هو مفترض ـ لا تجلس على أكبر مستودع نفطى فى العالم فحسب، بل على تل من الديون الطائلة، فقد بلغت ديون السعودية لدى البنوك الوطنية ١٧١ مليار دولار، كما بلغ حجم الديون الأجنبية ٣٥ مليار دولار. وفى بلد تبلغ نسبة النمو السكانى فيه ٣,٤ بالمائة وعدد سكانه اليوم يتعدى ٢٠ مليون نسمة، فإنه لاسبيل أمام هؤلاء البشر المتزايدين فى أعدادهم يومًا بعد يوم سوى أن يعيشوا على إيرادات نفطية متجمدة، فقد تراجع متوسط دخل الفرد فى السعودية على المستوى الشعبى من ٢٨٦٠٠ دولار فى عام ١٩٨١ إلى ٦٨٠٠ دولار فى عام ٢٠٠١[١٦].

كيف ولد المتطرفون

هناك بند آخر للنفقات من أموال المملكة. حيث يقوم بتقديم مساعدات مالية لجميع المؤسسات الإسلامية الممكنة، وحيثما تتاح الإمكانية أو تكون هناك ضرورة وحاجة لإقامة مسجد أو مدرسة لتحفيظ القرآن تقوم المملكة العربية السعودية بتقديم الدعم المالى لها. فقيمة المصروفات التى تبذل فى صالح هذه الأعمال كل عام لايستطيع أحد تقديرها ولو على سبيل التقريب كما أن غيرها من المصروفات التى يسعد المتبرعون السعوديون ببذلها بلا حدود لايمكن التقليل من شأنها.

ويضرب الإسلام الأصولى بجذور عميقة بين مئات الآلاف من المصريين والفلسطينيين والسوريين والأردنيين، كما أن الدولة السعودية قامت بتوفير

وظائف للمستقدمين من دول الجوار من مهندسين وأساتذة جامعات ومعلمين. ونشر الجيش الجديد من العمالة الأجنبية المثقفة الأفكار الدينية المحتضنة بالمملكة السعودية، حيث بلغ هذا الوضع ذروة من التطور لاتحمد عقباها. ورغم أن هذا الخطأ الدبلوماسى باعتراف السعودية بحكم طالبان لم يكن محل مفاجأة، لأن نوعية المفاهيم الإسلامية لابن عبد الوهاب متشابهة إلى حد كبير مع المفاهيم التى رغبت طالبان فى حكم أفغانستان بها، إلا أن السعوديين عقدوا العزم على هذه الخطوة الخطيرة، لا لشيء إلا لأن الولايات المتحدة قد حثتهم على الإقدام عليها: «لقد اعترفنا بطالبان فقط بعد أن أعطانا الأمريكان الضوء الأخضر» ـ كما صرح أحد الوزراء السعوديين للصحفى الفرنسي إريك رولو[١٧]. كما اتفق رأى السعوديين مع الأمريكان فى أن زعيم طالبان الملاّ عمر لديه من الوسائل الحربية ما يمكنه من تحقيق السلام فى المنطقة غير الهادئة. وتعين على كل من الأمريكان والسعوديين دفع فاتورة باهظة التكاليف بسبب تلك الحسابات السياسية الخاطئة. إذ استيقظ البيت الملكى فزعًا حينما علم أن من بين التسعة عشر إرهابيًا فى هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ يوجد خمسة عشر مواطنًا سعوديًا.

لقد ظهر السخط وعدم الرضا مبكرًا فى المملكة، وكان أحد أولئك الذين تمردوا على الوضع هناك، مهيمن بن محمد بن سيف العتيبى، هذا الشاب الذى ينتمى لقبيلة العتيبى. وهو كمسلم من أهل السنة لم يكن على الإطلاق من أنصار آية الله الخمينى بإيران. إلا أنه كان أحد المنبهرين بنجاح ثورة إيران ضد الشاه. وفى يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩ قام باحتجاز بعض الأسرى فى الحرم المكى الكبير وأعلن أنه «المهدى» المنتظر. وبعد معركة حامية الوطيس داخل الحرم الشريف تم القبض على العتيبى وأتباعه، ونفذت على الملأ الأحكام بإعدام ثلاثة وستين من المشاركين فى الأحداث الثورية بالحرم ـ فى تلك المدن والقرى التى جاءوا منها.

انتفض فى نفس هذا التوقيت على التقريب شيعة يعيشون بإقليم الأحساء ضد البيت الملكى. ويصعب تقدير أعداد الشيعة الذين يعيشون فى المملكة العربية السعودية. فالبعض يقدرهم بحوالى ٢ مليون شيعى فى التعداد السكانى الذى يبلغ نحو ٢١,٥ مليون نسمة. فبعد سيطرة ابن سعود على إقليم الأحساء فى عام ١٩١٣، تركت الأسرة الحاكمة الشيعة ينظمون مستقبل شئونهم وأحوالهم الخاصة بهم. وبعد أن استخدم الملك فيصل فى الستينيات الإسلام كأداة حرب للوقوف فى وجه

حركة الوحدة العربية التى قادها عبد الناصر، وبعد أن استولى آية الله الخمينى عام ١٩٧٩ على السلطة فى إيران، ساء وضع الشيعة وتدهورت أحوالهم بدرجة بالغة. وفى مايو ٢٠٠٣ قام ٤٥٠ مواطنًا سعوديًا ـ من بينهم ٤٦ امرأة ـ بالتوقيع على طلب تقدموا به إلى الحكومة يلتمسون فيه احترام حقوق الشيعة[١٨]. وفى إبريل عام ٢٠٠٢ انطلق عدد من الشبان إلى شوارع مدينة صفوة لكى يعبروا فى مظاهرة عن رفضهم احتلال القوات الإسرائيلية لمخيم اللاجئين الفلسطينيين بجنين.

كما أن أسامة بن لادن وجه اتهامًا آخر، فمن ناحية لا يستطيع أحد القول بأن طرق أسامة بن لادن القتالية وتفسيره القمعى المتجمد للإسلام يجد أنصارًا له كثيرين فى كل مكان فى العالم الإسلامى، كما أنه لايعد بكل تأكيد عالمًا معترفًا به فى تفسير القرآن. أما من ناحية أنه قد حظى بشهرة متواصلة رغم ذلك، فإن تفسير ذلك يكمن على الأخص فى حقيقة لاشك فيها، وهى استمرار احتلال إسرائيل للمناطق الفلسطينية منذ عام ١٩٦٧، وتشييد المستعمرات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة وفى عدم التوصل إلى حل وسط تبديه إسرائيل بشأن قضية القدس. كما يضاف إلى ذلك أن التأييد الأمريكى لإسرائيل عمل دائمًا على تنامى الشعور المعادى للولايات المتحدة على أوسع نطاق شعبى فى العالم الإسلامى. فأمريكا لم تدرك على الإطلاق معنى الجرح الذى تسببه للنفس العربية.

وقد تكررت مطالبة الملك عبد الله، والذى كان يدير منذ وقت طويل الشئون السياسية فى الرياض بسبب مرض الملك الراحل فهد، للولايات المتحدة باتباع سياسة متزنة فى الصراع. ولكى يخفف من حدة الأزمة، تقدم بعرض جدير بالاحترام فى مؤتمر القمة العربية المنعقدة ببيروت فى مارس ٢٠٠٢: سيعترف العالم العربى بإسرائيل فور سماح إسرائيل بتأسيس دولة فلسطينية فى الضفة الغربية لنهر الأردن وفى غزة وفى القدس الشرقية حتى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧. وبقيت خطة السلام الجادة دون أدنى أثر لها، لأن كلاً من الولايات المتحدة وإسرائيل لم تتحركا خطوة تجاه هذه الخطة.

فهذا الافتقار إلى الاستجابة من جانب إسرائيل والولايات المتحدة يعد أيضًا سببًا آخر للهجوم النقدى المتزايد من جانب المملكة العربية السعودية الحليف الأمريكى على الولايات المتحدة الأمريكية. ورغم أن جزءًا كبيرًا من قيادات الدولة تدربت وتعلمت فى الولايات المتحدة، إلا أن هذه الصلة لم تؤد بحال من الأحوال إلى اتباع دائم للسياسة الأمريكية.

وتوضح لنا المظاهرات التى اندلعت فى منطقة الجوف فى شمال المملكة وعلى مقربة من الحدود الأردنية، مدى قوة النقد الموجه إلى التحالف الإستراتيجي الذى عقدته أمريكا مع إسرائيل. وفى مدينة سكاكا تظاهر فى إبريل ٢٠٠٢ ما يقرب من أربعة آلاف شخص ضاربين بعرض الحائط الحظر العام المفروض على القيام بمظاهرات، وطالبوا النظم العربية بمزيد من الالتزام نحو الفلسطينيين. كما انتقد المتظاهرون ذلك «الصمت العربى المهين للكرامة» إزاء القهر الإسرائيلى لذويهم. واضطرت الحكومة السعودية إلى إرسال قوات إلى بلدة سكاكا النائية والتى لم يمتد إليها بعد نعيم الرواج النفطى، حتى تخمد الثورة. وبعد يوم من ذلك طالب متظاهرون أمام القنصلية الأمريكية بالظهران بأن تغلق المملكة صنبور النفط فى وجه الغرب.

ونظرًا لاستمرار رفض قبول تسوية القضية من الجانب الإسرائيلى الأمريكى، فقد تنامت مشاعر التعاطف مع أسامة بن لادن بداخل وخارج المملكة. فقد تيقن ابن لادن من ذلك التخمر السياسى المتزايد بالمملكة، حين بث رسالته عبر قناة «الجزيرة» عرّج فيها بإسهاب على إعادة احتلال إسرائيل للضفة الغربية لنهر الأردن فى إبريل ٢٠٠٢، فقال: «وما تعانى منه أمريكا اليوم فهو لا يقارن بما عانيناه سنين طويلة... فى هذه الأيام احتلت المدرعات الإسرائيلية... جنين ورام الله ورفح وبيت جالا... ولانسمع أحدًا يرفع صوته معارضًا لذلك. فلا أمريكا ولا أى شخص يعيش فى أمريكا سينعم بالسلام يومًا، مادمنا لا نشهد سلامًا فى فلسطين».

لاشىء آخر سوى حرب العصابات التى تقودها قاعدة ابن لادن ضد المملكة العربية السعودية، يبرهن بوضوح تام على مدى تشابك جميع مشاكل الشرقين الأدنى والأوسط مع بعضها بعضًا، فالهزيمة التى تفرضها الولايات المتحدة عن طريق تواجد قواتها لضمان تدفق نهر النفط، والدعم العسكرى الذى تقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل، ما هما فى نظر الكثيرين بمنطقة الشرق الأوسط بأسرها إلا وجهان لعملة واحدة.

تمتد شبكة عائلة سعود فى جميع أنحاء البلاد، كما تمتد أذرع العائلة الحاكمة لتصل حتى آخر ركن فى الدولة القبلية. والوضع لا يزال غامضًا بالنسبة للنساء، فنصف المجتمع ـ النساء ـ مستبعد من المشاركة فى الحياة الاجتماعية وكذلك عن مزيد من النمو المثمر للمجتمع. فلا أماكن عمل للنساء سوى فى المجالين الطبى والتربوى. ومنذ فترة وجيزة فقط سمح لهن باستخراج بطاقات شخصية ـ وبموافقة أزواجهن. وينحصر عمل الرجال المفضل فى

الشراكة الصورية فى إدراة الأعمال وشركات أوروبية ـ وفى حالات كثيرة أيضًا ـ لا يعبأون بشىء سوى تحصيل نصيبهم من الأرباح. فالقيام بالأعمال الخدمية العادية يتعارض مع الطبيعة الوراثية البدوية. لذلك لانتعجب على الإطلاق من أن ثلثى الرجال السعوديين وما يقرب من تسعين بالمائة من كل نساء السعودية بلا عمل. وفى المقابل تستقدم المملكة السعودية جيشًا يقدر عدده بالملايين من العمالة الآسيوية إلى جانب المعلمين والمهندسين من الأردن وسوريا ومصر، وهو ما يحافظ على استمرار منظومة الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

لقد استطاع نظام الحكم أن يواصل مسيرة الحياة لأكثر من سبعة عقود ـ استقر خلالها بظهور النفط. والسؤال الذى يفرض نفسه: هل المملكة مهددة الآن أكثر من أى وقت مضى؟ ربما فكرت الولايات المتحدة فى ذلك فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. وربما كان هدف الحملة العسكرية على العراق هو التجهيز لقاعدة فى بلد مجاور بشكل مباشر للمملكة، يمكن من خلالها أن تتحكم الولايات المتحدة فى الأحداث التى تجرى فى المنطقة، إلا أن الحرب التى لا تزال قائمة فى أفغانستان ذات صلة وثيقة بالتطورات فى المملكة، كما فسر ذلك خبير شئون الشرق الأوسط مايكل كلير من مركز أمهرست «هامبشير كوليدج» بولاية ماساشوستس[١٩]. حين قال: «ارتبطت الحرب على الإرهاب بغاية الولايات المتحدة الأمريكية فى تأمين المنفذ الموصل للنفط ـ لا سيما الواقع على الخليج الفارسى وفى محيط بحر قزوين... ويمكن رؤية الحرب فى أفغانستان على أنها مد زمنى لحرب ظل... بين أعداء راديكاليين للمملكة العربية السعودية والأسرة الملكية التى تحميها الولايات المتحدة. فبعد أن قرر الملك فهد عقب غزو الكويت من جانب العراق أن يسمح لقوات أمريكية فى استخدام بلاده كقاعدة لهجومها على العراق، قاد متطرفون سعوديون وعلى رأسهم أسامة بن لادن، حربًا سرية لإسقاط المملكة ولطرد الأمريكان. وجهود أمريكا المبذولة من أجل القضاء على القاعدة وأعوانها فى أفغانستان، يمكن تقديرها كتجربة أو كمحاولة من أجل حمايه العائلة الملكية السعودية ومن أجل تأمين المنفذ الموصل للنفط».

والاعتداء الإرهابى الذى وقع على الثكنات العسكرية الأمريكية بالخبر شرق المملكة (١٩٩٦)، والهجوم على حى يسكنه أجانب فى مايو ٢٠٠٣ والاعتداء الانتحارى الذى وقع بالرياض فى نوفمبر ٢٠٠٣ ـ كل هذه الأعمال ما هى إلا بمثابة محطات لمعركة تشنها القاعدة ضد البيت الملكى والولايات المتحدة. والواقع أن الولايات المتحدة فطنت مبكرًا لذلك الخطر الذى يحدق بالبيت الملكى

من خلال وجود قوات أمريكية. ففى عام ١٩٦٠ أولى ولى العهد الأسبق فيصل اهتمامًا بهذا الأمر لدى الرئيس جون إف. كنيدى حين ذكر له أنه من الأفضل لو قررت الولايات المتحدة من نفسها إغلاق قاعدتها العسكرية بالظهران، وذلك لأن الوجود الأمريكى يجرح مشاعر المسلمين. وعند ظهور حالة طارئة ستعيد المملكة العربية السعودية مرة أخرى هذه القاعدة. كان ذلك كلام فيصل. وفى نهاية عام ١٩٦٠ سحب الأمريكان أنفسهم، وبقيت العلاقات السعودية الأمريكية دون اضطراب وعلى أوسع نطاق[٢٠].

فهل ستسير المملكة على نهجها القديم أم أن هناك بشائر جديدة تلوح فى الأفق، فى ربيع عام ٢٠٠٣ وقعت ١٠٤ شخصيات على عريضة طالبوا فيها بإصلاح دستورى واسع النطاق. واستقبل ولى العهد عبد الله بنفسه هذه المجموعة. وأعلن أحد الموقعين قوله: «إن ذلك بمثابة سباق ضد اتجاه عقارب الساعة. فنحن أمام مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة نتج عنها فقر وبطالة متزايدة. ونحن نرد على ذلك بأن نستمر فى ملاطفة الأمريكان، وبأن نخاطبهم بحلو الكلام ونضع المشاكل الحقيقية بين قوسين، ولكن نستطيع أيضًا أن نأخذ قرارنا فى محاربة الفساد ونحقق لأنفسنا الإصلاحات التى تضمن مزيدًا من الحرية والحفاظ على حقوق الإنسان»[٢١].

لقد دخلت المملكة القبلية لعائلة سعود والتى تأسست عام ١٩٣٢ مرحلة فاصلة فى تاريخها. وهناك أناس كثيرون غارقون فى بحر الزمن الماضى وينظرون بالإعجاب فى سرهم لأسامة بن لادن. وهناك آخرون على العكس منهم ينتظرون فى لهفة حدوث الإصلاحات. فكيف سيدفع كل ذلك بمصير وقدر الدولة السعودية لينتهى به إلى اختبار القوة الفاصلة؟ إن الأمريكان يسعون مؤخرًا إلى تحقيق الديمقراطية، بعدما قاموا بتعضيد نظام الحكم السعودى على مدار سبعة عقود. وعلى العكس من ذلك فإن إرهابى أسامة بن لادن يريدون ـ مثل الأمريكان فى العراق ـ تحقيق تغيير لنظام الحكم عن طريق تفجير القنابل، كما أنهم يريدون تحقيق مزيد من التقارب بين الناس، كما يرغبون فى اتخاذ الدولة قاعدة لحربهم ضد الولايات المتحدة الأمريكية. وفى البلد المجاور العراق أسس الأمريكان من جانبهم ـ مثلما فعلوا بأفغانستان قبل ذلك ـ قاعدة لهم للحرب ضد القاعدة. على مدار سبعة عقود استطاعت المملكة القبلية السعودية أن تنفض عن نفسها غبار قوى الدفع السياسية بالمنطقة، فهل تستطيع الصمود مجددًا أمام عواصف المستقبل؟

الجزء الثالث

الخاضعون يدافعون عن أنفسهم

الفصل السادس
من المهدى إلى حافظ الأسد

«إن إخضاع الشعوب للحكم الأجنبى وعمليات الهيمنة والاستغلال يعد بمثابة إهدار لحقوق إنسانية أساسية... فجميع العمليات المسلحة والإجراءات القمعية بكل ألوانها وأشكالها والتى ترتكب فى حق الشعوب الخاضعة يجب أن تتوقف».

قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٥٤٠ لعام ١٩٦٠ بشأن

«منح الاستقلال للدول والشعوب المستعمرة»

كان محمد أحمد بن السيد عبد الله يحمل فى حقيقة الأمر اسمًا عربيًا مألوفًا، ولكن نظرًا لأنه قضى حياته على نحو غير عادى، فإنه أخذ يكيف اسمه بمرور الزمن وفقًا لمسيرة الأحداث. فحين ولد محمد أحمد عام ١٨٤٤ فى أم درمان بالسودان، كانت الجارة الشمالية للسودان، مصر، قد احتلت بلده. وحتى يتسنى لهم تمويل حملتهم بالأموال الأوروبية، فقد دفع المصريون بقولهم: إنهم يريدون محاربة تجارة الرقيق المنتشرة فى جنوب السودان. فاكتسبوا بهذه الطريقة أيضًا أصوات مسيحيين أوروبيين كان من بينهم الجنرال البريطانى تشارلز جورج جوردون لصالح حملتهم العسكرية. وإن كان الزعماء المصريون وسادتهم بإسطنبول مسلمى الديانة، إلا أن محمد أحمد وصفهم جميعًا بأنهم ملاحدة، نظرًا لأنهم احتلوا بلده بالتواطؤ مع الأوروبيين. وأخذ على عاتقه مهمة تحرير بلاده من السيطرة المصرية وتأسيس جماعة تؤمن بالله. ودعا أنصاره إلى تأسيس حياتهم على الورع وطاعة الله. ونظرًا لأن محمد أحمد توصل بالتدريج إلى قناعة بأنه يؤدى رسالة إلهية، فقد أطلق على نفسه فى نهاية المطاف «المهدى» (أى من هداه الله الصراط المستقيم). فقد أراد أن يحقق لبلده - السودان - العدالة والمستقبل السعيد، فى إطار تأسيس دولة تقوم على قواعد الإسلام وتنأى عن السيطرة والقرار الأجنبى.

كان المهدى أحد الزعماء العرب الأوائل الذين حاربوا الاستعمار، بدءًا من إمبريالية المصريين التى صنعها السودانيون أنفسهم، ووصولا إلى إمبريالية البريطانيين التى أخضعهم القدر التاريخى لها، وذلك لأنه فى الوقت الذى قاد المهدى حملته العسكرية ضد القوات المصرية بالسودان، كان البريطانيون يمسكون بزمام السلطة فى القاهرة. كان ذلك فى عام ١٨٨٢ حين أعلن المهدى - ربما على مضض - عداءه لقوة بريطانيا العظمى. وأرسل البريطانيون الذين وجدوا السودان فجأة فى حوزتهم قوة عسكرية لمواجهة المهدى. وقضت هذه القوة العسكرية عام ١٨٨٥ على قواته. وقتل المحاربون باسم الله فى هذه المعركة قائد القوات البريطانية الجنرال تشارلز جورج جوردون، وكان ذلك ضد إرادة المهدى.

كان مقتل القائد العسكرى البريطانى، الذى قطع المحاربون من أتباع المهدى رأسه سببًا دفع البريطانيين إلى التفكير فى القيام بعمل انتقامى. ولم يشف غليلهم موت المهدى فى نفس العام مصابًا بمرض التيفود. فبعد أن أعاد اللورد كيتشنر عام ١٨٩٨ احتلال الخرطوم، أمر بإخراج جثة المهدى من قبره وإلقائها فى نهر النيل. وبهذا الأسلوب المفزع المخيف صارت السودان بريطانية. وعرفت المنطقة من دلتا النيل حتى أقصى الجنوب فى السودان فى الخرائط المعاصرة باسم «السودان الإنجليزى المصرى».

يرجع الفضل فى وقوع أرض الحضارة القديمة مصر تحت الاحتلال البريطانى بالدرجة الأولى إلى إسراف حكامها وتبذيرهم، أكثر من السعى الدءوب للقوة الاستعمارية البريطانية لتحقيق هذه الغاية. فبعد أن حفر الفرنسيون قناة السويس اعتقد الخديوى - أى نائب الملك القابع فى إسطنبول البعيدة - بأن عليهم استقبال النبلاء الأوربيين القادمين من بلادهم قاصدين مصر بما يليق بهم من حفاوة تتناسب ومكانتهم الاجتماعية الرفيعة، وذلك بمناسبة افتتاح الخط الملاحى الاستعمارى عام ١٨٦٩، علاوة على ذلك فقد تم تشييد قصر خصيصًا للإمبراطورة الفرنسية أوجينى - قرينة نابليون الثالث، لتحل ضيفة فيه أثناء إقامتها بمصر الموحشة وبعيدًا عن مضايقات من أهل البلاد، واليوم يضم هذا القصر البهى فندقًا فخمًا.

وقام الحكام المسلمون بالقاهرة ببناء دار للأوبرا حتى يقدموا لأصحاب الجلالة والفخامة والسمو الأوروبيين أعمالاً من حضارتهم الأوروبية. وجرى عرض أوبرا «ريجوليتو فيردى» بمناسبة الافتتاح الرسمى للقناة لأن المايسترو

لم يتمكن من الانتهاء من العمل المكلف به فى الوقت المحدد للاحتفال بهذا الحدث، وهو أوبرا «عايدة» المستوحاة من التاريخ الفرعونى بمصر، وكتب لها أن يكون العرض الأول بأوبرا القاهرة فى ديسمبر عام ١٨٧١.

وقد حملت مصر نفسها فى ذلك الأمر ما لا يطاق، لأنها لم تكن من البلاد الغنية لتمويل تلك المظاهر من الترف والعظمة والأبهة، حتى اضطرت للاستدانة. فما أن عاد الضيوف أصحاب الرغبات المتعددة إلى ديارهم، حتى اضطرت مصر إلى التوقيع على وثيقة إفلاسها. وكما حدث مع الدولة العثمانية، فقد أجبرت مصر على الموافقة على السماح بإقامة إدارة لشئون الديون الغربية على أرضها، وهكذا سقط الخديويون فى أيدى الممولين الأوروبيين.

كانت مثل هذه التبعية من شأنها أن تثير روح المقاومة فى الشعب. أما الرجل الذى تولى محاربة أوتقراطية النظام الخديو الموالى لبريطانيا، بعد التمهيد الذى قام به المهدى، فكان عقيدًا بالجيش المصرى سمى أحمد عرابى. وكما حدث بعد ذلك بسبعين عامًا مع جمال عبد الناصر، فقد ظهر عرابى فجأة على مسرح الأحداث، ولم يكن حتى تلك اللحظة سوى ضابط غير معروف بالجيش المصرى، وأعلن الحرب على سادته وأسيادهم الأجانب؛ ففى ٨ سبتمبر ١٨٨١ سار عرابى ومعه أنصاره إلى مقر إقامة الخديو بقصر عابدين بالقاهرة، وطالب بدستور للبلاد وزيادة عدد الجيش. وفى نهاية الأمر سلم الخديو توفيق باشا نفسه كلية ليد الممولين والدَّيَّانة الأجانب، حين طلب إلى الإنجليز والأتراك التدخل العسكرى. وخرج المصريون فى ١ يونيو ١٨٨٢ فى مظاهرات بالإسكندرية ضد الهيمنة الأوروبية فى المنطقة. ولم تكن الإسكندرية فى ذلك الوقت مدينة مصرية بحته. كانت هذه المدينة التى أسسها الإسكندر الأكبر تشهد ـ من المنظور الأوروبى ـ بهاء ورونقًا لم تعرفه مدينة أخرى، إذ كانت مدينة متعددة الثقافات ـ كما يتردد فى لغة الحداثة ـ حيث ازدهرت بها الحضارة الأوروبية وحيث كانت الكلمة فيها لليونانيين واليهود والبريطانيين ـ ولكن ليس للمصريين. وقد أبدع لورانس دوريل رائعته الأدبية عن ذلك العصر الذهبى للإسكندرية فى روايته «رباعى الإسكندرية»، آنذاك احتل ١٣٢٥ أوروبيًا وظائف ومراكز هامة بالحكومة والإدارة[١].

وقد صمد المصريون فى الدفاع عن أنفسهم ضد التأثيرات الأجنبية الدخيلة على حياتهم. وفى أثناء ثورة عرابى ترك البلاد ١٤٠٠٠ أوروبى، ولم يكن هناك

بريق أمل فى التصالح بين الجبهات. وتطور عن ذلك فيما بعد نمط فكرى لكل طرف عن الطرف الآخر سيطر على عقل كل منهما عشرات السنين. إذ كان الناس فى مصر يرون فى البريطانيين إمبرياليين لاسبيل إلى إصلاحهم. أما فى إنجلترا فقد نظروا إلى المصريين على أنهم إرهابيين لن يأتى الزمان بأسوأ منهم. فهم يقتلون الأبرياء من المدنيين وهم ليسوا بطرف فى حلبة الصراع. ترسخ هذا النموذج فى الأذهان نظرًا لتكرار تقديمه فى أغلب الأحوال إلى العالم حين وصل الأمر فى العقود التالية إلى الصراع بين قوى الاستعمار والشعوب المحتلة.

لم يكن الإنجليز يرون فى تمرد عرابى مشكلة داخلية فحسب، بل اعتبروها على وجه الخصوص نوعًا من التحدى لسيطرتهم فى وادى النيل والبحر المتوسط. فأطلقوا النيران من أسطولهم البحرى على الإسكندرية. وفى يوم ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ قام البريطانيون بضرب قوات عرابى واحتلوا مصر وأصدروا حكمًا بإعدام عرابى نظير تمرده، إلا أنهم بعد ذلك قاموا بنفيه إلى جزيرة سيلان الواقعة تحت سيطرتهم، كان تمرد عرابى بمثابة الشرارة التى أشعلت نيران معارضة ذى توجه قومى - عربى ضد الحكم الأجنبى العثمانى والبريطانى الخطير، وانتهى تمرد عرابى باحتلال بريطانيا العظمى لمصر.

لم تخمد نيران هذه الشعلة فى مصر بهذه البساطة، فقد تأججت نيرانها ثانية فى عروق أحد الفلاحين ليقف من جديد فى وجه السيطرة البريطانية، إنه الثورى سعد زغلول الذى انحدر من أسرة ريفية ارتقت مكانتها الاجتماعية بدلتا النيل من خلال ما تملكه من أراضٍ زراعية حتى عرف عنها الثراء، فقد حقق سعد زغلول ما كان تحقيقه نادرًا من قبل للفلاحين: درس سعد زغلول بجامعة الأزهر الإسلامية وبكلية الحقوق المصرية. وبعد أن أعلن البريطانيون فى الحرب العالمية الأولى الحماية على مصر وأسقطوا الحكومة وكذلك الخديوى؛ قام سعد زغلول بتنظيم خلايا مقاومة، ثم طالب زغلول وأتباعه بعد انتهاء الحرب بالاستقلال، فلجأ البريطانيون إلى طريقتهم التى عرفوا بها فى هذه الأثناء ونفوا سعد زغلول إلى مالطة. ولم يهدأ أنصار سعد زغلول ونظموا المظاهرات. وكان السير إدموند اللنبى - وهو الذى احتل فلسطين - قد وصل إلى القاهرة حيث أصبح المندوب السامى بها وأعاد سعد زغلول إلى وطنه. وتوجه سعد زغلول على الفور على رأس وفد - الوفد الذى أطلق اسمه منذ ذلك الحين وحتى اليوم على «حزب الوفد» - إلى مؤتمر السلام بباريس حيث لم يجد نداؤه ومطلبه بتحقيق الاستقلال آذانًا صاغية. ولم يتوقف

كفاح سعد زغلول، وتعرض للنفى من جديد ولكن هذه المرة إلى جزر سيشيل.

ولم تثن هذه العقوبة عزيمة المناضل عن مطالبته باستقلال مصر، وثار أتباعه وأعوانه بالقاهرة. وانقضى إلى غير رجعة هذا العصر الذى يهدد فيه المصريون بالنفى الأبدى إذا طالبوا بالاستقلال، كما حدث ذلك من قبل لأحمد عرابى، وأطلق البريطانيون صراح سعد زغلول مرة ثانية، بل أصبح عام ١٩٢٤ رئيسًا للوزراء -وهو أول فلاح مصرى فى هذا المنصب. ويرجع الفضل فى أن البريطانيين منحوا مصر ـ على مضض وكره منهم ـ عام ١٩٢٢ (وكان زغلول لا يزال فى منفاه فى جزر سيشيل) استقلالاً مشروطًا ـ يرجع إلى إصرار سعد زغلول وعزيمته السياسية التى لا تلين. وليس من قبيل المبالغة فى القول أن ندَّعى أن سعد زغلول وأحمد عرابى كانا بمثابة الرواد لجمال عبد الناصر الذى أنهى إلى الأبد عام ١٩٥٢؛ أولاً بإسقاطه الأسرة الملكية، وفى عام ١٩٥٦ بتأميمه قناة السويس ـ السيطرة البريطانية على مصر.

لم تقتصر مقاومة النفوذ البريطانى المتزايد فى المنطقة على مصر، وكثيرًا ما لاقى الثوار نفس مصير عرابى وسعد زغلول، وقوبلت مقاومتهم للسيطرة البريطانية بعقوبة النفى. وحين وضع سعد زغلول بشعاره «مصر للمصريين» أسس سياسته؛ ظهر فى سماء بغداد رجل آخر يرفع نفس الشعار «المارق» وينادى فى البلاد أن «العراق لا يحكمه إلا العراقيون». إنه الثورى السياسى سيد طالب من وجهاء البصرة المرموقين، فقد أراد بحملته السلمية أن يحول دون تحقيق رغبة البريطانيين فى تعيين الأمير الهاشمى فيصل ملكًا على دولة العراق الجديد.

توصل البريطانيون ـ كما اعتقدوا ـ إلى حل أنيق لإزاحة سيد طالب عن الطريق، ففى منتصف أبريل عام ١٩٢١ وجه السير بيرسى كوكس ـ أول مندوب سامى بريطانى بالعراق ـ الدعوة إلى الغريم لتناول شاى الساعة الخامسة معه بمقره فى بغداد. ولم يكن حاضرا سوى الليدى كوكس زوجة المندوب السامى والتى تفيض سحرًا وظرفًا وبعض الضيوف من عِلْية القوم، وإذا بالسير بيرسى كوكس يعتذر بالانصراف لأداء أعمال طارئة. وحقيقة الأمر أنه لم يرغب فى أن يشهد بشخصه تنفيذ مؤامرة قام بتدبيرها لضيفه. واتضح أن السادة الضيوف رفيعى القدر الذين حضروا لتناول شاى الساعة الخامسة البريطانى الهام، ما هم إلا عصابة من المتآمرين، وبعد تجاذب أطراف الحديث فوجئ سيد طالب بأحد الحضور ينقض عليه ويقيده ثم يدفع به إلى إحدى السيارات. ولم يشعر بحرية

الحركة إلى حد ما إلا بعد وصوله إلى مكان آخر بعيد كل البعد عن وطنه - إلى جزء من الأملاك البريطانية - وهي جزيرة سيلان. وهناك أدرك - بقدر ما أسعفته ذاكرته - كما أدرك من جاء قبله بثلاثين عامًا إلى هذا المكان، وهو المصرى أحمد عرابى، ما معنى أن يقف أحد فى وجه مدبرى أمر الإمبراطورية البريطانية، وبعد انقضاء يوم على الحفل الذى أقامته الزوجة المطيعة أعلن الزوج السير بيرسى كوكس أنه بنفسه أمر بإلقاء القبض على سيد طالب، فقد كان من الممكن أن يؤدى تحريض الرجل إلى اندلاع أعمال عنف مما يعرض بدوره النظام العام إلى الخطر[٢].

كان سيد طالب الأول فى سلسلة من الثوار الذين تجرأوا بالسؤال عن سرِّ هيمنة البريطانيين على العراق. وأحد اللاحقين به لم يكن رجلاً من الشعب، ولكنه أحد أفراد الأسرة الهاشمية الذين قام الإنجليز بتعيينهم - إنه الملك غازى شخصيًّا. كان غازى بن فيصل الأول الذى وافته المنية عام ١٩٣٣ وحفيد الشريف حسين أمير مكة. عايش غازى فى باكورة حياته معنى الإذلال الذى لحق بجده على يد الإنجليز. فخيانة الإنجليز الذين حنثوا بوعدهم له بين عشية وضحاها، فى أن يكون الشريف حسين ملكًا على المملكة العربية بأسرها، علقت بذاكرة الحفيد وأثرت على مفاهيمه السياسية بانطباعات يصعب محوها من الذاكرة، ومثل كثير من الهاشميين - مثل الملك حسين بعد ذلك، ملك الأردن ومثل ابنه عبد الله الثانى الذى يحكم حاليًّا - فقد تعلم غازى فى الأكاديمية العسكرية البريطانية ساندهارست. كان أمل البريطانيين أن يعملوا على تشكيل مثل هؤلاء الحكام حتى يستطيعوا بمساعدتهم بعد ذلك حكم البلاد التى خلفوها بأنفسهم.

لم يستحسن غازى على الإطلاق حياته فى إنجلترا. أما من الجانب السياسى فلم يتغير مطلقًا رغم الجهود التى بذلها جميع أساتذته، وحين أصبح غازى الشاب ملكًا، أصبح بذلك ثائرًا متمردًا يحمل تاج عرش العراق على رأسه فجأة. ولجأ الإنجليز إلى عمه الأمير عبد الله الذى قاموا بتعيينه ملكًا على منطقة ماوراء الأردن المجاورة، لحث الشاب العصبى الجالس على عرش العراق على التروى والاعتدال. إلا أن غازى لم يكن ابن الأخ الذى يستمع لنصح عمه ويستجيب للتعقل[٣]. ولكى يتسنى لهم ترويض الملك غازى، فقد استغل البريطانيون اندلاع تمرد للآشوريين والأكراد ضد الحكومة المركزية ببغداد (البعض يدعى أن البريطانيين هم الذين عملوا على تنظيم القلاقل) ثم زودوا المتمردين بالأسلحة.

وبذلك يضطر غازى الذى يتوهم الإنجليز أنه تنقصه الخبرة إلى طلب المساعدة من الإنجليز للوقوف ضد المتمردين فى الشمال.

إلا أن الحيلة الخبيثة باءت بالفشل؛ لأن الجيش العربى السنى بالعراق، الذى أوجده الإنجليز أنفسهم ليكون بمثابة العمود الفقرى للدولة الفتية، ضرب التمرد بكل قوة وقمَع المتمردين. وخرج الملك غازى من المسألة قويًا على عكس توقعات الإنجلين، ولا عجب فى أن يزداد غضب الإنجليز تجاه ربيبهم العاق، أما رجلهم فى بغداد ـ نورى السعيد ـ الذى تولى رئاسة عدة حكومات، فقد حاول مرارًا وتكرارًا إسقاط الملك. وانتهى الأمر باغتيال غازى فى أبريل ١٩٣٩ ببغداد ـ وقد أوردت الرواية الرسمية أنه مات فى حادث سيارة، إلا أن كثيرًا من العراقيين رجحوا على الفور تدبير الإنجليز لعملية الاغتيال، فالكاتب الفلسطينى سعيد ك. أبو الريش قام بسؤال مجموعة من الذين عاصروا واقعة موت غازى، فخرجت جميع الآراء باستثناء رأى واحد، تقول بأن الإنجليز قاموا بوضع سيناريو التخلص من غازى[٤].

وبعد ذلك بعامين اضطر البريطانيون أنفسهم إلى اللجوء للسلاح حتى يخمدوا حالة تمرد وعصيان ظهرت من جديد بين العراقيين، ففى أبريل ١٩٤١ قامت منظمة سرية تحمل الاسم الحركى «المربع الذهبى» بانقلاب عسكرى واستولت على السلطة، وكان من بين هؤلاء المتآمرين فى ذلك الانقلاب رشيد الكيلانى ـ أحد أفراد أسرة سنية عريقة ووزير العدل الأسبق ورئيس الوزراء. واستبعد الانقلابيون الأمير الهاشمى عبد الإله الذى تولى إدارة الجهاز الحكومى بعد موت غازى نيابة عن الملك فيصل الثانى الذى كان يبلغ من العمر ست سنوات ليس إلا. كان أحد أهداف الانقلابيين هو استغلال الاضطرابات السائدة أثناء الحرب العالمية الثانية فى تنظيم انتفاضة ضد الإنجلين، وللقيام بهذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر عول الثوار على مساعدة ألمانيا الهتلرية ـ كما فعل ذلك أيضًا بعض أعداء الإنجليز فى تلك السنوات (راجع فى ذلك الفصل العاشر). وقد وجد هتلر الفرصة قد واتته بأرض العراق حتى يصيب الإنجليز فى نقطة حساسة من إمبراطوريتهم. وأصدر هتلر يوم ٢٣ مايو ١٩٤١ الأمر التالى:

مركز القيادة العسكرية للزعيم فى ٢١ مايو ١٩٤١
مهمة سرية لقيادة الجيش
توجيه رقم ٣٠:

١ ـ تعد حركة التحرر العربية فى الشرق الأدنى رفيقًا اتحاديًا طبيعيًا لنا ضد إنجلترا، وفى هذا الإطار نولى أهمية خاصة لثورة العراق، فهى تقوى وتدعم فيما يتجاوز الحدود العراقية القوى المعادية للإنجليز فى الشرق الأدنى...وتشغل القوات الإنجليزية ومجال السفن الإنجليزية لحساب مواقع حربية أخرى. لذلك عقدت العزم على دفع تطور الأحداث فى الشرق الأدنى إلى الأمام عن طريق تدعيم العراق. أما فيما يتعلق بإمكانية وكيفية الإيقاع بمركز الإنجليز فى المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط والخليج الفارسى ـ ارتباطًا بشن هجوم على منطقة قناة السويس ـ فى فخ نهائى، فذلك ما سنقرره بعد عملية بربارروسا (الهجوم العسكرى ضد الاتحاد السوفيتى).

٢ ـ إيماء إلى قرارى الفردى أصدر أوامرى بتقديم الدعم والمساعدة للعراق عن طريق القوات الجوية وإرسال بعثة عسكرية والإمداد بالسلاح...[٥].

تولى قيادة الفيلق الألمانى فى البعثة الاستكشافية التى صدرت إليها الأوامر من هتلر الميجور فون بلومبرج، وهو ابن المشير فون بلومبرج، وقد انتهت مهمته من قبل أن تبدأ بسوء حظ وقدر تراجيدى، فحين اقتربت طائرة بلومبرج من بغداد، كان هناك آلاف من البدو المسلح فى طريقهم إلى العاصمة لينضموا إلى ثورة الجيلانى ضد الإنجليز. ومن المحتمل أنهم اعتقدوا أن الطائرة الألمانية تابعة للإنجليز. ولكن أغلب الظن أن البدو ـ كما هى عادتهم فى التعبير عن الترحيب بالأصدقاء ـ قد أطلقوا النار فى الهواء للتعبير عن الفرحة. على أية حال أصيب الميجور فون بلومبرج إصابة بالغة أودت بحياته. ويمكن زيارة قبره حتى اليوم ببغداد.

انهارت ثورة الجيلانى فى غضون شهر، إذ قام الإنجليز بتجميع قوات من جميع أنحاء مملكتهم ـ من الهند وجنوب إفريقيا وأستراليا، وفرَّ رشيد الجيلانى ورفاقه ـ وكان من بينهم مفتى القدس الحاج أمين الحسينى ـ بادئ الأمر إلى إيران، ثم رحل الجيلانى إلى المملكة العربية السعودية، وانتهى به المقام بنزوله بالقاهرة. ولم يعد الجيلانى إلى بغداد إلا فى سبتمبر عام ١٩٥٨ عقب سقوط الأسرة الهاشمية، ويوجد فى بغداد حتى اليوم مسجد بديع فخم يحمل اسم عائلة الجيلانى.

في عام ١٩٥١ تعرضت الإمبراطورية البريطانية التى دخلت آنذاك مرحلة الأفول لزلزال اقتصادى وسياسى بالغ الشدة أصاب أحد مراكزها الحساسة فى إيران، ففى ١٥ مارس اجتمع «المجلس» - البرلمان - فى جلسةٍ تاريخية، بناءً على طلب إحدى اللجان البرلمانية، وهى لجنة النفط، وقرر مجلس الشعب تأميم شركة النفط الأنجلو إيرانية. وكانت القوة الدافعة خلف اتخاذ القرار الثورى هو رجل يقف على قمة تاريخ المقاومة ضد الهيمنة الغربية، وهو محمد مصدق الذى ولد عام ١٨٨٠، وكانت أمه إحدى أميرات أسرة القيارنة وأبوه ينحدر من عائلة كبرى ذات مكانة اجتماعية رفيعة أنجبت كثيرًا من الوزراء والمحافظين وكبار الموظفين فى الدولة[٦]. وكتب فيما بعد أحد الذين قاموا بزيارة مصدق وتأثروا به تأثرًا بالغًا: «إنه يستقبل الناس باحترام وتواضع وأدب جَمٍّ دون أن يقلل من مكانته وكرامته».

واصل الابن محمد تقاليد أبيه الذى اعتلى ذات يوم منصب وزير الخزانة، وبدأ وهو فى سن السادسة عشر فى إعادة تنظيم الإدارة المالية لإقليم خراسان، كما أنه كان ضمن أولئك الإيرانيين الثائرين الذين اعترضوا على الاتفاقية الأنجلو - إيرانية عام ١٩١٩، والتى بموجبها تجعل بلده خاضعةً للحماية البريطانية. ثم أصبح مصدق أحد المؤسسين لحركة «الجبهة الوطنية»، وسرعان ما ذاع صيته كأحد السياسيين المعروفين الذين يقفون بالمرصاد للنفوذ البريطانى المتزايد فى البلاد. ويحسب له على الأخص معارضته الشديدة لصدور الوثيقة التى عرفت باسم «الاتفاق التكميلى». وكان هذا الاتفاق يهدف إلى استكمال الاتفاق الذى عقده الشاه رضا مع الإنجليز عام ١٩٣٣ والذى بمقتضاه يحصل الإنجليز على أكثر من نصف أرباح بشركة النفط الأنجلو - إيرانية. أما الاتفاق الذى تم التوقيع عليه عام ١٩٤٩ فقد راعى مزيدًا من التحسين، أهمها ألا يقل نصيب إيران فى الربح عن أربعة ملايين جنيهًا إسترلينيًا كل عام، وقد رفضت المعارضة الوطنية هذا الاتفاق، كما رفض البريطانيون أى تعديل للاتفاق الجديد لصالح إيران.

لم يدرك كل من سفير بريطانيا بطهران ومدبرى السياسة فى الإمبراطورية البريطانية بلندن أن المعارضة الوطنية ضد السيطرة العليا البريطانية قد ازدادت لدرجة تصل إلى صعوبة القضاء عليها ببساطة. وأجبر البريطانيون الشاه الضعيف محمد رضا على تنصيب الجنرال على رازمارا، وكان وهو أحد الذين يتمتعون بقدر كبير من ثقة الجنرال هـ. نورمان شوارتسكوف، الأب - رئيسًا

للحكومة، وكانت المهمة الوحيدة المعين لها الجنرال هى: تنفيذ الاتفاق التكميلى، إلا أن الشعب كان يرى أن رازمارا ما هو إلا أداة لتنفيذ ما يريده الإنجليز؛ لذلك تم اغتياله فى ٧ مارس ١٩٥١، وفى ١٥ مارس ١٩٥١ أصدر البرلمان قرارًا بتأميم شركة النفط الأنجلو ـ إيرانية.

لم ترضخ بريطانيا العظمى فى تلك الأثناء لما وجه إليها من ضربة قاصمة وأجبرت الشاه على أن يقترح على طرح المجلس (البرلمان) رجلا من اختيارهم لمنصب رئيس الوزراء، وهو سيد ضياء، وكان الغرض من ذلك هو تجميع الأمور مرة ثانية لصالح البريطانيين. إلا أن الشخص الذى تم اختياره لم يكن سيد ضياء، بل كان محمد مصدق[٧]. ولم يستسلم البريطانيون مرة أخرى، حتى لو انتظرت ضربتهم المضادة عامين كاملين، وبدأت هذه الضربة بأن سعى الشاه فى أغسطس ١٩٥٣ تحت غطاء الإنجليز فى محاولة عزل مصدق عن رئاسة الوزراء. وبعد أن اعترض الآلاف من أنصار مصدق على ذلك الإجراء التعسفى المخطط له، اضطر الشاه أن يهرب من البلاد. إلا أنه لم يقض فى منفاه خارج البلاد وقتًا طويلاً، إذ قام أحد عملاء وكالة الاستخبارات المركزية CIA، وهو كيرميت روزفلت بتدبير انقلاب، أزاح على أثره الثائر على الهيمنة الغربية من السلطة، ودفع فى أوج الحرب الباردة بادعاء رخيص مبررًا وقوع الانقلاب، وهو أن مصدق شيوعى وأنه كان يتعين إخراج إيران من مجال نفوذ موسكو. وأدين رئيس الوزراء السابق مصدق على خيانته بالسجن لمدة ثلاث سنوات، ثم حددت إقامته بعد ذلك، وعاد الشاه من منفاه، إلا أنه لم يستطع البقاء فى منصبه دون تدعيم من أمريكا وبريطانيا.

حقق البريطانيون والأمريكان هدفهم المنشود، ووضعوا جدولاً تنسيقيًّا للمستقبل. فإذا لم يستطيعوا الاحتفاظ بأغلبية الأسهم بشركات النفط الشرق أوسطية، فعلى أقل تقدير يفرضون رقابتهم على أصحاب مصادر النفط.

وحكاية فرض الرقابة على النفط الإيرانى لم تصل بعد إلى نهايتها بالانقلاب العسكرى الذى دبرته وكالة الاستخبارات المركزية CIA. إنها الحتمية التاريخية المنطقية فى أن يأتى يومًا ما رجل يعود بالانقلاب المخابراتى الأمريكى إلى نقطة انطلاق عام ١٩٥٣. كان هذا الرجل هو آية الله الخمينى الذى طرد الشاه من البلاد عام ١٩٧٩ وتولى السلطة فى إيران وأخرج إيران ونفطها من دائرة الرقابة المفروضة من الغرب. كان تغير نظام الحكم على يد الخمينى بالنسبة للأمريكان

والبريطانيين بمثابة انهيار أحد الأعمدة الأساسية لنفوذهم فى المنطقة الهامة من الناحية الجيوإستراتيجية. وأحد أهم الأهداف بالأجندة السياسية للولايات المتحدة الأمريكية منذ ذلك الحين حتى وقتنا هذا والتى لم تتحقق بعد هو تغيير نظام الحكم فى إيران مرة أخرى، وحتى يمكن توضيح الأمور لحكام إيران فيما ينتظرهم بعد احتلال دولة العراق المجاورة، فقد جعل جورج بوش الابن من إيران جزءًا مركزيًا من «محور الشر». فقد أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية باحتلالها العراق الجار المباشر لإيران، وهذا النوع من حركة التصحيح للاستعمار الجديد الذى يعيد النظام القديم فى إيران إلى قواعده الأولى، غير مستبعد على المدى البعيد.

فحين انتزع صدام حسين لنفسه جميع السلطات فى العراق بعد انقلاب الخمينى، كانت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى على استعداد لغض الطرف عن السيرة الدموية فى ذلك الحين لحاكم العراق الجديد؛ وعليه سقطت الأسرة الهاشمية فى طى النسيان إلى حين؛ لأن صدام حسين استخدم كقوة مضادة للوقوف فى وجه إيران الثورية، وكانت الحرب التى ابتدأها صدام حسين فى سبتمبر ١٩٨٠ ضد الجار الإيرانى والتى استمرت سبع سنوات حصدت من خلالها أرواح نحو مليون ضحية، بالنسبة لمبدعى النظام الشرق أوسطى محل ترحيب، وحتى لا تقوم قائمة لإحدى القوتين النفطيتين المتنافستين على الخليج وتنشغل كلاهما بسفك دماء الأخرى.

استقبل قرار تأميم شركة النفط الأنجلو ـ إيرانية فى عام ١٩٥١ من شعوب المنطقة بفرحة كبيرة. وفى مصر شرع العقيد جمال عبد الناصر فى قراءة الأحداث واستلهامها، فهناك تم توجيه ضربة قاصمة ضد السيطرة البريطانية، حين أسقطت مجموعة «الضباط الأحرار» تحت زعامته عام ١٩٥٢ أسرة الملك فاروق الصديقة للإنجليز. كان هذا الانقلاب العسكرى أيضًا بمثابة رد فعل على العرض المخزى الذى يدعو للشفقه للجيش المصرى الذى أرسله الملك فاروق فى حرب الشرق الأوسط الأولى (حرب فلسطين) عام ١٩٤٨. وبحث النظام الجديد بقيادة اللواء محمد نجيب وجمال عبد الناصر فرض شرعيته على البلاد فى إطار رفض التدخل الأجنبى الأوروبى فى شئون البلاد. وهلل المصريون فرحة بفرعونهم الجديد. أخيرًا جاء من يحرك مشاعرهم ويحولها ضد التدخلات الغربية فى العالم العربى منذ عشرات السنين. واليوم ـ وبعد نصف قرن من ذلك

ـ يتساءل المصريون عما إذا كانت الدولة فى حاجة إلى ناصر جديد ـ أى إلى رجل يهز أركان الدولة التى صارت فى نهاية عصر حكم مبارك تحلم بذلك، رجل يحقق للفلسطينيين ما هو أكثر من كلمات جوفاء. إلا أن ذلك الملخص السياسى لم يظهر نجمه بعد. ويبدو أن العصور المليئة بالانتصارات قد أفل نجمها إلى الأبد حين حاول رئيس مصرى مع كل من اليوغسلافى جوزيف بروس تيتو، والهندى جواهرلال نهرو، والصينى تشاو ان لاى، والإندونيسى سوكارنو، فى أن يجعلوا حركة عدم الانحياز مشاركًا فعالاً فى السياسة الدولية. وفى أثناء هذا اللقاء للدول الخمس المظفرة فى مؤتمر دول عدم الانحياز بباندونج الإندونيسية عام ١٩٥٥، نصح تشاو ان لاى الرئيس المصرى ألا يضع كثيرًا من الثقة فى الأمريكان(٨).

رجوعًا إلى القاهرة، فقد تقدم ناصر خطوة إلى الأمام على طريق التحرر بعيدًا عن الغرب، واتخذ قراره بألا يشترى أسلحة بعد ذلك من القوى الاستعمارية القديمة، ولكن من إحدى الدول الشيوعية التابعة لموسكو ـ تشيكوسلوفاكيا. حدث فزع شديد فى إسرائيل وفرنسا وإنجلترا وأمريكا من هذه التجربة الجريئة فى إخراج مصر من مجال نفوذ الغرب. ولم ينتظرعبد الناصر طويلاً ضربة مضادة، إذ أعرب وزير الخارجية الأمريكى جون فوستر دالاس عن رفض بلاده تمويل المشروع المزمع لبناء السد العالى بأسوان. فقفز الاتحاد السوفيتى على الفور للدفاع عن المشروع.

أصدر عبد الناصر وهو فى أشد قوته قراره بتأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ والتى كانت تؤول ملكيتها لإنجلترا وفرنسا. وبهذا الحدث الذى يعبر عن التحدى والعناد انتهت البقية الباقية لحكم بريطانيًا الذى دام أربعًا وسبعين عامًا. أما التصرف اليائس من قبل المستعمرين القدامى والمتمثل فى الغزو البريطانى الفرنسى الإسرائيلى فقد انتهى بكارثة سياسية، واضطر الغزاة إلى سحب جيوشهم مرة أخرى بطريقة مهينة. فقد ولى إلى حين عصر الاستعمار لمصر بعد أن تعذر إعادته من جديد.

ولم تمر فترة طويلة حتى انتهى استقلال مصر مرة أخرى، صحيح أن مصر استمرت كدولة مستقلة، ولكن الهزيمة فى حرب الأيام الستة أمام إسرائيل فى يونيو ١٩٦٧ أنهت الدور الخاص الذى أرادت مصر أن تلعبه. ثم حاولت مصر تحت قيادة أنور السادات أن تمارس سياسة مستقلة غير تابعة للغرب. فقد أراد

السادات استعادة المناطق التى فقدتها مصر فى حرب ١٩٦٧، وعلى الأخص سيناء، فقام فى عام ١٩٧٣ بالهجوم على إسرائيل بالتنسيق مع سوريا. ثم استعادت مصر فى اتفاقية السلام مع إسرائيل التى تم التوقيع عليها فى كامب دافيد عام ١٩٧٩ أرض سيناء. وكان الثمن الذى كان لزامًا على مصر أن تدفعه هو عودة إدخال مصر فى مجال النفوذ الغربى. ففى أقل من ثلاثة عقود من طرد الملك فاروق انطوت صفحة الإرث السياسى لناصر.

وعلى أية حال فقد ظهر فى المنطقة مقلدون يسيرون على نهج عبدالناصر، فلم يكد يمر ست سنوات على انقلاب عبد الناصر فى مصر حتى أسقط فى العراق «ضباط أحرار» الأسرة الهاشمية التى جلبها الإنجليز إلى البلاد عام ١٩٢١ ونصبوا عبد الكريم قاسم رئيسًا على البلاد، استدعى هذا التمرد ظهور القوى الاستعمارية على الخريطة، والتى رأت فى الانقلاب العسكرى ببغداد تهديدًا لإستقرار لعمق الجبهة الاستعمارية بأسرها الواقعة بين البحر المتوسط والفرات والتى أسستها بعد عام ١٩١٧. ويعد لبنان على سبيل المثال أحد الأعمدة الأساسية المكونة لهذه الساحة الإستراتيجية. ولما رأى البريطانيون والأمريكان أن نظام الحكم المسيحى الخاضع لهم فى لبنان والمتمثل فى الرئيس كميل شمعون ببيروت معرضًا للخطر الذى يتهدده من قبل متمردى بغداد، قام الأمريكان بإرسال وحدات من الأسطول يجوب السواحل اللبنانية، وتأهب البريطانيون للسير نحو بغداد انطلاقا من الأردن التى أعطوها للهاشميين على سبيل الإقطاعيات. ومرت الأزمة بسلام، وإلى حين.

ويمكننا أن نفسر بقاء الرئيس حافظ الأسد فى سُدَّة الحكم لمدة ثلاثة عقود على أنه احتجاج، وإن كان من نوع آخر، على النظام الجديد الذى تم وضعه للشرق الأوسط. فقد انتهج الأسد فى الداخل حكم المستبد البشع، وفى نفس الوقت حاول أن يحافظ على استمرار استقلال سوريا. كان الأسد الذى يفكر بأبعاد تاريخية يشبِّه دائمًا إسرائيل التى خلقها الإنجليز بالدول الصليبية، وكان يأمل فى أن تختفى دولة اليهود أيضًا من المنطقة تمامًا مثلما اختفت الكيانات التى أوجدها ذات يوم الفرسان القادمون من الغرب. كان الأسد يشكو للزائرين الأجانب دائما وأبدا من شروط تحقيق السلام التى يمليها الحلفاء الذين حرموا سوريا والعرب من حق تقرير المصير، والذين لا يتورعون عن التدخل فى سيادة سوريا إذا كان ذلك يخدم مصالحهم. هكذا دبر رئيس الوزراء البريطانى هارولد

ماكميلان بعد عام من كارثة السويس عام ١٩٥٦ وبالتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية انقلابًا فى سوريا. وقد تخوف آيزنهاور وماكميلان من أن تفتح سوريا أبوابها على مصراعيها اضطرارًا أمام المعسكر السوفيتى. ومن ثم خططت أجهزة مخابرات كلتا الدولتين بناء على أوامر صدرت لها لتنفيذ أعمال تخريبية انطلاقًا من العراق ومن الأردن - حيث خضعت كلتا الدولتين لحكم الهاشميين الذين صنعهم الإنجليز، كما عملت أجهزة المخابرات على دفع ضباط متعاونين للقيام بانقلاب عسكرى(٩).

كانت مثل هذه المخططات الاستعمارية وغيرها تشكل مضمون حصص التاريخ التى كان حافظ الأسد يلقيها على وزراء الخارجية الأمريكان من أمثال وارين كريستوفر. وكان فى مقدور الأطراف المتفاوضة من أمثال هؤلاء أن ينشدوا نشيد الآلام المستفاد من حصص التاريخ الطويلة التى كان يلقيها الأسد على مسامع الدبلوماسيين الغربيين قبل أن يعرج إلى الحديث عن الموضوع المدرج فى جدول الأعمال، وكان هؤلاء الدبلوماسيين الحاضرين يضطرون على مضض إلى تحمل شرب المشروبات الخفيفة، فى حين كان حافظ الأسد الذى لا يكَل ولا يَمَل من أداء هذا العرض حتى يرقب مَن مِن ضيوفه سوف يتملكه الضجر أو الملل، أو مَن مِنهم سيعتذر بالذهاب إلى دورة المياه لكى يفلت ولو لفترة قصيرة من حصة التاريخ تلك، وقد أطلق كل من كان له نصيب فى الاستماع لهذه الدروس التى لا تنتهى على تكتيك الأسد «دبلوماسية المثانة».

كان حافظ الأسد أثناء حديثه فى صلب القضية دائم التنويه إلى أنه فى صيف ١٩٢٠ طالب تجمع الوفود والذى أطلق على نفسه «المؤتمر الوطنى السورى»، بإقامة دولة سورية تضم فى طياتها بلاد الشام التاريخية بأسرها، أى المنطقة التى تضم سوريا اليوم ولبنان الحالية وفلسطين والضفة الشرقية لنهر الأردن. وفى نفس الوقت طالب ممثلو الحاكم العسكرى البريطانى فى فلسطين بالانضمام إلى سوريا الكبرى هذه(١٠). إلا أن البيت الهاشمى الحاكم طالب هو الآخر بأجزاء من تلك الأراضى على الأقل، ولكى يحقق هذا الهدف فقد عمل على التعاون مع البريطانيين، على الرغم من الإهانة التى لحقت به عام ١٩١٦، ١٩١٧، وكان يتعين عليهم ألا يفقدوا تعاطف سلطة الاحتلال، ومن ثم فقد أيد الهاشميون المخططات البريطانية بشأن فلسطين، ففى عام ١٩١٨ نشر الشريف حسين بمكة مقالاً يرحب فيه باليهود فى فلسطين، كما حث العرب على التعاون معهم، وعلاوة

على ذلك فقد التقى فى أثناء الحرب العالمية الأولى كل من فيصل بن الحسين وحاييم وايزمان بعمان.

وقد وصفت باربارا توخمان هذا اللقاء الذى أضفت عليه قليلاً من الرومانسية قائلة: «هناك، فى خيمة فيصل وتحت سماء مزهرة بالنجوم ويحضور لورانس الموجود فى كل مكان... تم التوصل إلى القاعدة التى سيقوم عليها الاتفاق بشأن مستقبل الجزيرة العربية، لاسيما فلسطين»[١١].

ويطبيعة الحال كان هذا التعاون من جانب الهاشميين مع الصهاينة بالنسبة لرجل مثل حافظ الأسد بمثابة خيانة للقضية العربية، لذلك لم تكن علاقته طيبة تجاه جارته الأردن. كان حافظ الأسد منشغلاً على مدار العقود الثلاثة التى قضاها فى الحكم بمحاولات التغلب على الإرث الاستعمارى لسوريا، وذلك لأن الإنجليز اقتطعوا لأنفسهم من سوريا الكبرى التى طالب بها المؤتمر الوطنى السورى الضفة الشرقية لنهر الأردن وفلسطين، كما اقتطع الفرنسيون لبنان.

تحول لبنان هذا إلى جانب فلسطين وعلى مدار عقدين من الزمن إلى إشكالية كبرى فى عصر ما بعد الاستعمار. فلم يكن لبنان تحت سلطة الدولة العثمانية إلا من سلسلة جبال لبنان، ثم أراد المسيحيون المارونيون من سكان هذه الجبال ـ مثل اليهود ـ أن يكون لهم دولة خاصة بهم قادرة على الحياة. وحتى يمكن خلق كيان قادر على الحياة لهذه الدولة فقد ألحق الفرنسيون بجبال لبنان المناطق التى يسكنها المسلمون من أهل السنة بطرابلس وبيروت، وبذلك نشأت دولة ذات أغلبية مسيحية بنسبة طفيفة، وحتى عام ١٩٧٥ وهو العام الذى اندلعت فيه الحرب الأهلية تغيرت التركيبة السكانية بصورة قاطعة، فلم يعد المسلمون يمثلون أقلية وطالبوا بحقهم فى السلطة. إن مثل هذا التطور فى انتظار قضية إسرائيل ـ فلسطين، كما عرضنا فى الفصل الثالث، إذ يتمسك الإسرائيليون بامتيازاتهم، كما تمسك المارونيون بامتيازاتهم. وفى لبنان طالبت الأقلية السنية والشيعية بحقوقها، واليوم يطالب الفلسطينيون جنوب الخط الحدودى الاصطناعى بحقوقهم.

كان وصول مقاتلين فلسطينيين تحت قيادة ياسر عرفات إلى لبنان بمثابة تهديد مباشر للقيادة السورية. فياسر عرفات وحافظ الأسد صارا عدوّين لدودين، وذلك لأن حافظ الأسد ظل وفيًا لسياسته. فهو يعتبر لبنان جزءا من سوريا

الكبرى - وهو رد فعل غير إرادى على التقسيم الاستعمارى للمنطقة، ولم تتبادل الدولتان مطلقًا سفراء لهما، ولماذا؟ فحقيقة أن العاصمتين دمشق وبيروت لا تبعدان عن بعضهما البعض سوى ١٢٥ كيلومترًا فقط، يوضح لنا تمام الوضوح حتى يومنا لامعقولية المنطق الذى قام عليه النظام العالمى الاستعمارى الذى تأسس عام ١٩٢٢. واليوم يطالب الابن بشار الأسد، شأنه شأن أبيه حافظ الأسد، بحق ممارسة الرقابة العليا على كل المجريات فى بيروت وإن تعذر إدماج لبنان فى مملكة دمشق، فإنه لايريد على الأقل فقدان السيطرة على السياسيين اللبنانيين. وسوف تكون لبنان ساحة لتنفيذ مايصدر من قرارات فى دمشق، لاسيما فيما يتعلق بالمواجهة مع إسرائيل. وحتى الآن لم تفلح الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل فى تفتيت هذه الدولة المزدوجة «سوريا - لبنان» من الناحية السياسية، فليس من السهل على الإطلاق القضاء على جيب المقاومة المعادى للاستعمار فى دمشق.

وضع حافظ الأسد هدفًا واحدًا نصب عينيه فى إطار الحرب الأهلية اللبنانية: أن يكون هناك موطئ قدم سورية فى لبنان، وحتى يصل إلى هذا الهدف، وقف الأسد - رغم العداء مع ياسر عرفات - تارة بجانب الفلسطينيين وتارة أخرى بجانب المسيحيين، وتحولت لبنان إلى ساحة قتال بلاد العرب، وهذا دليل على أن النظام الذى وضعته قوى الاستعمار عقب الحرب العالمية الأولى لابد أن يؤدى إلى صراعات وصدامات متجددة من آن لآخر. وعند بلوغ الحرب مرحلتها الأخيرة قام صدام حسين بتدعيم المسيحيين المارونيين ضد خصمه وعدوه اللدود ياسر عرفات، وبذل ياسر عرفات قصارى جهده فى الدفع بلبنان إلى الهاوية والدمار، حين استغل هذه الدولة الهشة منذ ميلادها القابلة للكسر بسهولة مثل الزجاج، وجعلها قاعدة لحرب عصابات ضد إسرائيل. وحين أوشكت الحرب الأهلية على الانتهاء عام ١٩٩٠ كان عدد من لقى مصرعه من جرائها يزيد عن عشرة آلاف نفس بالإضافة إلى الخراب الذى لحق بالبلاد. فقد لاذ بالفرار الآلاف تاركين بيوتهم التى تربوا فيها مضطرين؛ لأن مسيحى المناطق الإسلامية ومسلمى المناطق المسيحية قاموا بمطاردتهم وملاحقتهم. وحتى اليوم لم يبرأ جسد لبنان من تلك الكارثة.

وقبيل نهاية حكمه وحياته - وكلا الأمرين يتطابق فى بلاد العرب فى أغلب الأحوال؟ شرع حافظ الأسد - وهو المناضل الذى وقف فى وجه الميراث

الاستعمارى - فى أن يتعايش على عكس طموحاته، مع النظام الذى وضعته القوى المنتصرة. فقد أيقن أن العرب أضعف بكثير من أن يغيروا النظام العالمى الجديد. فعرض الأسد السلام على إسرائيل. ولم يستطع الأسد أن يضيف خطوة أخرى إلا بشق الأنفس على تلك الخطوة السابقة التى تعد بالنسبة له عملاقة. وعاد كما كان دائمًا يسعى فى طريق حفظ الكرامة الوطنية لسوريا. ودلالة هذه الخطوة من الناحية العملية التطبيقية أن على إسرائيل أن تدفع الثمن مقابل السلام المعروض عليها من سوريا، وهو التنازل عن مرتفعات الجولان التى ضمتها إسرائيل إلى ممتلكاتها عام ١٩٨١ بما يخالف القانون الدولى وردها إلى سوريا. قدم الأسد هذا العرض عام ١٩٩٩.

وبعد عام ونصف من ذلك التاريخ قدَّم ابنه وخليفة عرشه بشار الأسد مرة أخرى نفس العرض، ولم يجد حتى اليوم صدًى إيجابيًا لذلك. على العكس تمامًا: لقد ظهر أيضًا لسوريا، شأنها فى ذلك شأن إيران والمملكة العربية السعودية والأردن، جار جديد - الولايات المتحدة الأمريكية. فحين قام وزير الخارجية الأمريكى كولن باول بزيارة جاره السعودى الجديد فى مايو ٢٠٠٣، لم يكن مرتديا معطف المفاوضات، ولكنه ظهر تقريبًا فى دور الحاكم الجديد. وعلى سوريا - هكذا نطقت الرسالة غير المشفرة على الإطلاق - أن تتكيف من جديد مع ذلك النظام السياسى المكانى الذى تم وضعه عام ١٩٢٠، وتم تدعيمه عام ٢٠٠٣ بقواعد جديدة.

الفصل السابع

أرئيل شارون ـ دروس غير مستفادة من الإرهاب

«يرجع السبب غير المباشر في السخط السائد في المنطقة إلى أن الشعوب العربية من كافة الطبقات والمعتقدات والمهن يعتريها شعور عميق بأن هناك ظلما وقع بها. وكنتيجة لذلك فإن العرب يجدون أنفسهم مدفوعين دفعًا إلى حالة من اليأس. فما تلك القلاقل التى بين أيدينا سوى تعبير عن فقدان الأمل».

من «مذكرات موظفين عرب»

بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٣٦[١]

أفسح العنف فى لبنان مجالاً لحالة من الهدوء السياسى تشبه حالة وقف إطلاق النار بين الطوائف المتصارعة؛ فالشيعة (الذين أصبحوا فى هذه الأثناء يمثلون السواد الأعظم فى التركيبة السكانية) والسنة والمارونيون يتصارعون حتى بعد مرور ستة عقود من حصولهم على الاستقلال، من أجل إيجاد صيغة تفاهم وطنى لدولة ليست طبيعية المنشأ. بينما تتواصل فى الجنوب، فى فلسطين التاريخية، الحروب التى ورثها الاستعمار بعنف لا تهدأ حدته؛ فاليهود والعرب، الإسرائيلون والفلسطينيون يتقاتلون من أجل الأرض، وحول رموز دينية مثل الأماكن المقدسة بالقدس، ومن أجل الهوية القومية لكل منهم ومن أجل الحفاظ على أرواحهم. لا شىء يعطى بريق أمل فى أن هذه الحرب الوجودية ستجد قريبًا نهاية لها، تعود نشأة المقاومة الفلسطينية فى بدايتها إلى مطلع العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. فماذا حدث اليوم بعد مرور أكثر من ثمانية عقود، لاشىء سوى طرح صيغة جديدة فى أغلب الأحوال من النزاعات المسلحة القديمة.

كان الوضع منذ البداية هشًا، لدرجة أن كل محاولة من أجل إحداث تغيير الحالة الراهنة تنتهى إلى اللجوء للعنف ـ لاسيما فيما يتعلق بقضية القدس. وإن

كان العرب لم يعلموا بتصريح بلفور إلا فى وقت متأخر، إلا أن مضمونه كان بطبيعة الحال معروفًا لهم من قبل، ولم يمر وقت طويل حتى صار التوتر يتصاعد بصورة مطردة متحولاً إلى عنف، فبينما كان المسلمون يحيون احتفالا سنويًا تكريمًا وتشريفًا لموسى الذى هو أحد أنبيائهم، وإذا ببعض المسلمين يعصفون فجأة فى أبريل عام ١٩٢٠ بالحى اليهودى بالقدس ويهجمون عليه، فلقى تسعة أشخاص مصرعهم وجرح ٢٤٤ شخصًا، وكان أغلب الضحايا من اليهود، وتحيز رجال الشرطة العرب للمتظاهرين وتراجعت سلطة الانتداب البريطانى وكأن لا علاقة لها بما حدث[٢]. وقام الإنجليز فى نهاية الأمر بتشكيل لجنة تحقيقات برئاسة الجنرال بالم (Palm). وجاء فى تقرير اللجنة الذى لم ينشر سوى عام ١٩٦٨ أن سلطة الانتداب البريطانى تواجه شعبا تكرس لديه شعورًا «بالظلم والآمال الخادعة». يسيطر على هذا الشعب (العربى) شعور بالغ بالقلق على مستقبله، لاسيما أن هؤلاء البشر أصيبوا بخيبة أمل لأن الوعود التى أُعطيت لهم أثناء الحرب فى إقامة دولة عربية مستقلة لم يتحقق منها شىء[٣].

ظلت القدس مركزًا لعمليات المقاومة. وتقدم حاييم وايزمان، وهو زعيم «المؤتمر العالمى للصهيونية» منذ عام ١٩٢٠، بطلب للإنجليز لوضع حائط المبكى بالقدس تحت الإدراة اليهودية. وكانت حجته التى دفع بها فى هذا الشأن أن المبانى التى تحيط بهذا المكان المقدس اليهودى فى حالة يرثى لها من القذارة والسوء. وأضاف قائلاً: إن المنطقة فى حوزة «طائفة دينية مريبة» (وكان يقصد بذلك المسلمين). كان اليهود على مدى قرون طويلة يؤدون صلواتهم عند حائط المبكى، وهو ما تبقى من الهيكل اليهودى الثانى[٤]. إلا أن المسلمين شيدوا أعلى ذلك السور، حيث كان الهيكل يتواجد فيما مضى، بعد احتلالهم المدينة قبة الصخرة والمسجد الأقصى. واليهود يطلقون على هذا المكان جبل الهيكل، أما المسلمون فيسمونه «الحرم الشريف» وهى منطقة مقدسة. احتج المسلمون العرب ضد مطالبة حاييم وايزمان بوضع الرموز المقدسة فى العقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامى تحت رعاية اليهود النازحين، فحدث ما كان يمكن التنبؤ به: لقد حل العنف بالديار. كان العرب يسيرون فى الشوارع ويلاحقون اليهود بالمطاردة، أما اليهود فدعوا للقيام بمظاهرات مضادة لهذه الأفعال، وامتدت فى يوم ٢٣ أغسطس القلاقل لتشمل مدينة «حيبرون» (التى يطلق عليها الفلسطينيون اسم مدينة «الخليل») الواقعة جنوبى القدس. وانتهى الأمر بمذبحة وحشية ليهود

الخليل، وحين شارف اليوم الحزين على الانتهاء، كان الموت البشع قد حصد حياة ٦٧ يهوديًا. وقام مجموعة من الغوغاء العرب بخصى كل من الحاخام مائير كاستل البالغ من العمر ٦٨ عامًا والحاخام زئيفى درابكين وخمسة شبان يهود آخرين. وتم حرق أحد الخبازين اليهود وكان يدعى نوح إمرمان. وكان من بين القتلى أيضًا الصيدلى ابن زيون جيرزهون وكان معوقًا. ورغم ذلك فهناك حقيقة لم يذكرها على الإطلاق السياسيون والمستوطنون اليهود الذين يذكرون اليوم مذبحة الخليل كدليل على وحشية وانعدام إنسانية العرب، وهى: أن معظم اليهود بالخليل تم إنقاذهم من المذبحة؛ لأن العرب قاموا باخفائهم فى منازلهم[٥].

لم يكن سبب المذبحة مطلقًا عداء عربى متأصل للساميين، ويمكن استجلاء هذه الحقيقة من تقرير تلك اللجنة التى نصبها البريطانيون رئاسة السير والتر س. شو Sir W.S.Shaw . جاء فى تقرير اللجنة يوم ٣٠ مارس ١٩٣٠ ما يلى:

«شهدت العشر السنوات الماضية ثلاث هجمات خطيرة شنها العرب ضد اليهود. ولايوجد فى الثمانين عامًا قبل الهجمة الأولى دليل ثابت على حدوث وقائع مشابهة... وقد أوضح ممثلو جميع الأطراف أن العرب واليهود كانوا يعيشون قبل الحرب جنبًا إلى جنب، وإن لم تكن هناك صداقة تربطهم، إلا أنهم كانوا يعيشون على أقل تقدير فى تسامح (متبادل) وهى صفة تكاد تنعدم اليوم فى فلسطين». وذكر التقرير بعد ذلك أنه يتعين على الحكومة البريطانية أن توضح سياستها فى فلسطين من خلال تصريح مبدئى، وأنه يتعين على بريطانيا العظمى أن تمنع بصفة خاصة الهجرة اليهودية «التى تجاوزت كل الحدود» على نحو ما حدث عامى ١٩٢٥ و١٩٢٦. كما يتعين الاستماع إلى الأصوات غير اليهودية عند مناقشة أى هجرة أخرى لليهود.

شعرت سلطة الانتداب البريطانى بالصدمة مما احتواه تقرير المستر شو، إلا أنه لم يكن هناك أدنى استعداد لدى الإنجليز أو من جانب الصهاينة المدعومين من قبلهم لتفسير المصادمات الدامية التى عاشتها فلسطين منذ عام ١٩٢٠ على أنها علامة من علامات السخط واليأس أصابت السكان العرب بفلسطين. بل حدث العكس، إذ وصلت الهجرة اليهودية إلى فلسطين فى الثلاثينيات من القرن العشرين ذروة جديدة وبتصريح من البريطانيين. كان تنامى الفقر بين أهل البلاد من العرب هو إحدى عواقب ذلك الأمر، كما أن بيع الأراضى أخذ فى الازدياد، وفقد كثير من العرب أعمالهم. وقد أدى الغضب والاستياء المتزايد بين السكان

الأصليين للبلاد فى نهاية الأمر إلى اندلاع أول انتفاضة عربية استمرت ثلاثة أعوام من عام ١٩٨٧ إلى ١٩٩٣.

كان أول من أشعل فتيل الانتفاضة هو عز الدين القَسَّام، وهو أول مناضل فلسطيني على درجة من الأهمية ويمكن وصفه برائد المقاومة السابق على ياسر عرفات. درس عز الدين القسام بجامعة الأزهر بالقاهرة حيث تعرف على الإمام محمد عبده - أهم المصلحين وأحد العلماء المصريين المشاهير - ثم حارب فى سوريا ضد الاحتلال الفرنسى حتى صدر ضده حكم بالإعدام نظير تمرده وعصيانه، فأخذ يبحث عن ملجأ آمن حتى وجد فى النهاية ملاذًا فى مدينة حيفا[٦]. صار عز الدين القسام «شهيدًا» كما يطلق الفلسطينيون ذلك على كل من يسقط من أهلهم فى ميدان المعركة. ولم يكن هذا الفدائى الأول الذى قاوم استعمار فلسطين وعاند المحتلين، لم يكن فلسطينيًا، بل كان سوريًا. ورغم ذلك فهو المثل الأعلى لفلسطين، وهو رمز تلك المجموعة، التى تطلق على نفسها «حركة المقاومة الإسلامية» (حماس). نشأت حماس إبان الانتفاضة الفلسطينية فى الفترة من عام ١٩٨٧ وحتى عام ١٩٩٣. وقد أطلقت حماس اسم الشيخ السورى على جناحها العسكرى - كتائب عز الدين القسَّام.

تصاعدت موجات الهجرة اليهودية فى السنوات التى تلت مذبحة الخليل بشكل درامى كما رأى العرب - رغم توصيات لجنة السير شو بضرورة تقييد تلك الهجرة أو على أقل تقدير التنسيق مع العرب. ففى عام ١٩٣١ نزح إلى فلسطين ٤٥٦٥ يهوديًا، وبعد عام وصل العدد إلى ٩٥٥٣. وفى عام ١٩٣٤ نزح إليها ٤٢٣٥٩ مهاجرًا يهوديًا. وفى عام ١٩٣٥ حققت الهجرة اليهودية رقمًا قياسيًا، حيث بلغ عدد المهاجرين اليهود ٦١٨٥٤ يهوديًا[٧].

ورغم استمرار احتجاج السكان الأصليين على هذا النزوح، فقد أصيب البريطانيون واليهود بالذهول والدهشة التامة حين تحصن فجأة فى نوفمبر ١٩٣٥ فدائيون فلسطينيون تحت قيادة الشيخ عز الدين القَسَّام بالمرتفعات المحيطة بمدينة جنين وباتوا طوال الليل يهاجمون البريطانيين واليهود، (ومعسكر اللاجئين فيما بعد بجنين أصبح فى أبريل ٢٠٠٢ مركزًا لعمليات قتالية بالغة الشدة بين الفدائيين الفلسطينيين والقوات الإسرائيلية). ورفض الشيخ القسَّام الاستسلام فأطلق عليه وعلى مرافقيه النار بعد بضع ساعات من القتال ولقوا مصرعهم.

كان استشهاد الشيخ القسَّام، بتعبير الفلسطينيين، في واقع الأمر بمثابة الفتيل الذي أشعل الانتفاضة التي تلت موته، ففي ١٥ أبريل ١٩٣٦ قام بعض العرب على الطريق الواصل بين نابلس وطولكرم بالسطو على بعض الأهالي وبعض الأوروبيين وقتلوا اثنين من اليهود، وبعد فترة قصيرة قتل اثنان من العرب المقيمين بالقرب من هذا المكان، وكان ذلك على الأرجح بمثابة عمل انتقامي يهودي، وكما كان الحال في انتفاضة عام ١٩٨٧ فقد اندلعت انتفاضة عام ١٩٣٦ بصورة عفوية دون وجود هيكل قيادي فوقي. ويعزى اندلاعها إلى السخط العام الذي ساد بين العرب على وضعهم المعيشي المتدهور في جميع الأنحاء.

وكما كان رد فعل ياسر عرفات في عامي ١٩٨٧/١٩٨٨ فقد لبَّى أيضًا الحاج أمين الحسيني - مفتي القدس وزعيم الفلسطينيين بعد ذلك - نداء الثوار. كان الحاج أمين الحسيني قد تم اختياره من المندوب السامي البريطاني السيرهربرت صمويل - وضد معارضة الكثيرين، لاسيما الصهاينة؛ ليكون مفتي البلاد، أي الزعيم الديني لمسلمي فلسطين. وقد صعد نجم الحسيني في الاضطرابات التي اندلعت ضد البريطانيين والصهاينة عام ١٩٢٠. إلا أن السير صمويل عقد آماله على ربط الحاج أمين الحسيني بنظام الانتداب البريطاني عن طريق ترقيته لدرجة مفتي الديار الفلسطينية، وترويضه من خلال ذلك. لكن هذا التقدير لم تثبت صحته، كما أظهر التاريخ ذلك.

وفي أثناء الانتفاضة قام المفتي بتشكيل «اللجنة العربية العليا» التي كانت تتولى تنسيق وقيادة الثوار، ولاقت هذه اللجنة تدعيمًا وتأييدًا من كافة جماعات المعارضة ومن الجماعات الدينية الفلسطينية الإسلامية والمسيحية، وقد ظهرت مرة أخرى لجان تشبه هذه اللجنة في الانتفاضة الأولى (١٩٨٧-١٩٩٣) ومع بداية الانتفاضة الثانية (سبتمبر ٢٠٠٠). ولم تكن هذه الانتفاضة مجردة من أعمال العنف مثلما حدث مع انتفاضة عام ١٩٨٧. فقد تم قتل بعض اليهود بصورة عشوائية، كما اندلعت أعمال تخريبية في المنشآت العامة. ومن وقت لآخر فرض الثوار سيطرتهم على أراضي بأكملها وقاموا بتحصيل الضرائب الخاصة بها. وبذلك صارت سلطة الانتداب الإنجليزي مهمشة.

وكما هي عادة القوى التي تتعرض في مثل هذه المواقف للأزمات، فقد بعثت بريطانيا العظمى بلجنة مرة أخرى - هذا ما يمكن أن يقال في قضية فلسطين. واقترحت هذه اللجنة (لجنة الحماية الملكية) في ٢٧ يونية عام ١٩٣٧ تقسيم

الدولة وطالبت بحظر الهجرة اليهودية، وحظر بيع الأراضى إلى اليهود وبإقامة حكومة وطنية[٨]، كما طالبت بإنهاء الانتداب البريطانى على فلسطين. فمن أسباب الانتفاضة ـ والاضطرابات، كما جاء فى التقرير الذى يميل إلى التحفظ ـ رغبة العرب فى الاستقلال، والخوف من تأسيس وطن يهودى، وفوق ذلك وتلك الضغط الذى يمارسه يهود العالم على فلسطين؛ فهذا الضغط له أسبابه التى ترجع إلى ما لاقاه اليهود من معاناة فى وسط وشرق أوروبا منذ عام ١٩٣٣.

ورغم ذلك استمرت الانتفاضة التى يطلق عليها العرب اسم «الثورة العربية الكبرى». وانضم إلى عرب فلسطين متطوعون من سوريا ولبنان والعراق والأردن. واضطر البريطانيون واليهود النازحون للتحول إلى موقف الدفاع، مما اضطر بريطانيا العظمى فى نهاية الأمر إلى إعادة احتلال فلسطين على أرض الواقع. وحين وصلت الثورة عام ١٩٣٩ إلى محطتها النهائية عنوة، كان عدد من فقدوا حياتهم من العرب خمسة آلاف فرد، بالإضافة إلى ١٤٠٠٠ جريح. كما لقى ٤٦٣ يهوديًا مصرعهم، وقتل من البريطانيين ١٠١ شخصًا[٩]. ثم حدث انكسار للانتفاضة الفلسطينية لسنوات، وبعد تسع سنوات لم يكن فى استطاعة العرب الفلسطينيين فى حرب الشرق الأوسط الأولى عام ١٩٤٨ الدخول فى حرب.

لقد وجد الإرهاب المحيط بكل مكان والصادر عن الانتفاضة الفلسطينية فى الفترة من عام ١٩٣٦ وحتى ١٩٣٩ قرينه متمثلاً فى إرهاب منظمات يهودية سرية مثل تلك المجموعة الإرهابية التى دخلت التاريخ باسم «عصابة شتيرن» و«عصابة إرجون» والتى ترجع إلى إبراهام شتيرن وهو صهيونى ولد ببولندا، وهاجر إلى فلسطين عام ١٩٢٥. كما واصلت حركة «إرجون زفاى لويمى»، أى (المنظمة القومية العسكرية) وحركة «لحى ـ LEHI» أى (المقاتلون من أجل حرية إسرائيل) نشاطهما سياسيًا وعلى الأخص عسكريًا، وهو ما نادى به فلاديمير جابوتنسكى الذى توفى عام ١٩٤٠. وقد علّم جابوتنسكى هؤلاء أن أى شعب يتعين عليه أن يسلم أرضه لآخر سيقاتل ضد سلب الأرض. كان أحد أتباع جابوتنسكى مهاجرًا يهوديًا يحمل اسم فلوفيتش بيجين، الذى ولد عام ١٩١٣ فى مدينة بريست ـ ليتوفيسك الروسية ودرس الحقوق بجامعة وارسو ثم أصبح رائدًا للحركة الشبابية المعروفة باسم «بيتار» والتى بذلت كل مساعيها من أجل إقامة دولة يهودية على جانبى نهر الأردن، ثم وصل بيجين عام ١٩٤٢ إلى فلسطين بطرق التفافية. كل ما أبداه بيجين من وجهات نظر كان يتطابق مع أفكار جابوتنسكى،

مما أفسح له المجال لخلافة المرجع المتوفى. والتحق بيجين بحركة «إرجون» وأصبح قائدها فى الأعوام من ١٩٤٣ وحتى ١٩٤٨.

فى الفترة التى تولى فيها بيجن قيادة منظمة «إرجون» ارتكبت أبشع الأعمال الإرهابية اليهودية. ففى يوم ٢٢ يوليو ١٩٤٦ وقبل سنتين تقريبًا من تأسيس دولة إسرائيل أصدر أوامره بالقيام بعملية إرهابية على فندق الملك داود بالقدس. ولم يكن هذا الفندق إحدى النزل الأكثر شهرة ورونقًا ووجاهةً فى الشرق الأوسط فحسب، بل كان أيضًا بمثابة مركز العصب لإدارات الانتداب البريطانى فى فلسطين، حيث كان يضم أحد أجنحته مكاتب موظفين بريطانيين مدنيين وعسكريين، وقد أيقن القائد العسكرى لجماعة «إرجون» مناحم بيجين أن البريطانيين متعبون ومتكاسلون فى أداء أعمال الانتداب فى فلسطين وأن القيام بعمل اعتدائى على الفندق سيشعل بأى شكل حماسهم وشغفهم فى التخلى عن السلطة ومسئوليتها فى فلسطين - وبذلك يمكن إسراع الخطى على طريق إقامة دولة إسرائيل، فشرع بيجين فى رسم الخطة وجعل محاربيه يرتدون ملابس تنكرية ويظهرون فى صورة عرب - ويركبون إحدى سيارات النقل وادعوا أنهم ينقلون ويوردون ألبانًا. إلا أن حاويات الألبان كانت تحتوى على مواد متفجرة بالكيلوجرامات، وبمجرد أن قام رجال بيجين بتنفيذ التفجير كان أحد الأجنحة بالمبنى الضخم قد انفصل عما تبقى من الفندق. وقد لقى حوالى تسعون إنجليزيًا وعربيًا ويهوديًا مصرعهم فى قلب جحيم العملية الإرهابية.

وبعد مرور عامين على ذلك الحدث الإرهابى، وبالتحديد يوم ٩ أبريل عام ١٩٤٨ أغارت منظمتا «إرجون» و«شتيرن» على قرية دير ياسين العربية، التى تقع فى المحيط الخارجى للقدس وتبعد خمسة كيلومترات فقط عن إدارة الانتداب البريطانى بقلب المدينة. وقد حصد الموت فى هذه العملية حوالى ٢٤٥ إلى ٢٥٠ نفسًا بشرية، وهناك أبحاث جرت بعد ذلك تفيد بأن عدد قتلى دير ياسين بلغ نحو ٣٥٠ ضحية. كانت منظمتا «إرجون» و«شتيرن» تعملان بموافقة ما يسمى بالجيش اليهودى الرسمى المعروف باسم «الهجاناه»، قد أقر الهجاناه بمسئوليته عن هدم القرية التى تقع على نقطة إستراتيجية هامة، لكنه أنكر مسئوليته عن عمليات الذبح والقتل فى قرية دير ياسين. ولم يرغب رجال بيجين ترك موقع المذبحة دون وضع علامة ذات دلالة؛ وفاءً بتعاليم المثل الأعلى فلاديمير جابوتنسكى الذى كان يعتقد بأنه لن يساعد على نجاح الصهيونية سوى القتال

العنيف المرير، وما يجب أن يقترن بذهن العرب هو أن الفرار من البلاد أفضل من المقاومة المسلحة. وانطلاقًا من هذا المبدأ فقد كان الغرض من مذبحة دير ياسين هو توجيه رسالة مؤداها أن مرحلة جديدة قد بدأت، وقد تبنى بعد ذلك مناحم بيجين بنفسه هذا الموضوع، حين كتب مايلى عن مجرى سير حرب الشرق الأوسط الأولى عام ١٩٤٨: «والعرب فى جميع أنحاء البلاد الذين استمعوا للحكايات الضارية عن قسوة ووحشية جماعة إرجون، سيستحوذ عليهم الخوف وينجون بأنفسهم من ذلك، فهذا الفرار الجماعى سيتحول قريبًا إلى نوع من الذعر الجنونى لا يمكن السيطرة عليه. ولم يبق هناك من الـ ٨٠٠٠٠٠ عربى الذين عاشوا على إقليم إسرائيل الحالى، سوى ١٦٥٠٠٠ نسمة»[١٠].

لم يمض سوى خمسة أشهر على مذبحة دير ياسين حتى أشعلت جماعة «شتيرن» نارًا أخرى حين اغتالوا مبعوث الأمم المتحدة الجراف فولكى بيرنادوتى. كانت الأمم المتحدة التى بعثت الحياة فى إسرائيل بقرار التقسيم عام ١٩٤٧، قد كلفت السويدى أن يرافق ميلاد الدولة الجديدة وأن يجد حلاً وسطًا بين إسرائيل والعرب الفلسطينيين والأردن، وطالب الملك عبد الله الأول بحقوق إقليمية على القسم الخاص بفلسطين الذى خصصته الأمم المتحدة للعرب، لاسيما الفلسطينيين منهم. وبمجرد وصول برنادوتى فى مايو ١٩٤٨ انطلقت سيارات جماعة «شتيرن» فى شوارع القدس حاملين لافتات كتب عليها: «ستوكهولم لكم والقدس لنا» و«نحن هنا... وعندما يظهر عدو لقضيتنا فلا تزال هناك رصاصة له فى مخزننا». لقد أرادت جماعة «لحى ـ LEHI» من وراء عملية الاغتيال إحباط مسألة تدويل القدس التى تحمس لها برنادوتى وكذلك عرقلة إسناد إدارة المناطق الفلسطينية إلى الأردن.

مقاومة ـ عنف ـ إرهاب، هكذا بدأ الصراع العربى اليهودى فى عام ١٩٢٠ وتواصل دون انقطاع حتى بعد تأسيس دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨، والأسباب لاتتغير أبدًا، فالعرب قلقون على مستقبلهم وعلى وجودهم المجرد من كل معنى. لقد عارضوا بكل السبل النظام الذى فرضه الغرب عليهم بعد انتهاء الحرب، وهو الذى لم يلبس ثيابًا جديدة عقب انتهاء الحرب الثانية ولم يتغير فى جوهره عما فُرض بعد الحرب الأولى. وحقيقة الأمر أن كل تغير عقب عام ١٩٤٨ كان معنيًا باستكمال خطط عامى ١٩١٩/ ١٩٢٠ ليس إلا؛ فلبنان أصبحت عام ١٩٤٣ دولة قائمة بذاتها، وكذلك الأردن فى عام ١٩٤٦، كما صارت فلسطين منذ عام ١٩٤٨

وطنًا يهوديًا، وفاء بالوعد الذى وعد به اليهود، واكتملت فيه مقومات الدولة تقريبًا، إلا أن كل هذه الدول بقيت على علاقة تبعية وثيقة مع مؤسسيها البريطانيين والفرنسيين.

وحتى يومنا هذا يرفض كثير من الناس هذه الصيغ التى تمليها المعاهدات المفروضة ـ لاسيما فيما يتعلق بفلسطين ـ لذلك فالإرهاب لم يصل بعد محطته الأخيرة مع تأسيس دولة إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ومع وقف إطلاق النار بين الدول العربية وإسرائيل فى عام ١٩٤٩. صحيح لا يوجد حتى الآن مقاومة فلسطينية منظمة مسلحة، إلا أننا نرى من حين لآخر ودون توقف متطوعين عرب يصلون إلى إسرائيل من الضفة الغربية التى ضمتها الأردن إليها، لينفذون عملياتهم واعتداءاتهم، ويأتون بالتحديد من المنطقة المحيطة بقرية قبية، وعندما تكون ظروف الرؤية الجوية واضحة فإن هؤلاء يتجهون بأبصارهم من قبية نحو الغرب، بل إن تل أبيب ذاتها تقع فى مرمى بصرهم. كان أهل قبية قبل نصف قرن ينظرون إلى إسرائيل اليوم على أنها فلسطين المحتلة، أما اليوم فالحال يختلف عنه بالأمس، حيث يعترف معظم الفلسطينيين بدولة إسرائيل.

ولم تكن الأعمال الإرهابية التى خرجت من منطقة قبية ومناطق أخرى فى اتجاه دولة إسرائيل الجديدة ـ لم تكن نادرة الحدوث، ففى أكتوبر عام ١٩٥٣ وقع حادث اغتيال لسيدة إسرائيلية وطفليها فى مستوطنة ياهود، على يد فدائيين عرب قادمين من الأردن، وفى ليل الرابع عشر وصبيحة اليوم التالى من أكتوبر ١٩٥٣ حان موعد الرد الانتقامى على هذه الواقعة، لم ينظم وينفذ لهذه الضربة الثأرية شخص آخر سوى أرئيل شارون. وقد وصف شارون فى مذكراته تفاصيل عمليته ضد قبية ـ ومن وجهة نظره[١١]. قائلاً:

«سيصبح هذا الهجوم أول رد فعل إسرائيلى كبير على الإرهاب العربى. لا أحد كان فى استطاعته التنبؤ بأن نجاح العملية يمكن أن يحدث تأثيرًا فعالاً كرد فعل على موجة القتل والتخريب، ولكن السلبية والشكوى بالطرق الدبلوماسية لم يكن لها أى فاعلية وكان من الضرورى أن نبحث عن إجابة».

وكتب شارون عن أهدافه ما يلى: «كانت الأوامر واضحة، لابد أن نلقن قبية درسًا، كان يتعيَّن على أن أُلحق بفرق الحراسة الوطنية العربية وبالتعزيزات

القوية التى سيجلبها الجيش الأردنى خسائر فادحة بقدر ما أستطيع، خططنا لنسف كل منزل كبير فى القرية، واتخذنا قرارًا بذلك على أعلى المستويات. فالأردنيون يجب أن يعلموا جيدًا أن الدم اليهودى لا يمكن أن يضيع فى المستقبل سُدَى ودون عقاب».

وأما فيما يتعلق بالاعتداء والهجوم ذاته، فذلك عبر عنه شارون بالكلمات التالية: «كان التوقيت منتصف الليل وبدأنا بنسف المبانى الكبرى المشيدة بالأحجار فى القرية... أرسلنا أفرادًا للاستطلاع وللتأكد من أنه لايوجد أحد بداخل المبانى على الإطلاق، ثم أشعلنا فتيل المادة المتفجرة، وجدنا صبيًّا شابًّا كان يختفى فى ركن أحد المنازل، فأحضرناه فى مكان آمن بعيدا عن النيران. وبعد بضع ساعات... استمعت إلى إذاعة الأردن التى أذاعت خبر الغارة. ووفقًا للخبر المذاع فقد لقى ٦٩ شخصًا مصرعهم وكان أغلبهم من المدنيين وكان من بينهم كثير من النساء والأطفال. لم أكن أصدق أذنى عند سماع الخبر، وبدأت أفهم ما يمكن أن يكون قد حدث... فالأسر العربية لم تلذ بالفرار وقت الاعتداء، ولابد أنهم ظلوا داخل بيوتهم. ففى هذه البيوت الكبيرة المشيدة بالأحجار والتى يمكن أن يعيش بداخلها ثلاثة أجيال لعائلة واحدة، كان من السهل عليهم الاختباء بسهولة فى بدرومات منازلهم وداخل الحجرات الخلفية... وكانت النتيجة هذه المأساة».

لقد وقع شارون فى وصفه للأحداث فى خطأ تجميلى: فالمنازل العربية فى عمومها لا يوجد بها بدرومات ولا يوجد بها حجرات خلفية يحتمى أو يختبأ بها. وقد تعرض شارون بعد مذبحة قبية مباشرة لنقد عام فى بلده. وبعد ذلك تبين للمقدم فاجن بينيك، رئيس أركان حرب لجنة المراقبة التابعة للأمم المتحدة الراعية لاتفاق وقف إطلاق النار عام ١٩٤٩ (UNTSO)، ما كتبه فى تقرير وجهه لمجلس الأمن الدولى فى نيويورك - حيث ضمن تقريره ما يلى: «والأجسام المصابة بأعيرة نارية والملقاه بقرب أبواب الخروج والدخول من المنازل وكذلك الطلقات التى اصطدمت بأبواب المنازل المتهدمة، تفسر بوضوح أن سكان المنازل أرغموا على البقاء داخل منازلهم، فى الوقت الذى انفجرت منازلهم على رءوسهم»[١٢].

سجل رئيس الوزراء الإسرائيلى موشى شاريت فى هذا التوقيت يومياته، وتضمنت إحداها السطور التالية المدونة بتاريخ يوم الجمعة الموافق ٦ أكتوبر

عام ١٩٥٣: «عندما غادرت منزلى بعد تناولى الطعام، وصلنى مظروفان... أبلغنى السيد فرانسيس إيفانس، السفير البريطانى، باسم حكومة جلالة الملكة خطاب إدانة حادة وشديدة اللهجة بشأن العملية المفزعة فى قرية قبية. «ثم بعد عدد من السطور كتب موشى شارت: «لم أتصور أن سفك دماء على هذا النحو كان سيحدث. لقد فكرت فى عمل ثأرى من النوع القديم الذى أصبح روتينيًّا، وكنت حتى أعترض على مثل هذه الأعمال الانتقامية، ولو كان لدى أى سبب يجعلنى أتخوف من مثل تلك المذبحة، لكنت أقمت الدنيا وأقعدتها (كى أحول دون وقوع هذه المذبحة)»[١٣].

فالعنف لا يولد إلا عنفًا ـ وحتى بعد ذلك بعشرات السنين، وعلى التقريب فى نفس يوم المذبحة ولكن بعد أربعين عامًا من عام ١٩٥٣ قام أحد سكان قبية بتوجيه سيارته التى يقودها مملوءة بمواد متفجرة، وسار بها فى منطقة المستوطنة الإسرائيلية بيت آيل بالقرب من رام الله، نحو نقطة عسكرية إسرائيلية. وقد عقد الرجل الذى اقتاد السيارة الملغمة العزم على قتل أكبر عدد ممكن من الإسرائيليين، ولكن هذه الخطة لم توفق ولم يقتل سوى إسرائيلى واحد كما قتل السائق المهاجم نفسه، بالإضافة إلى جرح ستة أفراد آخرين.

كان مرتكب العمل الهجومى هو سليمان مصطفى حسن الذى ولد بعد عامين من مذبحة شارون فى قبية، وشبَّ وهو يعلق بذاكرته حمام الدم، كان يعمل فى إحياء حفلات الأفراح مع مجموعة من الممثلين الهواة، وكانت هذه المجموعة غالبًا ماكانت تقدم مشاهد من مذبحة قبية فى عروضها، وكان سليمان مصطفى حسن يتقلد فى هذه العروض التمثيلية دور أحد الجنود الإسرائيليين الذى قتل فلسطينيين[١٤]. ومع مرور الزمن أصبح سليمان مصطفى حسن رجلاً له كثير من المعجبين فى قبية حتى لقبه الناس تشريفًا لمكانته بلقب «الشيخ». ولكن ما لم يعرفه الكثيرون: أن مصطفى حسن كان قد التحق بحركة المقاومة المعروفة بحماس، فمذبحة شارون كانت تلاحقه طوال حياته، وفى يوم من الأيام اتخذ قراره بأن يضحى بنفسه فى عملية ثأرية لضحايا شارون.

لقد بقى نموذج العنف قبية حيًّا فى قلوب وعقول الناس حتى يومنا هذا مع قليل من التعديلات. والسبب يرجع إلى احتلال المناطق الفلسطينية. وهذا الاحتلال فى حد ذاته ما هو إلا فصل من فصول العنف، كما أدرك ذلك فلاديمير

جابوتنسكى ـ مؤسس المرجعية الصهيونية. فاغتيال السيدة اليهودية مع طفليها الذى سبق مذبحة قبية، هو أيضًا حدث إرهابى؛ لأنه موجه ضد دولة معترف بها دوليًا، إلا أنه لامجال لكى يتعجب أحد من مثل هذا النوع من المقاومة. والفلسطينيون يرون فى الإرهاب استمرارًا لحرب ١٩٤٨ بوسائل أخرى، «فالدروس» كما يطلق أرئيل شارون على أعماله الثأرية الانتقامية، لم تؤت ثمارها لا بالأمس ولا باليوم.

الفصل الثامن

«ياسر عرفات - من الثورية إلى الأوتوقراطية»

«نحن نفرق بين اليهود والصهيونية. فبينما تستمر مسيرة معارضتنا ووقوفنا ضد الحركة الصهيونية الاستعمارية، إلا أننا نحترم العقيدة اليهودية».

ياسر عرفات عام ١٩٧٤ أمام

الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك.

بينما عاش شارون فى قبية فسادًا، كان ذلك الرجل الذى سيصبح فى يوم ما واحدًا من ألد خصوم شارون، مضطرًا لأن يرتضى لنفسه دور الكومبارس على المسرح العالمى الفلسطينى. لقد طالب تيودور هرتزل بأن تكون فلسطين بأكملها وطنًا لليهود. ولم يكن من المنتظر أن هذا الرسول للصهيونية سيكون له فى أى وقت كان مناوئًا تاريخيًا - رجلاً سيحمل على عاتقه مهمة تطوير إحدى الوسائل الأيديولوجية المضادة للصهيونية.

والرجل الذى وقف فى وجه المشروع الصهيونى الكبير لفلسطين بطرحه مشروعًا فلسطينيًا خاصًا، يحمل اسم محمد عبد الرحمن عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسينى وصار اسمه فيما بعد ياسر عرفات. لم يولد ياسر عرفات عام ١٩٢٦ بفلسطين بل فى القاهرة بمصر، حيث رحل إليها والده الذى عمل فى البداية موظفًا بدوائر الشرطة العثمانية فى غزة ثم أصبح تاجرًا، أما فى القاهرة فقد حكمت الأسرة الملكية فى ذلك الوقت والتى أسسها محمد على الألبانى عقب انسحاب نابليون، ولكن بريطانيا العظمى هى التى كانت تتحكم فى مقادير السياسة الخارجية على أوسع نطاق، كما انشغل الإنجليز فى ذلك الوقت فى منطقة الانتداب البريطانى بفلسطين بإخماد الثورة العربية التى اندلعت فى السنوات من ١٩٣٦ وحتى ١٩٣٩.

لم ينعم عرفات نفسه فى السنوات الأولى من حياته بظروف عائلية مواتية،

فقد ماتت أمه مبكرًا وكان أبوه رجلاً متسلطًا لايعرف إلا إصدار الأوامر. وحين توفى والده لم يكن الابن محمد عرفات حاضرًا جنازة دفن أبيه، ويعد هذا تصرفًا غير مقبول فى العالم العربى على وجه الخصوص؛ حيث تسوده روابط أسرية متميزة، تختلف عن مثيلاتها فى الغرب. وقد أظهر غياب عرفات هذا خصلة فيه تكرر ظهورها فيما بعد فى حياته حتى أصبحت سمة له: فلم يعبأ كثيرًا بروابطه الشخصية تجاه أفراد عائلته أو أصدقائه أو زملائه فى الكفاح[1]. وقد أجاب عرفات عن السؤال الذى يطرح كثيرًا من جانب كتاب السير قديمًا بشأن عدم زواجه، بشىء من المداعبة السياسية، فكان يقول: إنه متزوج من فلسطين. كان ذلك فى ريعان شبابه، ولكن فيما بعد، وبالتحديد فى عام ١٩٩٣ تزوج السيدة سها الطويل وهى مسيحية أورثوذكسية وابنة ريموندا الطويل، إحدى الناشطات الفلسطينيات. وفى عام ١٩٩٥ صار عرفات أبًا لطفلة أسماها زهوة - وهو الاسم الذى كانت تحمله أمه. ولكن لم يكتب لهذا الزواج المتأخر الاستمرارية وبقاء الزوجة بجانب زوجها - فسها عرفات ذهبت لتعيش فى باريس مع ابنتها زهوة بعيدًا عن زوجها ونضاله حتى وافاه الأجل.

محمد عبد الرحمن عبد الرؤوف عرفات، لكن من أين جاء اسم «ياسر»؟ حين اتخذ محمد عبدالرحمن عرفات لنفسه اسم «ياسر»، ثم أضاف له اسم «أبو عمار»، فقد حدث ذلك بقصد منه واستنادًا إلى العرف الإسلامى، لأن عمار بن ياسر كان أحد القادة العسكريين المظفرين فى العصور الأولى للإسلام وأحد صحابة النبى محمد. وحين ذهب عرفات، الذى أصبح فيما بعد زعيما فلسطينيا، إلى حرب الشرق الأوسط الأولى بجانب العرب فى فلسطين ضد قيام دولة إسرائيل الفتية، كان عضوًا فى كتيبة الإخوان المسلمين التى دفعت برجالها إلى الحرب، ولم يظهر ياسر عرفات كمحارب تابع للجيوش العربية النظامية.

حرص كل من جمال عبد الناصر، الذى حكم مصر فيما بعد، وكثيرون من رجاله فى جماعة «الضباط الأحرار» وبعض المؤسسين اللاحقين لمنظمة فتح، على توطيد الروابط مع جماعة الإخوان المسلمين. وقد ظهرت فى تلك الآونة بوادر معارضة لنظم الحكم القائمة من مجموعات ذات توجهات إسلامية تقليدية. ونشأ بالقاهرة واحدة من تلك الخلايا السرية الأولى للمقاومة ضد قيام دولة إسرائيل الفتية التى خرجت منتصرة من حرب ١٩٤٨/١٩٤٩، حيث أسسها الشاب ياسر عرفات بصفته رئيسًا لمجموعة من الشبان الذين خرج بهم - بأمر منه - إلى

الشوارع. وكانت المجموعة ـ كما كتب ذلك مؤرخ حياة ياسر عرفات ـ سعيد كـ. أبو الريش ـ تشبه جيشًا صغيرًا. وهكذا أبلى ياسر عرفات الذى اشتهر بكنية «أبو عمار» بلاءً حسنًا فى قدراته فى ذلك الوقت، مما أهله فيما بعد لأن يصير زعيمًا لا نزاع عليه للفلسطينيين ومناوئًا لعديد من رؤساء وزراء إسرائيل.

وفى عام ١٩٥٧ انتقل ياسر عرفات ومجموعة من أصدقائه وصقوره الذين جمعهم حوله بالقاهرة إلى الكويت للإقامة فيها. كان السبب فى تلك الهجرة نظام حكم الرئيس عبد الناصر الاستبدادى. لم يكن من السهل بأى حال من الأحوال فى هذا التوقيت أن يصل نشطاء سريون إلى الإمارة التى لا يزال يحكمها البريطانيون. وهناك بعض المؤرخين يقولون بأن البريطانيين سمحوا لمجموعة عرفات عن قصد بالدخول إلى البلاد؛ لأنهم رأوا فى علاقة ياسر عرفات بالإخوان المسلمين وسيلة فى تعبئة المعارضة الإسلامية ضد حركة الوحدة العربية التى يروج لها عبد الناصر. وكما حدث بعد ذلك أن قام الإسرائيليون بتدعيم جماعة الإخوان فى قطاع غزة (التى خرج منها عام ١٩٨٧ حركة حماس) كقوة مضادة لمنظمة التحرير الفلسطينية برئاسة عرفات، وكما قامت الولايات المتحدة الأمريكية بتدعيم أسامة بن لادن للوقوف فى وجه السوفيت فى أفغانستان، فقد استغل البريطانيون الإخوان المسلمين ضد عبد الناصر.

أسس عرفات وبعض الذين ينتهجون نهجه فى الكويت عام ١٩٥٩ حركة فتح، وهى مختصر عبارة «حركة تحرير فلسطين». وانطلق عرفات مبكرًا لتوحيد جبهته مع الدول العربية، فبعد الهزيمة فى حرب ١٩٤٨ ألقى عرفات الذنب فى الكارثة على عاتق الحكام العرب وضعف إرادتهم، وادعى فى غرور وتعالٍ بأن النصر كان أكيدًا لو حارب الفلسطينيون وحدهم فيها دون غيرهم. وفى الكويت أعلن عرفات على الملأ أن العنف هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين من الاحتلال الإسرائيلى.

لم يكن تنامى الشعور بالقومية الفلسطينية فى تلك الأثناء نتيجة للاحتلال الإسرائيلى لفلسطين فحسب. فبينما يشعر المصريون والأردنيون والسوريون واللبنانيون والعراقيون بالحزن حتى يومنا هذا على مصير الفلسطينيين، نجد أن هؤلاء الفلسطينيين بالنسبة للنظم العربية ليسوا أكثر من أشخاص غير مرغوب فيهم فى الغالب الأعم. ويكاد يكون من المستحيل حتى يومنا هذا بالنسبة لأى فلسطينى أن يحصل على تأشيرة دخول لسوريا، حيث ينظر للفلسطينيين على

أنهم منافسون للعرب في الحصول على أماكن عمل غير وفيرة، وكذلك ينظر إليهم على أنهم جماعة من البشر يزيدون من أعباء الاقتصاديات العربية الواهنة بدونهم. والفلسطينيون تعلموا في أغلب الأحوال بشكل أفضل من غيرهم من العرب، لذلك فهم يواجهون بحقد ورفض. وحين فتح باب المناقشة في السنوات التي تلت عام ١٩٩٣، وبعد عقد اتفاقيات أوسلو، حول موضوع تأسيس دولة فلسطينية، ظهرت مخاوف كثيرة من النظم بشأن بزوغ تنافس يهدد بالخطر. ففي الأردن بالتحديد يمثل الفلسطينيون ثلثي عدد السكان، وهم مواطنون أردنيون، ولكنهم مستبعدون إلى أبعد الحدود عن الوظائف القيادية في المملكة. ولم يساعد الفلسطينيين في مصر بحق سوى جمال عبد الناصر؛ فقد سمح لهم بالحصول على جوازات سفر، كما سمح لهم بالدراسة في الجامعات.

ولكي يغطوا على تقاعسهم وفتور حماسهم من أجل وطنهم فلسطين، فقد قامت الدول العربية عام ١٩٦٤ بتأسيس «منظمة التحرير الفلسطينية» التي عين رئيسًا لها الدبلوماسي الفلسطيني أحمد الشقيري. وكانت المنظمة بمثابة كيان خاضع خضوعًا صارمًا لنظم الحكم الاستبدادية، ومقيدًا في أنشطته لدرجة الاختناق، وكان الغرض منها تنسيق نشاط الفصائل الفلسطينية المختلفة، والعمل كذلك على إخضاع الفلسطينيين لرقابة الدول العربية، وذلك لأنه في الوقت الذي كان الحكام بالمنطقة يسبون إسرائيل في خطابهم المعلن على شعوبهم، كانوا يفتشون سرًا ومن وراء الكواليس السياسية عن إيجاد صيغة تعامل مع الدولة الحديثة.

شرع الهاشميون بالأردن في فترة مبكرة في إقامة تعاون مع حاييم وايزمان وأتباعه. وكلمة «تعاون» هي التعبير المفضل لدى إسرائيل، في الوقت الذي يميل فيه الفلسطينيون إلى استعمال كلمة «العمالة». وكثيرًا ما تفاوض الملك عبد الله الأول ملك الأردن - وكذلك الملك حسين فيما بعد - مع إسرائيل، حتى إن الملك عبد الله قام في عام ١٩٥٠ بضم الجزء الذي لم تحتله إسرائيل في حرب ١٩٤٨ من فلسطين وهو الضفة الغربية لنهر الأردن، ولم يفكر الحاكم الهاشمي في موضوع إقامة دولة فلسطينية. والرئيس السوري حسني الزعيم والرئيس اللبناني كاميل شمعون ورئيس الوزراء المصري محمد النقراشي - كل هؤلاء سعوا إلى وضع ترتيبات مع إسرائيل[٢]. ثم حدث بعد ذلك أنه كانت هناك اتصالات أيضًا بين عبد الناصر وإسرائيل. أما أولئك الذين أرادوا أن يقيموا اتصالاً بإسرائيل على الملأ، فكان يتعين عليهم الخوف على حياتهم. فقد أطلق أحد أعضاء جماعة الإخوان

المسلمين الرصاص على النقراشي، وسقط عبد الله الأول عام ١٩٥١ أمام المسجد الأقصى بالقدس ضحية اعتداء أحد الفلسطينيين عليه.

وياسر عرفات هو الوحيد - من وجهة نظر فلسطينية - الذى ثبت أنه خصم بالقول والعمل لكل من إسرائيل والنظام الجديد فى الشرق الأوسط الذى تم وضعه عام ١٩٢٠ وتثبتت أركانه فيه. أما من وجهة النظر الإسرائيلية فإن ياسر عرفات وكل أولئك الذين يعارضون ذلك النظام - من أمثال سليمان مصطفى حسن فى قبية، فإنهم جميعًا إرهابيون لا سبيل لإصلاحهم ويجب محاربتهم. إلا أن ياسر عرفات الإرهابى لم يسقط فى ساحة القتال بهذه البساطة. وقد ساعد على تدعيم موقفه تدعيمًا حاسمًا تلك الضربة الخاطفة الإسرائيلية فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧.

وكما حدث من جراء عملية شارون فى قبية التى أراد بها الرد على الإرهاب فقد كان من نتائج النصر الإسرائيلى فى يونيو ١٩٦٧ تقوية شوكة المقاومة الفلسطينية. صارت فتح المجموعة المهيمنة على منظمة التحرير الفلسطينية. وتوقفت منظمة التحرير الفلسطينية عن أن تكون أداة طيعة فى يد دول عربية ضعيفة. بل صارت الآن أداة من أدوات عرفات ومنظمة فتح. وظهرت المنظمة، إذا نظرت إليها من الخارج، فى ثوب ديمقراطى، فهى تتألف حتى اليوم من فصائل متعددة، كل يسير فى طريقه الخاص به. تضم هذه المنظمة شخصيات من أمثال جورج حبش الذى تولى سنوات طوال رئاسة «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» ونايف حواتمه رئيس «الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين»، وكلاهما مسيحيان برهنا أن خروج المقاومة الفلسطينية فى السنوات التى تلت إقامة إسرائيل، ليس بدافع إسلامى فحسب، بل وكذلك بدافع وطنى. وبالرغم من أن حبش وحواتمه سار كل منهما فى طريقه الخاص، إلا أن عرفات ظل دائمًا القائد والزعيم الذى لاخلاف عليه.

ويختلف عرفات عن حبش وحواتمه فى أنه ليس عقلية تتدبر الأمور من الجانب السياسى، إلا مرة واحدة فحسب اقترب فيها عرفات من المفاهيم السياسية الأساسية. حدث ذلك فى لقائه مع كمال جنبلاط زعيم الدروز اللبنانيين. كان جمبلاط إقطاعى وحاكم اشتراكى فى نفس الوقت. وقد ترك أثرًا فى تفكير عرفات بأفكاره عن المجتمع الاشتراكى المثالى. أراد جنبلاط أن يجر مناضلى عرفات إلى جانبه حتى يتولى السلطة فى لبنان، إلا أن الحاكم السرى

للبنان ـ الرئيس السورى حافظ الأسد ـ أعاق تحقيق هذا التحالف الذى يعد بالنسبة له فى غاية الخطورة. وقام بتدبير اغتيال لمنافسه جنبلاط. وبذلك لم يفقد عرفات مرشده الأيديولوجي الوحيد فحسب، بل فقد أيضًا حليفًا سياسيًا وعسكريًا موثوقًا به فى كل المواقف.

كان عرفات فى حاجة ماسة إلى حلفاء، لأن أعداءه لم يكونوا من القادة الإسرائيليين فحسب، بل كان لزامًا عليه أن يتحارب مع النظم العربية ـ على أقل تقدير فى المجال السياسى ـ التى تبلدت وانطفأ حماسها تجاهه، بل وقفت منه أحيانًا موقفًا عدائيًا. على أية حال: لم يطرح عرفات حتى هذا الوقت خطة محكمة ومقنعة بشأن تحرير فلسطين وما ينتظر هؤلاء الذين رحلوا بنية صادقة إلى إسرائيل.

بدأ عرفات حرب عصابات ضد إسرائيل انطلاقًا من الأراضى الأردنية. ولو كان لدى عرفات على الإطلاق خطة إستراتيجية، لكانت هذه الخطة هى دفع العالم العربى إلى حرب جديدة ضد إسرائيل. والملك حسين الشاب الذى لم يكن ثقل فى نظر جميع حكام العالم العربى تقريبًا فى ذلك الوقت، التزم بعد ذلك النظر إلى اللعبة بحالة من العجز. فقد شيد رجال عرفات حواجز عسكرية على الطرق فى الأردن، وتصرفوا كأنهم سادة الدولة وغاب الهدف الأصلى ـ محاربة إسرائيل ـ عن أعين رجال فتح تقريبًا: أما الأهداف الجديدة فهى إسقاط الملكية الأردنية وتولى السلطة بالأردن حوالى ٦٠ بالمائة من السكان فلسطينيون على كل حال. والتبرير الوحيد فى إدخال الأردن حلبة القتال وفقًا لتصورات عرفات يمكن إرجاعه إلى اعتقاده بأن الأردن ما هى إلا جزء من فلسطين التاريخية والتى حددتها خطة التقسيم التى قررتها الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ بإقامة دولة عربية فلسطينية عليها.

وحتى يمكنه كسب شخصيات لها نفوذ فى محيط الملك إلى الجانب الفلسطينى، فقد دفع عرفات أموالاً طائلة على سبيل الرشوة. وقد لعب عرفات فى ذلك الوقت دون أن يدرى دور خصمه وعدوه أرئيل شارون الذى لعبه فيما بعد. وكان رأى شارون ـ الذى بقى سرًا حتى اليوم ـ إقامة دولة للفلسطينيين على الضفة الشرقية لنهر الأردن، حيث كانت منطقة الحماية البريطانية من قبل، وأن تقام إسرائيل على أرض فلسطين حتى حدود نهر الأردن. وبالتالى دفع شارون فى ذلك الحين أمام الحكومة الإسرائيلية بضرورة مساندة عرفات فى حربه ضد الملك حسين.

وفى خضم هذه الفوضى الأردنية قامت «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» بقيادة جورج حبش فى سبتمبر ١٩٧٠ باختطاف أربع طائرات ركاب، وتم تفجير إحدى هذه الطائرات فى لبنان، وأما الطائرات الثلاث الأخرى فقد تم تفجيرها فى منطقة صحراوية بجنوب الأردن - بدون ركاب.

ساهمت هذه الهجمات الإرهابية فى زيادة وتيرة التصعيد، واعتمد الملك فى الحرب بين فتح والأردن على السكان الأصليين بالضفة الشرقية لنهر الأردن المنضمين إلى صفه، أى على المواطنين من أصول بدوية. واضطر رجال العصابات التابعين لعرفات إلى إخلاء الساحة فى سبتمبر ١٩٧٠ ودخلت هذه الهزيمة حوليات منظمة التحرير الفلسطينية تحت اسم «سبتمبر - أيلول الأسود».

توجه المنهزمون إلى لبنان، ومرة ثانية أنشأوا دولة داخل دولة. وأطلقوا على جنوب لبنان «أرض فتح». وكرر عرفات الخطأ الذى ارتكبه بالأردن منذ سنوات. ودون اعتبار إلى أهل البلاد بدأ يحارب إسرائيل من لبنان - وكلف اللبنانيين أعباء الضربات القاسية التى وجهتها إسرائيل إليهم. وانطلقت سيارات نقل صغيرة فى شوارع بيروت تأخذ مواقعها فيها وهى محملة بمقاتلين فلسطينيين مسلحين. وقد أقنع عرفات فى هذه الأثناء دول الخليج بخصم خمسة بالمائة من دخل كل فلسطينى يعيش هناك وإدراجها تحت بند ضريبة منظمة التحرير الفلسطينية. وقد عبر أحد المراقبين فى ذلك الحين عن رأيه قائلاً إن عرفات وعد فى مقابل الإعانات المالية بأن يقى شيوخ الخليج شر الإعتداءات الصادرة عن منظمة التحرير الفلسطينية.

حقق المناضل من أجل الحرية أو الإرهابى عرفات أحد النجاحات السياسية الكبرى فى عام ١٩٧٤. فقد دعت الأمم المتحدة عرفات فى نوفمبر للحضور إليها بنيويورك. وبظهوره أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة استطاع عرفات ونجح فى تحويل قضية الفلسطينيين إلى «قضية عالمية» - تمامًا مثلما فعل تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية السياسية فى تحويل «القضية اليهودية» إلى «قضية عالمية»، فقد لوح بدفتر الشيكات حتى يبتاع فلسطين من السلطان العثمانى. وقام باستقبال نبلاء وسياسيين أوروبيين استقبال القصور مرتديا الملابس الملائمة، حتى يحصل على موافقتهم وأصواتهم فى تأسيس دولة يهودية فى فلسطين. أما ياسر عرفات فقد ألبس «دولة اليهود» التى أعلنها تيودور هرتزل عام ١٨٩٦ وأسسها عام ١٩٤٨ رداء حرب العصابات. حين تحدث أمام الجمعية

العامة للأمم المتحدة، وكان يرتدى غطاء الرأس الفلسطينى التقليدى المزركش بالمربعات ذات اللون الأبيض والأسود والتى يطلق عليه «الكوفية»، والزى الرسمى للقتال بلونه الأخضر، وكان يحمل مسدسًا (فارغا على الأرجح). وألقى عرفات خطابًا قتاليًا حماسيًا طويلاً، ولكنه احتوى على نبرة تصالحية[٢].

قال فى خطابه عن اليهود: «نحن نشجب جميع الجرائم التى ارتكبت فى حق اليهود..»، ثم وجه الكلمات التالية عند حديثه عن الإرهاب: «والفرق بين الثورى والإرهابى يكمن فى السبب الذى يحارب من أجله. فالذى يحارب من أجل الحرية وتحرير بلده من الغزاة.. فمن الظلم وصفه بأنه إرهابى، وإلا فالأمريكان كانوا أيضًا إرهابيين، حين حاربوا لتحرير أنفسهم من سادة الاستعمار البريطانى». وسأل عرفات الأمريكان عن عدم رغبتهم فى فهم الفلسطينيين على الإطلاق: «وأسألكم بوضوح، ماهى جريمة الشعب الفلسطينى فى حق الشعب الأمريكى؟ لماذا تحاربوننا؟ هل يخدم ذلك مصالحكم؟».

وفى نهاية خطابه طرح عرفات أخيرًا عرضًا كان بمثابة مفاجأة. لم يطلب عرفات تدمير إسرائيل، بل طالب بتأسيس دولة ديموقراطية ثنائية القومية فى فلسطين : «نحن نقدم إليهم (اليهود أو الإسرائيليين) حلا يعد أكثر الحلول سخاءً: أن نعيش معًا فى إطار سلام عادل فى بلدنا فلسطين الديمقراطية».

هل كان جادًا فى اقتراحه الذى كرره فى مناسبات أخرى، ذلك ما يصعب تقديره. فلم يتوافق اقتراح عرفات فى شكل من أشكاله ومخططات الصهاينة - الدنيوية والدينية. ففلسطين فى أعينهم يجب أن تكون دولة يهودية - وليست كيانًا ثنائىّ القومية ومتعدد الثقافات. ثم إن البرلمان الفلسطينى لم يقرر إلغاء الفقرة المدونة فى لائحة منظمة التحرير الفلسطينية والمتضمنة ضرورة القضاء على إسرائيل إلا فى عام ٢٠٠٠. وهذه الخطوة من شأنها أن تساعد فى إحياء عملية السلام التى بدأت عام ١٩٩٣ فى أوسلو والتى كانت آنذاك فى مأزق وأزمة مستحكمة، وقد شارك الرئيس الأمريكى بيل كلينتون فى هذه الجلسة الاحتفالية.

لم يكتب لهذا النجاح الدبلوماسى أمام الأمم المتحدة الاستمرارية، حيث اندلعت فى عام ١٩٧٥ الحرب الأهلية فى لبنان، وكان السبب الجوهرى فيها هو سلوك عرفات وأتباعه. نعم، لقد قال عرفات أن الحرب اللبنانية ليست حربًا تخصه، ولكن سرعان ما تورطت منظمة التحرير الفلسطينية فى المعارك الدائرة.

وحين وضعت الدبابات الإسرائيلية نهاية لعبث منظمة التحرير الفلسطينية وتوغلت فى لبنان، استقبل الأهالى من الشيعة فى الجنوب قوات الجيش الإسرائيلى استقبال الفاتحين، وقام الناس بتزيين الدبابات الإسرائيلية بالورود. إلا أن الحماس العاطفى للتخلص من نير منظمة التحرير الفلسطينية لم يستمر طويلا، ولم يعرف الإسرائيليون من جانبهم كيف يتصرفون إزاء هذا التعاطف الذى أبداه لهم الأهالى فجأة، وراحت القوات الإسرائيلية تتعامل مع شيعة الجنوب بلا مبالاة، كما فعل ذلك من قبل فدائيو عرفات.

كان وزير الدفاع أرئيل شارون يكمن وراء القوة الدافعة للغزو الإسرائيلى للبنان. فارتطمت القوتان المتخاصمتان، وحدث الصدام بين العدوين اللدودين شارون وعرفات اللذين كثيرًا ما تبادلا ـ وهما العجوزان المعاندان ـ سجالاً شخصيًا وسياسيًا وعسكريًا. فتوغلت قوات شارون حتى وصلت إلى بيروت، وتم ترحيل عرفات وقواته من البلاد ووجدوا مأوى لهم فى تونس.

إلا أن أبناء عرفات، الذين تخلفوا عن مغادرة البلاد وبقوا فى معسكرات اللاجئين، لم يستبشروا خيرًا بالمستقبل، فقد انتظرتهم أوقات عصيبة نتيجة لما حدث. فوقفوا وجهًا لوجه أمام ميليشيا الكتائب المسيحية مجردين من أدنى حماية لهم. وقائد هذه الميليشيات الذى كان مرشحًا لرئاسة لبنان، ثم اغتيل على الأرجح بتحريض من السوريين هو بشير الجميل. كان الجميل حليفًا على طول الخط لإسرائيل وممقوتًا على طول الخط من الفلسطينيين. أراد بشير الجميل أن ينهى الوجود الفلسطينى فى لبنان ـ وبالقوة. فبعد انسحاب فدائيى عرفات وعد أرئيل شارون الولايات المتحدة بألا يرسل قواته إلى منطقة بيروت الغربية، أى إلى الجزء الإسلامى من العاصمة اللبنانية. وقد صرح المبعوث الأمريكى الخاص موريس درايبر قائلاً: (لقد قلنا فى وضوح لا لبس فيه إن الولايات المتحدة لن تسمح بذلك «زحف الإسرائيليين نحو بيروت الغربية» تحت أى ظرف من الظروف... وكانت الولايات المتحدة تعرف أنه إذا حدث ذلك فستكون هناك مذبحة)[٤].

إلا أن شارون لم يفِ بوعده ولم يلتزم بما قاله. فقد أرسل قواته رغم ذلك إلى بيروت الغربية. ومن ثم فإن إسرائيل فى هذه الحالة تعتبر مسئولة عن أمن وأرواح السكان وفقًا لقواعد القانون الدولى. إلا أن ما لا يمكن تصديقه قد حدث، إذ زحفت يوم ١٦ سبتمبر ١٩٨٢ صباحًا فرقة عسكرية صغيرة يبلغ قوامها ١٥٠

جنديًا من ميليشيا الكتائب على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين بصبرا وشاتيلا بحجة أنه لايزال هناك فى المخيمات ما يقرب من ألفى فدائى لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكان قائد هذه المجموعة هو السفاح المشهور إيلى حبيقة. وبعد ٣٨ ساعة غادرت ميليشيا الكتائب المخيمات، ثم دخل الجيش الإسرائيلى بعد ذلك وأخذ موقعهم. وكان يرافق الجيش الإسرائيلى إمانويل روزن ـ صحفى خاص «بقوات الدفاع الإسرائيلى»، وقد قرر هذا الصحفى لاحقًا ما يلى: «حين دخلنا المواقع كان كل من كان بالمكان فى عداد الموتى أو أوشك على الموت. لم يصرخ أحد، ولم ينطق أحد بكلمة ... وكان من الواضح أنه لم يطلق عليهم الرصاص فقط، بل تعرضوا قبل ذلك إلى تعذيب وهوان. وحين أيقنت أن الكتائب هى التى فعلت ذلك، كان رد فعلى الأول أن هؤلاء القوم سفاحون، وأنهم أسوأ خلق فيمن عرفتهم حتى الآن. كان ذلك بالنسبة لى ـ أعلم ذلك ـ كما لو أن صور الهولوكوست قد عادت من جديد»[٥].

فى أقل من يومين اغتالت ميليشيا الكتائب وتحت أعين الجيش الإسرائيلى حوالى ٧٠٠ فلسطينى مجردين من أى وسيلة دفاعية، ولم نسمع عن محاسبة المسئولين عن هذه الجريمة، بل إن إيلى حبيقة تم تعيينه عقب انتهاء الحرب الأهلية وزيرًا لشئون اللاجئين. وفى عام ٢٠٠٠ لقى مصرعه بلبنان من جراء اعتداء إرهابى ـ وبالضبط فى نفس التوقيت الذى تم فيه فتح ملف المذبحة من جديد ودار الجدل والنقاش فى مسألة إمكانية توجيه اتهام علنى لشارون. ولا نخفى سرًا حين نقول إن البعض كان يخشى مما قد تحمله شهادة الشهود ضد إيلى حبيقة. صحيح أن شارون قد فقد منصبه عام ١٩٨٣ كوزير للدفاع، إلا أنه أصبح وزيرًا للبنية التحتية على عهد بنيامين نتنياهو، وبذلك أصبح مسئولاً عن بناء المستوطنات فى الضفة الغربية لنهر الأردن المحتلة وفى قطاع غزة، ثم فى عام ٢٠٠١ تولى منصب رئيس الوزراء.

أخطأت ميليشيا الكتائب التى يدعمها الإسرائيليون فى حساباتها عندما ظنت أنها بارتكاب هذه المذبحة ستكسر شوكة المقاومة الفلسطينية والإرهاب. ففى خريف عام ١٩٨٥ قامت منظمة فلسطينية متطرفة باختطاف السفينة أكيلى لاورو. وتحت قيادة أبى عباس ألقى الإرهابيون بأحد السائقين المقعد على كرسى متحرك ـ وهو اليهودى ليون كلينج هوفر من السفينة إلى عرض البحر (وقد ألقت القوات الأمريكية القبض على أبى عباس فى عام ٢٠٠٣ ببغداد). وهذه

الجريمة الوحشية تعد من أسوأ الأعمال الإرهابية الفلسطينية التى لا يمكن اغتفارها. يضاف إلى ذلك الاعتداء على الفريق الإسرائيلى فى الألعاب الأوليمبية بميونيخ عام ١٩٧٢، والذى راح ضحيته تسعة إسرائيليين من الرهائن الذين احتجزهم الإرهابيون الفلسطينيون وخمس رهائن من الثمانية أفراد الذين أسروا وأحد أفراد الشرطة الألمان.

لقد استمرت لزمن طويل ممارسات المقاومة الفلسطينية التي تتحرك بأوامر عليا، ومن خلال مجموعة صغيرة من رجال حرب العصابات المقتنعين برسالتهم، إلا أنهم بقتالهم لم يخدموا الغالبية العظمى من الشعب، فلم يستردوا سنتيمترًا واحدًا من أرض فلسطين فى مرحلة أواسط الثمانينات، وأصبح الاحتلال الإسرائيلى جاثمًا على صدر كل فلسطينى على وجه التقريب. وساءت الظروف المعيشية للفلسطينيين فى المناطق التى تحتلها إسرائيل على نحو مطرد. وقد استغلت إسرائيل قانونًا يرجع إلى عهد الانتداب البريطانى، من شأنه أن يسمح بإلقاء القبض على المعارضين وحبسهم لأجل غير مسمى، كما تذرعت إسرائيل بمخصصات وسجلات عقارية وأطيان غير واضحة الملكية ترجع إلى العصر العثمانى فى مصادرة مزيد من الأراضى بالمناطق المحتلة.

وفى مثل هذا الوضع المحبط للآمال تؤدى الأحداث التى أصبحت تقريبًا من معالم الحياة الحزينة روتينًا يوميًا مفجعًا، فى أغلب الأحيان إلى انفجار مفاجئ من العنف والعنف المضاد. حدث ذلك فى أوائل ديسمبر عام ١٩٨٧، أى تقريبًا بعد مرور عشرين عامًا وستة أشهر على احتلال إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة. ففى يوم السادس من ديسمبر تم اغتيال التاجر الإسرائيلى شلومو سقال بغزة. وفى يوم ٨ ديسمبر دهمت سيارة نقل إسرائيلية عند نقطة تفتيش معبر إيريز - المعبر من غزة إلى إسرائيل - أربعة عمال فلسطينيين ممن يعبرون يوميًا إلى إسرائيل لكسب لقمة عيشهم، وذكرت الأنباء أن الواقعة ما هى إلا حادث مرورى عادى، إلا أن بعض الفلسطينيين قالوا بأنه ليس حادثًا عاديًا ولكنه عمل ثأرى للإسرائيليين ردًا على مقتل شلومو سقال. وفى يوم ٩ ديسمبر قتل جنود إسرائيليون فى معسكر جباليا للاجئين الفلسطينيين ذى الكثافة السكانية العالية فى شمال مدينة غزة، الفلسطينى حاتم السيسى، حيث استحدث هذا الشاب الفلسطينى ومعه عدد من الشباب وسيلة جديدة لأعمال المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلى: لقد ألقى بالحجارة على جنود ودبابات إسرائيلية. وبذلك بدأت

الانتفاضة الأولى وهى الثورة الفلسطينية الثانية بعد الثورة التى اندلعت فى الأعوام من ١٩٣٦ حتى ١٩٣٩.

وفى يوم ٨ يناير ١٩٨٨ أصدرت القيادة السرية للانتفاضة «بيان الانتفاضة رقم (١)» الذى تضمن عبارات من الزمن القديم تمت صياغتها فى نبرة حماسية وروح إيمانية عالية مؤداها أن المنتفضين قد أخذوا مصيرهم بأيديهم، تلك الكلمات يمكن أن تتناسب مع خطاب هذه الأيام:

«بسم الله الرحمن الرحيم. سنواصل انتفاضة شعبنا المباركة تضامنًا معه حيثما كان، وسوف نبرهن على ولائنا لدماء شهدائنا الزكية وكذلك تجاه إخواننا فى السجون»[٦].

استقبل ياسر عرفات فى تونس النائية انتفاضة الشباب دون توقع ودون استعداد لها، شأنه شأن مجلس الوزراء الإسرائيلى برئاسة إسحق شامير فى القدس. وعقد الجانبان آمالهما على العمل على إنهاء الانتفاضة بأسرع ما يمكن ولأسباب مختلفة لكل منهما. فعرفات سيطرت عليه مشاعر الخوف من حيث تأثيره الذى يمارسه فى فتح وفى منظمة التحرير الفلسطينية، وتخوفه من انفلات زمام الأمور من يديه. أما إسرائيل برئاسة إسحق شامير وجدت نفسها لأول مرة بعد مرور أكثر من عقدين على الاحتلال الإسرائيلى، أمام مقاومة جادة عنيدة. فلا يوجد هذه المرة أعمال اختطاف لطائرات تثير غضب الرأى العام وتنصب عليه اللعنات، ولا يوجد أعمال لحرب عصابات يقوم فيها فدائيون بقتل جنود أو مدنيين إسرائيليين. إنهم أمام شباب يقاومون بإلقاء حجارة على دباباتهم. ولا أحد ـ ولا أمريكا نفسها، وهى الحليف الحميم لإسرائيل ـ وجد لديه القدرة على إدانة شباب يمسكون بالحجارة فى أيديهم ليلقونها على محتليهم.

لقد تطورت الانتفاضة إلى محاولة يقوم بها شباب «يشككون فى كل شىء تركهم بلا أمل بما فى ذلك منظمة التحرير الفلسطينية»[٧]. وفى تردد وعلى استحياء من فقدان المبادرة بأكملها أعلن عرفات أخيرًا عن موافقته على المقاومة. واهتم أحد أعوانه الأوفياء له فى تونس، وهو أبو جهاد، بقيادة هذا التمرد. ونظرًا لأنه ـ على عكس رئيسه عرفات ـ يعرف كل ركن وكل زاوية فى المناطق المحتلة، فقد أصبح المايسترو الذى يقود الانتفاضة من خلف الكواليس.

وهذا الدور الخطير بالنسبة للإسرائيليين كان السبب الذى دعا إسحق شامير ووزير دفاعه إسحق رابين أيضًا، فى إصدار الأوامر باغتيال أبو جهاد. وبوابل من الرصاص، وبعض التقارير تتحدث عما يقرب من ١٥٠ طلقة ـ سقط الأب الروحى للانتفاضة جثة هامدة فى بيته بتونس يوم ١٦ أبريل عام ١٩٨٨. كانت زوجة أبو جهاد لا تملك شيئًا سوى أن تنظر إلى مقتل زوجها بلا حول ولا قوة. وحين اغتالت إسرائيل أثناء الانتفاضة الثانية فى سلسلة متواصلة دون توقف، قيادات حماس وأعداء آخرين لإسرائيل، نجد الأمين العام الحالى للأمم المتحدة كوفى أنان يطلق على هذه الجرائم «أعمال قتل خارج القانون».

لم يفت اغتيال «أبو جهاد» فى عضد الثوار ويثنهم عن مواصلة المسيرة، فقد قتل غيره آخرون كثيرون أثناء الانتفاضة الثانية. ولم تنته انتفاضة شباب الحجارة إلا بعد ست سنوات. فى هذا الوقت أعلن الرئيس الأمريكى جورش بوش الأب، أن طرد صدام حسين من الكويت يجب أن يكون بداية لنظام سلمى جديد فى الشرق الأوسط. وكانت هذه أول مرة تتداول فيها كلمة «نظام عالمى جديد». ووجد الفلسطينيون فى الإعلان برنامجًا: فتطلعت آمالهم إلى تأسيس دولتهم، فأنزل الأطفال والشباب الفلسطينيون الحجارة من أيديهم، وصدرت الأوامر الإسرائيلية إلى الجنود بعدم التعامل بالأسلحة، وتعلقت آمال العالم بإمكانية حل النزاع بين اليهود والعرب أخيرًا فى سلام بعد صراع دام قرنًا من الزمان.

وعلى الرغم من أن منظمة التحرير الفلسطينية تحركت عقب اندلاع الانتفاضة بخطوة دبلوماسية فى اتجاه السلام، إلا أنه اتضح أن هذه الآمال كانت خادعة. ففى يوم ١٥ نوفمبر ١٩٨٨ تحديدًا اعترف الفلسطينيون فى اجتماع لهم بالجزائر لإسرائيل بحدودها حتى يوم ٤ يونيو ١٩٦٧. واستندوا فى «إعلان سياسى» إلى قرارى الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ و٣٣٨ الصادرين فى عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣. وهذان القراران يطالبان إسرائيل أيضًا بالانسحاب من الأراضى المحتلة فى عام ١٩٦٧. وقبل تلك الخطوة، وفى يوم ٣١ يوليو ١٩٨٨ تنازل الملك حسين، ملك الأردن عن مطالبته بإعادة الأراضى المحتلة بالضفة الغربية، بل وضع الملك حسين الأراضى التى ضمها إلى الأردن جده عبد الله الأول، ثم احتلتها إسرئيل عام ١٩٦٧، تحت تصرف عدوه فى حروب عام ١٩٧٠ مع ياسر عرفات. وبذلك خلق حسين قاعدة إقليمية لعرفات لمواصلة جهاده من أجل قطعة أرض أخرى بفلسطين.

ولكن حتى الشباب الثائر لم يستطع تغيير النموذج الأساسى للصراع العربى الإسرائيلى. ولا شك فى أن إسرائيل اضطربت وتشتتت أفكارها من خلال ثورة الشباب التى استمرت سنين، ولكن بقيت إسرائيل من الناحية العسكرية هى الأقوى، واستمر الفلسطينيون فى المقابل على ضعفهم. فإسرائيل تملك جيشًا شديد القوة، أما الفلسطينيون فلم يسمح لهم وفقًا لاتفاقيات أوسلو إلا بتملك أسلحة خفيفة. ولكن لم يُقدم عرفات ولا منظمتة قط على إظهار قوته وتأثيره لإسرائيل فى الميدان السياسى، كما لم يخوضوا تجربة بناء نظام ديمقراطى مقنع ولو على أقل تقدير فى بداياته حتى يمكن التعامل مع إسرائيل بالندية.

وأدار عرفات حكومة سلطة الحكم الذاتى الفلسطينية التى تم تأسيسها بناء على اتفاقيات أوسلو بنفس نمط وأسلوب أى حاكم استبدادى عربى، فالمعارضون يودعون السجون والأتباع الأوفياء تفرق عليهم المنح والمكافآت، والنقاد ينحون جانبًا، والمنافسون يستبعدون من الطريق. كان يتعين إجراء انتخابات جديدة فى عام ٢٠٠٠ بعد عام ١٩٩٦ (حينها تم اختيار عرفات رئيسًا لسلطة الحكم الذاتى)، إلا أنها ألغيت بحجة أن الاحتلال الإسرائيلى لن يسمح بالذهاب إلى صناديق الاقتراع. وربا الفساد، وسكت عليه عرفات، وكان يتعين عليه أن يوقع شخصيًا على كل أمر دفع مالى تقريبًا تصدره سلطة الحكم الذاتى. وأعاق ممارسة نظام المحسوبية نشوء سياسة موازنة شفافة، فعرفات يحكم بلا حدود له، فأضاع بذلك فرصة إعادة جذب المسألة الفلسطينية إلى دائرة اهتمام السياسيين الغربيين. فلو كان عرفات قد تجرأ على طرق أبواب الديمقراطية، لما وصلت إليه صورته واحترامه فى العالم إلى هذه الدرجة من السوء والضرر فى السنوات الأخيرة، ولكن عرفات لم يلحق بقاطرة التحول من رجل ثورى إلى رجل دولة أو على أقل تقدير أن يصل من خلال رحلته الطويلة إلى أن يكون رجلاً ناضجًا سياسيًا، فهو كمحارب وفدائى يشن حرب عصابات بلغ ما يصبو إليه من نجاح كامل، ولكنه أخفق تمامًا فى أن يكون رجلاً سياسيًا. ولو كان اقترب فقط من صورة نيلسون مانديلا، لكان الموقف اليوم أفضل بكثير فى شأن المسألة الفلسطينية، ولما تجرأ على الأرجح أيضًا أرئيل شارون على تحديد إقامته فى مقره الرسمى برام الله فى نهاية خريف عام ٢٠٠١. وبذلك يمكن القول بأن الفلسطينيين لم يعانوا من الاحتلال الإسرائيلى فحسب، بل عانوا كذلك من استبدادية ياسر عرفات.

تمحور وجود عرفات يومًا بعد يوم حول هدف واحد: الحفاظ على السلطة. وعرفات لم يستطع ولم يرغب فى إعاقة تحويل الانتفاضة الثانية إلى نضال مسلح، وحتى لا يفقد تأثيره على مجرى الأحداث، فقد شجع من حين لآخر على استخدام العنف من خلال توجيهاته إلى كتائب الأقصى التى تخضع لسلطته. فحتى منتصف نوفمبر ٢٠٠٣ بلغ عدد من قتل من الإسرائيليين على يد الكتائب إلى ستين قتيلاً فى ثلاث عشرة عملية إرهابية انتحارية[٨]. ونظرًا لأن القوة فى سلطة الحكم الذاتى التابعة لعرفات تتركز فى أيدى قادة الأجهزة الأمنية، فقد أجبر عرفات فى عام ٢٠٠٣ محمود عباس (أبو مازن) بعد مرور شهور قليلة على توليه منصبه، على الاستقاله. فقد طالب رئيس الوزراء المفروض على السلطة وعلى عرفات من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى، بأحقيته فى الإشراف والرقابة على الأجهزة الأمنية.

وعلى أية حال فإن مشكلة العنف الفلسطينى لها جانب آخر، جانب يبرئ ساحة عرفات إلى حد ما، فلم يكن عرفات قادرًا بالمرة على نزع سلاح حماس والجهاد. فقيامه بمحاولة ذلك يعد مخاطرة تهدد باندلاع حرب أهلية فلسطينية. لقد وصف الأمريكان والإنجليز عرفات بأنه «جزء من المشكلة»، وهذا التقدير يخلو بكل تأكيد من أى أساس. فوجود عرفات على قيد الحياة كان يعنى أن عرفات ما هو إلا جزء من حل المشكلة.

الفصل التاسع

حماس وحزب الله: فلسطين «وقف إسلامى»

«أنتم تعتبروننا إرهابيين، وبشرًا لا خلاق ولا ضمير لهم، ينتزعون آخرين، من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء، عنوة معهم إلى الموت. إنكم مخطئون؛ لأن التعصب والإرهاب يضرب بجذوره فى مسعاكم لإخضاع العالم واستعباده. ترسلون إلينا بلا انقطاع جرافات الديمقراطية وتبعثون إلينا بالبلدوزارات البشرة بالحرية. نحن نحزن على موتاكم فى المطاعم والملاهى الليلية والحافلات. ولكن من منكم يحزن على موتانا؟ هل حياتهم التى أزهقت أقل قيمة من حياتكم؟».

آخر كلمات أحد الانتحاريين

(من كتاب رائد صباح ـ الموت هدية)

رائد صباح فلسطينى يعيش بألمانيا، وينحدر من عائلة من جنين بالضفة الغربية. وصف على صفحات كتاب يحتوى على ما يقرب من مائتين وخمسين صفحة، كيف تحول الشاب الفلسطينى سعيد إلى انتحارى. لم يمت سعيد على أنه إرهابى معتدٍ آثم، بل مات مناضلا ضد المستوطنين الإسرائيليين. وحتى هذه اللحظة لم يكن لديه طريق آخر سوى أن يقدم نفسه «للجهاد الإسلامى» ليصبح انتحاريًا.

وقصة سعيد هى قصة كثير من الفلسطينيين الذين صودرت أراضيهم وكافحوا فى الانتفاضة الأولى والثانية وأوصلتهم طريق اليأس فى نهاية الأمر إلى اللجوء إلى آخر وسيلة ـ إلى القتل بطريق الانتحار. «فالموت أفضل من مواصلة مثل هذه الحياة». كانت هذه كلمات أبيه، قبل أن يتخذ سعيد قراره بالقضاء على نفسه وعلى آخرين.

وأكثر الفصائل شدة فى القتال ضد إسرائيل، وأكثرهم صرامة فى الجانب العسكرى والجانب السياسى هو حزب الله اللبنانى وحماس الفلسطينية. وتلجأ

حماس فى الوقت الراهن فى ردها فى إطار الصراع الفلسطينى الإسرائيلى إلى وسيلة القيام بأعمال انتحارية. ولكن حزب الله هو الذى أدخل هذه الوسيلة الانتحارية فى الصراع واستخدمها كسلاح ضد خصم متفوق إلى أبعد الحدود عسكريًا. ففى السنوات الأولى من حرب تحرير الجنوب اللبنانى من الاحتلال الإسرائيلى فجر مقاتلو حزب الله أنفسهم عند نقاط تفتيش إسرائيلية ليقتلوا جنودًا إسرائيليين. وقد اعترض المتحدث باسم حماس محمود الزهار على وصف هذه العمليات بأنها «عمليات انتحارية»، ووصفها بأنها «قنابل الشهداء» (راجع نهاية هذا الفصل).

وفى تلك الأثناء تحولت قنبلة الاستشهاد إلى سلاح نمطى لدى القاعدة وغيرها من التنظيمات الإرهابية وتنظيمات المقاومة. فى إندونسيا والعراق والمملكة العربية السعودية وفى تركيا وفى أمريكا يتخذ كثيرون قرارًا بالانتحار بإرادتهم الحرة، حتى يُلحقوا بغيرهم الموت، وهم فى أغلب الأحوال والحالات من المدنيين. ويختلف عن الفلسطينيين الذين يقضون على حياتهم لما هم فيه من يأس شخصى من الحياة، وليلحقوا بالإسرائيليين الموت، أولئك الانتحاريون من بالى واسطنبول وبغداد ونيويورك ـ فهم أدوات لتنظيمات منعدمة الضمير. ولقد اتخذت القاعدة السلاح الانتحارى أو ـ قنبلة الاستشهاد ـ التى كانت فى البداية مقصورة على منطقة الصراع بالشرقين الأوسط والأدنى، والتى انبثق منها ذلك الصراع الإسرائيلى/ الفلسطينى، وسيلة نضال لحملتهم الإرهابية العالمية.

خرج حزب الله إلى الدنيا فى المقام الأول كنتيجة للاحتلال الإسرائيلى لجنوب لبنان (الذى انتهى فى عام ٢٠٠٠ بانسحاب إسرائيل). وتأسست حماس فى أثناء الانتفاضة الفلسطينية للأعوام ١٩٨٧ حتى ١٩٩٣. وعملت المنظمتان على استبدال أيديولوجية القومية العربية بالحركة الإسلاموية أو استكمال هذه بتلك. فبعد أن اندثرت حركة الوحدة العربية منذ الهزيمة الساحقة فى حرب الأيام الستة فى يونيو عام ١٩٦٧، بحث كثيرون عن توجه جديد والتمسوه تحت لواء العقيدة ـ الإسلام. وهذا التطور الذى يوصف فى الغرب غالبًا خطأ على أنه إعادة الصبغة الإسلامية للحياة، لم يقتصر على المذهب الرئيسى السنى فى الدين الإسلامى فحسب، بل امتد ليشمل كذلك الأقلية الشيعية.

يرجع الفضل فى نشأة حزب الله إلى أحداث ثلاثة: إلى ما يطلق عليه «منطقة الحزام الأمنى» التى أنشأها الإسرائيليون بالجنوب اللبنانى عند انسحابهم منه عام ١٩٨٢/١٩٨٣، ثم إلى الدعم السياسى للقسم الشيعى من السكان إبان الحرب الأهلية اللبنانية، وأخيرًا إلى الثورة الإيرانية فى عام ١٩٧٩ باستيلاء آية الله الخمينى على مقاليد السلطة. فحتى لا تتعرض إسرائيل إلى هجوم مرة أخرى ـ مثلما حدث على يد المحاربين الفلسطينيين قبل عام ١٩٨٢ ـ من جهة لبنان، فقد احتفظت لنفسها عام ١٩٨٢ بجزء من الجنوب اللبنانى ووضعته تحت سيطرتها ومراقبتها. ولكننا لا ننسى أنه فى عام ١٩٨٧ قامت القوات الإسرائيلية بالتوغل فى الأراضى اللبنانية ـ ووصلت حتى نهر الليطانى، الذى أرادت إسرائيل استغلال مياهه. ولكى يسود الهدوء المنطقة، وضعت الأمم المتحدة قوات دولية للمراقبة فى لبنان وهى المعروفة اختصارًا باسم (UNIFIL) أى (قوات الأمم المتحدة الانتقالية فى لبنان). وهذا «الحل المؤقت» للصراع لم يفسح مجالاً لتسوية نهائية حتى فى عام ٢٠٠٣، أى بعد مرور ربع قرن.

أما منطقة الحزام الأمنى التى أنشأتها إسرائيل فهى لم تحظ مرة واحدة بالأمن والأمان. ورغم تفريغ لبنان من أغلبية الفدائيين الفلسطينيين عام ١٩٨٢، إلا أن حزب الله ظهر إلى الوجود معتمدًا فى تدعيم وجوده على النظام الجديد فى إيران المعادى لإسرائيل والذى يضع نصب عينيه بلا شك مواجهة إسرائيل عسكريًا، ولكن فى المقام الأول تحرير الجنوب اللبنانى. لقد أسفر الغزو الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ إلى جانب العديد من المآسى الإنسانية عن نتيجة حتمية واحدة: أن إسرائيل استبدلت عدوها المتمثل فى منظمة التحرير الفلسطينية بعدو جديد هو حزب الله.

استمرت الاشتباكات بين إسرائيل وحزب الله سنوات فى العملية العسكرية التى أطلق عليها «عناقيد الغضب»، إذ أراد الجيش الإسرائيلى أن يوجه ضربة حاسمة إلى المعاقل العسكرية التابعة لحزب الله فى جنوب لبنان فى أبريل عام ١٩٩٦. وفى منتصف الشهر تعرضت إحدى النقاط العسكرية التابعة لقوات مراقبة الأمم المتحدة (UNIFIL) المتواجدة بمنطقة قانا العسكرية بالجنوب اللبنانى إلى الهجوم بصاروخ إسرائيلى. وقد اتخذ مئات من اللبنانيين فى هذه

المنطقة مأوى آمنا لهم يحميهم من تلك العمليات العسكرية الدائرة بين إسرائيل وحزب الله، ولقى مائة واثنان مصرعهم من جراء القذف الصاروخى الإسرائيلى. وأراد رئيس الوزراء شيمون بيريز أن يبرر ذلك فيما بعد برواية غير مقنعة، حين قال إن الجيش الإسرائيلى أراد توجيه ضربة إلى مقاتلى حزب الله الذين اتخذوا من إحدى نقاط قوات المراقبة الدولية ستارا لمهاجمة الجيش الإسرائيلى، وادعى أن إسرائيل لم تكن تعلم أن قوات المراقبة الدولية (UNIFIL) قد آوت بعض اللاجئين. وبالنظر إلى عمليات الاستطلاع العسكرية لإسرائيل والمعروفة عادة بدقتها، فإن ذلك الادعاء فى نظر كثير من الخبراء بجنوب لبنان، ما هو إلا رواية أقرب إلى عدم التصديق.

وفى يوم ٢٦ أبريل عام ١٩٩٦ تم التوصل إلى إنهاء الغزو الثانى للبنان بتوقيع اتفاقية بين الأطراف الثلاثة ـ الولايات المتحدة وإسرائيل وسوريا. وكانت تلك الاتفاقية بمثابة نجاح دبلوماسي كبير خاصة لحزب الله، وذلك لأنها تضمنت اعترافًا على أقل تقدير بشكل غير مباشر بكفاح حزب الله من أجل تحرير جنوب لبنان. وتعد النقطة الرابعة بالاتفاقية نقطة فاصلة لحزب الله ولسوريا التى تقوم على حمايته. فبدون خرق لهذه الاتفاقية، فإنها تنص على أنه لا يوجد مانع فى هذا الاتفاق من «ممارسة طرف من الأطراف حقه فى الدفاع عن نفسه»[1].

ووفقًا للفهم العام الذى أجمعت عليه كافة الأطراف بما فى ذلك الولايات المتحدة وإسرائيل، فقد أرست هذه الاتفاقية حق حزب الله فى شن الحرب على قوات إسرائيلية وحلفائها المسلحين داخل الحزام الأمنى المعلن من جانب إسرائيل. ولم يكد أحد من أقطاب الدبلوماسية يدرك ما حققه حزب الله من انتصار دبلوماسى، ذلك أن الولايات المتحدة وإسرائيل لم يتعرضا له بالذكر.

لم تمنع اتفاقية عام ١٩٩٦ الولايات المتحدة وإسرائيل وآخرين من وصف حزب الله من الآن فصاعدًا بأنه منظمة إرهابية. ففى الحرب الأهلية اللبنانية استحقت المنظمة بكل تأكيد هذا الوصف، لأن هذا الوصف ينطبق على ما قامت به من أفعال مثل أعمال الاختطاف والزج بأناس فى السجون لسنوات طويلة ـ مثل حالة تيرى وايت، مبعوث أسقفية كنتر بيرى ـ فذلك من أعمال الإرهاب، إلا أن بعض قادة حزب الله يؤكدون حتى اليوم أن الخاطفين لم تكن لهم علاقة بحزب الله، مادام لم يقدم من يدعى بذلك أدلة قاطعة، فإنه يمكن اعتبار هذه الادعاءات ببساطة ضربًا من ضروب الخيال.

ثم إن حزب الله متهم بمسئوليته عن الاعتداء على السفارة الأمريكية فى بيروت، والاعتداء على قوات أمريكية لحفظ السلام. ففى هذه الاعتداءات التى وقعت فى شهر مايو وشهر أكتوبر من عام ١٩٨٣ لقى أكثر من ثلاثمائة شخص مصرعه. إلا أنه لم يثبت على الإطلاق أن حزب الله هو المسئول عن كل هذه الوقائع. وقد توصل أحد عملاء وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) عام ١٩٨٣ إلى نتيجة مؤداها أنه يمكن وضع مسئولية الاعتداء على السفارة الأمريكية على منظمة فتح التابعة لياسر عرفات، فى حين تتجه أصابع الاتهام إلى إيران عن مسئوليتها عن أعمال إرهابية أخرى، مثل الاعتداء على الثكنات العسكرية الأمريكية فى بيروت، وعن عملية اختطاف طائرة الركاب الأمريكية TWA رقم ٨٤٧ فى عام ١٩٨٥[٢].

نجح حزب الله فى جنوب لبنان فى بناء نوع من الجيش الوطنى الذى يشبه الجيش النظامى، فهو يضم ما يقرب من ١٥٠٠ مقاتل مسلح. وأسس حزب الله على الحدود الإسرائيلية شبكة من الوحدات العسكرية. ونظرًا لأن حزب الله قام بتحرير جنوب لبنان، فالمنظمة تحتفظ بناءً على ذلك بحقها فى استمرار الدفاع عن هذا القطاع من الأرض اللبنانية ـ بدلاً من بناء جيش لبنانى نظامى. وتعتمد كفاءة حزب الله العسكرية على ما تملكه من صواريخ كاتيوشا وأسلحة مضادة للدبابات وممرات ومخازن سلاح تحت الأرض بالإضافة إلى وحدات مراقبة الحدود. ووفقًا لما صرح به الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله، فإن حزب الله إن لم يكن قادرًا على درء عدوان إسرائيل، فهو يستطيع أن يصعب عليها مهمة قيامها بمثل هذه الأعمال وتنفيذها[٣].

هل حزب الله منظمة إرهابية؟ لم يثبت على الحزب وذراعه المسلح القيام بأية أعمال إرهابية، على أقل تقدير منذ انسحاب إسرائيل من الجنوب اللبنانى فى مايو عام ٢٠٠٠، والأعمال العسكرية القليلة مقارنة بغيرها التى قام بها لا تعدو مزارع شبعا المحتلة من الجانب الإسرائيلى والتى تملكها فى الأصل سوريا ولبنان. و لم يشارك حزب الله فى عمليات اختطاف طائرات ولا أعمال انتحارية على غرار حماس الفلسطينية أو مثل أعمال العنف التى تشنها القاعدة. وفى كل الأحوال لا تتوافر أدلة حتى الآن لإدانة حزب الله على مثل هذه الأعمال.

لذلك فحزب الله غير مسجل كمنظمة إرهابية فى أى مكان آخر سوى فى الولايات المتحدة وكندا وإسرائيل. وقد حثت الولايات المتحدة سوريا فى كل

مناسبة على قطع جميع علاقاتها مع حزب الله، إلا أن الرئيس السورى بشار الأسد دائمًا ما يوجه عناية زائريه الأمريكان إلى أن مقاتلى حزب الله «سيعودون إلى الحياة المدنية فى حالة زوال الأسباب التى دعت إلى قيامهم بأعمال المقاومة»[٤].

ومنذ الغزو الأمريكى للعراق فى ربيع عام ٢٠٠٣ والدولة الثنائية سوريا ـ لبنان، محاطة بإسرائيل من الجنوب من إسرائيل وبتركيا، وهى عضو فى الناتو، من الشمال وبدول الحماية الأنجلو أمريكية ـ الأردن والعراق من الغرب. وقد فقد حزب الله من خلال هذا التطويق حيزًا عسكريًا وسياسيًا كبيرًا، واضطر حزب الله، أكثر بكثير من أى وقت مضى، إلى البحث عن تحقيق نجاح فى مجال الأنشطة السياسية والاجتماعية داخل المجتمع اللبنانى المتعدد المذاهب. فقام بإنشاء مستشفيات ومحطة إرسال تليفزيونية.

كما أن حزب الله يملك تسعة مقاعد لنوابه فى البرلمان ببيروت. وما يبعث على التبرم لدى سياسيين غربيين وكذلك سياسيين عرب على وجه الخصوص هو أن الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله يعد فى هذه الأثناء أحد القادة الموقرين المحترمين غاية الاحترام فى المنطقة. فقد حقق نصر الله نجاحًا عسكريًا فريدًا ـ فهو الوحيد الذى استرد أراضى عربية من إسرائيل. ويضاف إلى كل ذلك أن حزب الله يعد حزبًا يتميز بتنظيمه الرائع وتنسيقه التدريجى لكوادره ـ وهذه سمة نادرة فى الشرق الأوسط العربى. ولا يفوتنا أخيرًا التنويه إلى أن ما من أحد اتهم الحزب وأعضاءه بتهمة الفساد ـ وهذه سمة أكثر ندرة تحت مظلة الزعماء العرب.

إن أيديولوجية حزب الله ـ وربما يندهش القارئ من ذلك للوهلة الأولى ـ ذات طبيعة أقرب إلى الدفاع بصفة مبدئية. فالحزب يرفض أية معارضة عنيفة تتخذ ضد نظم عربية تعسفية. ولا تجد الاعتداءات التى توجه إلى مدنيين وسائحين أجانب وسياسيين، كما كان ذلك تحديدًا فى مصر معتادًا فى فترة التسعينيات ـ لا تجد مطلقًا تأييدًا لها من جانب حزب الله. والتمرد وفقًا لتصور حزب الله مرفوض؛ لأنه ينافى الشريعة الإسلامية، لأن التمرد يؤدى إلى الفوضى، والفوضى أكثر تعسفًا من أى نظام شمولى، حتى أن رسول الإسلام محمد لم يثر ولم يلجأ إلى عنف إزاء ما لاقاه من قسوة الطبقة الحاكمة أثناء فترة إقامته بمكة والتى استمرت اثنى عشر عامًا. ويرى حزب الله أن الكفاح لاينبغى أن يوجه فى المقام الأول إلى النظم العربية الديكتاتورية، بل إلى المتسلط والمتجبر الأكبر وهى ـ دولة إسرائيل[٥].

فإسرائيل فى نظر حزب الله ما هى إلا رمز لمؤامرة غربية موجهة ضد الإسلام فى مجموعه. وبدأت هذه المؤامرة ـ وفقًا لتحليل حزب الله ـ مع تصريح بلفور عام ١٩١٧. وأمريكا فى نظر حزب الله هى المتآمر الرئيسى فى هذه المرحلة التاريخية. فقبل أن يتحدث الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش عما أطلق عليه «محور الشر» والذى يضم العراق وإيران وكوريا الشمالية، وصف حزب الله أمريكا بأنها «رائدة الشر»، وقال إن أمريكا تتصدر أولئك الذين يوجهون «العالم المادى» لقهر الشعوب المستضعفة. كما يرى أن أمريكا «مصدر الشر» و«منبع الرذيلة» هى المسئولة مؤخرًا عن الكثير من الكوارث التى اجتاحت العالم الإسلامى وأفسدته.

وهذا الحكم الذى أصدره حزب الله ببراءة المسلمين من أدنى مسئولية عن الفوران الذى يجتاح المنطقة؛ يعتبر قاعدة أساسية لعداوته المستمرة تجاه أمريكا وإسرائيل، وهما «رواد الشر». ورغم ذلك فالحزب يعانى من مأزق محير له. عقب الانسحاب الإسرائيلى من الجنوب اللبنانى حرم حزب الله من القاعدة الأساسية التى نشأ من أجلها، ومجال نشاطه الرئيسى إلى حد كبير ـ ألا وهو القيام بالأعمال العسكرية. وإذا سلمنا فى الواقع بأنه تم إيقاف النضال العسكرى الموجه ضد إسرائيل عن العمل مؤقتًا فإن النضال الأيديولوجى لم يتوقف مطلقًا.

ومنذ أن سيطرت الولايات المتحدة على العراق و«رائدة الشر» تراقب كل خطوة يخطوها التحالف السورى الإيرانى منذ سنوات. فطرق الإمدادات العسكرية والسياسية لحزب الله فى خطر على المدى البعيد رغم ولاء وإخلاص سوريا له حتى ذلك الحين. وحزب الله يدرك إدراكًا تامًا عملية توازن القوى الجديدة. ويذكر أحد أعضائه البارزين أن الحزب يحسب حساب المستقبل ويخطط له فى إطار النظام العالمى الجديد[٦].

ورغم أن برنامج حزب الله الأصلى يتضمن القضاء على إسرائيل، فإن الحزب قد تخلى عن هذا الهدف، على الأقل فى الوقت الراهن، كما تخلى عن مقاطعته لأى اتفاق سلام إسرائيلى ـ سورى[٧]. فمعاهدات السلام مع مصر (١٩٧٩) والأردن (١٩٩٤) حررت إسرائيل من ضغط الجيران المباشرين لها. والحملات العسكرية الأمريكية فى جبال الهندوكوش وفى بلاد الرافدين ـ كان ذلك هدفًا من أهدافها ـ فتحت الطريق لها الآن أيضًا فى الشرق لانطلاق نقطة الحراسة المتقدمة لأوروبا فى المنطقة وفقًا لتصور تيودور هرتزل.

على عكس حزب الله نجد حماس أو «حركة المقاومة الإسلامية» لم تفقد عدوها. ويكمن السبب وراء ظهور حركة حماس، شأنها شأن حزب الله اللبنانى، إلى الاحتلال الإسرائيلى. ففى عام تأسيسها الذى يذكر على وجه العموم بعام ١٩٨٧ يكون قد مر على احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية عشرون عامًا. ولم تفاجئ الانتفاضة الأولى التى اندلعت فى ديسمبر عام ١٩٨٧ ياسر عرفات فحسب، بل كانت مفاجأة أيضًا لرجل كان يعيش فى مسرح الأحداث مباشرة: الشيخ أحمد ياسين. وقد قرر الشيخ ياسين، مثله مثل عرفات، أن يؤسس للانتفاضة الشعبية التلقائية قاعدة منظمة، فكانت النتيجة تأسيس «حركة المقاومة الإسلامية». ولحماس قصة تفوق قصة حزب الله طولا، فالشيخ ياسين الذى أصيب بالشلل فى ريعان شبابه عقب حادث سباحة فى نهاية الستينات وبداية السبعينات، هو ذلك الرجل الذى وضع نواة الإخوان المسلمين فى غزة، ونظرًا لتبحره فى الدين الإسلامى بشكل يميزه وبسبب عبقريته التنظيمية وما له من جاذبية شخصية أو كاريزما فقد أطلق عليه أتباعه لقب الشيخ، كما هو متبع عند العرب. قام أحمد ياسين انطلاقًا من منزله بمخيم الشاطئ للاجئين بتنظيم خلايا صغيرة مكونة من ثلاثة إلى خمسة أعضاء. كما قسم قطاع غزة إلى خمس مناطق تمارس فيها جماعة الإخوان المسلمين نشاطها. وعملت هذه الخلايا فى الميدانين الدينى والاجتماعى ولم يكن لهم نشاط عسكرى. وفى عام ١٩٧٣ أسست الجماعة فى غزة «المجمع الإسلامى» وهو منظمة حملت على عاتقها مسئولية العمل الدينى والتربوى والاجتماعى للإخوان. وبذلك عملت هذه المنظمة فى مجال فشلت فيه من قبل سلطة الاحتلال الإسرائيلى ـ كما فشلت فيه فيما بعد فى عام ١٩٩٤ سلطة الحكم الذاتى الفلسطينى. فقد تولى الإخوان المسلمون الوظيفة التى تقوم بها وزارة الشئون الاجتماعية.

وقد سلكت حماس نفسها فى هذا الأمر عندما وصفت ظروف نشأتها بما يلى:

من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٦: بناء وتأسيس جماعة الإخوان المسلمين فى غزة «تحت السيادة الإسرائيلية القمعية». من عام ١٩٧٦ حتى عام ١٩٨١: توسع جغرافى فى اتجاه الضفة الغربية. من عام ١٩٨١ حتى عام ١٩٨٧: تأسيس حماس كجناح عسكرى للإخوان المسلمين[٨].

أيـدت إسـرائـيـل فـى بـادئ الأمر مسيرة الإخـوان المسـلـمين، فـقـد رأى الاستراتيجيون السياسيون بالقدس فى الجماعة قوة مضادة للوقوف فى وجه منظمة التحرير الفلسطينية التابعة لعرفات. إلا أن محاولة تفتيت قوى العدو الفلسطينى باءت بالفشل، وذلك لأنه فى الوقت الذى أثبتت فيه حماس وجودها على الصعيدين الاجتماعى والعسكرى فى مواجهة منظمة التحرير الفلسطينية، كانت قد أصبحت قوة لا يستهان بها.

والالتزام بالعمل الاجتماعى له بعده الدينى بالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين ولحماس ولحزب الله، فهو «جهاد داخلى» وذلك لأن الجهاد الذى يتناقله الإعلام الغربى بمدلوله الخاطئ، والذى يروج له البعض على أنه حرب دموية ضد الكفار وغير المؤمنين بالله، هو فى الأساس جهاد كل فرد مع نفسه لتحقيق القيم التى نص عليها القرآن. وقد نذرت جماعة الإخوان المسلمين فى غزة والضفة الغربية حتى عام ١٩٨٧ نفسها لتحقيق ذلك الجهاد الداخلى. وقد جاءت الفرصة لحماس على أرض الواقع للانطلاق إلى «الجهاد الخارجى» مع اندلاع الانتفاضة. وكان الجهاد الخارجى فى سياق الظروف التى كانت سائدة فى قطاع غزة يعنى النضال المسلح ضد إسرائيل، ومن ثم طفى الجهاد الخارجى على السطح كنتيجة حتمية للاحتلال الإسرائيلى الذى دام حتى ذلك الحين أكثر من عقدين من الزمان. وقد أطلقت حماس عليه «جهاد الدفاع». ويرى بعض المؤرخين الإسرائيليين أيضًا أن هذا الجهاد جاء نتيجة السياسة الإسرائيلية، فقد كتب كل من شاؤول ميشال وأبراهام سيلا: «إن الجهاد الذى أعلنته حماس يبرهن على أنه الرد الشديد المزلزل على عنف إسرائيل تجاه الفلسطينيين»[٩].

وكما أن المشروع الصهيونى ينادى باحتلال فلسطين، فإن المشروع الإسلامى أيضًا ينادى باستعادة فلسطين، وكلاهما من حيث المبدأ مغامرة محفوفة بالمخاطر.. وكلا الجانبين يستبعدان التوصل إلى حلول وسطية. ولم يفكر الصهاينة الأوائل فى المعايير الدينية بقدر إيمانهم بالمعايير القومية الاستعمارية، فقد التمسوا الهروب من نير العداء للسامية بأوروبا ووجدوا الحل فى فلسطين بالحصول على الأرض. وشجع على هذه الخطة وإقامة حجتهم عليها ما تعرضوا له فى محرقة النازية المعروفة تاريخيًا باسم «الهولوكوست». أما اليهود المتدينون والأتقياء (ليس بالنسبة لجميعهم على أية حال)، فكان الحنين إلى جبل صهيون تعبيرًا عن مطلب العودة إلى حيث الجذور. وفلسطين فى نظر

الأصوليين المسيحيين - أى المسيحيين المتصهينين - هى «الأرض المقدسة»، والعمل على تنفيذ خطة استرداد فلسطين من أيدى المسلمين ما هى إلا فكرة صليبية جديدة.

وبعض المسلمين الفلسطينيين يحتفظون بحقهم بنفس المنطق والحجة. ففلسطين بالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين ولحركة حماس التى خرجت من عباءتها ما هى إلا «وقف إسلامى»، أى عطية من الله لا يمكن التفريط فيها. نجد ذلك منصوصًا عليه فى دستور حماس فى الباب الثالث، حيث نقرأ هذه الفقرة الفاصلة الحاسمة فى دستورهم كما يلى: «وتؤمن حركة المعارضة الإسلامية بأن أرض فلسطين لجميع أجيال المسلمين حتى يوم الدين وقف إسلامى. فليس من العدل التفريط فيها [فلسطين]، ولا فى جزء منها. ولا يملك حق التصرف فيها [فلسطين] أى دولة عربية وحدها، ولا كل الدول العربية مجتمعة، ولا ملك ولا رئيس، ولا الملوك ولا الرؤساء بأسرهم، ولا منظمة منفردة ولا جميع المنظمات مجتمعة»(١٠).

تدار الحرب إذن من أجل «العطية» فلسطين أو «الأرض المقدسة» أو «الوقف الإسلامى» من منطلقات نصوص دينية شديدة الصرامة وبالغة القسوة من العهد القديم. وفى هذه الحرب لا احترام من الجانبين للقانون الدولى المعمول به اليوم الذى ينظر إليه بنوع من التعالى السيادى. فحماس تقتل - داخل دولة إسرائيل المعترف بها دوليًا - مدنيين تقلهم حافلات للسفر، أو يتناولون طعامهم بالمطاعم، أو يتسوقون بالأسواق المزدحمة بالمارة. ولا تقتصر الضربات الإسرائيلية المضادة على منظمات هؤلاء المعتدين فحسب، بل تمتد دائمًا إلى رجال ونساء وأطفال فلسطينيين لا علاقة لهم بهذه الاعتداءات.

وتستخدم حماس فى تنفيذ حربها لاستعادة «الوقف الإسلامى فلسطين» السلاح البشرى، الذى تعبر عنه الأخبار الغربية باسم «انتحاريين». فحماس تطلق على ذلك السلاح «قنابل الاستشهاد» أو «قنابل الشهداء»، وهى تريد بتلك الوسيلة تحقيق التوازن إزاء التفوق العسكرى الإسرائيلى. وقد شرح الدكتور محمود الزهار - الطبيب بغزة ورجل الاتصال بوسائل الإعلام - منهج حماس كما يلى: «نحن لا نملك للأسف طائرات إف ١٦، ولا نملك طائرات أباتشى حتى نتمكن من الهجوم على الجيش الإسرائيلى. لذلك نقاتل بطريقتنا الخاصة... ومقاتلونا ليسوا انتحاريين، فهم قنابل استشهادية... وهم بشر

يقرأون القرآن وتاريخ الإسلام ومقتنعون بأنهم شهداء. فنحن لسنا شعبًا من المشعوذين، ففينا الأطباء والمهندسون وخيرة المثقفين والمتعلمين، تجدهم في حماس. نحن لا نحيا بالأساطير، نحن نحوز أعلى الدرجات العلمية في هذا المجتمع»[11].

ربما تتنوع الوسائل الحربية، ولكن تبقى نفس الرموز والأساطير التى تدور حول تلك الحرب. ففى عام ١٩٢٩ تظاهر عرب بالقدس بشكل عنيف ضد اليهود لأن حاييم وايزمان عقد العزم على وضع حائط المبكى الملتصق بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة تحت إدارة وسيطرة الصهاينة. وبعد ٦٧ عامًا ـ تحديدًا فى سبتمبر عام ١٩٩٦ ـ وقعت مصادمات عنيفة استمرت أيام بين فلسطينين وإسرائيليين فى نفس المكان، لأن الوريث السياسى لحاييم وايزمان ـ رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو ـ قام بافتتاح نفق حسمون الممتد عبر جبل الهيكل الحرم القدسى الشريف. رأى الإسرائيليون فى ذلك القرار مزيدًا من التأكيد البديهى لوجودهم فى الشطر العربى من القدس. واستذكر الفلسطينيون ما لحق بهم من أضرار وأضر بوجودهم حين استولى حاييم وايزمان على حائط المبكى، وكيف أن ذلك الفعل آنذاك جرح المشاعر الدينية جرحًا عميقًا. ثم دخل أرئيل شارون فى ٢٨ سبتمبر عام ٢٠٠٠، متبعا نفس المنطق، منطقة الحرم الشريف أو جبل الهيكل، تحت حماية بوليسية ضخمة. وكانت مباحثات السلام فى كامب ديفيد الثانية قبل ذلك بشهرين قد فشلت. وكانت الانتخابات فى إسرائيل على الأبواب، ومن ثم أراد شارون أن يبين لبنى وطنه ما هو متوقع منه كرئيس للوزراء، كما أراد أن يظهر للفلسطينيين مرة تلو الأخرى حق اليهود فى حيازة المقدسات الإسلامية.

أراد الإسرائيليون أيضًا التأكيد على حق وجودهم فى قلب منطقة الخليل، ففى وسط مدينة الخليل التى يبلغ تعداد سكانها إلى ١٢٠,٠٠٠ نسمة توجد مستعمرة يهودية. ومنذ سنوات يفرض على حوالى عشرين ألف فلسطينى ممن يسكنون بالقرب من هذه المستعمرة اليهودية بالحى القديم بمدينة الخليل حظر الخروج من منازلهم إلا فى أوقات محددة لكى يذهبوا لشراء ما يلزم معيشتهم أو لعيادة الأطباء.

وكانت الخليل أيضًا مسرحًا لعمل إرهابى يهودى بشع، فحتى يمكن الثأر لمذبحة اليهود على يد العرب التى وقعت عام ١٩٢٩ خطط باروخ جولدشتاين

فى فبراير عام ١٩٩٤ لارتكاب مذبحة، فتوجه جولدشتاين، الذى يعيش فى مستوطنة كيريات أربع، إلى المسجد القريب منه والذى يضم رفات أنبياء بنى إسرائيل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ويصلى المسلمون اليوم على جزء كبير منه، وأطلق الرصاص على تسع وعشرين مسلمًا وهم يؤدون الصلاة. أما هو شخصيًا فقد تم شنقه دون محاكمة من فلسطينيين ثائرين. واتخذت حماس من فورة العنف هذه مبررًا للقيام بعمليات انتقامية، وأغرقت إسرائيل بسلسلة من العمليات الانتحارية.

إن العنف الذى يجتاح الشرق الأوسط منذ أكثر من ثمانية عقود - كما هو ثابت هنا بالدليل - ويضرب بجذوره فى كل الأنحاء، يرجع إلى النظام الذى وضع عام ١٩٢٠ بعد الحرب العالمية الأولى. وهذا الدليل لا يعنى على أية حال أن أى جزء من العالم العربى نجا من ويلات التيار الاستعمارى للقوى المنتصرة - قد سار فى مسيرة تطوره فى سلام وارتياح. فكما يبين التاريخ، لاسيما فى شبه الجزيرة العربية، أن عادة حسم الصراعات بطريق الحروب تعد من التراث القديم لدى مجتمعات العشائر بالمنطقة. إلا أن السؤال القائل «ماذا كان سيحدث لو...؟» لا ترجى منه فائدة ولا يحتاج إلى جواب. فالسياسيون وكتاب التاريخ لايهتمون إلا بالحقائق وليس بالخيارات الضائعة. وإحدى هذه الحقائق تتلخص فى أن شعوب المنطقة - كما يوضح ذلك بصفة خاصة مثال فلسطين/إسرائيل ومثال العراق - غير راضية منذ زمن طويل، بل ولم تجد نفسها مع النظام الإقليمى الذى تم زرعه فيها عام ١٩٢٠. حتى حماس تحارب هذا النظام، إذ إن «حركة المقاومة الإسلامية» تلقى مزيدًا من الاستحسان والقبول لدى الفلسطينيين، ففى عام ١٩٩٦ أيد عشرون بالمائة فقط من الفلسطينيين العمليات الانتحارية ضد المدنيين الإسرائيليين. واليوم أعطى ثلثا الفلسطينيين أصواتهم لهذه الإستراتيجية. وسبب مثل هذا السلوك غير المفهوم بصفة خاصة فى الغرب يكمن فى حقيقة أن الفلسطينيين لا يرون أى أمل على الإطلاق فى إمكانية العيش فى المستقبل القريب فى دولة خاصة بهم.

وكما هو الشأن بالنسبة لنموذج «أعمال القتل خارج القانون» التى يقوم بها الجيش الإسرائيلى، فكذلك أعمال حماس الهجومية على المدنيين تخرق بوضوح القانون الدولى. ولكن القيادة العسكرية لحماس فى ذات الوقت معادية لأى إنتاج

من الناحية السياسية، فحماس لن تجنى أى تأييد من هذا النهج على مستوى الدائرة الحضارية الغربية التى تقدر فيها قيمة الحياة الإنسانية بقدر أكبر من مثيلتها فى الشرق الأوسط والتى تتميز بالعنف منذ سنوات طويلة. كما أن حماس بأعمالها الانتحارية تضع إسرائيل فى وضع الحصار. ولكن المحاصر، الذى طبعه تاريخ من الاضطهادات (الأوروبية)، يميل إلى أن يخرج رد فعله على شيء بعقلية فاجنبورج التى استشهدت بها حنا أرندت (Hannah Arndt)، وليس بالحلول الوسطى. والسياسيون من أمثال أرئيل شارون ممن يسيرون على درب فلاديمير جابوتنسكى يعرفون من خلال هذه الأفعال كيف يغتنمون الفرصة للعمل على إخضاع ما بقى من فلسطين ولم يحتل فى حينه.

الجزء الرابع

شعوب مكبلة ـ نظم متحجرة

الفصل العاشر

بلاد العرب ـ أحلام يقظة عن البهاء المفقود

«إذا أراد الله الهوان لأحد من خلقه، حرمه نعمة العلم».

من كلمات الإمام على بن أبى طالب

«يقف العالم العربى على مشارف القرن الحادى والعشرين عند مفترق الطرق... ويظل ـ الفقر ـ يشكل القاسم المشترك فى المجتمعات العربية المتعددة... وتدخل الدول العربية القرن الحادى والعشرين ولديها ستون مليون أُمىٍّ أغلبهم من النساء».

«التقرير العربى حول التنمية البشرية»

المقدم من برنامج الأمم المتحدة للتنمية (UNDP) عام ٢٠٠٢

نادرًا ما يصل مستوى الفشل إلى حد أن يمتد النقد الموجه لأحد أنظمة الحكم ليصل حجمه ١٦٨ صفحة مكتظة بالإحصاءات والاستشهادات، ولاسيما إذا وضعنا فى الاعتبار أن هذا النص نص موجز. فقد اتضح فى تقرير بحثى شامل لبرنامج التنمية التابع للأمم المتحدة (UNDP) لعام ٢٠٠٢، أن العالم العربى يعانى من نقص فى الحريات السياسية، ونقص فى التعليم، ونقص فى البحث العلمى، وجاء ترتيبه فى بعض المجالات بعد ترتيب أفريقيا السوداء. والمجالات التى يتراجع فيها العالم العربى فى مقابل مناطق أخرى فى العالم متعددة، فالدول العربية هى «أضعف دول العالم» من حيث تمويل العلوم والبحوث[1]. ولم تستطع المنطقة أيضًا فى مجال الإنتاج الصناعى أن تصمد أمام منافسيها. ففى عام ١٩٨١ بلغ إنتاج الصين نصف ما ينتجه العالم العربى، واليوم تنتج الصين أكثر من الضعف. وبلغ الإنتاج الصناعى لكوريا الجنوبية عام ١٩٨١ عشرة بالمائة من حجم إنتاج العالم العربى، وفى عام ١٩٩٥ تساوى كلاهما فى المستوى. ويشهد برنامج التنمية (UNDP) على عجز الدول العربية عن تحقيق

الحرية وعجزها فى ميدان المعرفة والتعليم. كما أن هناك أسفًا وشكوى من أن مشاركة النساء فى الحياة الاجتماعية يهبط تحت مستوى مناطق أخرى من العالم. وربما يقال إن الدول العربية قد حققت تقدمًا فى مجال التعليم، «إلا أن المستوى التربوى فى الدول العربية مجتمعة - حتى لو قيس بالمعايير التقليدية - لا يزال متواضعا، إذا ما قورن بمناطق أو حتى بدول نامية أخرى. «وقد أكد برنامج التنمية (UNDP) فى الفترة الأخيرة هذه النتائج البحثية فى تقريرين جديدين آخرين.

ومنذ عشرات السنين ومشكلة التخلف معروفة للجميع بمن فيهم السياسيون، فبعد أن تسلم حسنى الزعيم عام ١٩٤٩ زمام السلطة فى سوريا، قال عبارته الشهيرة: «أعطونى خمس سنوات وسأجعل سوريا مهد الثراء وقلعة التنوير مثل سويسرا»[٢]. واليوم يندرج الاقتصاد السورى تحت أقل النظم الاقتصادية ديناميكية فى المنطقة. فقد استغرق الأمر سنين حتى تقرر الإقدام على تجربة ثورية. وهى أن يسمح بإنشاء مصرف أو مصرفين غير تابعين للدولة (بنوك خاصة). وتخوف جهاز الدولة من ضرورة أن يتنازل عن جزء من سلطانه.

والسؤال عن أسباب تخلف العالم العربى، وكذلك السؤال عن الضعف الذى يجعل العالم العربى يسلم نفسه لتدفق الغرب وهجومه عليه - هذان السؤالان هما بطبيعة الحال وجهان لعملة واحدة.

ومن المؤكد أننا نواجه مشكلة إذا ما وزعنا هذه المشكلة التى نحن بصدد طرحها هنا على المسلمين والعرب، على الإسلام والعالم العربى، فمن المعروف أن تسعين بالمائة من العرب مسلمون. وهم يحددون عروبتهم من خلال اللغة العربية التى هى لغة القرآن. وحين نفتش عن الأسباب التى تجعل العالم العربى الإسلامى قليلاً ما يأخذ على عاتقه مواجهة الاتجاه الاستعمارى الغربى، فلا يسعنا إلا أن ندور حول سمة فاصلة فى هذا الأمر: إن المجتمعات العربية مرتبة حتى يومنا هذا وفقًا للقبائل والعشائر وكبار العائلات، وليس - كما فى الغرب - وفقًا لطبقات اجتماعية. هذا التراث العشائرى يضرب بجذوره إلى ما قبل ظهور النبى محمد الذى دعا إلى الإسلام - أى طاعة واتباع إله واحد. وهذا الإله ليس حكرًا على عشيرة عربية ليكون إلهًا خاصًا بها، كما يفهم الغرب دائمًا خطأً أن «الله» هو الإله الخاص بالعرب. فحتى مسيحيو الشرق يعبدون الله لأن اسم الله

ما هو إلا الكلمة العربية لكلمة إله. والرب الذى دعت إليه رسالة محمد هو وفقًا لكلام النبى نفس الرب الذى يعبده اليهود والمسيحيون.

كما أن إسلام النبى محمد يدعو إلى «الوحدة والإخاء والتضامن والعدل والسلام والتسامح والمساواة والنظام والالتزام»[٣]. وقياسًا على كل هذه الأهداف لم يبلغ العرب بالإسلام من كل ذلك إلا القليل. لقد كانت تعاليم محمد نوعًا من التحدى للنظام القبلى السائد بين العرب، وكان من المفترض أن تنتهى الخصومات الأبدية تحت لواء الإسلام. إلا أن ما نراه فى الواقع مختلف حيث يبدو لنا أن التراث القبلى امتد حتى القرن العشرين، بل وحتى إلى القرن الحادى والعشرين. لذلك فمن الحق كل الحق أن نفرق، عند معالجة رد فعل العالم العربى الإسلامى على الإمبريالية الغربية، بين المسلمين والعرب. كما أن كثيرًا من التطورات فى المنطقة تتضح من خلال التراث القبلى ـ المتوارث من الجاهلية ـ بشبه الجزيرة العربية وفى المناطق المتاخمة شمالاً. فلم نجد دولا أو «شعوب دول» حقيقية تتميز فيما بينها بهوية خاصة. كل ما وجدناه أناسًا كانوا يتحدثون لغة تركية وكردية، أو لغة عربية وأغلبهم مسلمون، وغالبًا منظمون وفقًا للقبائل والعائلات الكبرى. ولم يشرع بعض العرب، ممن يعيشون حتى اليوم فى حلم لم يتحقق بعد، فى السعى إلى العيش تحت مظلة واحدة يطلق عليها «أمة عربية»، إلا بعد الحرب العالمية الأولى.

وجاء البريطانيون والفرنسيون وألبسوا البادية العربية، التى هى بلاد بلا حدود ثابتة واضحة وبلا شعوب لها معالم دولة، لباسًا جديدًا وهو النظام القومى الدولى المستعار من أوروبا، فأحيطت القبائل بحدود وضعت وفقًا لمعايير إمبريالية. ولا أدل على ذلك من أمثلة صارخة غير منطقة شرق نهر الأردن (التى صارت الأردن منذ عام ١٩٤٦) والعراق. فلم يكن هناك شعوب يمكن أن يطلق عليها بحق أردنيون وعراقيون وسوريون. فلم يكن لديهم تراث قومى وملحمة قومية وأناشيد قومية تستند إليها لترفع بحق شعار كلمة «قومى». وقبل أن يلاقى ربه بقليل دون فيصل الأول، ملك العراق، فى مذكرات سرية قوله ـ أنه لايوجد «شعب عراقى»، وكل ما هنالك «مجموعات هائلة لا يمكن تصورها لكائنات بشرية لا تعرف معنى الشعور الوطنى» ليس إلا. «ومن هؤلاء الجماعات البشرية الهائلة نريد أن نشكل شعبًا نقوم على تدريبه وتربيته

ونخلصه من شوائبه»[٤]. ثم كتب بعد ذلك وكأنه يدق ناقوس الخطر، أن الصعوبات هائلة ومتعاظمة.

أما الشعوب الوحيدة فى الأصل التى تعيش فى المنطقة الواقعة بين النيل والفرات داخل نظام دولة، فكانوا هم المصريين والأتراك. أما الأكراد فهم شعب مقسم إلى قبائل ولكن ليس لهم دولة. والفلسطينيون تطوروا إلى أن يكوّنوا شعبًا، ولكن ليس لديهم دولة أيضا. واليهود شعب ولهم دولة إلا أنهم أسسوها على حساب أهل البلاد العرب.

وقضية بناء القومية العربية لم تنته أيضًا بعد أكثر من ثمانية عقود على تكوين الدول العربية. فقد تم تسمية المملكة العربية السعودية على اسم العائلة الحاكمة، كما أن المملكة التى أسسها ابن سعود من خلال معاركه هى أيضًا بعد مرور سبعة عقود على تأسيسها بلد تحكم وفقًا لقوانين وأعراف قبلية. وحين صارت الإمارة التى يغلب عليها الطابع البريطانى، عام ١٩٤٦ دولة الأردن اليوم، أطلقت على نفسها «المملكة الأردنية الهاشمية». ولم يتغير شىء فى هذه التسمية حين فر فى أثناء حروب الشرق الأوسط أعوام ١٩٤٨ و١٩٦٧ ما يزيد عن مليون لاجئ من فلسطين فى اتجاه الشرق، عبر نهر الأردن إلى «منطقة شرق نهر الأردن» السابقة، وعلى الرغم من أن الفلسطينيين يمثلون اليوم ثلثى السكان إلا أن المملكة بقيت مملكة الأسرة الهاشمية التى استوردها البريطانيون من مكة.

وكثير من «المواطنين» فى العالم العربى لا يعتبرون أنفسهم حتى اليوم مجرد عراقيين أو أردنيين أو لبنانيين أو سوريين، فهم يولون أيضًا وجوههم قبل هويتهم الثانوية ـ المتمثلة فى القبيلة أو الأسرة الكبرى أو ديانتهم (مارونى ـ شيعى ـ سنى ـ كردى ـ أشورى). وفى حرب ربيع ٢٠٠٣ تم إسقاط العراق فى غضون أربعة أسابيع، لأن أحدًا لم يرغب فى أن يتحد مع العشيرة الحاكمة لأولئك التكريتيين الذين تزعمهم صدام حسين. وعلى الرغم من أنه منذ الحرب العالمية الأولى قد تطور شىء بشكل طبيعى يشبه شعورًا قوميًّا أردنيًّا وعراقيًّا وسوريًّا، إلا أن العادات والتقاليد القبلية والأسرية المتوارثة قد تواصلت فى أساليب الحياة. فغالبًا ما تحدد مشاعر الولاء التقليدية التى تسود المجتمع العشائرى الضارب بجذوره فى التاريخ سلوك الناس، فالفلاح المصرى الفقير فى الريف يشعر بارتباط أقوى تجاه أحد أقاربه الموسرين ممن يشغل منصبًا كبيرًا فى المدينة

أكثر من ارتباطه بشركائه فى الفقر الذى يعيشونه سويًا فى القرية. فالولاء رأسيًا فى اتجاه المولى أو الراعى، وليس أفقيًا فى داخل الطبقة الواحدة.

وهناك نوع من تقسيم السلطة بين تحالفات العائلات، لكن لا وجود لذلك بين مجموعات فى مجتمع منظم تنظيمًا تعدديًا. فلم يكن للمدن الإسلامية قانون خاص بها يمكن من خلاله تحديد مقادير الطوائف والطبقات أو الأمراء. وبقيت المدن الإسلامية لا شيء سوى تجمع للقرى وسكانها، تحكم وتدار شئونها بمعرفة زعيم القبيلة. ويطلقون فى مصر على الحاكم لقب «محافظ» من ألفاظ الحداثة، ولكنه لا يعين بطريق الانتخاب، بل بأمر من الرئيس. فهناك علاقة تبعية وثيقة بين الناس والحاكم أو الرئيس أو الملك.

ولا نرى فى الأفق أى أمل للتحرر، بل على العكس: ففى سوريا قام الرئيس حافظ الأسد بتوريث السلطة لابنه بشار الأسد، وفى مصر ترغب أسرة مبارك الحاكمة فى نقل السلطة من الرئيس حسنى إلى الابن جمال. واليمن من الناحية الشكلية تحمل وصف جمهورية، ولكن الطبيعة الجبلية القاسية شجعت منذ قديم الأزل على شكل اجتماعى مقسم إلى قبائل وعشائر. ويرغب حاليًا أيضًا الرئيس عبد الله صالح فى توريث السلطة يومًا ما إلى ابنه الأكبر. وهكذا يتم إسباغ مبدأ المجتمع القبلى العربى على مؤسسة الدولة. فمن جمهورية سوريا تصير إقطاعية عائلة الأسد، ومن مصر العظيمة تصير إقطاعية عائلة مبارك، ومن اليمن إمارة وراثية لأسرة صالح. وبذلك تدخل عائلات الأسد ومبارك وصالح - وهم على أقل تقدير وفقًا للإجراءات الشكلية رؤساء لجمهوريات - فى صف الأسر الحاكمة بالوراثة لعائلات سعود (السعودية) وهاشم (الأردن) وآل خليفة (البحرين) وآل صباح (الكويت) وزايد (بالإمارات) وأسرة آل ثان (قطر). وأعضاء هذه الأسر يتقلدون الوظائف الحكومية الهامة، وتمثل هذه الدول القبلية فى المقام الأول مصالح الأسر الحاكمة وإماراتهم. ولم تكسر حركة الوحدة العربية التى جاهد من أجلها ذات يوم جمال عبد الناصر، حاجز التركيبات الاجتماعية العربية المتوارثة، بل لم تقدر على خلخلتها وإضعاف سيطرتها. والحقيقة المجردة: لا توجد ديمقراطية ومجتمع تعددى فى العالم العربى يحرر قوى الفرد من القيود وتضعها على الطريق الصحيح للتطور.

وبذلك قاد هذا الجمود والإصرار على التمسك بأواصر المجتمع الأسرى التقليدى إلى ضعف الدول القومية العربية داخليًا، ولم تعد هناك قوة خلاقة

حقيقية، إذ يخشى الحكام حتى يومنا هذا من أن إجراء أى إصلاحات حقيقية ملموسة يمكن أن تقلص من سلطتهم على البلاد. وتحت ضغط الاعتداءات الإرهابية لأسامة بن لادن ـ والولايات المتحدة الأمريكية التى ترغب فى استئصال شأفة الإرهاب مؤخرًا عن طريق إدخال إصلاحات ديمقراطية ـ أعلنت المملكة العربية السعودية فى أكتوبر ٢٠٠٣ عن إجراء انتخابات بلدية. وربما تكتسب وجهة النظر ـ القائلة بضرورة التزام الحذر فى عملية البناء الديمقراطى ـ على الأقل أهمية فى دفع عجلة التقدم بالمجتمعات العربية.

وعلى أية حال فإنه نادرًا ما نجد العجرفة والتكبر الأوروبى فى محله، وذلك لأنه حتى مرحلة العصور الوسطى كان الجانب التطبيقى الممارس حتى اليوم فى العالم العربى والخاص بتعضيد فكرة زواج السلالة الخاصة من أبناء العموم بنين وبنات من بعضهم البعض ـ كان مطبقًا فى أوروبا. لذلك وقفت الكنيسة الكاثوليكية ضد هذه العادة؛ لأنها تقصر محبة الغير التى تدعو إليها المسيحية على أفراد الأسرة، ولأن العائلات والأسر العشائرية التى تتقوى بالزواج من داخل أفراد السلالة تهدد حق الكنيسة العالمية فى ممارسة السلطة المهيمنة.

و«الحملة من أجل الديمقراطية» التى تقودها الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، لاسيما فى العراق، لن تلقى صدى كبيرًا لها فى تحقيق أهدافها على وجه السرعة، لأن كل وزير وكل محافظ لا يملك سوى السعى وراء سد رمق متطلباته الأسرية، كما يسعى فى أن يعتلى المناصب العليا ويصبح فى أقرب وقت عضوًا فى الأسرة العشائرية الحاكمة. فمثل هذا التطبيق لا يخدم الصالح العام، بل يعمل لمصلحة استمرار مسيرة التربيطات العائلية الخاصة. كما أنه يعمل على إضعاف القوة المركزية ويساعد على تفتيت الدولة. فبناء مجتمع تعددى ـ كيان قومى ـ بهذه الطريقة يصعب تحقيقه. وعلى العكس من ذلك فإن ألمانيا بعد الحرب العالمية استطاعت أن تحقق نجاحًا لمثل هذا التطور على وجه السرعة؛ لأن مشروع «المجتمع المدنى» كان معترفًا به رغم ديكتاتورية هتلر، ولأن «السلالات الألمانية» ـ بيوتات الأمراء من عائلات الهابسبورج وفيتلسباخر وهوهن تسوللر ـ كانت قد فقدت سلطانها منذ وقت بعيد.

أما فى الشرق الأوسط فى المقابل من هذه الصورة؛ فإن عدم توفر شرعية ديمقراطية ـ على النحو الذى يفهمه الغرب ـ يؤدى إلى نتائج سلبية بالنسبة لتجربة بناء دولة قومية قوية من الداخل وحديثة تقوم على مبدأ التعددية، وهى

تجربة لا تلقى حماسًا وترحابًا كما ينبغى لها. فالحكام والأسر المساندة لهم لا يهتمون فى المقام الأول بالصالح العام بل بالحفاظ على السلطة. أما المحكومون بدورهم يعلمون أنهم لا يستطيعون أن يضعوا ثقتهم فى «الدولة» التى فى أغلب الأحوال ما هى إلا مشروع لعائلة حاكمة. لذلك فمفهوم مثل «الصالح العام» غير معروف بالنسبة لهم على أوسع نطاق. ولأن الحكام لا يعنيهم شيء سوى الصالح الخاص، فلا يبقى أمام المحكومين سوى ترك السفينة تسير كما هى.

ومن الحرى بنا فى هذا المقام أن نستشهد بشاهد لا غبار ولا شبهة عليه مطلقًا، إنه عدنان أبو عودة وزير الإعلام الأردنى السابق ورئيس الديوان الملكى فى عهد الملك حسين. فقد كتب تحت عنوان «ما تقوله لنا حرب العراق عن وضع العرب» بجريدة «ديلى ستار» اللبنانية الصادرة بتاريخ ٢٧ مايو ٢٠٠٣، جملاً ذات دلالة كبيرة عن وضع المجتمعات العربية. بدأ أبو عودة حديثه بوضع العالم العربى بعد صدمة الهزيمة من إسرائيل فى عام ١٩٦٧ فقال: «ولأن كثيرًا من الحكومات العربية حين حلت الكارثة بالأمة العربية لم ترد استيعاب هذه الكارثة، وأطلقت على هذه الكارثة على سبيل التجميل كلمة «نكسة»، فقد أدى ذلك إلى حلول كارثة جديدة ـ إلى حرب العراق».

وصف عدنان أبو عودة أحد الأسباب فى ذلك الأمر فقال: « احتقر السواد الأعظم من الناس الأعمال الحكومية والأنشطة الرسمية وصبوا بدلاً من ذلك جم اهتمامهم على الرعاية بأنفسهم وعائلاتهم. وأصبح البحث عن عمل للعائلات ذات الدخل المحدود أو المنخفض هو الشغل الشاغل لهم. أما العائلات أصحاب الدخل المرتفع فحرصوا على تأمين إمدادهم بالتيار الكهربائى والمياه والغاز ونقل القمامة، كما اعتنوا بأن يحصل أولادهم بما يكفى من درجات جيدة تسمح لهم الدخول إلى الجامعات الرسمية. وينضم إلى الاهتمامات العادية الأخرى البحث عن وظيفة حكومية مرموقة من شأنها تخفيف الحاجز البيروقراطى وتسهيل الحصول على الجنسية الأمريكية أو الكندية أو الأسترالية... وفى المجتمع العربى فإن الهموم الخاصة هى التى تحكم حياة الفرد: فقط قليل من الناس قلقون على المجتمع. وعلى عكس ذلك فإن حياة المواطنين فى الدول الديمقراطية تتبع دائرتين متلازمتين تشملان الشئون الشخصية والعامة... فلا تستبعد الاهتمامات الخاصة للمواطنين فى الدول الديمقراطية دائرة الصالح العام، كما هو واقع فى العالم العربى الذى يهيمن عليه نظم حكم أبوية أو أوتوقراطية».

ويصل عدنان أبو عودة بعد ذلك إلى الختام قائلا إن محاولة العرب إقامة دولة حديثة قد باءت بالفشل إلى حد كبير، نظرًا لعدم وجود حرية سياسية بدرجة كبيرة، ولأن الذى يحكم فى أغلب الأحوال ليس القانون، بل تعسف الدولة، ولأنه لا تتوفر بالمدارس والجامعات التنشئة على الفكر السياسى النقدى، ولذلك فمشروع المواطن قد هبط إلى مستوى أقل من الدول النامية: «ونتيجة ذلك أن العالم العربى أصبح مهيئًا لتدخل واحتلال أجنبى يدخل باسم التعاون الأمنى وبحجة الحرب ضد الإرهاب. لقد أصبح المجتمع العربى تربة خصبة لنمو التطرف ـ برغم وجود بعض التقدم فى بعض الدول فى بناء إنجازات مادية وإقامة بنية تحتية... هذا هو السياق الذى بدأت فيه قوات التحالف حربًا على العراق استغرقت ثلاثة أسابيع. وانتهت الحرب بانهيار كامل للدولة ومؤسساتها».

ولماذا العراق بالتحديد؟ فقبل حروب صدام حسين الهزلية طرح حزب البعث الحاكم منذ عام ١٩٦٨ برنامجًا تعليميًا وإصلاحيًا شاملاً. وبفضل دولارات النفط وأيديولوجية تقدمية فى بادئ الأمر فقد خطا العراق على وجه السرعة خطوات جعلته ينتقل من مصاف الدول الأفضل «نموًا» إلى الدول المتقدمة فى العالم العربى، حتى أن هناك أوقاتًا فى فترة السبعينيات من القرن الماضى شعر فيها كل من عاش بالعراق بأنه فعلا «عراقى». ولا يفوتنا آخر الأمر ذكر رجل وقف خلف هذه الطفرة ولم يمارس مطلقًا ثمة سلطة حكومية. إنه ميشيل عفلق الذى أخذ على عاتقه بما أستورده من أيديولوجيات أوروبية ـ عن الاشتراكية والقومية ـ أن يصل إلى هدف يكاد يكون مستحيلاً، وهو محاولة التغلب على تفتت العرب وانقسامهم إلى قبائل وسلالات. فقد أخذ عن الفيلسوف الألمانى يوهان جوتفريد هردر مفهومه وتصوره فى أن الأمم لها روح وعقل. وأصبح شعار هدفه الكبير هو الـ «بعث» (إعادة الإحياء). شرع كل من ميشيل عفلق (مسيحى سورى) وصلاح الدين البيطار (سنى) وزكى العروسى (شيعى علوى) فى العمل على توحيد العرب فى سياق التحدى الأوروبى. كان المسيحى عفلق يؤكد على الدوام أهمية الإسلام، فأعلن ذات مرة أن عقل الأمة العربية هو الإسلام. وحين كان يؤكد على أهمية الإسلام، فهو كان يعنى أيضًا نجاة مسيحيى الشرق فى المجتمع الإسلامى واستمرار حياتهم. وأيد عفلق نظام التعددية: «حرية التعبير وحرية الاجتماع وحرية العقيدة وحرية الفن ـ هذه قيم مقدسة لا يمكن لاستبداد ما أن يحد من حدودها»[٥].

والأسلوب الذى كتب به ميثاق البعث الصادر فى عام ١٩٤٧ كأنه الإعلان عن الفردوس فى العالم العربى: «فالعرب يشكلون أمة واحدة فريدة وأن من حقهم الطبيعى العيش فى دولة واحدة وأن يعملوا على إطلاق طاقاتهم واستغلالها بحرية. ومن ثم ينبغى أن يكون «الوطن العربى» «وحدة سياسية واقتصادية». وأن أساس الحكم استقلال الشعب. «وحرية التعبير والاجتماع والعقيدة والعلم مقدسة ولا يسمح بتقييدها وعدم ممارستها بأى قوة كانت»[٦].

كتب ميشيل عفلق فى عام ١٩٤٠ مقالاً بعنوان: «القومية هى الحب قبل كل شىء آخر» وقال إن القومية قوة روحية لا تتعارض مع الدين، وهى عنصرية لأنها تنظر بتقديس للأمة العربية، ولكن لتكن أيضًا ثورية لأنها تسعى لتشكيل وتحويل المجتمعات العربية، ويمكن لكل فرد فى الدولة القومية العربية أن يكون مسلمًا مؤمنًا بالله، وفى نفس الوقت تقدميًا وحرًا وسعيدًا[٧].

هكذا وإلى هذا الحد كانت نظرية القومية العربية وحزب البعث (حزب البعث الاشتراكى العربى). صحيح أن التطبيق العملى سرعان ما أصبح شيئًا آخر، وصحيح أن البعث قد استسلم لتركيبات خاصة بالوحدة العربية. فقد تشكلت «قيادة قومية» لتمثيل الأمة العربية، إلى جانب «قيادات إقليمية» ـ فى سوريا والعراق على الأخص ـ عملت على مستوى الدولة القومية. ولكن سرعان ما جعلت السلالات العشائرية من البعث أداة لسيطرتهم على مقاليد البلاد مثل حالة الأقلية العلوية فى سوريا تحت قيادة عائلة الأسد، ومثل الأقلية السنية للعائلة التكريتية بقيادة صدام حسين. فتقاتلت الأسر مع بعضها البعض، حتى أن ثمة تعاونًا على مستوى قومى وثمة اهتمامًا بالمصلحة العامة للشعوب التى قهرها.. صارت غريبة إلى حد كبير لديهم ـ فلا نتعجب إذن من أن حافظ الأسد وصدام حسين أو البعث السورى والبعث العراقى، أو العلويين والتكريتيين سرعان ما صاروا ألد الأعداء. فمن بين محاولات الاعتداءات الكثيرة على صدام حسين كان هناك على الأقل محاولة واحدة تم التخطيط لها فى سوريا.

وحين توفى ميشيل عفلق عام ١٩٨٩ أصبح نسيًا منسيًا. لقد كتب عليه أن يرى بعينيه ـ وهو لا حول له ولا قوة ـ انهيار أفكاره وانهيارًا وراء انهيار «لأمته العربية». وأصبح تمثاله القائم بالقرب من مقر حزب البعث فى بغداد نسيًا منسيًا. وحين قام الحاكم الأمريكى فى العراق ـ باول بريمر ـ بحل حزب البعث فى ربيع ٢٠٠٣، فقد أزاح بذلك جهازًا سلطويًا استبداديًا لا يوجد به سوى قليل

من الأعضاء الذين آمنوا برسالة البعث. فكم أضر الانقسام والتشرذم إلى عشائر بمصلحة «المسألة العربية» التى تآمر عليها الحكام، وكثيرًا ما قاموا بخيانتها أيضًا. فذلك ما يتضح لنا من حدثين مصيريين للمنطقة فى القرن الماضى. فالأول يتعلق بالانتفاضة العربية ـ كما وصفت فى كتب التاريخ ـ أثناء الحرب العالمية الأولى ضد الحكم العثمانى التركى، ولأنه فى ذلك الوقت لم يكن هناك مثل اليوم أمة عربية موحدة، فلم تكن هذه بأى شكل من الأشكال انتفاضة قومية. والإنجليز هم الذين نظموها؛ لأنهم بحثوا عن حليف لهم فى العرب فى مواجهتهم للدولة العثمانية. كان فيصل الذى أصبح فيما بعد ملكًا على العراق وهو ابن الأمير حسين شريف مكة، بمثابة قوة ارتكاز للبريطانيين. وقد وصف جورج أنطونيوس ـ وهو فى ذلك الوقت أفضل خبير وعالم بأحوال المنطقة ـ وضع المجتمع العربى بهذه الكلمات: «إن وصف عدم الوفاق والاختلاف بين عشيرة وأخرى كان ملازمًا فى المجتمع العربى وفى تنظيمه القائم على القالب العشائرى وفى تشعباته وتحزباته المتعددة. إلا أنه داخل العشيرة الواحدة كان يسود التماسك واللحمة على العكس تمامًا من الفرقة ـ إحساس قوى بالتضامن والتضحية والعطاء بكل الجوارح، وبدرجة لا يرقى الشك إليها فى سبيل العشيرة وسمعتها الطيبة. وفى مقابل ذلك كان التصور المتعارف عليه عن حب الوطن بمثابة أحد أمور الفكر التى لا تجد تحمسًا لها... [لأنه] لا توجد رابطة دم واحدة يمكن أن تربط أو توحد قبيلة بأخرى»[٨]. ونظرًا لعدم وجود وعى قومى عربى شامل، فقد اضطر فيصل أن يقنع القبائل التى أراد أن يحركها للثورة ضد العثمانيين، بالأموال التى أغدقها الإنجليز عليه. واتجه هدف أسرة فيصل فى ذلك الحين منذ البداية إلى الاعتماد على أسلحة الإنجليز، وليس إلى الوصول إلى الحكم فى إطار موجة الحركة «القومية»، فكان من الطبيعى أن تخفق الخطة. وكانت النتيجة هى العالم العربى المتدهور الذى لا حول له ولا قوة، والمقسم إلى دول والذى خضع مع دخول القرن الحادى والعشرين باحتلال العراق من قبل الأمريكان والبريطانيين لمزيد من الهوان.

ومرة أخرى أخفق العرب ـ أو بالأحرى النظم العربية ـ فى حرب الشرق الأوسط عام ١٩٤٨ بعد تأسيس دولة إسرائيل. فالرواية الإسرائيلية التى تقول بأن جيشًا يهوديًا صغير الحجم واجه قوات مسلحة عربية متماسكة ذات قيادة جيدة وانتصر عليها، قد اعتبرها مؤرخون إسرائيليون جادون منذ زمن طويل ضربًا من

الدعاية. ولكن الحقيقة الثابتة أكثر من ذلك: هى أن عالمًا عربيًا غير موحد كما هو الحال دائمًا اعطى مرارًا وتكرارًا فرصة لسياسيين أمثال بن جوريون وجولدا مائير لاستغلال الانشقاقات والخصومات العربية. وكان الخصمان الأساسيان على الجانب العربى هما الملك الهاشمى عبدالله ملك الأردن والحاج أمين الحسينى الذى قام الإنجليز بتعيينه فى منصب مفتى القدس، وتزعم بين حين وآخر الثورة العربية التى اندلعت من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٩. فكلاهما تصارع حول قيادة المنطقة ـ لا سيما حول تلك القطعة من التورتة ـ فلسطين التى أقرتها خطة تقسيم الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ للعرب. صحيح أن عبد الله أمر جيشه ـ الذى هو فرقة عربية تحت أوامر السير البريطانى جلوب باشا ـ أن يقاتل، ولكن هذا القتال إلى حد كبير من أجل قطعة فلسطين التى شغلت فكر العرب، وليس من أجل الوقوف ضد دولة إسرائيل الفتية ذاتها.

وكما تبين فى الحرب العالمية الأولى وفى السنوات التى استقر فيها نظام مابعد الحرب، فإن الهاشميين والصهاينة كانوا أيضًا فى حرب الشرق الأوسط الأولى عام ١٩٤٨ حلفاء فى صمت وهدوء. وكان شهود ذلك الزواج السياسى بين العروسين هم ـ بطبيعة الحال ـ البريطانيين. ففى نوفمبر عام ١٩٤٧ بالتحديد، أى قبل الحرب بخمسة شهور، تقابلت جولدا مائير ممثلة «الوكالة اليهودية» مع الملك عبدالله سرًا واتفقا على إحباط طموحات المفتى. وصارت حرب الشرق الأوسط الأولى من أجل فلسطين بالنسبة للجامعة العربية التى تأسست فى هذه الأثناء بمثابة الاختبار الكبير الأول لها. وفشلت الجامعة بشكل مؤسف ومحزن. واعتبر عبد الرحمن عزام أول أمين عام للجامعة العربية ـ وهو عم أيمن الظواهرى الذى صار فيما بعد إرهابيا ـ المفتى رجلاً بغيضًا مكروهًا، ووصفه بـ «مناحم بيجين العرب» وأن من واجب سياسة الجامعة العربية تجميد شخصية الحاج أمين الحسينى[٩].

كان هناك متواطئ سورى آخر مع الصهاينة وموال لهم. إنه قائد «جيش التحرير العربى» فوزى القاوقجى. فقد كان هدفه الأساسى العمل على استبعاد المفتى. وتقابل القاوقجى مع يهوشع بالمون أحد ضباط الهاجاناه، أى الجيش الوطنى الإسرائيلى، ووعد السورى الإسرائيلى، حتى ولو كانت كلماته غير محددة، بأن جيش التحرير العربى التابع له لن يهجم فى أغلب الظن فى حالة محاربة الهاجاناه للفلسطينيين التابعين للمفتى. وقد التزم القاوقجى بذلك الاتفاق غير

الموقع حين شرعت الهاجاناه فى فتح الطريق المغلق من الفلسطينيين بين القدس وتل أبيب. فصمتت الأسلحة العربية وحلت الهزيمة(١٠).

ولا تكمن الأسباب الدفينة الحقيقية لهذه الكارثة أو «النكبة» والتى دخلت فيها هزيمة ١٩٤٨ تاريخ العرب فى تلك المعركة الحربية الخاسرة أو فى غيرها. ولكن سر البلاء يمكن التماسه فى تمزق المجتمع الفلسطينى وفى قيادته السياسية المدمرة. فقد تقاتلت عائلات كبرى مثل عائلة الحسينى وعائلة النشابيشى حول زعامة المجتمع الفلسطينى. لقد كان هذا المجتمع بدوره مقسمًا إلى سلالات وعائلات متفرعة من السلالات؛ أهدت ولاءها وإخلاصها إلى زعيم العائلة عن أن تمنحه «للمسألة الفلسطينية» مجردة عن أية اعتبارات. لقد هرب كثير من الفلسطينيين من هول المذبحة بدير ياسين قبل الحرب، وآخرون فضلوا عقد اتفاقيات مع الجار اليهودى الجديد. وهكذا وصل الأمر إلى أن الفلسطينيين لم تتعد نسبتهم عشرة بالمائة ضمن القوات المسلحة العربية بأسرها التى دخلت معركة قتال ضد إسرائيل(١١). وفى مقابل ذلك أظهر الصهاينة أنفسهم على أنهم الصفوة المنظمة تنظيمًا جيدًا، متماسكة الصفوف وعاقدة العزم على أهدافها. تلك الصفوة التى حاربت من أجل أهدافها المنشودة، ومن أجل مجتمع يهودى موحد مكون من مائة ألف نازح.

استفادت إسرائيل حين افتضح أمر القيادة الفلسطينية دوليًا من خلال تواطئها ومخططاتها مع النازى الألمانى، وذلك لأنه ما من أحد آخر غير الحاج أمين الحسينى ـ الذى قضى بعض سنوات الحرب فى برلين ـ أراد فى ذلك الوقت تمثيل مسألة الفلسطينيين تجاه شعب أدخل لتوه فى سعير معسكرات التجميع الهتلرية. ربما يجيب البعض لصالح الحاج أمين الحسينى أنه لم يعلم بحجم عمليات الإبادة إلا فى مرحلة متأخرة، كما يدعى بعض الألمان لأنفسهم. إلا أن من يتواطأ مع النازى أو يمالئه فهو على غير الدرجة التى تهيئه لإجراء محادثات باسم الفلسطينيين. وفى ربيع عام ١٩٤٧ أصدرت منظمة الأمم المتحدة قرارها بتعيين «اللجنة الخاصة بفلسطين التابعة للأمم المتحدة (UNSCOP)» لإعداد تقرير عن الوضع فى منطقة الانتداب البريطانى. وخرج تقرير اللجنة بعد مرور ستة أشهر بقرار تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية. وقد وصف أحد أعضاء هذه اللجنة وهو جورج جراسيا ـ جراندوس تمثيل العرب من خلال «اللجنة العربية العليا» بأنه «تدرج سياسى، يرأسه أحد العملاء السابقين

للنازى»[١٢]. والأسوأ من ذلك أن «اللجنة العليا» التى يرأسها الحسينى رفضت أن تتحدث مع أعضاء وفد لجنة الأمم المتحدة (UNSCOP) رفضًا مطلقًا أثناء تنقلها بفلسطين. وكان رأى أعضاء اللجنة أنه لن ينجح أحد فى مسعاه بدون ذلك ـ أى بدون تأسيس دولة إسرائيل ـ تجاه ما سيسفر عنه المستقبل من أحداث. وكان هذا التقدير سليمًا بلا جدال، إلا أنه كان من الأفضل المشاركة فى تطور الأمور وتوجيهها بدلا من مقاطعة ما تقوم به المنظمة من جهود، وهى آنذاك حديثة التأسيس وتواجه مرحلة إثبات الذات.

ونظرًا لأن إسرائيل كثيرًا ما تعرج على تواطؤ الحاج أمين الحسينى مع النازيين من أجل معركة الدعاية حول فلسطين، فمن المناسب فى هذا المقام الإشارة إلى تحالفات أخرى من هذا النوع. فكما أوضحنا سابقًا أن العراقى رشيد الكيلانى سعى أثناء الحرب العالمية الثانية إلى تقوية مركزه فى مواجهة سلطة الاحتلال البريطانى بالتماسه إقامة تحالف مع هتلر. وقد نما إلى علم الكيلانى فى ذلك الوقت ـ وهو عام ١٩٤١ ـ على الأرجح أمر الهولوكوست سواء بقليل أم بكثير، مثلما كان الحال مع تلك المجموعة من الصهاينة اليهود بشأن أبراهام شتيرن و«منظمته العسكرية القومية» المعروفة باسم إرجون والتى أرادت عقد تحالف مع هتلر من أجل حل المشكلة اليهودية الأوروبية ـ كما جاء فى تعبيرهم.

ووفقًا لتصورات منظمة إرجون التى طالبت بجميع الأراضى الواقعة بين النيل والفرات فى إقامة دولة يهودية، كان من المفروض ترحيل الشعب اليهودى بأسره المتواجد بأوروبا إلى فلسطين، وذلك بعد القيام أولاً بطرد العرب المتواجدين هناك. ونقرأ فى إحدى المذكرات التى بعثت بها منظمة إرجون إلى اثنين من ممثلى ألمانيا الهتلرية بتاريخ ١١ يناير عام ١٩٤١ ما يلى: «وتقع فكرة إقامة دولة يهودية تاريخية على أساس قومى جماعى ـ ارتباطًا بتعاقد مع الرايخ الألمانى ـ فى بؤرة اهتمام تأسيس قاعدة حكم ألمانية دائمة وقوية فى الشرق الأوسط»[١٣].

وكان هناك أيضًا محاولة فى الهند المحتلة من بريطانيا للسعى إلى عقد تحالف مع أعداء إنجلترا فى الحرب ـ مع ألمانيا واليابان. والرجل الذى عقد هذا التحالف مع القوى الفاشية من أجل محاربة سلطة الاحتلال البريطانى يدعى صبهاس جاندرا بوز (Subhas Chandra Bose)، فقد دخل فى صراع مع سلطة

الاحتلال فى وقت مبكر وتعاون لمدة طويلة مع حركة غاندى التى ناضلت بالعصيان المدنى ضد الإنجليز. واستطاع بوز فى يناير ١٩٤١ الإفلات من تحديد الإنجليز لإقامته ثم وصل إلى ألمانيا؛ حيث عمل بإذاعة قام بتمويلها النازيون بغرض بث برنامج دعائى ضد الإنجليز بلغات آسيوية مختلفة. وفى عام ١٩٤٣ وصل بوز بغواصات ألمانية ويابانية إلى طوكيو، وعمل على بناء «جيش قومى هندى» حتى وصل به بالفعل إلى الهند[١٤].

فالمحاولات التى سعى إليها رشيد الكيلانى و أبراهام شتيرن وجاندرا بوز والحاج أمين الحسينى فى عقد تحالفات مع أعداء بريطانيا العظمى فى الحرب كانت محاولات وليدة السياسة اليومية وحكم عليها بالفشل فى مساعيها من أجل تحسين الوضع الخاص لكل منها باستخدام وسائل تكتيكية، والهزائم التى انتهت إليها كان من غير الممكن على الإطلاق الحيلولة دون وقوعها.

لقد خسر العالم العربى فى أقل من تسعة عقود حروبًا مصيرية وأصاب نفسه بتلك الخسارة بجراح لا حدود لها. والثورة العربية الفاشلة فى عام ١٩١٦/١٩١٧ والهزائم التى وقعت بمنتهى الاستهتار والطيش أعوام ١٩٤٨ و١٩٦٧ ثم احتلال الدولة العربية المحورية العراق عام ٢٠٠٣ ـ كل ذلك ماهو إلا بعض الأمثلة. وقد حرم صدام حسين باعتدائه على إيران العالم العربى من مليارات الدولارات كان من الأفضل إنفاقها فى بناء المنطقة. فالوحدة العربية تشبه السراب الذى يتلاشى دائمًا وأبدًا كلما استدعته نظم حكم عربية.

وفشل العرب فى حرب العراق عام ٢٠٠٣ يذكرنا بفشلهم فى عام ١٩٦٧، حين سحقت إسرائيل خلال ستة أيام جيوش مصر وسوريا والأردن، كما يذكر أكثر من ذلك بالحرب الخاسرة عام ١٩٤٨. وقد سبق أن نعى السورى قسطنطين ك. زريق الوضع العربى المزرى عام ١٩٤٨، وزريق الذى كان عالمًا تربويًا ويدين بالمسيحية ألف فى ذلك الوقت عقب الكارثة العربية كتابًا صغيرًا بعنوان «معنى النكبة». ويتضمن هذا الكتيب جميع البراهين التى لا تزال حتى اليوم سارية المفعول. ضمن زريق كتابه أن العرب لن يهزموا الصهاينة ماداموا يعيشون على «وضعهم الحالى»، والسبب فى انتصار الصهيونية يكمن فى حقيقة أن «جذور الصهيونية يمكن التماسها فى الحياة الغربية الحديثة». فهم (الأوروبيون) الذين يعيشون فى الحاضر وفى المستقبل، بينما

نحن لا نزال نعيش على أحلام الماضى، ونتبلد استنادًا على الشهرة التى أفل نجمها. «ويرى زريق أن اليهود يجرى فى دمائهم معنى الوطن. فهذا الاعتقاد الراسخ فى نفوسهم لا وجود له عند العرب. ولكن يمكن إرجاع إرادة اليهود القوية إلى الحياة الغربية الحديثة، ولذلك فاليهود لديهم استعداد لأن يخطوا بسرعة إلى الأمام وللتقدم.»ويتحتم على العرب أولاً فى مقابل ذلك أن يتخلوا عن «عقليتهم البدائية الساكنة» وأن يستبدلوها «بعقلية تقدمية ديناميكية». والتقدم يعبر عن نفسه فى «الفصل بين الدين والدولة» وفى تحول طبيعة الشخصية العربية من خلال «فكر نسقى منظم»، وكذلك فى العلوم التجريبية وأخيرًا فى توديع «الرومانسية» البعيدة عن الواقع. وختم زريق حديثه بقوله : «وتحت الضربات الصهيونية انتهت حياتنا الحاضرة إلى إفلاس أخلاقى ومادى مخيف»[١٥].

أما كيف يمكن أن نأخذ العبرة من الإفلاس، ونبدأ بداية جديدة؛ فذلك موضوع العديد من الأبحاث العربية. هناك كم هائل من المعالجات لحالة الجمود التى اجتاحت المجتمع العربى بعد هجمات المغول فى القرن الثالث عشر، وبعد احتلال الأتراك فى القرن السادس عشر. كما أن هناك كثيرًا من الكتب تتحدث عن مواجهة الشرق القديم للعالم الغربى الحديث. أما أن موضوع الصدام الذى حدث بين الحركة الاستعمارية الغربية الحديثة والمجتمع العربى الإسلامى كان له أيضًا نتائج إيجابية، فذلك ما عبر عنه منيف رزاز ـ الأمين العام السابق لحزب البعث السورى ـ كما يلى: «أحدث الاكتشاف المفاجئ لما عليه أوروبا والمدنية الغربية صدمة للعالم العربى الإسلامى المتغطرس الغارق فى أحلامه»[١٦]. وتجد كاتبًا آخر وهو عبدالله على القاسمى يحاسب صراحة الموقف العربى الإسلامى فى كتابه «تلك هى القيود» حيث يقول:

«أما القول بأن الإنسان لم يخلق لعظمة مستقبلية وأن «الجمود هو ما يرضى عنه الله»، فالتاريخ يبين أن الإنسان فى الشرق والغرب بإمكانه تحقيق تقدم، إلا أن الشرق لا يستفيد من أمكانياته وقدراته[١٧].

لذلك لا نتعجب أن الغرب له قوة جذب سحرية وخاصة على كثير من الشباب. ففى ظل ضيق الحياة الشخصية من خلال فروض خاصة بالتقاليد القبلية والأسرية، ومن خلال ما تمارسه الشللية من سيطرة مفروضة على كثير من المراكز والوظائف، ينظر كثيرون إلى «الغرب» على أنه منطقة تحقيق الإمكانيات

الاقتصادية والخاصة بلا حدود، والسؤال الآن أليست «البطاقة الخضراء (الجرين الكارد)» الأمريكية ـ أى حق العمل والإقامة بالولايات المتحدة الأمريكية ـ أكثر جاذبية وإغراء من إشهار السلاح فى وجه أمريكا؟ سوف يصوت كثير من الشباب لصالح البطاقة الخضراء.

فالعصابات الفاسدة الحاكمة تكاد لا تهتم فى أى وقت كان بتلك المسائل الجوهرية لكل العرب، وتخشى النظم الحاكمة حتى يومنا هذا من أن توقظ تلك القوى الاجتماعية من سباتها من خلال إجراءات سياسية إصلاحية تنقلب عليها بعد ذلك. فلا يوجد قط بصيص أمل لتفعيل الديمقراطية فى نظام واحد من هذه النظم الحاكمة، فأصحاب السلطة يعوقون دائمًا مسيرة التطور نحو مجتمع مدنى قوى يعمل على الاستفادة من تلك القوى الاقتصادية والثقافية.

لم تفوت النظم الحاكمة بالمنطقة قطار الإصلاح على مجتمعاتها فحسب، بل إن كثيرًا من القائمين على هذه النظم قد جعلوا من أنفسهم أعمدة تقوم عليها العمارة الاستعمارية التى ثبت أركانها بالمنطقة الإنجليز والفرنسيون عقب الحرب العالمية الأولى ـ أى أن يقفوا ضد إرادة الشعوب بممارسة هذه النظم.

وينطبق هذا الوضع الذى يصفه كثير من العرب بالخيانة، على كل حكام شبه الجزيرة العربية (ربما باستثناء اليمن)، وهو ينطبق فى كل وقت على الدولة المصنوعة ـ الأردن؛ التى لا تستطيع الحياة دون معونات الغرب لها، ولكن ينطبق ذلك أيضًا على مصر منذ أن «انفتح على الغرب» أنور السادات بعد عام ١٩٧٠، كما يتردد فى لغة الإعلام الأوروبى والأمريكى؛ حيث توصف كل هذه النظم فى لغة الإعلام بأنها «معتدلة»؛ لأنها لاتتعارض والمشروع الاستعمارى للغرب.

وفى مقابل ذلك فإن حافظ الأسد يعتبر فى نظر السياسيين الغربيين والإعلام الغربى متطرفًا نظرًا لخصوصيته، وهو متطرف فى نظرهم لا لشىء إلا لأنه يقوض العمارة الاستعمارية البريطانية الفرنسية، وذلك لأن السياسيين بالغرب يصدرون أحكامهم على الحكام العرب بقدر ما يخضع هؤلاء لسياساتهم، وليس بمعيار نزولهم على رغبات شعوبهم. ويطلق الكاتب سعيد. أبو الريش على ارتباط بعض النظم العربية بتلك القوى والتى تعد فى نظره ذات عواقب وخيمة بوصفه صداقة متوحشة[١٨].

عاش العالم العربى إذلاله الأخير باعتقال صدام حسين ١٣ ديسمبر ٢٠٠٣، فالرجل الذى كان ينظر إليه كثير من العرب ـ لاسيما الفلسطينون ـ على أنه حصن المقاومة الاستعمارية ضد أمريكا، سلم نفسه بلا مقاومة. فى حين توقع الفلسطينيون على الأخص أن ينازل صدام حسين الأمريكان فى حرب ختامية وسيسقط فى كرامة. وقد تساءل كثيرون برام الله وغزة عن السبب فى أن الرجل الذى دفع لكل عائلة من تلك العائلات الكثيرة التى سقط أبناؤها فى عمليات انتحارية عشرة آلاف دولار تكريمًا واعترافًا بالشجاعة الشخصية لم يكن على استعداد لأن يضحى بنفسه مثل كفاح الفلسطينيين وموتهم فى بطولة يشهد عليها التاريخ.

عبرت تعليقات صحف عربية عن ترحيبها بخبر القبض على الطاغية، إلا أن بعض الصحفيين أعربوا عن أسفهم بأن الذى رفع صوته فى المنطقة مرة ثانية «الغرب» وليس العالم العربى. كان من الأفضل ـ هذا ماذكرته بعض الافتتاحيات فى صوت مرتفع ـ إكرامًا لعزة النفس العربية لو أتى العراقيون بصدام حسين ـ وليس الأمريكان. وليتها كانت فكرة الخصوصية العربية فى مواجهة الغرب ـ كما جاء فى صحيفة «الحياة» العربية التى تصدر فى لندن ـ ليتها كانت أكبر وأعظم من ذلك الرجل الذى مثّل ـ كما يقال ـ هذه الفكرة. سيطارد العالم العربى لسنوات طويلة شبح تلك اللقطات والصور لمثل أعلى مزيف سابق وهو يسحب من جحر كالجرذ أشعث أغبر ذليلاً، يجرى عليه أحد الأطباء الأمريكان فحصًا طبيًا لشعره وأسنانه. ومرة أخرى يغمر العرب شعور عميق بالإهانة.

ولهذه الإهانات نفسها التى لحقت بالعرب تاريخ طويل. فبعد أن احتل زعيم المغول هولاكو بغداد عام ١٢٥٨ سأل آخر خليفة عباسى عن السبب الذى لم يجعله يلقى عليه بسهامه ورماحه من أبواب قصره الحديدية الضخمة حتى يعوقه (أى هولاكو) من عبور نهر دجلة، فأجاب الخليفة «لأن الله أراد ذلك». فرد عليه هولاكو: «أما ما سيحدث معك سيكون أيضًا بإرادة الله». ونفذ حكم الإعدام فى الخليفة[١٩].

جاء فى تقرير برنامج التنمية البشرية التابع للأمم المتحدة (UNDP) الذى استشهدنا به فى صدر هذا الفصل والخاص بحالة العالم العربى أن البشر الذين يعيشون فى الدول العربية يظفرون بأقل درجة من الحرية السياسية من بين سبع مناطق تم اختيارها على مستوى العالم. وكثير من العرب يشعرون بيأس غائر فى نفوسهم بسبب الحالة البائسة المستمرة منذ عشرات السنين فى مجتمعاتهم. وفى

يوم ٦ يونيو عام ١٩٨٢ اتخذ أحد هؤلاء اليائسين، وهو الأديب والأستاذ الجامعى اللبنانى خليل الحاوى - قراره الشخصى اعتراضًا على الوضع العربى المتأزم وبطريقة درامية أقدم الحاوى على الانتحار وهو جالس فى شرفة منزله ببيروت. وقع هذا الحادث فى نفس اليوم الذى انقض فيه الجيش الإسرائيلى برئاسة وزير الدفاع أرئيل شارون على لبنان حتى يطرد الفلسطينين التابعين لياسر عرفات. كان الأستاذ الحاوى قد طرح على زملائه قبل ذلك أسئلة لا إجابة لها: «ماذا تبقى للعرب؟ من يستطيع أن يمحو وصمة العار من على جبينى؟» كان خليل الحاوى أحد الوطنيين العرب ممن نعى لسنوات طويلة حالة عدم الحرية والاستعباد التى أصبح عليها وطنه العربى. وقد عبر زملاؤه فى العمل حين تلقوا خبر انتحاره عن رأيهم فى ذلك بقولهم إنه «النطق بالحكم على الأوضاع فى العالم العربى»[٢٠]. وبعد مرور واحد وعشرين عامًا على ذلك، وبعد حرب العراق عام ٢٠٠٣، فلا نرى فى الأفق نظامًا عربيًا واحدًا يستطيع أن يمحو «وصمة العار» التى استشعرها خليل الحاوى من على جبين المجتمعات العربية.

الفصل الحادى عشر

الإسلام - حب مبغوض لغرب ملعون

«إذا ما نظرنا حولنا بنظرة فاحصة، تبين لنا أن جميع مجالات العلوم التى عرفها ووثق بها أولئك الفرنجة فى حياتهم وثوقًا تامًا، نجدها إما غير متوافرة بما يكفى فى تعليمنا أو غير معروفة كلية لدينا. ومن لا يدرك معرفة الشىء فسيخضع لمن يجيد هذا الشىء نفسه»

من كلمات الشيخ رفاعة الطهطاوى - القاهرة ١٨٣١

هناك عصر فى التاريخ الإسلامى كانت فيه الفلسفة والتفكير المستقل وتفتق قوى الشخصية وانطلاقها تشكل مقومات الحضارة. فقد ازدهرت العلوم على عهد العباسيين الذين حكموا من بغداد فى الفترة من القرن التاسع حتى القرن الحادى عشر. وفى أوروبا بدأت انطلاقة يمكن مقارنتها بتلك الفترة عند العرب اعتبارًا من القرنين الرابع عشر والخامس عشر. إلا أن الحكم العباسى ببغداد تحول إلى الاستبداد، وسيطر الخوف على الخلفاء فى أن العقول المستقلة يمكن أن تكون مصدر خطر على حكمهم. لذلك دخل السجون فلاسفة ومخالفون فى الرأى وخصوم الحكم. وغربت الشمس نهائيًا عن ذلك العصر الذهبى الإسلامى العربى مع هجمة التتار عام ١٢٥٨. وتعتبر حتى اليوم نهاية الحضارة الإسلامية العظيمة التى تسامحت وتحملت فيها سلطة الدولة التفكير الحر المستقل وعملت أيضًا على تشجيعه - تعتبر نقطة توقف عسيرة فى التاريخ العربى الإسلامى. ولم يظهر شعاع واحد من شمس العظمة السالفة على المجتمعات العربية المعاصرة مرة ثانية.

ومن يتابع اليوم تاريخ المواجهات العربية الأوروبية أو الإسلامية الأوروبية، فإنه يواجه دائمًا بالسؤال القائل: لماذا لايقدر العالم الإسلامى على الوقوف فى وجه الزحف القادم من أوروبا فى التاريخ الحديث إلا قليلاً (وهى مشكلة تواجه بالطبع دوائر حضارية أخرى). ولا ننكر عدم وجود مقاومة غالبًا ما تتحول عن

أهدافها المنشودة وتصبح بلا معنى. وحرب الإرهاب التى يقودها أسامة بن لادن محاولة إجرامية غير إنسانية تضع العالم الإسلامى فى محل قذف واتهام، كما تخالف القانون الدولى الذى تلجأ إليه غالبًا ـ وعلى الأخص الدول الضعيفة ـ هى محاولة لإيقاظ قوة كاذبة فى مواجهة خصم بغيض لأنه متفوق على الآخر.

إلا أن ذلك على الجانب الآخر من البديهيات: فالحضارات متباينة وينبغى أن تبقى كذلك. والتكبر الغربى كما يصفه تحديدًا الأديب الألمانى «كارل ماى» على لسان شخصية رواياته عن الشرق «كارا بن نمسى» فى رحلته التى ألفها من وحى خياله عن روايته «من بغداد إلى أسطنبول» ـ فى غير موضعه ولايصح. فقد أوضح كارا بن نمسى لأحد أعدائه من المسلمين السبب فى أن «الله» قد منح المسيحيين أسلحة حديثة ولم يعطها للمسلمين. وراح الرجل القادم من الغرب المسيحى يتحدث ويحاضره بإحساس التفوق الذى يملكه الغرب فى كل زمان ومكان، فقال: «لأنهم سوف يسيئون استخدامه، والله لطيف خبير. فهو يهب مثل هذه الأسلحة فقط للمسيحى الذى لا يضع يده عليها لاستخدامها إلا حين ينفد صبره فيما يريد أن يظفر به».

فلو أنه لا يوجد سوى دائرة حضارية واحدة ـ مثلما أطلق قديمًا على الحضارة الغربية ـ لنضبت الأفكار على مستوى الكرة الأرضية. أما السؤال التقليدى الغربى الذى يُطرح بحثًا عن السبب فى أنه لا يوجد سوانا مبدعين دون غيرنا، ولماذا لايشاركنا آخرون فى تحقيق ما وصلنا إليه من ذلك «التقدم» فى بناء دائرة حضارية أوروبية، فذلك مبعثه رؤيتنا غير المناسبة للعالم من منطلق أوروبى مركزى. فالحضارات الأخرى قد أخرجت إلى الدنيا قيمًا مساوية لقيمنا. فمن عايش ذات مرة الشعور الغامر بالتدين لكثير من المسلمين، ومن رأى رؤية العين كيف أن الناس ينسون أنفسهم على الملأ وهم يتلون القرآن، فسيطرح على نفسه سؤالاً عما إذا كانت أوروبا قد فقدت فى مسيرتها نحو الدولة العلمانية بعضًا من كيانها الروحى والنفسى.

أما حالة رجل مثل محمد عطا ـ أحد المعتدين الأساسيين فى أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى عدم استلهامه لروح الحياة فى الغرب فذلك ما يمكن ـ إذا أردنا تبسيط الأمور ـ إرجاعه فى بساطة إلى تطرفه. ولكن يتعين علينا هنا أيضًا أن نتساءل بمزيد من الدقة عن ذلك الشىء الذى قاد هذا الشاب إلى النفور من أسلوب الحياة الغربية. ولن نخرج أساسًا عن إجابتين فى الرد

على ذلك: إما أنه لم يفهم حقيقة طبيعة الحياة فى ظل الليبرالية أو لم يرغب مطلقًا فى منهجها، أيضًا لأنه قد صار من أشد المؤمنين برجال من أمثال أسامة بن لادن. أو أنه شاهد بنفسه - تحديدًا فى محيط مدينة هامبورج - ذلك الفساد الأخلاقى وبؤره المعروفة هناك، مما ساعد على اقتناعه بما يقال فى أن الغرب قد أفلس ويجب توجيهه إلى طريق الصراط المستقيم. ولكن ربما أن محمد عطا دون أن يشعر كان يعانى نفسيًا من تلك الهوة العميقة بين موطنه المصرى والحياة فى ألمانيا لدرجة تفضيله محاربة الحضارة الغربية عن قبوله بعض مزاياها. فى كل الأحوال يمكن القول بأن محمد عطا المسلم الذى جاء من مصر لم يقدر على مواجهة أسلوب ونسق حياة، يطلق عليه غالبًا مصطلح «الحداثة الغربية».

جاءت اللحظة الحاسمة لتلك المواجهة بين أوروبا والإسلام حين احتلت جيوش نابليون مصر عام ١٧٩٨. كان صدام الحضارات فى ذلك الوقت أشد بكثير من حرب سلاح الفرسان والمشاة. وقد عبر عبد الرحمن الجبرتى عن دهشته حين شاهد الأسلوب العلمى المنظم الذى يعمل به الغزاة، فدون الجبرتى ملاحظاته الخاصة بالعلماء الفرنسيين: «كانوا يأخذون حيوانًا غريبًا عليهم أو سمكة... ويضعون الجسم بأكمله فى ماء صنعوه بطريقة ما. بحيث يمكن الحفاظ على الجسم. «كما أن الجبرتى تعجب كل العجب من هؤلاء الدخلاء على البلاد الذين راحوا يقضون ساعات وساعات للدراسة والبحث فى المكتبات.

وقد أدرك المصريون على وجه السرعة أن عالمهم الذى يسير فى هدوء وسكون لا يصل إلى مرتبة الحركة الديناميكية للفرنسيين ولا يقارن به. وبعد أن قبض محمد على (سقطت أسرته عام ١٩٥٢ على يد عبد الناصر) على زمام السلطة بالقاهرة فى خضم الاضطرابات التى حدثت فى ذلك الوقت عقب وصول نابليون، بعث بأهل البلاد من أمثال رفاعة رافع الطهطاوى، إلى البلد الذى أرسل قواته لاحتلال مصر - إلى فرنسا. وقد رأى الطهطاوى فى فرنسا النموذج المثالى لمجتمع حديث. كما أن «الإرساليات» - كما أطلق فى ذلك على البعثات الثقافية التى أرسلها محمد على إلى فرنسا - تعين عليها الإلمام بكثير من المعارف بقدر الإمكان حتى يمكن لمصر أيضًا اللحاق بركب الحداثة الأوروبية. كان الطهطاوى قد تلقى تعليمه فى إطار واحد وهو التبحر التقليدى فى علوم الدين الإسلامى.

ورغم ذلك وضع شهادته بلا غيرة ولا حقد على الإنجازات العلمية لأوروبا. ففى تقريره الذى ألفه عن إقامته بباريس التى دامت خمسة أعوام، كتب الطهطاوى أنه يتعين «إنقاذ الشرق من ظلمات الجهل». وبتقدير واحترام متناه أرسل الطهطاوى تقريرًا من باريس إلى القاهرة، قال فيه: «وبلاد الفرنجة ـ على سبيل المثال ـ بلغت أعلى درجات التمكن والاتقان فى فروع العلوم الرياضية والفيزيقية والميتافيزيقية ... حتى أن بعض الأوروبيين لديهم معارف وفيرة فى بعض العلوم العربية استطاعوا من خلالها فهم دقائقها وأسرارها...»[١].

والسؤال عن كيفية الرد على الثورة الاجتماعية والثقافية والصناعية الفريدة حتى وقتنا هذا فى تاريخ العالم، والتى تأهبت من خلالها أقلية من سكان العالم فى أوروبا وأمريكا، لأن تسيطر على العالم، لم تجب عليه حتى الآن دول العالم العربى الإسلامى إجابة شافية للصدور. كما أن بعض المسلمين ممن جاءوا تباعًا بعد الشيخ الطهطاوى أقاموا البراهين على ضرورة العمل على نقل الإنجازات الاجتماعية بأوروبا إلى دول العالم الإسلامى. وأخذ بهذا الرأى تحديدًا التونسى خير الدين التونسى. ففى كتاب له صدر فى عام ١٨٦٧ تحت عنوان: «الحرية فى الدول الأوروبية ومزاياها للنهوض بالأمة» امتدح خير الدين التونسى الحرية الفردية والسياسية التى يمنحها النظام البرلمانى هناك بأنه نظام متوافق تمام التوافق مع الإسلام. فالإسلام ـ كما كتب ـ يدعو إلى «دفع الظلم». بل إن هذا التصحيح بدفع الظلم هو ما نادت به وشددت عليه الشريعة ـ أى القانون الذى جاء فى القرآن، وهى مسئولية لاتقع على الفرد المؤمن، بل هى فرض جماعى يقوم على تحقيقه نخبة مختارة من المؤمنين ممثلين لأفراد المجتمع. وأضاف التونسى أنه إلى جانب الحرية الفردية والسياسية فأوروبا لديها امتياز آخر، وهو ما يطلق عليه «حرية الصحافة». وهذا يعنى «لا شىء يقف حائلاً فى وجه أحد دون نشر رأيه فيما يخص المصلحة العامة فى كتب أو فى المجلات التى تصل بأخبارها إلى عامة الناس فى المجتمع»[٢].

وهناك مفكرون آخرون مثل جمال الدين الأفغانى، لم يتحمسوا للحضارة الأوروبية مثل هذا الحماس. فعلى الرغم من أنه لم يطمئن لهذه الفجوة المنفتحة ـ كما كان يرى ـ بين أوروبا والعالم الإسلامى، إلا أن الأفغانى كان يرى مثل التونسى أن جميع المقدمات الضرورية التى دفعت بعجلة التقدم الأوروبى ـ من

علم وعقلانية وتصميم شخصى ـ هى أيضًا من صميم الإسلام. إلا أنها طمست عبر قرون الانحدار والإضمحلال. ولذلك فالنهضة الإسلامية ضرورية. وقد كتب عن الفرنسيين أنهم بذروا بذور «الليبرالية» و«الشيوعية» وأنهم نظروا للأديان السماوية على أنها «اختراعات» أوجدها تعطل العقل البشرى».

على أنه كان هناك مثقفون مسلمون آخرون لم يقتصر موقفهم من الحضارة الأوربية على إظهار إعجابهم بها، فوجهوا سهام نقدهم إلى الاستعلاء الذى يعاملهم به كثير من الأوروبيين. أحد هؤلاء النقاد هو المصرى محمد عبده، الذى ناصر انتفاضة أحمد عرابى فى عام ١٨٨٢. وقد أصدر محمد عبده بالاشتراك مع جمال الدين الإفغانى فى الثمانينات من القرن التاسع عشر مجلة «العروة الوثقى» بباريس. وأراد محمد عبده من خلال هذه المجلة تعبئة المسلمين للوقوف فى وجه الاستعمار الأوروبى، فقامت السلطات بمصادرة المجلة على الفور.

إلا أن المجلة قد أحدثت صدى كبيرًا فى العالم الإسلامى فى الشهور القليلة من إصدارها. ففى أحد إصداراتها كتب الشيخ محمد عبده تقريرًا عن محادثاته التى أجراها مع وزير الحربية البريطانى اللورد هارتينجتون. وذكر على لسانه قول الوزير: «ألم يُرض المصريين أنهم يعيشون فى أمان وهدوء فى ظل سلطة الحكومة الإنجليزية؟ أليس من رأيهم أن حكومتنا أفضل لهم من حكومة الأتراك والباشوات؟».

أجاب محمد عبده قائلاً: «لا بالقطع». فالمصريون شعب عربى وهم مسلمون إلا قليلاً منهم. وهم فى حبهم للوطن ليسوا أقل من الشعب الإنجليزى. ولا يخطر على بال أحد منهم قط أن يخضع لقوة أولئك الذين يختلفون عنهم فى الدين والعرق...»، فرد عليه الوزير قائلاً: «هل تنكرون أن الجهل فى مصر قد عمّ كل ركن فيها وأن الشعب بأكمله لا يفرق بين حاكم أجنبى وآخر من أهل البلاد؟».

بدا الغضب على محمد عبده، فقام بتلخيص رده على ذلك فى ثلاث نقاط. قال فى الأولى إن بغض الحكم الأجنبى من طبيعة البشر أجمعين ولذلك فهو فى غير حاجة إلى مزيد من التبرير. وقال فى الثانية إن المسلمين ليسوا جهلاء هكذا كما تخيلهم الوزير، بل إن الأميين أيضًا « ليسوا محرومين من العلم، ولهم حظ منه كما توصى تعاليم الدين». وقال فى الثالثة إن العلوم والفنون قد انتشرت فى مصر مثل انتشارها فى أوروبا منذ تولى محمد على سلطة البلاد[٢].

وبنظرة إلى حياة محمد عبده فيما بعد يتبين لنا أن شأنه شأن ابن جلدته عبدالرحمن الجبرتى فى بداية القرن التاسع عشر، كان يقدر تقدم العلوم فى أوروبا خير تقدير، ولو لم يعلن ذلك على الملأ. فقد حاول محمد عبده تحقيق مطلب رفاعة رافع الطهطاوى على أرض الواقع فى العمل على تشجيع التعليم والعلوم فى مصر كما هو الحال فى أوروبا ـ وبمساعدة سلطة الاحتلال البريطانى. وقد بذل كل ما فى وسعه ـ حين كان شيخا للأزهر، بصفة خاصة فى العمل على بناء نظام للتعليم وعلى جعل الإسلام منفتحًا على العالم بحيث يصبح «عقيدة عقلية عالمية». وقد كان محمد عبده مفتونًا بالطريقة التى سار عليها مستشار الرايخ الألمانى بسمارك، وهى ـ على حد رأيه ـ أنه أدمج الدين والإيمان الشخصى فى العمل السياسى. واستشهد محمد عبده فى كتابه «الإسلام دين المدنية فى خدمة الوطن» بخطاب لبسمارك كان قد ألقاه أمام دائرة صغيرة من الثقات، وقال: «لو أقلعت عن إيمانى بديانتى، فلن أعمل بعد ذلك على خدمة مولاى ساعة واحدة. ولو لم أعتمد على ثقتى بالله، فلن أعهد بها مرة واحدة مطلقًا إلى أحد الأرباب الدنيويين... (وفى صميم عملى) لا يحركنى شىء آخر سوى إحساس بأننى أوجه وجهى فى جميع أعمالى إلى الله. ولولا إيمانى بالعناية الإلهية التى قدرت لهذه الأمة الألمانية قدرًا عظيمًا، لألقيت من على كتفى فى التو واللحظة ما حملت به من أعباء ومهام الحكومة»[٤].

ومشروع محمد عبده نحو بناء إسلام منفتح على العالم ويحمل الصفة الوطنية فى نفس الوقت، وفقًا لنموذج الدين المسيحى الذى حوى نفس الصفتين، ما هو إلا محاولة للاستناد إلى الحداثة الأوروبية من جانب، ثم هو فى نفس الوقت محاولة للتصدى للاستعمار الأوروبى من جانب آخر. وجاء طه حسين ليقوم على مشروع مشابه لذلك ومتجه بدرجة أكبر نحو أوروبا. ولد طه حسين عام ١٨٨٠ ولم يستطع منذ نعومة أظافره الإبصار، ورغم ذلك درس بجامعة الأزهر الإسلامية، وكان لفترة أحد تلامذة الشيخ محمد عبده. ذاع صيت طه حسين بعمل مؤلف من جزءين، وصف فيه، كيف أن شابًا أعمى البصر أبصر الدنيا شيئًا فشيئًا. وبعد ذلك ازداد اهتمام طه حسين بمسألة تنمية العالم الإسلامى وتطويره، لا سيما فى مصر، حتى يلحق بركاب الغرب. وفى عام ١٩٣٦ عقدت مصر وإنجلترا اتفاقية أنهت من خلالها على المستوى الرسمى الاحتلال البريطانى. إلا

أن القوات البريطانية بقيت فى منطقة قناة السويس حتى عام ١٩٥٦. ورغم هذا الشرط فقد رأى طه حسين فى الاتفاقية فرصة لبداية جديدة، وبأنها بمثابة تكليف للمصريين بأن يخطوا خطى الغرب.

كان طه حسين فى السنوات السابقة لذلك قد دوّن أفكاره الخاصة بذلك الموضوع بمنتهى الدقة. فكتب: «صدقنى عزيزى القارئ، إذا ما حققنا يومًا ما استقلالنا وأرسينا قواعد الديمقراطية فى مصر، فإن واجبنا الوطنى سينحصر، وبكل ما نملكه، بل أكثر من ذلك - بسواعدنا وبعزيمتنا وقوتنا وبمالنا - فى أن ندع المصريين - جماعة وأفرادًا - يشعرون بأن الله خلقهم للمجد وليس للهوان، وأنه خلقهم للقوة وليس للضعف، وللاستقلال وليس للعبودية، وللصيت والشهرة وليس للإبهام والنكران. علينا أن نشعرهم بأن الله قد نزع من قلوبهم هذا التوهم المخيف الآثم بأنهم لم يخلقوا من أرض أخرى عن أرض الأوروبيين وأنهم ليسوا بذكاء يختلف عن ذكاء هؤلاء... علينا أن نصبح أوروبيين فى كل شكل من أشكالهم ونقبل فى ذلك جميع الجوانب الجيدة والرديئة. علينا أن نتبع سبيل الأوروبيين حتى نكون شركاء لهم فى الحضارة لنا نفس الحقوق التى لهم»(٥).

مشروع الإسلاميين المناقض للمشروع السابق

ظهرت حركة على طرف نقيض لمدرسة فكر محمد عبده وطه حسين، وهى التى يطلق عليها اليوم الأصولية الإسلامية. وترجع أصول هذا المشروع الخاص بمجتمع تحكمه قوانين القرآن والتراث الشفهى للنبى (الحديث) إلى أولئك الذين يرون أنه كان هناك فى صدر الإسلام مجتمع مثالى يخلو من المشاكل، وأنه يتعين العمل على استرجاعه حتى ننتصر على مكاره زماننا وشدائد حاضرنا. والأب الروحى لهذه الفلسفة هو المصرى حسن البنا، الذى انحدر من قرية تقع بالقرب من الإسماعيلية، وهو مؤسس جماعة «الإخوان المسلمين». لم يحصل حسن البنا على الدرجات العلمية الأكاديمية التى حازها محمد عبده أو طه حسين، فقد كان مدرسًا ابتدائيًا. وكان يشاهد يوميًا نصبًا تذكاريًا للاختراق الأوروبى لوطنه؛ كان يرى يوميًا فى الإسماعيلية قناة السويس التى شقها الفرنسيون. وحين أسس حسن البنا فى عام ١٩٢٨ جماعة الإخوان

المسلمين، كان العالم الإسلامى يبحث كما يفعل غالبًا عن رد على التحدى الأوروبى الذى أسقطته فى ذلك الحين أيضًا دولة إسلامية مثل تركيا الحديثة وتخلصت منه. ففى عام ١٩٢٤ ألغى ـ كما عرضنا من قبل تفصيلاً ـ مصطفى كمال أتاتورك نظام الخلافة.

يرجع تأسيس الجماعة إلى فكرة الإسهام فى العمل على استعادة العالم الإسلامى لوحدته. إذ دعا حسن البنا فى عام ١٩٣٦ فى كتابه «نحو النور» إلى إلغاء الأحزاب السياسية وإصلاح القانون بحيث يتوافق والشريعة الإسلامية من جميع جوانبها. دعا البنا فضلاً عن ذلك إلى «تسلح أخلاقى للشباب والاهتمام بالجهاد»، كما نادى بتعضيد الإسلام على مستوى العالم، لاسيما بالإسلام فى العالم العربى. وبدأ البنا معركته بالتشجيع والدعوة إلى الإسلام على مستوى الجهات الحكومية وأولى الأمر. وانتهى الأمر به إلى فرض رقابة على السلوك الشخصى للموظفين. فقد أراد التأكد من أن الموظفين فى المصالح الحكومية وفى الحياة الخاصة يطبقون قواعد الإسلام[٦].

لاقت دعوة حسن البنا على الفور استجابة من أعداد غفيرة فى العالمين العربى والإسلامى. إلا أن النظام الحاكم أدرك أن هذه الجماعة تشكل خطرًا على وجوده، وذلك لأن جماعة الإخوان المسلمين ألقت بمسئولية الهزيمة العربية عام ١٩٤٨ على الحكومات بالقاهرة ودمشق وبغداد وعمان. ونظرًا لمعارضتها للأسرة الملكية المصرية فقد فرض حظر على الجماعة وتم إيقاف نشاطها على المستوى الرسمى. فجاء الرد على ذلك فى شكل أول عمل عنيف مستتر بعباءة الإسلام؛ إذ قام أحد الإخوان باغتيال رئيس الوزراء المصرى محمود فهمى النقراشى. وخرج رد السلطات الرسمية بالدولة بتنفيذ أول حالة إعدام فى تاريخها دون محاكمة قانونية. وفى ١٩٤٩ قام أحد عملاء الملك فاروق السريين باغتيال حسن البنا. كانت هذه الأعمال العنيفة بمثابة الشرارة التى أشعلت حربًا ـ غير معلنة ومستمرة حتى اليوم ـ مع سلطة الدولة. وفى عام ١٩٥٤ قام الإخوان المسلمون بمحاولة اعتداء على الرئيس جمال عبد الناصر الذى أسقط عام ١٩٥٢ فاروق عن عرش البلاد فى انقلاب عسكرى غير دموى. فأمر عبد الناصر بإلقاء القبض على العشرات من جماعة الإخوان وإيداعهم السجون وتعذيبهم.

وفى سجون التعذيب التى فتح أبوابها عبد الناصر اختمرت فكرة نظرية أشد صرامة للإسلام السياسى. وكان صاحب هذه النظرية هو سيد قطب، وكان فى الأصل ناقدا أدبيا منفتحا بأفكاره فى الأساس على أفكار العالم الغربى كلية. وأقام فى الأعوام من ١٩٤٨ حتى ١٩٥٠ بالولايات المتحدة الأمريكية بتكليف من وزارة الثقافة المصرية. وجعلت فترة الإقامة هذه بالغرب من سيد قطب (تمامًا مثل حالة محمد عطا بعد ذلك) عدوًا لأسلوب الحياة الغربية كما جعلت منه أحد أشهر المنظرين للإسلام السياسى حتى يومنا هذا. ووفقًا لرأى كثير من الخبراء فإن سيد قطب يعد بمثابة «الشخصية المقدسة» لحركة البعث الإسلامى، فكتاباته تعتبر فى مقام «إنجيل ماو الثورة الإسلامية»[٧]. أعلن سيد قطب فى مؤلفه «معالم على الطريق» الذى يصفه اتباعه بالشهير ـ أعلن فى فصل يحمل عنوان «الجهاد فى الإسلام» الحرب على جميع «الملوك والرؤساء» الذين نازعوا الله فى السلطان، وهو «وحده صاحب السلطان».

ونقرأ فى دفاعه عن دولة إسلامية السطور التالية:

«ويعنى هذا الإعلان أن انتزاع قوة الله وسلطانه من أياد مغتصبيها وترد إلى الله، وهو يعنى ملاحقة أولئك الذين انتزعوا سلطان الله لأنفسهم ويحكمون بقوانين وضعوها بأنفسهم، كما نصبوا أنفسهم سادة وجعلوا الآخرين عبيدًا لهم حيث يحكمون، وهذا الإعلان يعنى تحطيم ملك البشر لإفساح الطريق أمام إقامة ملك الله فى الأرض».

ولكن الاستناد إلى الدعوة إلى الله لم تفسح طريقًا لحل المشكلة الأساسية؛ فهذه المشكلة الأساسية لا تزال قائمة دون تغير منذ قرنين من الزمان، فقد حققت أقلية من خلق الله فى أوروبا والولايات المتحدة قفزة لا يمكن اللحاق بها تكنولوجيًا إلا بعد فترة طويلة، ولم يتغير العالم العربى الإسلامى الذى نتحدث عنه تغيرًا جوهريًا عبر مئات السنين. والغرب «متقدم» عن أوضاع تسود العالم العربى الإسلامى تشبه تلك الأوضاع التى سادت أوروبا فى العصور الوسطى، وقد حقق الغرب ما يطلق عليه عمومًا كلمة «التقدم». وفى مقابل ذلك ظل العالم الإسلامى فى أحسن الأحوال كما هو دون تغير، وقياسًا على حالته فى عصره الذهبى على عهد الدولة العباسية، فإنه قد فقد العلم والقدرة بدرجة عالية، وخلف الواجهات المتلألئة البراقة فى بعض العواصم العربية يعيش الناس وفقًا لتقاليد بدوية ترجع لمئات السنين. صحيح أن الناس يقبلون على منتجات التكنولوجيا المتقدمة الغربية،

إلا أنهم ينظرون إلى الفكر الديناميكى الذى صنع هذه المنتجات نظرة استغراب. وقد بلور لورد ليتون الحاكم البريطانى فى الهند فى الفترة من ١٨٧٦ حتى ١٨٨٠ المشكلة الأساسية لتلك المواجهة بين الأقلية «المتقدمة» والأغلبية فى السطور التالية: «إننا نجلب نظمًا غاية فى التطور من الحضارة الأوروبية إلى مجتمع شرقى عملاق، ولم يكن لها وجود مرة واحدة على الإطلاق فى تاريخه ومجتمعه ومقاييسه وعاداته وتقاليده. ومفاهيم مثل التسامح الدينى وحرية الصحافة والحرية الشخصية وفرض القانون على الجميع... كل هذه المفاهيم ينظر إليها فى الهند على أنها معادلات غامضة أو ألغاز خاصة بحكم أجنبى ثقيل الظل وغير مفهوم كلية من الأغلبية العظمى من الشعب، على الرغم من أنها تستخدم لصالحهم».

وهنا بيت القصيد «لصالحهم»، إلا أن هذا الصالح لا يرغب فى رؤيته بأى حال من الأحوال كثير من أولئك الذين ينبغى أن «يتطوروا».

وما كان يراه أديب مثل روديارد كيبلنج «عبئًا من أعباء الرجل الأبيض»، عبئًا يأخذه على عاتقه لتربية الآخرين، لم يكن بالنسبة لكثير من الآخرين سوى استعمار محض. ورغم أن رفاعة رافع الطهطاوى قام بترجمة «مدونة قوانين نابليون» إلى اللغة العربية، ورغم أن الإنجليز خلفوا وراءهم فى الهند نظامًا ديمقراطيًا فعالاً، إلا أن ذلك بالنسبة لكثيرين مثل الإخوان المسلمين تحديدًا مجرد مؤسسات غريبة عليهم يملكها السادة المستعمرون، ويجب رفضها ومحاربتها.

إلا أن الحكام المستبدين فى الدول العربية أيضًا لم يعملوا على تحديث بلادهم. فهم يحاربون ثمة حركات تنشأ مثل حركة الإخوان المسلمين لأنهم يرون فى أتباعها مناوئين لهم على السلطة. ورغم ذلك ظلت جماعة الإخوان عنصرًا سياسيًا مؤثرًا. وقد تعاملت النظم الحاكمة بأساليب متفاوتة تمامًا مع هذه الحركة التأسيسية الإسلامية، فالديكتاتور السورى حافظ الأسد شن حربًا على الإخوان عام ١٩٨٢ بمدينة حماة، وسوى حيًا كاملاً بالأرض واغتال المئات منهم. ومنذ ذلك الحين ساد هدوء المقابر فى سوريا. أما الملك حسين بالأردن سلك مسلكًا آخر مع جماعة الإخوان، إذ جعلهم «حزب المعارضة الموالى لجلالته»، حيث أدمج المعارضة الإسلامية بمهارة فى النظام السياسى بالأردن وسمح لهم بتواجد محدود فى البرلمان. كما أغدق على زعمائهم الهبات المالية وجعلهم يتواءمون مع حياة القصر، ثم قام بتحييد الحماس الإسلامى باتباعه سياسة الاحتضان.

ونظرًا لأن جماعة الإخوان المسلمين حاربت ذات مرة بشكل فعال نظام حكم الملك فاروق ونظام عبد الناصر، فهم مضطهدون فى مصر حتى اليوم. ومعظم رءوس الإخوان فى مصر كما في الأردن ينتمون للطبقة المتوسطة المثقفة. فمنهم أطباء ومهندسون وأساتذة جامعات. وفى مصر يتم غالبًا إلقاء القبض عليهم بشكل جماعى قبل إجراء ثمة انتخابات برلمانية ويلقى بهم فى السجون لعدة أسابيع. وقد قررت المحكمة الدستورية بمصر قبل إجراء الانتخابات البرلمانية لعام ٢٠٠٠ عدم إشراف وزارة الداخلية على العملية الانتخابية، ويترك ذلك للإشراف القضائى حتى يمكن القضاء على ظاهرة تزوير الانتخابات الذى تمارسه الحكومة. وقد التفت الحكومة على هذا القرار فى كثير من الحالات بأن وضعت المتاريس بشكل مكثف أمام لجان الاقتراع التى يكسب المعركة الانتخابية فيها أحد الإخوان المسلمين ومنعت وصول الناخبين إلى صناديق الاقتراع.

وكما حدث أيضًا فى تاريخ بعض الحركات الإسلامية، فقد مر تاريخ جماعة الإخوان المسلمين بمرحلة خدمت فيها الجماعة الحكام على اعتبارها الكثرة المراوغة فى حوار السياسة الداخلية. فقد أراد الرئيس أنور السادات، الذى تولى السلطة عقب وفاة عبد الناصر عام ١٩٧٠، استبدال قاعدة السلطة القديمة التى انحصر دورها على المسرح السياسى الخاص بسلفه فى الحكم، وهم من الناصريين والاشتراكيين. وأراد أن يضع مكانهم قاعدة سلطة جديدة يدخل فيها أيضًا الإسلاميون؛ لذلك أمر السادات بالإفراج عن الكثير من الإخوان المسلمين من السجون التى أدخلوا إليها دون دليل على ارتكاب جريمة فى معظم الحالات. كما أضاف السادات إلى الدستور المصرى فقرة تنص على اتخاذ الشريعة ـ أى القانون المحدد نصًا فى القرآن والتراث الشفهى للنبى ـ مصدرًا للتشريع. ومن خلال تلك المناورة السياسية قصيرة النظر حصلت جماعات إسلامية مثل «الجماعة الإسلامية» على حق الوجود. وانتهى الأمر بسقوط السادات ضحية التكتيك السياسى الذى انتهجه، ففى يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٨١ وقع حادث اغتياله بالقاهرة عند تفقده العرض العسكرى، ذلك العرض الذى كان يقام سنويًا بمناسبة عبور القوات المصرية لقناة السويس عام ١٩٧٣. كان الجانى هو خالد الإسلامبولى ـ أحد العسكريين الذين كانوا أعضاء فعالين سواءً فى «الجماعة الإسلامية» أو فى جماعة «الجهاد الإسلامى».

لم يرفع شيء من قوة حركة الإسلام السياسى ودعم نشاطها مثل الهزيمة العربية الساحقة فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، فقد صارت الأفكار الخاصة بالاشتراكية والوحدة العربية التى صنعها عبد الناصر كقاعدة أيديولوجية للحرب ضد النظام الاستعمارى الذى وضعه البريطانيون فى الشرقين الأوسط والأدنى، فارغة ولا أثر لها. فلم تستطع هذه الأفكار القيام بتحديث المجتمعات العربية البالية والتى حكمت بنظم استبدادية. إذ خضعت بلاد العرب فى جميع المجالات تقريبا «لبنية صهيونية مصغرة». واستشعر ذلك على الأخص ممثلو الإسلام السياسى. «الإسلام هو الحل» ـ كان ذلك منطوق الشعار العلاجى الجديد الذى عمل على تقوية المجتمعات العربية. إلا أنه للوصول إلى ذلك الهدف النهائى ولتحقيق النصر النهائى على إسرائيل كان ينبغى أولاً وقبل كل شيء التخلص من الحكومات الفاسدة. وحينئذ فقط ـ هكذا كانت رؤية الإسلاميين ـ يمكن مقاومة الغرب ونظامه الاستعمارى.

وكان أحد رجال حركة ٦٧ الإسلامية، ممن قرروا حتمية السير على درب الحركة الإسلامية هو أيمن محمد ربيع الظواهرى الذى ينحدر من عائلة مصرية ذات قدر وجاه. فوالد الظواهرى كان طبيبًا وأستاذًا بجامعة عين شمس بالقاهرة، وينتمى لعائلة الظواهرى الأمين العام الأول للجامعة العربية عبد الرحيم باشا عزام، وكان جده أحد كبار شيوخ جامعة الأزهر الإسلامية بالقاهرة. قلبت هزيمة ١٩٦٧ حياة الظواهرى رأسًا على عقب، وكثير من المسلمين المتشددين دينيًا قد تحولوا فى ذلك الحين إلى «إسلاميين»، إلى أناس يؤمنون بالدور الحاسم للإسلام فى النزاع السياسى والعسكرى فى مواجهة حكومات بلادهم من جهة، وفى مواجهة إسرائيل من جهة أخرى. ولا نستطيع الادعاء بأن كل الإسلاميين تحولوا إلى إرهابيين. فمنتصر الزيات ـ أحد زملاء الدراسة للظواهرى، وتولى فيما بعد الدفاع عن الإسلاميين فى كثير من القضايا ـ يطالب بالتغيير السلمى للمجتمع والتحول إلى دولة ذات توجه إسلامى.

ولكن فى المقابل سار الظواهرى فى طريق العنف. فقد نظم أثناء أدائه للخدمة العسكرية خلايا إسلامية بين الضباط. وكان المنسق له من الخارج هو الشيخ عمر عبد الرحمن، المعتقل بالولايات المتحدة الأمريكية على أثر الاعتداء الأول الذى وقع فى عام ١٩٩٣ على مركز التجارة العالمى بنيويورك. وتوقف الظواهرى عام ١٩٧٩ فى مدينة بيشاور الباكستانية، حيث ساند فيما بعد المجاهدين

الإسلاميين فى حربهم ضد الاحتلال السوفيتى فى أفغانستان. وفى نهاية الأمر صدر حكم بالسجن ضد الظواهرى نظرًا لعضويته فى جماعة «الجهاد الإسلامى» واشتراكه فى حادث الاعتداء الإرهابى على أنور السادات فى عام ١٩٨١.

سافر الظواهرى عقب خروجه من السجن مرة أخرى إلى بيشاور، وتقابل هناك مع أسامة بن لادن. وطالب الظواهرى باستمرار محاربة «العدو القريب»، وكان يقصد بذلك مصر. وانتهى الأمر إلى إقناع أسامة بن لادن له بإعلان الحرب على «العدو البعيد» وهو العدو الحقيقى ودخوله ساحة الجهاد ضد الولايات المتحدة الأمريكية. وقد صدر قبل ذلك ضد الظواهرى حكم غيابى بالاعدام لاتهامه بالاشتراك فى الاعتداء الإرهابى الذى وقع على وزير الداخلية المصرى حسن الألفى.

ما الذى حدث بالضرورة ودفع شخصًا ما دفعًا إلى أن يترك حياة آمنة فى عائلة مستقرة منذ زمن بعيد وتعد من الصفوة البرجوازية بالقاهرة، ويفضل على ذلك أن يصبح أحد المنظمين لشبكة إرهاب عالمية تسكن المناطق الجبلية الوعرة بأفغانستان؟ مثل هذه السيرة الذاتية ليست فريدة من نوعها بين المدافعين عن الإسلام السياسى. فقد فعل ذلك أيضًا سيد قطب وترك حياة تشبه ذلك، وفعل ذلك فيما بعد محمد عطا ـ أو أسامة بن لادن نفسه.

يفسر مثل هذا التطور والتغير فى الشرق الأوسط دائمًا مقرونًا بالوجود الإسرائيلى، وبسلوك الولايات المتحدة المؤيد والمدعم لجانب واحد فى المنطقة ـ لإسرائيل، ثم اقترانًا بإعلان وجوب الجهاد على الحكومات الاستبدادية التى تحكم بلادهم. وأيمن الظواهرى ليس هو الوحيد الذى اختار طريق المقاومة والجهاد والإرهاب. هناك آخر: طلعت فؤاد قاسم بمدينة المنيا ـ إحدى مدن مصر الوسطى. سافر هو الآخر مثل الظواهرى إلى بيشاور. وهناك أصدر جريدة «المرابطون» (المحاربون فى حرب مقدسة) وأيضًا فى بيشاور أنشأ «المحكمة الشرعية»، حيث أباح الاعتداءات التى وقعت على سياح أجانب فى مصر وعلى سياسيين مصريين ممن تم تصنيفهم من جانبه إلى «علمانيين»، مثل حالة فرج فودة الذى أطلق عليه النار إسلاميون مسلحون عام ١٩٩٢ بالقاهرة نظرًا لأنه كتب نقدًا لفكر «الجماعة» و«الجهاد». وقد شرح فؤاد قاسم الإستراتيجية الخاطئة للإسلاميين السابقين كما يلى: «والسياحة فى شكلها الحالى وصمة عار، فهى

وسيلة يمكن من خلالها العمل على نشر الدعارة والإيدز عن طريق سائحات يهوديات، وهي مصدر من عدة مصادر للرذيلة والفجور، ناهيك عن أنها وسيلة لجمع معلومات عن الحركة الإسلامية؛ لذلك نحن مؤمنون بأن السياحة عار وفضيحة يجب القضاء عليها، وفي نهاية الأمر فالحرب على السياحة ما هي إلا أحد أهدافنا الإستراتيجية للقضاء على الحكومات»[٨].

أثبتت هذه الإستراتيجية فشلها في بادئ الأمر ـ تمامًا مثل إستراتيجية الجهاد الإسلامي، وكلاهما ـ الجماعة الإسلامية والجهاد الإسلامي ـ يدعي لنفسه شرف تنظيم الاعتداء الإرهابي على السادات يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١. والمصدر الأيديولوجي لكلتا الجماعتين هو «الإخوان المسلمين» وعلى الأخص العمارة الفكرية التي وضع أسسها سيد قطب. كما نشأت حركة الجهاد الإسلامي في السبعينيات، أي في فترة حكم أنور السادات، وانحدر مفكريها من الطبقة المتوسطة بمصر التي تلقت تعليمًا جامعيًّا، وكتب بيان الجهاد المصري مهندس الإلكترونيات عبد السلام فرج، وفيه دعا إلى نشر الإسلام بحد السيف: «وقول الرسول (إنما بعثت بالسيف) يعني أن الله قد أرسله ليعلن بالسيف شهادة أن لا إله إلا الله، بعد أن أعلنها بحجة الكلمة، وذلك لأن من لم يتبع نداء شهادة الوحدانية الإلهية على أساس البرهان القرآني وبرهان الكلمة، فهو يدعى إلى العقيدة بحد السيف...»[٩].

ويختلف تنظيمًا «الجماعة» و«الجهاد» عن أسامة بن لادن والظواهري في دعوتهما الدائمة لشن الحرب على «العدو القريب» ـ مصر ـ وعلى حكومتها الاستبدادية الفاسدة. وقد ردت هذه الحكومة على ذلك بحرب لا هوادة فيها قادتها على الأخص في صعيد مصر، وأسفرت عملياتها الوقائية عن إدخال السجون لأعداد تتراوح بين ١٥٠٠٠ و٢٠٠٠٠ شخص. كثير من هؤلاء لم تثبت إدانتهم على جرائم تذكر، وآخرون محل شبهات ـ لم تثبت عليهم بالمرة ـ لاشتراكهم في أعمال جنائية. إلا أن «الجهاد» و«الجماعة» خسروا حربهم التي أعلنوها نظرًا لعدم مراعاتهم في عملياتهم التي تتسم بالعنف، لمشاعر الشعب المصري المسالم بطبعه. كما خسروها أيضًا لأنهم بتلك الاعتداءات الإرهابية التي شنوها على صناعة السياحة أفقدوا كثيرين من أهل بلدهم الركن الوحيد الذي يعيشون عليه كمصدر للحياة.

وقد نجحت الحكومة المصرية بادئ الأمر فى حربها العسكرية ضد ممثلى العنف من تيار الإسلام السياسى، إلا أن نبض تحديث المجتمع لم يسر بنفس سرعة خطوات هذا النصر. فلا تزال الدوافع قائمة التى قادت يومًا ما إلى حرب عصابات ضد الأساس السياسى. فالدعوة إلى تجديد الإسلام التى بدأت من القرن الماضى تعانى ـ مرة ثانية ـ من انتكاسة لها مما أفسح الطريق أمام المدافعين عن العنف والإرهاب بين الإسلاميين أن يرسموا صورة مهلهلة ومشوهة للإسلام. وقد وصف عالم الدراسات الإسلامية الأمريكى برنارد لويس الموقف المتناقض بقوله: «إن غالبية المسلمين ليسو أصوليين، وغالبية الأصوليين ليسو إرهابيين، ولكن غالبية الإرهابيين المعاصرين مسلمون ويفخرون بهذا الوصف على أنفسهم»[١٠].

إن العالم العربى الإسلامى فى مأزق حقيقى، وهؤلاء الذين يسعون إلى إفساح الطريق أمام حرية الفكر، التى سادت يومًا ما تحت حكم العباسيين فى بغداد، يجدون أنفسهم فى مواجهة مع هؤلاء الذين اتخذوا تعاليم محمد عبد الوهاب وحسن البنا وسيد قطب ذات الأفق الضيق، قاعدة أيديولوجية لمشروعهم الاجتماعى، وهؤلاء الأيديولوجيون أصحاب الحركة الإسلامية ـ كما عبرت عالمة الاجتماع المغربية فاطمة المرنسى ـ يسيرون على درب ذلك القهر الذى ساد أخيرًا فى نهاية الدولة العباسية: «إنه إسلام القصور الذى سلب من بعده العقل، وفرض على وعينا اليوم كتراث إسلامى. إنه إسلام الأمراء والجلادين الذى استعاد نشاطه وفعاليته بعد التحرر من الاستعمار من الأربعينيات حتى الستينيات. ومنذ بداية السبعينيات تمول دولارات النفط للترويج لدعاية الخضوع والاستسلام وإغلاق باب التفكير أمام كل عقل»[١١].

ويتناسب مع هذا السيناريو المظلم ما اتخذ ضد أحد أصحاب الفكر النقدى أمثال طه حسين حين اتهم بالزندقة فى حياته وأنه «مروج لأفكار هيلينستية»[١٢]. وفى إطار إدعاء الليبرالية الفكرية بمصر وجد مثقفون أمثال نصر حامد أبو زيد والبروفيسور سعد الدين إبراهيم والمدافعة عن حقوق المرأة نوال السعداوى ـ وجدوا أنفسهم فى السنوات الأخيرة مضطهدين، فنصر حامد أبو زيد متهم بوضعه القرآن وبعض تفاسيره محل اختبار لمنهج تحليل نقدى لا يمكن وصفه بأنه معاد للإسلام. أما سعد الدين إبراهيم فقد فضح أمر تزوير الانتخابات المصرية، ونوال السعداوى التى كرست نفسها فى استقلال تام للدفاع

عن المرأة فهى مكروهة من النظام وخصومه على السواء، لأنها وصفت تفصيلاً فى كتاب عملية ختانها المشينة.

والقاسم المشترك بين جميع هؤلاء المفكرين المستقلين أنهم أولاً وأخيرًا مضطهدون سواء من سلطة الدولة أو من الإسلاميين، وذلك لأن سواء سلطة الدولة أو نقادها المسلمون يخافون من أولئك القوم الذين لا يتوافقون ولا يتناسبون مع تصورهم غير المنصف عن السلطة والوصول إلى السلطة. والنتيجة المحزنة تنطق بلسان الحال فى أن العالم الإسلامى العربى لن يتخلص من بؤسه وتعاسته عن طريق حكامه الحاليين أو عن طريق الإسلاميين الذين يرغبون فى الحكم بأى حال.

إلا أن هذه النظرة الفكرية غريبة على واضعى النظريات الأصولية بالقاعدة والجماعات الأخرى. فهم - كما عبر عنهم فى صواب تام الفيلسوف السورى صادق العزم فى لقاء له مع صحيفة «فرانكفورتر روندشاو» - مهمومون وقلقون كلية من أن يصيب الإسلام من الحداثة ما أصابت غيره من «نفس الآثار» كما حدث ذلك فى المسيحية بأوروبا. هم يقولون: «إذا سرنا فى نفس الطريق، فسينتهى الإسلام إلى أن يكون شيئًا خاصًا أو شيئًا هزيلاً، أو البقية الباقية من دين، وإن لم نوقف الآن هذا التطور، فنحن ضائعون على المدى البعيد.» ولذلك - هكذا يحلل صادق العزم، دوافع الإسلاميين الميالين للعنف - «يلجأون إلى الطرق والوسائل المتطرفة»[١٢].

الجزء الخامس

شرق قناة السويس ـ
أمريكا بدلاً من إنجلترا

الفصل الثانى عشر
أمريكا ـ روما الجديدة

«لقد ارتكبت الولايات المتحدة الأمريكية فى إدارة سياستها الخارجية أخطاء لا يستهان بها.. وكان لهذه الأخطاء آثار وخيمة، لا تظهر إلا بعد اتخاذ تلك القرارات بوقت طويل.. فالتدعيم السيئ لشاه إيران هو الذى قاد مباشرة إلى الثورة الإسلامية عام 1979».

من كلمات نيلسون مانديلا فى حديث له
مع مجلة نيوزويك فى سبتمبر ٢٠٠٢

تعانى جميع الإمبراطوريات العالمية على مر التاريخ وحتى وقتنا الحالى من خلل ـ من سوء التقدير بأنها صنعت للخلود. لقد اعتقدت الإمبراطورية الرومانية، التى حكمت أيضًا أجزاء من تلك المنطقة التى يطلق عليها اليوم الشرق الأوسط، بأن سلامًا مفروضًا على شعوب مستعبدة خاضعة ـ Pax Romana ـ أو السلام الرومانى سيمنح الإمبراطورية عامل الخلود. وافتتحت الإمبراطورية الأمريكية القرن الحادى والعشرين بمشروع فرض إرادتها على الشرقين الأدنى والأوسط ووسط آسيا وأفغانستان، Pax Americana أى السلام الأمريكى. والخاضعون هم فقط بعض النظم الحاكمة وليست الشعوب على الإطلاق، أما النظم التى لا تنصاع للدخول تحت مظلة هذا المشروع الإمبريالى ـ Pax Americana ـ فيجب «استبدالها».

وشعوب المنطقة تجد نفسها اليوم فى موقف مشابه لما كانت عليه قبل ثمانية عقود. فلاتزال الثروة النفطية بمثابة المغناطيس الذى يجذب القوى العظمى، ولاتزال هذه القوى تريد السيطرة على صناعة النفط، بدلاً من أن تترك مسألة الإمدادات النفطية وتحديد الأسعار لقوى السوق. وكما عقد الإنجليز قديمًا عزمهم على التحكم فى القطن المصرى، فإن القوى الصناعية الكبرى ـ وعلى رأسها الولايات المتحدة ـ ترغب اليوم فى فرض رقابتها على إنتاج العالم من النفط. لقد فرضت المملكة البريطانية العالمية بعد عام ١٩٢٠ سيادتها على مناطق «شرق

السويس» كما أطلقت هذه التسمية فى ذلك الحين، واليوم أخذت الولايات المتحدة مكان بريطانيا العظمى. فالنفط بالنسبة للولايات المتحدة ـ تمامًا مثل القطن قديمًا بالنسبة للبريطانيين ـ مادة خام «إستراتيجية» وقطع إمدادات النفط ـ كما تقدر الولايات المتحدة الأمريكية فى حساباتها ـ يشل حركة الاقتصاد العالمى الذى تسيطر عليه. ومن ثم يتحتم ـ مثلما كان الوضع قبل ثمانية عقود ـ على أصحاب النفط أن يقيموا حساباتهم على أساس تدخلات غربية، ولن تكون حرب العراق عام ٢٠٠٣ آخر تدخل عسكرى.

ولم يكن النفط بالأمس واليوم هو الدافع الوحيد للوجود الأمريكى الأوروبى بين النيل ودجلة. فهناك سبب آخر يربط الولايات المتحدة بالمنطقة ربطًا متزايدًا بمرور السنين؛ إنه إسرائيل. فإسرائيل فى واقع الأمر بالنسبة للولايات المتحدة هى الحليف الوحيد بالغ القيمة، ومن هنا تنظر إليها على أنها «حليف إستراتيجى» فى المنطقة، وأنها الديمقراطية الكاملة على النمط الغربى، وهى بمثابة الحصن المنيع لمواجهة النظم الديكتاتورية والاستبدادية بالمنطقة. وتعد إسرائيل فى تصور المحافظين الجدد وهؤلاء البروتستانت أمثال لورد شفتسبرى Shaftesbury قديمًا، ممن شجعوا على عودة اليهود إلى فلسطين، بمثابة قاعدة ارتكاز للحضارة الأمريكية والغربية والأوروبية، يتحتم الدفاع عنها؛ ولذلك فإن دولة إسرائيل لها أهمية أخرى؛ فهى الحصن الذى يتصدى للإسلام، وهذا الإسلام لا يفهمه كثير من الأمريكان فهمًا صحيحًا، أو أنهم يفهمونه على أنه الإرهاب الإسلامى. ويضاف إلى ذلك، أن كثيرًا من الأمريكان، لا سيما الأصوليين البروتستانت فى الجنوب الأمريكى، يرون فى إسرائيل تحقيقًا لنبوءات العهد القديم التى وهب الله اليهود على أساسها فلسطين بأكملها. وهم يعقدون آمالهم على عودة المسيح المخلص ودخول اليهود فى الديانة المسيحية. ولو سلمنا على الإطلاق بهذا التبرير الذى يستند إلى العهد القديم فى الحق الوجودى لدولة إسرائيل، فإن علينا أن نعمل فكرنا أيضًا فى أن إبراهيم قد وهب الأرض التى باركها لجميع أحفاده كميراث لهم، ومن بينهم أيضًا ـ بناء على ذلك ـ ابنه إسماعيل؛ الجد الأكبر للسلالات العربية المسلمة والمسيحية.

إلا أن هذا التحليل القائم على العهد القديم لم يكن هو الذى يقصده رجل مثل لورد شفتسبرى، حين حلق بأحلامه فى عودة اليهود إلى فلسطين. ومثل هذا التفسير يصعب قبوله من جانب چورج دبليو بوش أيضًا؛ لعدم تناسبه مع

مشروعه السياسى، فهو أقرب فى تفكيره إلى تفكير تلك الطوائف البروتستانتية فى الولايات الجنوبية للولايات المتحدة، التى تتبرع بمبالغ طائلة لتدعيم المستوطنين اليهود فى المناطق التى احتلتها إسرائيل منذ عام ١٩٦٧. فقد تلقى بوش فى الأساس من والديه أصولاً تربوية هى أقرب إلى فكر الكنيسة الأسقفية الليبرالى المعتدل، إلا أنه بعد مروره بأزمة شخصية تحول فى إيمانه إلى تفسير عقيدته على أساس يقترب فى فكره من الأصولية المنتشرة على الأخص فى الولايات الجنوبية للولايات المتحدة، والتى كتبت صحيفة «نيو ستيتسمان» New Statesman اللندنية عنها تقول: «إنها صهيونية مسيحية متأججة يصاحبها إعجاب بالجنود الصناديد الإسرائيليين الذين يتعايشون سلميًا من وقت لآخر مع عداوة نحو المثقفين الأمريكان اليهود المتحررين، تلك هى سمة هذه الحضارة الجنوبية»[1].

أما الهوة الحضارية بين عالم ولايات الجنوب المؤمن بعودة المسيح، والفوضى فى فلسطين فإنها تعرض يوميًا تقريبًا فى النشرة المسائية أمام أعين سكان «الحزام الإنجيلى» الأمريكى. وحين يظهر على شاشة التليفزيون سياسيون إسرائيليون أمثال بنيامين نتنياهو ودورى جولد على أكمل هيئة لهم ويسوقون فى طلاقة إنجليزية حججهم الذكية المفصلة تفصيلاً بارعًا على عقلية المشاهد الأمريكى، يشعر الصهاينة المسيحيون على وجه الخصوص حين ذاك بأنهم وإسرائيل وجهان لعملة واحدة. أما حين يهل عليهم ياسر عرفات بردائه العسكرى الأخضر الرمادى وعلى رأسه العقال الكاروهات بألوانه البيضاء السوداء، فإنه يبدو فى أعينهم كأنه الشيطان فى جسد إنسان. وفى نهاية الأمر يشعر ـ ربما بعفوية تامة ـ بعض الأمريكان بالقرابة الروحية العميقة مع الإسرائيليين، وخاصة مع المستوطنين الإسرائيليين بالضفة الغربية وقطاع غزة، وأمريكا أيضًا، فى الأصل، دولة مستوطنين. لقد احتل مستوطنون أوروبيون القارة الشاسعة واستعمروها. لعل بعض الأمريكان يتساءلون: «لقد كنا مستوطنين، وأنتم مستوطنون ـ أليس كل منا صنو الآخر؟».

لقد دفعت إسرائيل فى واقع الأمر بحجتها إدعاء فى استيطانها أرضًا تكاد تكون خالية من البشر ـ ولتكن جريمة حضارية تستحق التحية ـ فى بداية تأسيسها. وحين ناقشت فى يناير ١٩٤٦ بواشنطن لجنة بريطانية أمريكية موضوع مستقبل منطقة الانتداب البريطانى فلسطين، عقد النائب عن حزب العمل

ريتشارد كروسمان قياسًا بين استعمار اليهود لفلسطين «وفكر رواد الاستيطان الأوروبى» للعالم الجديد فى ذلك الوقت: «والصهيونية أولاً وأخيرًا ليست شيئًا آخر سوى تجربة ليهود أوروبيين فى بناء حياة قومية لهم على أرض فلسطين وبنفس الأسلوب تمامًا الذى سلكه المستوطن الأمريكى فى استكشافه للغرب؛ لذلك سيعطى المواطن الأمريكى فى حالة الارتياب الحق كل الحق للمستوطن اليهودى فى فلسطين وسينظر إلى العربى على أنه صاحب الأرض الذى يتحتم عليه الانصياع إلى موكب التقدم»[٢].

وتأسست دولة إسرائيل بعد عامين من عقد تلك المقارنة التى تقدم بها كروسمان والمقنعة غاية الإقناع تاريخيًا. واليوم لا يحارب اليهود، بل الفلسطينيون من أجل «وطن قومى» فى فلسطين، ولكن أصبحت إسرائيل نفسها فى أعين المحافظين الجدد الأمريكان، كما وعد تيودور هرتزل فى بادئ الأمر، نقطة مراقبة متقدمة للغرب فى آسيا ونقطة تمركز أمامية. حدث فى سبتمبر عام ٢٠٠١ أن كتب واحد وأربعون سياسيًا إعلاميًا من أصحاب النفوذ، من بينهم ويليام كريستول وفرانسيس فوكوياما وريتشارد بيرل، إلى الرئيس بوش ما يلى: «لقد كانت وستظل إسرائيل حليف أمريكا الذى يعتمد عليه فى الشرق الأوسط، ويتعين على الولايات المتحدة دعم ديمقراطية إخواننا بكل وسائل الدعم فى حربهم ضد الإرهاب»[٣].

وفى المناقشات العلنية بالولايات المتحدة يتبادل المحافظون الجدد والأصوليون المسيحيون تمرير الكرة بين بعضهم البعض. وبعد أن ادعى دونالد رامسفيلد فى أول أغسطس عام ٢٠٠٢ بقوله أنه مما لاشك فيه أن «ياسر عرفات وسلطة الحكم الذاتى التابعة له تشجع الإرهاب»، ظهرت على وجه السرعة منظمة «الائتلاف المسيحى لأمريكا» إلى الوجود بتصريح صحفى لها. وفى يوم ٧ أغسطس عام ٢٠٠١ اعترضت المنظمة بشدة على خلق دولة فلسطينية، وذكرت فى تبريرها لموقفها أن استمرار المناقشة حول هذا الموضوع يشجع أولاً على الإرهاب، إلى جانب قتل الأبرياء من المدنيين. وأعلنت منظمة «الائتلاف المسيحى لأمريكا» فى يوم ١٨ يونيو ٢٠٠٢، عقب وقوع عملية انتحارية وخيمة بالقدس، أن خلق دولة فلسطينية يعنى ضربة الموت لإسرائيل[٤].

هناك منظمة أصولية مسيحية أخرى موالية لإسرائيل وهى (The Friends of Israel Gospel Ministry, Inc.)[٥] أعلنت عن رفضها القاطع

للاستحقاقات العربية فى أرض فلسطين. تتحدث هذه المنظمة على صفحتها الدعائية على شبكة الإنترنت عمن تسميهم «أنصار الله» الذين يريدون طرد الإسرائيليين من المنطقة، وتدعى أن الرب وهب فلسطين «دون قيد أو شرط» لإبراهيم وإسحق ويعقوب ونسلهم، وتضيف قائلة: «أما ما يقال عن أن الشعب اليهودى عاش قديمًا بالأرض المباركة أو أنه عانى من الاضطهادات الكثيرة ـ أيًا ماكان الأمر ـ فالأرض التى يطلق عليها اليوم فلسطين، كانت وستظل أرض اليهود». ومثل هذه الشهادات العقائدية تجد تطبيقًا لها فى الولايات المتحدة الأمريكية ببساطة فى السياسة الحالية، وبصفة خاصة حين يحكم رئيس دولة يعتمد على أصوات هؤلاء الناخبين ويجمع حوله فريقًا تقوم فلسفته على الجمع بين الصهيونية اليهودية والمسيحية.

وبعد مرور شهر على هجمات الحادى عشر من سبتمبر ـ فى أكتوبر ٢٠٠١، قال القس فرانكلين جراهام، وهو ابن الواعظ الشهير بيلى جراهام ما يلى: «إن إله الإسلام ليس هو إله المسيحية. فإله (الإسلام) إله شر، وأعتقد أن (الإسلام) أسوأ وأشر ديانة»[٦]. كان هناك تأييد للائتلاف القديم بين الصهاينة والأصوليين المسيحيين بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر. وحل الإسلام فى أعين هذا الائتلاف محل الشيوعية على أنه «مملكة الشر»، وأصبح ياسر عرفات فى نظرهم «بن لادن إسرائيل»، ويجب محاربته تمامًا مثل محاربة الإرهابى السعودى. يرى إبراهيم ورد (Ibrahim Warde) المحاضر بجامعة هارفارد أن «جميع الشخصيات التى تلعب الأدوار الرئيسية فى مشهد اليمين المسيحى هم اليوم جزء من حملة صليبية جديدة تشرف إسرئيل غالبًا على توجهاتها وقيادتها». فرئيس وزراء إسرائيل أرئيل شارون قام بتجنيد الحاخام إيشيل إيكشتاين (Rabbi Yechiel Eckstein) وهو مؤسس «الرابطة الدولية لليهود والمسيحيين»، وكذلك رالف ريد رئيس «الائتلاف المسيحى»؛ للقيام بحملة دعائية لجهوده السياسية. وكتب ورد Warde يقول إن ٢٥٠٠٠٠ مسيحى قاموا بتحويلات مالية إلى إسرائيل تناهز الستين مليون دولار. وعلى نحو مشابه لذلك هناك جماعة تطلق على نفسها «مسيحيون لصالح إسرائيل والولايات المتحدة»، تقوم بتمويل متطلبات هجرة خمسة وستين ألف يهودى. وأضاف ورد Warde قائلاً إنه: «وفقًا لما جاء على لسان قائد هذه الجماعة ـ القس جيمس هتشن ـ (Revernd James Hutchen) فإن ذلك قد حدث تلبية لنداء الرب بإعادة الشعب اليهودى إلى أرض إسرائيل». وعلى الرغم من ذلك

فإن تحالف الصهاينة اليهودى المسيحى لابد أنه ارتكب خطأ كبيرًا، من وجهة نظر اليهود، وهو أن كثيرًا من الأصوليين المسيحيين يعقدون الآمال على عودة المسيح المخلِّص ليتحول اليهود عن عقيدتهم إلى المسيحية. كما أعلن چيرى فالويل (Jerry Falwell) عام ١٩٩٩ أنه ينتظر ظهور المسيح المخلص فى غضون عشر سنوات من الآن[٧]. والمدافعون عن هذه التعاليم المسيحية البروتستانتية تجاهلوا بوضوح تام النبرة المعادية للسامية لنبوءاتهم.

إن تأثير الأصوليين المسيحيين على السياسة الأمريكية يعد ظاهرة جديدة كل الجدة. فقد صوت فى انتخابات الرئاسة عام ١٩٨٠ ما يقرب من عشرة ملايين مسيحى - كان من بينهم كثير من الأصوليين البروتستانت - لصالح ريجان وضد كارتر باتجاهه المسيحى الإنجيلى. ولم تنجح المسيحية الإنجيلية فى الاختبار الخاص بتأييد إسرائيل وسياستها بلا شروط، كما استنتج البروفيسور دونالك واجنر (من الولايات المتحدة الأمريكية) وكان مصيبًا تمامًا فى هذا التحليل[٨]. وكانت نتيجة ذلك السلوك الانتخابى أن نشأ تآلف وثيق الصلة بين الحزب الجمهورى والأصوليين المسيحيين أثناء فترة رئاسة ريجان. وعلى نحو ما حدث أيام اللورد شفتسبرى والمؤيدين لفكره، فإن رئيس الولايات المتحدة ريجان كان لديه هو الآخر دافع شخصى دينى واضح كل الوضوح لسعيه فى التشجيع على عودة اليهود إلى إسرائيل. فقد آمن ريجان - مثل القس فالويل - بفكرة ضرورة استعداده لاحتمال اقتراب «اليوم الآخر». كما أن ريجان ذكر ذات مرة لأحد الثقات أنه يشعر بقرب حلول معركة «هرمجدون» - أى تلك المعركة الفاصلة بين جنود الله وقوى الظلام[٩].

وكثيرًا ما يخضع الرئيس چورچ دبليو بوش أيضًا فى المواقف الحاسمة لحملات جماعات الضغط الأصولية البروتستانتية. ففى إبريل عام ٢٠٠٢ طالب بوش أرئيل شارون بسحب قواته من الضفة الغربية التى قام باحتلالها من جديد، فسارع القس چيرى فالويل بتنظيم حملة عبر الخطابات والبريد الإلكترونى والتليفونات أجبرت بوش على ألا يعرقل حملة شارون العسكرية على الإطلاق. وسرعان ما صمتت معارضة البيت الأبيض واحتجاجه على حملة شارون العسكرية، وأعرب فالويل عن ارتياحه بقوله: «إن الكتاب المقدس ما هو إلا شبكة أمن إسرائيل فى الولايات المتحدة الأمريكية»[١٠].

أما العالم العربى فيقف اليوم مثل موقفه قبل ثمانية عقود، لا حول له ولا قوة،

ولا ينبرى للدفاع عن نفسه تجاه ادعاء الغرب اليهودى المسيحى بالسيادة. فلا يوجد عالم عربى دولى قوى من الداخل يستطيع أن يقف بنجاح فى وجه التدخلات الأجنبية ويجبر إسرائيل على سلام يمكن عقده بين العالم العربى وإسرائيل كطرفين لهما نفس الحقوق ونفس المطالب. وهذا الضعف المستمر أسوأ ـ من وجهة نظر عربية ـ من أن فى أمريكا الآن مجموعة من السياسيين يملكون زمام الكلمة ويطالبون تحت شعار «مشروع القرن الأمريكى الجديد (PNAC)» باستبعاد تلك النظم التى تتعارض ومصالحهم. من المحتمل أن يتوخى رسل «القرن الأمريكى الجديد» فى المستقبل قليلاً من الحذر؛ نظرًا لهذه الفوضى التى أحدثوها من جراء أول تغيير نظام حكم بالعراق، إلا أنهم جعلوا من ذاك النظام عبرة لمن يعتبر، فظلت المصالح دون تغيير، ولايزال التهديد قائمًا. يقول چون سى. هلسمان (John C. Hulsmam) العضو فى مؤسسة التراث، ومن ثم فإنه ليس نصيرًا أعمى للمحافظين الجدد: «ينبغى أن يعترف كل منا بأننا نملك إمبراطورية، وأن لدينا قوة، ويتعين علينا أن نفعل بها كل ما هو خير»(١١).

تأسس فى عام ١٩٩٧ «مشروع القرن الأمريكى الجديد» على يد مجموعة يطلق عليها «المحافظون الجدد» برئاسة وليام كريستول (William Kristol)، وكان من بين بنود هذا المشروع السياسى: انتصار أمريكا فى الحرب الباردة على الاتحاد السوفيتى. واليوم ـ كما يردد المحافظون الجدد فى مناقشاتهم ـ فأمريكا هى القوة العالمية الوحيدة، والولايات المتحدة بمثابة روما القرن الحادى والعشرين ويمقدورها تشكيل العالم كما يعن لها. يعنى مثل هذا الموقف السياسى ضمنيًا أنه تم تجاوز مرحلة سيادة الدولة القطرية وأنه يتعين على دول أخرى أن تنزل على رغبات المصالح القومية للولايات المتحدة الأمريكية أو روما الجديدة وتنصاع لها. «ألم تعقد الولايات المتحدة عزمها الأكيد على تشكيل قرن جديد، قدحت فيه زناد فكرها فيما يتلاءم مع مبادئ ومصالح أمريكية؟»، هذا السؤال تم طرحه فى سلسلة من الكتيبات الدعائية، كما استطردوا فى صياغات أخرى قائلين: «وكل ما نطلبه لذلك هو جيش قوى على استعداد تام لمواجهة تحديات راهنة ومستقبلية، ثم سياسة خارجية تمثل فى شجاعة وطموح المبادئ الأمريكية بالخارج»(١٢).

تحدث الرئيس چورچ دبليو بوش فى يونيو عام ٢٠٠٢ أمام جنود أكاديمية «وست بوينت» العسكرية، وأعلن فى هذا اللقاء عن مبدئه العسكرى الذى يتمثل فى

مجموعة أفكار واضحة، إنه «مشروع القرن الأمريكي الجديد (PNAC)»، حيث قال: «وأمريكا تملك قوى عسكرية قادرة على مواجهة أى تحدٍّ لها، وهى عاقدة العزم على الاحتفاظ بهذه القوة حتى لا يكون هناك محل لسباق تسلح لعصور أخرى من شأنها إحداث عدم استقرار...»[١٣]. وقد وصف الصحفى الأمريكى وليام بفاف (William Pfaff) هذه النظرية فى مقالة له نشرت بتاريخ سبتمبر ٢٠٠٢ بأنه «إعلان بالنظام الدولى الجديد الذى حكم العلاقات الدولية منذ اتفاقية وستفاليا للسلام فى عام ١٦٤٨»[١٤].

ومشروع القرن الأمريكى الجديد يعد بمثابة همزة وصل بين المحافظين الجدد ومصانع الفكر المحافظ الأخرى السائدة، مثل مؤسسة إنتربرايز الأمريكية، ومعهد هدسون، ومؤسسة برادلى، ومركز الدراسات الاستراتيجية، الذى يتبع جامعة هارفارد، والذى حاز بشكل خاص على شهرة على مستوى العالم من خلال شخصية صمويل هنتنجتون (Samuel Huntingten)، فقد تسبب هنتنجتون بكتابه «صراع الحضارات» فى نشوب مناقشات كثيرة حول ما احتواه من أفكار، بل خضع لكثير من النقد بشأن فكرة تصادم الحضارة الغربية مع دوائر حضارية أخرى، لاسيما الحضارة الإسلامية. وهذا الموضوع يعد أحد الأسس الأيديولوجية لسياسة المحافظين الجدد. كما أن تلك المصانع الفكرية ترتبط بإسرائيل عن طريق «المعهد اليهودى لشئون الأمن القومى (JINSA)» بواشنطون والذى يساند حزب الليكود.

وإذا بحثنا عن الجذور الأيديولوجية للمحافظين الجدد، فإننا نقف أمام مفاجأة؛ فأصول فكر المحافظين الجدد ترجع فى الأساس إلى الحركة اليهودية الأمريكية التروتسكية (انظر تعاليم تروتسكى «١٨٧٩-١٩٤٠» الشيوعية - المترجم) فى الثلاثينيات والأربعينيات، ثم تحولت هذه الأيديولوجية فى الفترة بين الخمسينيات والسبعينيات من القرن الماضى إلى الليبرالية المناوئة للشيوعية، وانتهى الأمر بها إلى نوع من عالم تخيلى إمبريالى عسكرى «لم يكن له وجود على الإطلاق فى الثقافة الأمريكية أو فى التاريخ السياسى لأمريكا»، كما عبر ميشيل ليند (Michael Lind) فى مجلة (New Statesman)، وهذا يعنى أن المحافظين الجدد هم تلك المجموعة من الأيديولوجيين؛ لأنهم - وهم يختلفون عن المحافظين التقليديين أصحاب القيم - ساروا طريقًا سياسية وعرة، بدءًا من السياسيين إلى اليمينيين المتطرفين. وأعداد كثيرة من معتنقى هذا الفكر ولدوا فى

وطنهم بهذه الفلسفة الجديدة القائمة بشكل خاص على التطرف. فرجل مثل يوشوا مورافيتشك (Joshua Muravchik) من معهد أمريكان إنتربرايز يؤكد ذلك بهذه الكلمات: «لقد نشأت فى ظل حركة الحقوق المدنية، وكافحت ضد التمييز العنصرى والفصل بين الأجناس، وأعتقد أننى احتفظت بشىء من نفس الروح القتالية التى نميتها فى محاربة الشيوعية، وذلك منذ أن اقتنعت بأن الشيوعية هى منبع الشر الأكبر فى العالم، واليوم أحارب بنفس الروح الإرهاب والأصولية الإسلامية»(١٥).

تعد ميراى ورمسر (Meyray wurmser) من الأعضاء المتزعمين لهذه المجموعة، وهى تنتمى إلى أولئك المحافظين الجدد الذين كتبوا مذكرة بمناسبة تولى رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو عام ١٩٩٦ منصبه، بعنوان «إعادة بناء الصهيونية»، وقد طالب الموقعون على هذه المذكرة بإغلاق ملف عملية السلام التى بدأت فى أوسلو عام ١٩٩٣، وبتغيير نظام الحكم فى العراق وبهجوم سياسى على سوريا، وطالبوا إسرائيل فى هذه الوثيقة بكل وضوح ألا تفرط فى المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ أو على أقل تقدير لا تعيدها بالكامل. وهم يأسفون؛ لأن الحكومات الإسرائيلية برئاسة شيمون بيريز وإسحق رابين قد أعلنت بالخارج عن مشروع «الأرض مقابل السلام»؛ لأن هذه السياسة وضعت إسرائيل فى موقف الانسحاب الحضارى والاقتصادى والسياسى والدبلوماسى والعسكرى؛ لذلك يتعين على الحكومة الجديدة برئاسة بنيامين نتنياهو فى مقابل ذلك العمل على تشجيع قيم وتقاليد الغرب. ومن شأن هذه الخطوة أن تلقى استحسانًا وقبولاً فى الولايات المتحدة. كما ينبغى ـ كما أكد الموقعون على المذكرة ـ على إسرائيل أن تسعى إلى «سلام بفرض القوة»، والمحافظون الجدد يرفضون المشروع المقترح من الدول العربية الذى يحمل اسم «الأرض مقابل السلام»، أما بالنسبة للعراق فقد طالبت الوثيقة بضرورة إعادة تنصيب الأسرة الهاشمية التى أزيحت عن الحكم عام ١٩٥٨(١٦).

قامت ميراى ورمسر، التى شاركت فى صياغة تلك الوثيقة بشكل حاسم، بالتعاون مع عقيد بجهاز الاستخبارات الإسرائيلية بتأسيس منظمة للبحث فى وسائل الإعلام العربية عن الاتجاهات المعادية للسامية، ولا يفوتنا التنويه إلى أن زوج ورمسر ـ دافيد ـ هو عضو بـ «معهد أمريكان إنتربرايز».

وهناك عضو آخر لامع بدائرة المحافظين الجدد وهو البروفيسور ميشيل ليدين

(Michael Ledeen) المراسل السابق لصحيفة «نيو ريبابليك» (New Republic) في إيطاليا، وهو مؤلف لكتاب يطالب فيه بسقوط حكومات تساند الإرهاب ـ وفقًا لرأيه ـ ذكر منها العراق وسوريا والمملكة العربية السعودية. وأحد الأعضاء البارزين فى دائرة المحافظين الجدد هو دافيد فروم (David Frum) الذى يعمل بمعهد أمريكان إنتربرايز، وقد ساهم بصفته كاتبًا سابقًا لخطب الرئيس بوش فى ابتكار صياغة تعبير «محور الشر»، هذا التعبير الذى خرج به بوش على الرأى العام العالمى المصاب بالدهشة، حين ألقى خطابه عن حالة الأمة فى يناير عام ٢٠٠٢.

أما مبتكر فكرة «مشروع القرن الأمريكى الجديد» فهو ويليام كريستول (William Kristol) ـ ناشر المجلة الأسبوعية «ويكلى ستاندارد» (The Weekly Standard). فحين كان چورچ بوش الأب فى منصب نائب الرئيس الأمريكى رونالد ريجان احتفظ كريستول بمنصب رئيس فريق العمل الخاص ببوش. وكان كريستول يتولى فى عهد چورچ بوش الأب منصب رئيس فريق العمل الخاص بنائبه دان كوايل (Dan Quayle) الذى كان محل جدل ولم يكن له حضور فى الساحة. أما فيما يتعلق بالعقيدة السياسية لكريستول، فهو يؤمن بأنه لا ينبغى استغلال القوة الأمريكية فى الدفاع عن مصالح أمريكا فحسب، بل وكذلك فى العمل على نشر المبادئ الأمريكية. ويضاف لذلك أن الإمبراطور الإعلامى روبرت موردوخ (Rupert Murdoch) يشارك فى تمويل صحيفة «الويكلى ستاندارد»، وهو أيضًا بوق للمحافظين الجدد من خلال المحطة التليفزيونية الإخبارية «فوكس نيوز» (Fox News). ومن بين وسائل الإعلام التى يدعمها المحافظون الجدد صحيفة الواشنطون تايمز لصاحبها صن ميونج موون (Sun Myung Moon) الكورى الأصل.

أما الأب الروحى للمحافظين الجدد فى هذه الأثناء فهو «ريتشارد بيرل» (Richard Perle)، الذى يطلق عليه النقاد أيضًا «أمير الظلام». كان بيرل حتى أوائل عام ٢٠٠٣ رئيس «مجلس السياسات الدفاعية»، وهى لجنة استشارية بالبنتاجون، وأثناء معركة انتخابات الرئاسة التى خاضها چورچ بوش الابن تولى بيرل منصب مستشار شئون وزارة الدفاع، وقد أقر بيرل فى مناسبات مختلفة بأنه أحد المصممين الأوائل للحملة العسكرية على العراق.

تولى المحافظون الجدد بعض المناصب القيادية والمهام الاستشارية فى

حكومة چورچ دبليو بوش. وكان لهذا الانقلاب الصغير فى نظام حكم أمريكا عواقب بعيدة المدى بشأن الأوضاع فى الشرقين الأدنى والأوسط ووسط آسيا، وذلك لأنه فى داخل حكومة الرئيس، الذى يمكن أن يقال عنه إنه فى الأصل تم تقريبًا مصادرته سياسيًا، تتحكم اليوم مجموعة محددة فى سلطة اتخاذ القرار، وهى مجموعة تتطابق مصالحها تمام المطابقة مع مصالح حكومة الليكود برئاسة أرئيل شارون. وينتمى إلى هذه المجموعة نائب الرئيس «ديك تشينى» (Dick Cheney) الذى اعترض يومًا ما على إطلاق سراح نيلسون مانديلا من سجنه بجزيرة روبين، وكوندوليزا رايس (Condolezza Rice) مستشارة الأمن القومى (ووزيرة الخارجية حاليًا ـ المترجم) والرئيس بوش نفسه.

وكثيرًا ما أسهب البعض فى وصف العلاقة الوثيقة لكل من «تشينى» و«رايس» و«بوش» بصناعة النفط، إلا أن هذه الكتابات كانت تهون قليلاً من شأن هذه العلاقة، ولا يهمنا من كل ذلك فى المقام الأول سوى ما وصلت إليه هذه المجموعة من نتيجة بشأن تخطيطها لإعادة تشكيل الشرق الأدنى بأكمله. فهناك مخططات لتغيير بعض نظم حكم مثل النظام السورى والإيرانى والمصرى أيضًا، بعد أن ضربت أمريكا المثل بالعراق. وربما لم تكن الحجة المدفوع بها لانتهاج مثل هذه السياسة الراديكالية غير مبررة فى جوهرها: إن النظم الأوتوقراطية أو النظم الفاسدة بالمنطقة تمارس القهر على شعوبها، وتعرقل مسيرة أى تقدم اقتصادى وتنتج الإرهاب من خلال ممارستها للقهر. والواقع أن هناك كثيرين، لاسيما حركة طالبان وينضم إليهم أيضًا بعض الخطباء من أصحاب الفكر التطرفى فى العالم العربى، يتبنون نوعًا من الإسلام يعارض الحداثة ويتصدى للغرب ويجابه بشكل خاص الموقف الأمريكى، ويضاف إلى ذلك أنه يدعو إلى استخدام العنف. وقد رددت ميراى ورمسر، التى كانت تعمل بمعهد هدسون أثناء حرب العراق، قولها فى سعادة وارتياح: «لقد ازدادت حالة التوتر النفسى والعصبى عند الإيرانيين والسوريين فى هذه اللحظات ربما أكثر من السعوديين والمصريين. وخرج عن النظام السورى تعليقات يستنتج منها أنه مضطرب وعصبى المزاج ويفكر فى أن الخطوة القادمة ستوجه إليه»[١٧].

وبرغم ذلك نرى تقديرًا خاطئًا وخطيرًا فى حسابات أولئك الذين يؤيدون فكرة فرض التغيير على النظم. ففى إطار الأوضاع الحالية ستؤدى الانتخابات بالنظام الديمقراطى فى كثير من البلدان العربية بكل تأكيد إلى وصول أحزاب

إسلامية أو ذات اتجاه إسلامى إلى الحكم، وذلك لأن جماعات مثل جماعة الإخوان المسلمين هم فى الوقت الراهن البديل السياسى الوحيد. فمن ناحية يستحوذون على ثقة الشعب ومن ناحية أخرى قضت إسرائيل ودول غربية مثل بريطانيا العظمى على أيديولوجية حركة الوحدة العربية بنجاح تام حتى اختفت تمامًا فى أى صورة من صورها، وبالتالى يصعب افتراض أن رجلاً من طراز ريتشارد بيرل يرغب فى رؤية جماعة الإخوان المسلمين يمسكون بزمام السلطة فى القاهرة أو فى دمشق، وأعتقد أن عمليات تغيير النظم الحاكمة المدونة فى الأجندة الأمريكية ستواجه فى كل مكان بالعالم العربى بنفس النتيجة؛ أنه لا يوجد معارضة منظمة تنظيمًا جيدًا سوى المعارضة الإسلامية.

وعمليات تغيير النظم ما هى إلا نقطة واحدة فى الأجندة السياسية للمحافظين الجدد. فوفقًا لتقرير نشر فى صحيفة ويكلى ستاندارد التابعة لوليام كريستول فإن أمريكا تخطط لـ «حرب عالمية بين الولايات المتحدة والجناح السياسى للأصولية الإسلامية.. حرب يبلغ حجمها مدى، بحيث يصبح غزو العراق واعتقال بعض قادة القاعدة البارزين ما هو إلا أحداث تكتيكية لحملة عسكرية طويلة المدى[١٨]».

وعلى أية حال، فإن المشروع الإمبريالى للمحافظين الجدد لم ينج من بعض الأقلام التى وجهت النقد إليه؛ فقد عبر جون سى. هلسمان (John C. Hulsman) من «مؤسسة التراث» عن مخاوفه من «حرب لا نهاية لها»، كما قالت جيسيكا ماتيوس (Jessica Matheus) من معهد «كارنيجى للسلام العالمى»: «إنه من الغطرسة الخوض فى حرب كونية باسم الديمقراطية»، وهناك آخرون يوجهون نقدهم للمشروع العالمى الجديد على اعتباره «إمبريالية ديمقراطية»[١٩]. ويحلل المؤرخ إريك هبسبوم (Eric Hobsbawm) إستراتيجية المحافظين الجدد التى تدافع عنها حكومة بوش على النحو التالى: «بالطبع لا يرغب الأمريكان - نظريًا - فى احتلال العالم بأسره، وكل ما يرغبون فيه هو أن يشنوا حربًا يتركون بعدها حكومات صديقة لهم ويعودون من حيث أتوا. ولن تسير الأمور على هذا النحو. أما نموذج الديمقراطية الذى يريد الأمريكان عرضه على العالم فى العراق فإنه ليس بنموذج»[٢٠].

وتتلاحم ثورة المحافظين الجدد مع السياسة الخارجية لأمريكا التى تسعى غالبًا وراء تحقيق مصالحها الخاصة ليس إلا، حتى قبل سقوط الاتحاد السوفيتى.

فمنذ عام ١٨٩٨ تدخلت الولايات المتحدة عسكريًا خارج حدودها حوالى مائة وسبعين مرة، واليوم لديهم قواعد عسكرية فيما يقرب من أربعين دولة. وقد علق توم دى لاى (Tom De Lay) زعيم الأغلبية الجمهورية فى مجلس النواب وعضو حركة «الصهاينة المسيحيين» على ذلك التراث بنوع من الفخر حين قال: «كان العالم العربى ينظر لأمريكا قبل الحادى عشر من سبتمبر نظرته إلى نمر من الورق، وكان لدينا رئيس (بيل كلينتون) انحصرت ضرباته الانتقامية فى إلقاء بعض القنابل فى الصحراء، وضحك العرب إلا أنهم يرون الآن أننا ننظر للأمور بجدية وأنهم يواجهون الآن بقوة حقيقية، وهم يحترمون القوة»[٢١].

ويجانبه الصواب من يدعى أنه نشأ فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وضع يشبه ذلك الوضع الذى أعقب الحرب العالمية الأولى، حيث وضعت فى ذلك الحين القوى المنتصرة، لاسيما بريطانيا العظمى وفرنسا، تصوراتها فى خطوط وحدود على الخريطة السياسية للشرقين الأدنى والأوسط.

كان الغرض من هذا المشروع التأكيد على أن المنتصرين يمكنهم حصاد ما بذلوه فى عملياتهم العسكرية الناجحة عبر سنين طويلة. ولم تكن عصبة الأمم التى خرجت إلى النور فى ذلك الحين سوى أداة لتنفيذ رغبات القوى الكبرى فى تلك الآونة، فمنحت البريطانيين والفرنسيين «الانتداب» وذلك بأن تحكم سيطرتها على جزء كبير من المناطق الواقعة بين البحر المتوسط ونهر دجلة، ولم تنضم الولايات المتحدة لعصبة الأمم التى قامت آنذاك بنفس وظيفة الأمم المتحدة فيما بعد. ورغم أن الرئيس وودرو ويلسون صاحب الإعلان الشهير المتضمن أربعة عشر بندًا، الذى دعا إلى حق الشعوب فى تقرير مصيرها، كان قد أعرب عن رغبته فى الانضمام لعصبة الأمم، فإن مجلس الشيوخ الأمريكى رفض عضوية أمريكا، إذ تسلط على شيوخ المجلس آنذاك اتجاه نحو الانعزالية.

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية ناقش الحلفاء فيما بينهم موضوع منظمة وريثة لعصبة الأمم، فجرى تأسيس «الأمم المتحدة» عام ١٩٤٥ بسان فرانسيسكو، واستقر فى ضمير الأمم المتحدة وفقًا لميثاقها السعى نحو تحقيق أهداف ديمقراطية نبيلة؛ بحيث تصبح وسيلة للحفاظ على السلام. ولكنَّ المنتصرين سعوا أيضًا فى عام ١٩٤٥ إلى أن يكون التجمع الأممى لصالحهم وأداة فى أيديهم. وقد عبرت فيليس بينيس (Phyllis Bennis)، الباحثة بمعهد الدراسات السياسية فى واشنطون عن هذا الوضع قائلة: «أضمرت الحكومات فى

واشنطون ولندن وموسكو وباريس أهدافًا كانت أكثر بدائية من أهداف تحقيق سلام عالمى والمساواة فى التنمية (للجميع)، فكان هدف الحلفاء أن يضمنوا بالطرق الدبلوماسية أن تتحكم الحكومات التى حققت النصر فى الحرب باستمرار فى فرض السلام فى عصر ما بعد الحرب»[٢٢]. وليس أدل على ذلك الهدف سوى ما تحصنت به القوى المنتصرة آنذاك وهى أمريكا وروسيا وبريطانيا العظمى وفرنسا والصين من حق الفيتو فى مجلس الأمن.

كان لهذه التركيبة الأساسية عواقب وخيمة على نظام ما بعد الحرب فى الشرق الأوسط.. صحيح أنه لم يكن لدى الولايات المتحدة أى تحمس على الإطلاق للخطط البريطانية اليهودية التى تستهدف تأسيس دولة جديدة فى فلسطين، وكان من شأن هذه الخطوة فى رأى وزارة الخارجية بواشنطون أن تجلب مشكلات سياسية كبيرة على المنطقة، وكان الرئيس هارى س. ترومان (Harry S. Truman) مترددًا تجاه هذه الخطوة إلا أن أحد مستشاريه وهو كلارك كليفورد (Clark Clifford)، الذى كان قريبًا من الجالية اليهودية، استطاع بعد ذلك إقناعه بأنه قد جاء إلى السلطة بعد وفاة روزفلت وأنه فى مقتبل فترة اختياره للرئاسة سيحتاج فى المستقبل بلا جدال إلى الأصوات اليهودية. وقد ساهم هذا الدفع بكل تأكيد فى أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية فى نهاية المطاف بالتصويت فى مجلس الأمن لصالح تقسيم أرض فلسطين إلى دولتين واحدة يهودية والأخرى عربية، وذلك فى عام ١٩٤٧.

لم يكن تصويت الولايات المتحدة لصالح تأسيس دولة إسرائيل يعنى ـ بأى حال من الأحوال ـ مساندة أمريكا لسياسة الدولة الحديثة، كما هو حاصل اليوم دون قيد أو شرط تقريبًا، كما أن أيزنهاور أنهى الاعتداء الفرنسى البريطانى الإسرائيلى على السويس عام ١٩٥٦ مصحوبًا بطلب موجه لإسرائيل لا لبس فيه ولا إبهام بمغادرة المناطق العربية المحتلة. وفى ٥ يناير عام ١٩٥٧ أعلن الرئيس الأمريكى مبدأه الذى تسمى باسمه والذى كان يستهدف فى جوهره منع أية تدخلات فى الشرق الأوسط تهدد بها دول تتحكم فيها «الشيوعية العالمية»[٢٣]. ويضاف إلى هذا أن أيزنهاور أكد عزمه على تقديم مساعدات للدول العربية فى حالة احتفاظها باستقلالها.

تغير الموقف الأمريكى الحذر فى هذه الأثناء تجاه إسرائيل تدريجيًا بعد انتصارها فى حرب الأيام الستة فى يونيو عام ١٩٦٧ إذ أصبحت إسرائيل آنذاك

هى القوة المهيمنة على المنطقة. ثم بلغت الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتى ذروتها، وشرعت الولايات المتحدة في استبعاد الأمم المتحدة من حلبة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، أو في العمل - على أقل تقدير - على أن تخرج قرارات مجلس الأمن بما يتوافق وأهداف إسرائيل، أو الاعتراض بحق الفيتو للحيلولة دون إلحاق أى ضرر سياسى بإسرائيل. وإذا كانت الولايات المتحدة لم تعترض بحق الفيتو الذى تملكه على القرارين الحاسمين رقم (٢٤٢) و(٣٣٨) اللذين يطالبان إسرائيل بالانسحاب من الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧ و١٩٧٣، فإن الولايات المتحدة عملت حتى أكتوبر ٢٠٠٣ على استخدام حق الفيتو لعرقلة صدور ٢٧ قرارًا من مجلس الأمن، إذ كانت هذه القرارات الدولية الملزمة فى حالة صدورها - ووفقًا لتصور الولايات المتحدة - ستلحق أضرارًا بإسرائيل. وكان من المفترض أن يطالب القرار رقم ٢٧ - الذى عارضته الولايات المتحدة باستخدام الفيتو - إسرائيل فى خريف ٢٠٠٣ بإيقاف بناء الجدار الفاصل بينها وبين المناطق المحتلة.

وإن كانت إسرائيل تدين بالشكر فى وجودها للأمم المتحدة أيضًا، إلا أنها رفضت بعد انتصارها على مصر وسوريا والأردن فى يونيو عام ١٩٦٧ أى تدخل يذكر من جانب منظمة الأمم المتحدة. وقد حدث فى أكتوبر عام ١٩٩٠ أن قتلت الشرطة الإسرائيلية على جبل الهيكل/ الحرم الشريف بالقدس اثنى عشر فلسطينيًا؛ لأنهم ألقوا بالحجارة على اليهود أثناء صلاتهم بجوار حائط المبكى، وتقدمت دول حركة عدم الانحياز بقرار لها فى مجلس الأمن لتكليف منظمة الأمم المتحدة بإرسال لجنة تحقيق إلى إسرائيل. ونزولاً على مبادرة للولايات المتحدة تم تخفيف هذا القرار حتى وصل فى نهاية الأمر إلى أن يسافر فقط مندوب عن الأمين العام للأمم المتحدة إلى القدس للتوقف بها بضعة أيام ثم يعود من جديد[٢٤].

وحدث شيء يشبه ذلك حين توغل الجيش الإسرائيلى فى إبريل عام ٢٠٠٢ فى أثناء إعادة احتلال الضفة الغربية فى مدينة جنين وسوَّى جزءًا منها بالأرض وقتل وفقًا لشهادة كثير من الفلسطينيين العديد من المدنيين. لم تستطع لجنة التحقيق التى شكلها الأمين العام للأمم المتحدة كوفى أنان القيام بعملها مرة واحدة على الإطلاق؛ لأن إسرائيل بالاتفاق مع الولايات المتحدة وجهت نقدها إليها لفترة طويلة حتى اضطرت الأمم المتحدة إلى إلغاء التحقيقات بالكامل فى جنين.

طالب مجلس الأمن إسرائيل مرتين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ بالانسحاب من المناطق الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، وكان من المحتمل آنذاك إجراء تعديل طفيف على الحدود إلا أن إسرائيل لم تستجب حتى يومنا هذا لهذا المطلب. وطالما اشتكى كثير من العرب، في أعقاب الأزمة التي اندلعت عام ١٩٩٠ بعد احتلال صدام حسين للكويت، من «ازدواجية المعايير الأمريكية». ولكي يتسنى الرجوع باحتلال الكويت المخالف للقانون الدولي إلى نقطة الصفر، فقد منحت الأمم المتحدة الولايات المتحدة وعددًا من الدول التي شكلت منها تحالفًا دوليًا تفويضًا بغرض تحرير الكويت خلال ستة أشهر. أما احتلال الضفة الغربية وغزة والقدس فتدور حوارات العرب وتستمر منذ عشرات السنين دون أن تبذل الولايات المتحدة أية محاولة تذكر في العودة بهذا الاحتلال إلى الوضع الأصلي. ومن اللافت للنظر كذلك أن الولايات المتحدة لا تكاد تذكر في خطابها تعبير المناطق «المحتلة»، فهي تفضل اليوم استخدام تعبير المناطق «المتنازع عليها».

استعملت الولايات المتحدة الأمريكية الأمم المتحدة؛ لتحقيق مصالحها في الأزمات العراقية المتعاقبة منذ عام ١٩٩٠، وإن كانت الولايات المتحدة قد احتملت عقب تولي صدام حسين السلطة في عام ١٩٧٩ أفعال الديكتاتور العراقي بلا حدود، إلا أن ذلك كان على مضض منها، أخذ يتصاعد شيئًا فشيئًا. ولكن لحظة عدوانه على الكويت كانت بمثابة خرق لخط المصالح الأمريكية، فحان الوقت آنذاك للإجهاز على صدام حسين، وربما كان من الأفضل بمساعدة الأمم المتحدة. كانت حسابات واشنطون تتوقع ألا يستمر الطاغية في الحكم بعد حرب خاسرة. وبعد أن برهنت هذه النبوءة على سوء التقدير، فلم يبق إذن من سبيل آخر للوصول للهدف سوى فرض عقوبات اقتصادية، وكانت الولايات المتحدة تسعى دائمًا إلى تمديد العقوبات على أمل إسقاط صدام حسين، وقد ألمحت وزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت إلى أنه لا ينبغي التفكير بأي حال من الأحوال في رفع العقوبات بدون سقوط صدام حسين، وكان الغرض من تلك الحرب الاقتصادية المنافية للقانون الدولي هو إطالة أمد الحرب من أجل الكويت. وقد انتقد نيلسون مانديلا هذا الموقف قائلاً: «عندما تخشى أمريكا اعتراض مجلس الأمن فإنها تتجاوز في عملها الأمم المتحدة وتخرق بذلك أيضًا سيادة دول أخرى».

ومع بداية القرن الحادي والعشرين، الذي سيصبح القرن «الأمريكي» وفقًا لإرادة المحافظين الجدد في واشنطون، صار للولايات المتحدة في الشرقين

الأدنى والأوسط وكذلك فى قلب آسيا وأفغانستان ثقل عسكرى يصعب التعامل معه فى ميدان الحرب. كما أنه من غير المؤكد أن تشكل حرب عصابات مكثفة وممتدة فى العراق تهديدًا لهذا الوضع على المدى البعيد؛ لأن القدرة السياسية والعسكرية التى تملكها الولايات المتحدة ضخمة وعملاقة بشكل مرعب، إضافة إلى أن الوضع الجيوإستراتيجي يدعم ذلك بوضوح؛ فإسرائيل حليف إستراتيجى لها؛ والعراق بلد عربى محتل؛ والأردن دولة مستقلة اسميًّا، ولكنها فى واقع الأمر تكاد تكون محمية أنجلوأمريكية؛ فضلاً عن أن لأمريكا قواعد عسكرية فى تركيا والكويت والبحرين وعمان وقطر وفى الإمارات العربية المتحدة والسعودية، وفى جورجيا وأفغانستان وأوزبكستان وجيبوتى الواقعة على القرن الإفريقى، وأخيرًا قاعدة عسكرية فى جزيرة دييجو جارسيا بالمحيط الهندى التى تستحوذ عليها إنجلترا. وعلى الرغم من أن المسافة بين هذه الجزيرة والعراق تبلغ خمسة آلاف كيلو متر، فإن قاذفات القنابل طويلة المدى تستطيع القيام من هذه القاعدة بعمليات عسكرية بلا أدنى مشكلة، فهى مخزن الإمدادات العسكرية. أما باكستان فقد اضطرت تحت ضغط من الولايات المتحدة إلى قطع صلاتها مع الحليف القديم؛ طالبان.

أما الدول التى تحاول أن تنسلخ من مجال نفوذ الإمبراطورية فهى الدولة الثنائية سوريا ـ لبنان ودولة إيران ودولة اليمن، إلا أن الولايات المتحدة قامت بعد احتلال العراق بتطويق المقاومة السياسية فى جميع هذه المناطق وإحكام السيطرة عليها. وحكام هذه الجيوب يلتمسون الحد من حجم الأضرار ـ فإيران واليمن يلتمسان ذلك من خلال التعاون مع الولايات المتحدة فى البحث عن إرهابى القاعدة، وسوريا ولبنان من خلال فرض رقابة وتحكم على حزب الله الذى تتمركز قواته العسكرية على الحدود الشمالية لإسرائيل.

نكاد نجزم بأنه لا يوجد نظام عربى واحد على الساحة بأكملها فى مقدوره التصدى للمشروع الإمبريالى Pax Americana أو السلام الأمريكى، كما أن شعوب المنطقة تتطلع فى شوق بعد أكثر من ثمانية عقود مليئة بالعنف والصراعات إلى نهاية أو إلى الانعتاق من الوصاية الأجنبية. ولا يعنى هذا الموقف أن الناس يرفضون من حيث المبدأ أمريكا والغرب وحضارتهم وأسلوب حياتهم، فكل ما يريدونه هو التحلل من الهيمنة الغربية وقيام شراكة متساوية إلى حد ما فى

التعامل بين الطرفين. إلا أن كثيرًا من النظم غير الديمقراطية صارت رهينة الحماية الأجنبية وتابعة لهيبتها وهان عليها آمال وطموحات شعوبها. وهذا التقصير يعتمد عليه رجل مثل أسامة بن لادن كقاعدة لشن حملاته التحريضية ولصالح دعايته السياسية. والأعداد المؤيدة لأسلوبه ومنهجه فى العالم العربى ليست بكثيرة، وقليلون جدًا من يؤيدونه فى أحقيته فى إصدار فتاوى دينية، ولكن هناك كثيرين لا يستطيعون إخفاء التعبير عن ارتياحهم بأن القاعدة نجحت فى توجيه ضربة صائبة إلى القوة العظمى أمريكا التى تدعى لنفسها سيادة العالم.

ولا مجال للتعجب والاندهاش من أن أعداء الإمبراطورية الأمريكية وخصوم «روما الجديدة» اتخذوا الإسلام سلاحًا أيديولوجيًا لهم فى هذه المعركة. فقد حوربت وهزمت حركة الوحدة العربية من إسرائيل وبمشاركة الغرب، كما أن الاشتراكية أفلست فى العالم الإسلامى مثلما حدث فى أوروبا الشرقية. أما ما تبقى من أفكار أخرى، لا سيما الديمقراطية منها، فقد قهرت من النظم العربية ذاتها بنجاح على مدى عشرات السنين، وفى أغلب الأحوال بتدعيم خفى من الولايات المتحدة. واستنادًا إلى هجمات الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ أعلنت أمريكا حربًا عالمية على الإرهاب، ولكن ليست كل منظمة تهاجم احتلالاً أجنبيًا وتقف فى وجهه هى منظمة إرهابية، وليست كل دولة تقاوم تأثير الولايات المتحدة هى دولة مارقة.

كلف الرئيس د.د. أيزنهاور قبل زهاء نصف قرن من الزمان الخبراء العاملين معه بمعرفة سبب انتشار روح العداء لأمريكا فى الشرقين الأدنى والأوسط، وخرجت نتيجة الدراسة تقول: إن الولايات المتحدة الأمريكية تساند وتدعم نظمًا قمعية وغير ديمقراطية، كما أنها تحتقر من خلال ذلك إرادة الشعوب. واليوم وبعد مرور نصف قرن من الزمان ستخرج ثمة دراسة من هذا النوع بنفس النتيجة.

الفصل الثالث عشر

النفط - تراكم تاريخ الشرق الأوسط

«إن النفط ليس كل شيء، ولكن بدون النفط فكل شيء لايساوي شيئًا».

مشروع معلومات عن الشرقين الأدنى والأوسط

(INAMO) العدد ٣٣، سنة ٢٠٠٣

النفط مادة ذات طبيعة خاصة جدًا، أليس كذلك؟ وقديمًا استفاد البابليون القدماء من المادة السوداء الزيتية اللزجة التى لا قيمة لها والتى كانوا يجدونها آنذاك فى بلاد ما بين النهرين تحت سطح الأرض مباشرة.. استفادوا منها فى عمل المشاعل وفى سد الشقوق والفراغات بين حجارة رصف الشوارع. أما البريطانيون والأمريكان فقد خاضوا الحروب من أجل النفط بالخليج الفارسى، كما خاض صدام وخسر «أم المعارك» على الرغم من أنه ضخ النفط فى الخليج الفارسى وأشعل النار فى حقول نفط الكويت.

ولكن النفط يختلف عن الماء، فهو ليس مادة حياة للبشرية، وبدونه تستمر الحياة، وهو مختلف عن الماء في كونه مادة خام غير متجددة. ولأن أنهار النيل والفرات ودجلة تجرى مياهها منذ آلاف السنين فقد كانت سببًا فى أن تجعل بقاعها التى تجرى بها مهدًا لمنشأ حضارات عظيمة على أرضها، ولن يستطيع الإنسان أن يصل إلى هذه المحصلة بالمادة الخام التى يطلق عليها النفط. ولن يمثل عصر النفط تحت مظلة تاريخ إنسانية ممتد لآلاف السنين سوى حلقة مشاهدة بسيطة وثانوية من حلقات تاريخ البشرية. ورغم ذلك فقد تحول النفط إلى قوة محركة دافعة لتاريخ العالم، ولكنها مشحونة بالمشاكل.

فمنذ اكتشف رواد البحث عن مصادر التجارة التابعون للإمبراطورية البريطانية والأمريكية فى القرن العشرين كميات هائلة من النفط يمكن معالجتها صناعيًا والاستفادة منها - أولاً فى إيران، ثم بعد ذلك فى العراق والسعودية والكويت ودول أخرى مطلة على الخليج - صارت هذه المادة الخام

الزائلة بمثابة المجمع الرئيسى الذى يحرك تاريخ المنطقة. واحتفظ البريطانيون لأنفسهم بالسيادة العليا على مملكة العراق التى قاموا بتأسيسها نظرًا لرغبتهم فى فرض رقابتهم وتحكمهم فى منابع النفط الغنية. أما الدولة التى تدعى بأنها صاحبة أعظم ديمقراطية فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية فقد وضعت يدها فى يد الدولة الإسلامية القبلية وهى المملكة العربية السعودية من خلال محور النفط. وضمنت السعودية لأمريكا تأمين إمدادها بالنفط وتعهدت أمريكا لها بالإبقاء على العائلة المالكة على عرش البلاد مدى الحياة؛ كان هذا نص التحالف بينهما المعمول به على أقل تقدير حتى الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١.

وفى عام ١٩٥٣ خلعت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى رئيس الوزراء الإيرانى مصدق من سلطة البلاد؛ لأنه تجرأ على المطالبة بحق التصرف فى الثروة القومية للبلاد وهى النفط. وساندت أمريكا وبريطانيا العظمى العراق فى حربه ضد آية الله الخمينى؛ لأنه سار على طريق سلفه مصدق وتمكن من انتزاع بلاده من مجال النفوذ الأنجلوساكسونى.

إن قصة النفط العربى هى فى الوقت نفسه تاريخ المطامع الغربية فى فرض سيطرتها على أصحاب منابع النفط من ناحية، ثم التحكم بشكل حاسم وفعال فى تحديد أسعاره من ناحية أخرى. ولهذا السبب بذلت شركات النفط التى يسيطر عليها الغرب فى إيران والعراق والسعودية والكويت قصارى جهدها منذ البداية؛ لكى تصير صاحبة اليد العليا فى تحديد أسعار النفط التى تدفعها للحكومات الوطنية فى هذه البلاد مقابل حصولها على تلك المادة الخام النفيسة التى تملكها. أما شركات النفط العالمية والدول التى تقف وراءها فهى تعمل على توجيه السياسة الدفاعية والخارجية للدول التى تعمل بها من خلال سيطرتها على احتياطيات النفط. وأصبح اهتمام حكومات ومؤسسات الدول الصناعية الغربية فى المقام الأول مقصورًا على إبقاء الحكومات القبلية الموالية والتابعة لها ولمصالحها فى حكم البلاد. فالاستقرار يعنى بالنسبة لها صياغة متكررة لهدفها الذى يحقق هذه السياسة حتى يومنا هذا.

إلا أنه بمرور الزمان ازداد التطلع السعودى نحو مزيد من دولارات النفط، وحين علم آل سعود أن شركة أرامكو - الشركة العربية الأمريكية للنفط - تدفع للولايات المتحدة ضرائب أكثر مما تدفعه للسعوديين من رسوم الترخيص

بالسماح لها فى استغلال نفط البلاد وتسويقه، بلغ الأمر إلى حد حدوث ما يسمى بالأزمة الأولى، إذ طلب السعوديون مزيدًا من الأموال من شركة أرامكو. ولكن كان من شأن هذه الزيادة أن تقلل بدرجة كبيرة من تحقيق المساهمين للأرباح المرجوة؛ فقامت شركة أرامكو بالتعاون مع الحكومة الأمريكية بإعداد اتفاق يعمل على حل المشكلة ويرضى الجميع. ونص الاتفاق على أن يدفع السعوديون ضرائب عن كل برميل من النفط تستخرجه شركة أرامكو. وفى مقابل ذلك تخصم شركة أرامكو هذه الضرائب المدفوعة من الجانب السعودى من الضرائب المفروضة بالولايات المتحدة. وهذا يوضح لنا كم كان النفط السعودى ذا قيمة بالنسبة لحكومة الولايات المتحدة لدرجة أنها تستغنى عن دخول مرتفعة كانت تدخل خزانتها من حصيلة الضرائب[١].

ووقعت الأزمة الثانية حين خفضت شركات النفط فى نهاية الخمسينيات من رسوم الترخيص التى تدفعها لدول النفط نظرًا لأن أسعار السوق العالمية هبطت بدرجة كبيرة لوفرة العرض. وأدى النزاع المبدئى الذى نشب بشأن الأسعار إلى ظهور رجل على ساحة السياسة النفطية وكان صاحب فكرة تأسيس منظمة الدول المصدرة للبترول (أويك). كان هذا الثورى فى عالم النفط هو عبدالله التريكى وكان ـ على الأخص ـ مواطنًا سعوديًا.. درس التريكى بالقاهرة ثم سافر إلى ولاية تكساس الأمريكية، حيث اطلع أثناء وجوده بإحدى الشركات المالكة لأسهم فى شركة أرامكو ـ وهى شركة بترول تكساس ـ على أسرار عالم صفقات النفط[٢].

عاد التريكى إلى السعودية ورفض عرضًا للعمل مع شركة أرامكو، وبدأ يتحدث فجأة بلغة المتمرد والثورى، واتهم الولايات المتحدة بـ «الإمبريالية الاقتصادية». كما أظهر فى نفس الوقت وهو فى منصب المدير العام لوزارة النفط، كيف يتعين التعامل مع الدول المستهلكة للنفط: دخل فى مساومة مع اليابان لتنفيذ اتفاقية تنقيب عن النفط؛ حتى نصت على حق السعوديين فى جميع الأرباح بنسبة خمسين فى المائة وهى نسبة ثورية لم تصل إليها السعودية من قبل.

توافقت هذه السياسة التى كان لها شعبية كبيرة مع وقوع أحداث فى هذا الوقت الذى تنامت فيه باطراد مشاعر العداء للغرب فى المنطقة؛ كان ذلك عام ١٩٥٦ الذى وصلت فيه إمارة الكويت المسالمة حتى ذلك الوقت، التى يحكمها الإنجليز إلى عقد مؤتمرات شعبية بخطب ملتهبة معادية للغرب على أثر وقوع

الاعتداء الإسرائيلى البريطانى الفرنسى على السويس. كانت نفس هذه الأجواء هى التى مكنت «الضباط الأحرار» بقيادة العقيد عبدالكريم قاسم عام ١٩٥٨ من إسقاط نظام العميل البريطانى تحت قيادة الملك فيصل الثانى. استغل عبدالله التريكى، الذى أصبح فى هذه الأثناء وزير النفط السعودى، هذه الأجواء وطالب أصحاب السلطة الجدد فى العراق بتأميم «شركة النفط العراقية». وفى أثناء عقد مؤتمر نظمه كل من التريكى وصديقه الفنزويلى ألفونسو بيريز عام ١٩٦٠ فى بغداد، لمناقشة موضوع مستقبل السياسة النفطية العربية، بادر الاثنان بإعلان تأسيس منظمة الأويك، التى انضم إليها فى هذا التوقيت السعودية والعراق والكويت وإيران وفنزويلا.

كان ما حدث من وجهة نظر الغرب بمثابة شىء لم يسمع بمثله من قبل. فقد وجد التحالف الاحتكارى (الكارتيل) المؤلف من شركات نفط غربية - وجد نفسه فجأة ودون مقدمات فى مواجهة كارتيل الدول المالكة للنفط. والرئيس المصرى جمال عبدالناصر هو أول من بادر بإعلان الحرب على مؤسسات النفط، ثم إن التريكى كان رفيق تحالف سياسى لعبدالناصر المصرى العنيد، ويمكن القول بأن كليهما خصمان عنيفان لسياسة «آل سعود» حتى أن عبدالناصر أعلن أن التحرير يجب أن يبدأ أولاً من الرياض قبل أن نفكر فى تحرير القدس[٣].

نشأت منظمة الأويك، التى كان الغرب ينظر إليها بازدراء على أنها منظمة احتكارية للأسعار أو لجنة تضم شيوخ النفط، فى عصر كانت فيه الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى تغاليان فى استغلال هذه المادة الخام العربية الفريدة الموجودة بوفرة، وفى السيطرة على تحديد الأسعار بما يتلاءم ومصلحة الغرب. وكان للمملكة العربية السعودية محاولات سابقة للتحرر من هيمنة الكارتيل الذى فرضته عليها شركات البترول الغربية، وذلك حين شرع الملك سعود الذى كثيرًا ما وجه إليه تأنيب وعتاب فى فترة الخمسينيات بسبب محاولة بناء أسطول بحرى ناقل للنفط بمساعدة صاحب السفن اليونانى أرسطو أوناسيس، وبهذه الطريقة يمكنه الاستقلال عن البواخر الأمريكية والبريطانية الناقلة للنفط، ومن ثم أبلغ وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس (J. F. Sulles) ملك السعودية بأن عليه أن يتذكر ما حصل لرئيس الوزراء الإيرانى مصدق، وأن يسأل نفسه إلى متى تستطيع المملكة العربية السعودية أن تبقى على قيد الحياة دون صادراتها النفطية إلى

الغرب. ونتيجة لتهديد الولايات المتحدة بتوجيه ضربة مزدوجة للسعودية، حدث انقلاب ضد عائلة سعود، ومقاطعة للنفط من جانب المستهلكين فى الغرب، ولم ير هذا الأسطول لنقل النفط الذى خطط له ابن سعود النور[4].

ويمكننا القول بطبيعة الحال إن سياسة المواجهة التى اتبعها عبدالله التريكى لم يكتب لها هى الأخرى البقاء طويلاً، فقد أدرجته شركة أرامكو فى قائمة الأعداء، واضطر التريكى إلى ترك منصبه على رأس وزارة النفط السعودية في عام ١٩٦٢، وسرعان ما غيرت المملكة السعودية اتجاهها كليةً لتنخرط من جديد فى الخط الأمريكى البريطانى. وقد خلف التريكى في منصبه أحمد زكى اليمانى الذى كان يتسم باللباقة والمرونة. فقد اتبع سياسة الهبوط بالأسعار التى تلقى استحسانًا من جانب مؤسسات النفط. ولا ننسى بأى حال ما حققه هذا الوزير الذى يعد حتى الآن أشهر وزير نفط على مستوى العالم، فقد حقق ما لا يمكن تصديقه؛ وهو أنه نقل شركة أرامكو بالتدريج إلى الملكية السعودية، واقتفى أثره دول أخرى، فقد تم تصفية شركة نفط بونانزا التى دام عمرها خمسين عامًا، وتحولت بعض الحكومات العربية ـ سواء «الثورية» كما فى العراق، أو المحافظة كما فى السعودية ـ إلى سادة للنفط.

كان يتحتم على العراق، لاسيما حاكمه الأسبق عبدالكريم قاسم، أن يدفع ثمن عصيانه وتمرده، وكان العراق يومًا ما البلد المضيف لمؤتمر تأسيس منظمة الأويك. فجأة تلقى الأكراد العراقيون مساعدات مالية من الغرب للوقوف فى وجه الحكومة المركزية ببغداد، ونظرًا لأن حكم عبدالكريم قاسم اعتمد بصورة مطردة على الشيوعيين بالعراق ـ فى تلك الآونة التى دارت فيها الحرب الباردة كانت الشيوعية فى أعين الغرب بمثابة جريمة لا تغتفر، وهى التى تم استغلالها أيضًا للإطاحة بالإيرانى مصدق ـ فكان ذلك نقطة ارتكاز لعمل وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) عام ١٩٦٣ لمد يد العون لحزب البعث فى انقلابه على عبدالكريم قاسم؛ وبذلك وصل حزب البعث ـ قبل أن يخضع العراق له نهائيًا عام ١٩٦٣ ـ لأول مرة إلى السلطة بمساعدة أمريكا، وكان أحد أعضائه البارزين فى ذلك الحين صدام حسين.

ازداد إدمان الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى لهذه المادة السائلة السوداء والسعى وراءها، وذلك ـ من الناحية القانونية ـ بعد أن أفلت النفط من يد شركات النفط الغربية ولم تعد تسيطر عليه، فأرسلت كل من أمريكا وبريطانيا العظمى

جيوشهما مرتين إلى العراق؛ لنزع مصادر النفط من براثن حكم الطاغية صدام حسين؛ عام ١٩٩١ بعد احتلاله الكويت ثم عام ٢٠٠٣. ومما يدل على مدى أهمية الإبقاء على عدم انقطاع وثبات الإمدادات النفطية بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، أنها أنفقت فى نهاية التسعينيات سنويًا ما بين ثلاثين وستين مليار دولار فقط لتأمين واردات النفط إليها، حيث أنفقت هذه الأموال الطائلة على قواتها المتمركزة فى الخليج، وعلى ناقلاتها المصفحة وحاملات الطائرات التى تصول وتجول بالخليج الفارسى والمياه الإقليمية المتاخمة[٥].

لم يكن الهدف من حرب العراق عام ٢٠٠٣ هو تحرير الشعب العراقى من استبداد صدام حسين، بل كان فى المقام الأول مراقبة طرق الإمداد بالنفط، ويتضح لنا ذلك بإلقاء نظرة على اللسان الناطق باسم المؤسسة السياسية الأمريكية، وهى مجلة «العلاقات الخارجية» (Forgein Affairs)، ففى هذه المجلة التى تصدر كل شهرين نجد أن فكرة احتلال العراق محل دراسة منذ سنوات. ففى صيف عام ٢٠٠٣ بعد شهور قليلة من حرب العراق كتب فى هذه المجلة كينيث م. بولاك (Kenneth M. Pollack) المدير الأسبق لقسم شئون الخليج الفارسى داخل مجلس الأمن القومى ما يلى: «إن اهتمام أمريكا الرئيسى بالخليج الفارسى يقع فى دائرة تأمين إمدادات النفط من المنطقة بشكل حر ومستقر إلى جميع مناطق العالم، على أن الولايات المتحدة لا يهمها أن يباع جالون البنزين بمحطات التموين بدولارين أو ثلاثة دولارات أو أن تحصل شركات مثل إكسون (Excon) أو لوك للبترول (Lukoil) أو توتال (Total) على تعاقدات. كما أن اهتمام الولايات المتحدة لا يتعلق بكم البترول الذى تستورده هى ذاتها من الخليج الفارسى أو من مناطق أخرى، فالسبب فى اهتمام الولايات المتحدة فى أن يستمر تدفق نفط الخليج الفارسى بوفرة وإلى حدٍّ ما بأسعار رخيصة، يرجع ببساطة شديدة إلى أن الاقتصاد العالمى فى الخمسين عامًا المنصرمة وضعت بنيته على أساس نفط وفير ومعتدل السعر. فإذا أسقطت هذه القاعدة، انهار معها الاقتصاد العالمى»[٦].

وعقب توليه منصبه مباشرة كلف الرئيس چورچ دبليو بوش فى عام ٢٠٠١ نائبه ديك تشينى بإعداد تقرير بشأن توقعاته حول احتياجات الولايات المتحدة للطاقة على المدى البعيد، على أن يبين فى التقرير التصورات الخاصة بكيفية تأمين هذه الاحتياجات. وشرحت لجنة تشينى فى التقرير أن الولايات المتحدة قد

غطت فى عام ٢٠٠١ احتياجاتها من النفط بنسبة ٥٢ فى المائة عن طريق الاستيراد، إلا أنه من المتوقع أن تزداد حصتها من الاستيراد حتي عام ٢٠٢٠ لتصل إلى نسبة ٦٦ فى المائة. فقد استوردت الولايات المتحدة وفقا للتقرير فى عام ٢٠٠١ ١٠,٤ مليون برميل نفط يوميًا من الدول المنتجة للبترول، التى ستصبح فى عام ٢٠٠١ بناء على نبوءة تشينى ١٦,٧ مليون برميل يوميًا. أما الاستهلاك العالمى من النفط فمن المتوقع ارتفاعه من حوالى ٧٧ مليون برميل يوميًا فى عام ٢٠٠٠ ليصل إلى حوالى ١١٠ ملايين برميل يوميًا فى عام ٢٠٢٠. ووفقًا لتلك التقديرات، فإن الاستهلاك العالمى فى العقدين الأولين من القرن الحادى والعشرين سيبلغ ٦٧٠ مليار برميل، وهذا يعادل ثلثى احتياطيات النفط المعروفة فى عام ٢٠٠٠[٧].

وفى سبيل سعيها للبحث عن احتياطيات جديدة من النفط، اكتشفت الولايات المتحدة فى هذه الأثناء إفريقيا أيضا، فالدول الواقعة جنوب الصحراء تضم فى أراضيها ٨٠ مليار برميل نفط، وهذا يعادل نسبة ٨ فى المائة من احتياطيات النفط العالمية. كما تستورد الولايات المتحدة من إفريقيا الوسطى فى الوقت الراهن نسبة ١٦ فى المائة من احتياجاتها من النفط، التى يتوقع ارتفاعها فى عام ٢٠١٥ إلى ٢٥ بالمائة، وتنتج الدول الواقعة جنوب الصحراء فى الوقت الراهن حوالى أربعة ملايين برميل نفط يوميًا، وهذه هى الكمية التى تستخرجها كل من إيران وفنزويلا والمكسيك مجتمعين. والدول المنتجة للنفط الواقعة جنوب الصحراء الإفريقية هى السودان (١٨٦٠٠٠ برميل يوميًا) ونيجيريا (٢,٢ مليون برميل يوميًا مع توقع ارتفاع هذه الكمية لتصل إلى ٤,٢ مليون برميل فى عام ٢٠٢٠) وأنجولا (بحوالى ١,٦ مليون برميل) وغينيا الاستوائية والكونغو والجابون[٨].

ومنذ أن اكتشف وجود النفط بكميات هائلة فى جنوب السودان، أظهرت الولايات المتحدة اهتمامًا ملحوظًا بعملية إنهاء الحرب الأهلية الدائرة منذ عشرين عامًا والتى بلغ ضحاياها حتى الآن حوالى مليون قتيل، ولم تلق على مستوى العالم ثمة اهتمامًا إلا القليل. ووفقًا لتصورات الولايات المتحدة فإنه يتعين على نيجيريا - وهى حاليًا أكبر منتج للنفط بإفريقيا - أن تنسحب من عضوية الأوبك. وكثير من احتياطيات إفريقيا من النفط تقع خارج نطاق اليابسة (مثل خليج غينيا)، فإمدادات النفط ليست مهددة بالقلاقل الداخلية والحروب

الأهلية إلا بنسبة ضئيلة لا تذكر. ويقدر الخبراء أن خليج غينيا سيتطور ويتنامى لدرجة تؤهله لأن يصبح أكبر موقع إنتاجى فى العالم خارج نطاق اليابسة، وكثير من حقول النفط بإفريقيا تقع على سواحل الأطلسى أى فى الجهة المقابلة للسواحل الشرقية الأمريكية؛ ولهذا السبب أيضًا شرعت شركات نفط أمريكية فى عام ٢٠٠٣ فى استثمار حوالى عشرة مليارات من الدولارات فى عمليات تطوير حقول النفط الإفريقية(٩).

إلا أنه لا يمكن لمخزون النفط الإفريقى أن يحل محل احتياطيات النفط فى الدول الواقعة على الخليج الفارسى، وذلك لأنه لايزال ثلثا احتياطيات النفط المعروفة موجودة بالخليج، فالسعودية وحدها تملك ربع احتياطيات العالم من النفط ويأتى بعدها العراق ثم الكويت بنسب متراوحة بين كل منها تصل من حوالى عشرة إلى اثنى عشر بالمائة؛ ولذلك يتركز اهتمام الولايات المتحدة بشكل حيوى على ألا تستأثر دولة معادية بالتحكم فى المنطقة ومصادرها، وأن تستفيد من هذه الرقابة على المنطقة فى تعظيم قوتها أو فى ابتزاز العالم. ولكن نظرًا لأن المخزون العراقى قد خرج من دائرة التحكم والرقابة التى تفرضها الولايات المتحدة، ولأن ـ وهذا الوضع يشكل أزمة للولايات المتحدة ـ أحد الموردين الأساسيين وهو المملكة القبلية العربية السعودية مهددة بحرب عصابات، فقد أقامت الولايات المتحدة قاعدة عسكرية لها فى العراق، حيث تعمل انطلاقًا من هذه القاعدة على تأمين إمدادات النفط، وفى نفس الوقت تحارب قاعدة أسامة بن لادن الإسلامية.

تمتد شبكة أسامة بن لادن من شرق إفريقيا عبر اليمن والمملكة العربية السعودية حتى باكستان وأفغانستان، وهذه المنطقة متطابقة تمامًا مع خريطة استخراج البترول وتمر بها الطرق الهامة لنقل النفط. هناك بلاد مثل باكستان وأفغانستان ليس بها احتياطيات نفطية، إلا أن لها أهمية كبرى فى المنطقة فى إطار ارتباطها بشبكة النفط الممتدة بها. كما أنه ـ من المحتمل ـ مد خطوط أنابيب لنقل النفط عبر أراضى باكستان وأفغانستان، حتى يتسنى فى المستقبل نقل المخزون النفطى من المناطق الواقعة على بحر قزوين إلى الأسواق العالمية. وهذا يعنى أن كلاً من اليمن والمملكة العربية السعودية والكويت والعراق والدول المطلة على بحر قزوين الغنية بالنفط والغاز الطبيعى (إيران، تركمانستان، أذربيجان،

روسيا، كازاخستان)، وكذلك الدول الهامة بالنسبة لإمدادات خطوط النفط وهى أفغانستان وباكستان تشكل جميعها منطقة واحدة يمكن أن نطلق عليها إلى حد ما بحق اسم «نفطستان».

وقد كان من نتائج قيام قاعدة أسامة بن لادن الإسلامية بعمليات هجومية أيضًا فى أجزاء من هذه المنطقة النفطية أن تشابكت الخيوط ما بين الحرب من أجل تأمين احتياطيات النفط من ناحية والحرب على الإرهاب من ناحية أخرى. وبناءً على ذلك، فإن خطوط الصراع فى المنطقة لا تنحصر فى منطقة الشرق «الأوسط»، أى ليس فى إسرائيل والعراق والمملكة العربية السعودية فحسب، بل تمتد كذلك إلى منطقة بحر قزوين فى الشمال وأفغانستان حتى تصل إلى الصين، إذ إن الاحتياج لاستيراد النفط من هذه المناطق يشهد تناميًا مطردًا. فاستيراد النفط من هذه المنطقة الواقعة حول بحر قزوين من شأنه أن يمثل البديل الجيد فى حالة سقوط الشرقين الأدنى والأوسط غير المستقرين على الدوام فى أزمة جديدة عميقة، ومن ثم فإن الصين تضع اليوم خططًا لمد خط أنابيب بطول آلاف الكيلو مترات يبدأ من بحر قزوين مرورًا بكازاخستان حتى يصل إلى مراكز الاقتصاد الصينى.

يقول البعض إن التاريخ لا يعيد نفسه، أفلا يعيد التاريخ نفسه أحيانًا، وإن كان فى خطوطه العريضة على أقل تقدير؟ من العسير ألا نتصور وجود تشابه بين النشوة الكبرى الأولى التى اعترت الباحثين عن النفط فى مطلع القرن العشرين وتلك الأجواء التى تصاحب عمليات البحث عن الذهب فى مطلع القرن الحادى والعشرين فى منطقة بحر قزوين، مما دفع رئيس كازاخستان نور سلطان ناظرباييف للقول بأن بلاده ستكون فى عام ٢٠٣٠ «كويت وسط آسيا». وسرعان ما تحالفت بعض الحكومات الغربية وفى مقدمتها الولايات المتحدة، كما حدث من قبل فى منطقة الخليج، مع حكام أوتوقراطيين، وكانوا هذه المرة فى معظمهم من قدامى كوادر الأحزاب الشيوعية الذين استولوا على السلطة عقب انهيار الاتحاد السوفيتى وحكموا فى الجمهوريات المستقلة حاليًّا بوسط آسيا وهى كازاخستان، وتركمانستان، وكيرجستان، وأوزبكستان، وطاجيكستان بأسلوب تعسفى أوتوقراطى. الجدير بالذكر أن كازاخستان وأوزبكستان من الدول المطلة على بحر قزوين، ثم إن الولايات المتحدة قامت بتأسيس قاعدة عسكرية لها فى أوزبكستان.

أما الكنز الذى تحويه كل من كازاخستان وتركمانستان فهو كنز عملاق، حيث يكمن تحت سطح الأرض والماء ما يتراوح بين ١٠٠ و٢٠٠ مليار برميل نفط وحوالى ؟ مليارات متر مكعب من الغاز الطبيعى. ولا يوجد سوى المملكة العربية السعودية فى الوقت الراهن التى تملك ٢٦٠ مليار برميل نفط من المخزون الضخم يمكن أن يتخطى حجم ما هو متوافر فى حوض بحر قزوين. وقد تم فى عام ٢٠٠٠ اكتشاف حقل نفط واعد فى الأراضى الكازاخستانية، ألا وهو حقل «كاشاجان». ووفقًا للتقديرات الأولية سيحتل هذا الحقل المرتبة الرابعة أو الخامسة من الثروة النفطية على ظهر الكرة الأرضية.

منحت هجمات أسامة بن لادن الإرهابية على المدنيين فى نيويورك وواشنطون الفرصة للولايات المتحدة لكى تهاجم قواتها أفغانستان وتتمركز فى قلب آسيا؛ وبذلك انتزعت الولايات المتحدة - بغزو العراق والتمركز فى أفغانستان - مركزًا لها فى الشرقين الأدنى والأوسط، وكذلك فى وسط آسيا يفسح لها الطريق لتصير القوة المهيمنة فى مملكة «نفطستان». وهكذا أصبحت إيران المتمردة محاصرة، وكذلك الحال مع باكستان التى تحارب فى الداخل القوى الإسلامية المتطرفة وفى صراع دائم مع الهند حول كشمير. وهنا يلوح فى الأفق معالم صيغة جديدة من تلك «اللعبة الكبرى» (انظر الفصل الرابع عشر) التى تصارع فيها فى القرن التاسع عشر كل من بريطانيا العظمى وروسيا القيصرية على النفوذ فى أفغانستان وآسيا الوسطى، حينما سعت إنجلترا إلى حماية مستعمراتها فى الهند من أى توغل أو زحف روسى، وكان مسرح الأحداث آنذاك أفغانستان، أما اليوم فقد أصبحت لعبة الاحتكار أكثر تعقيدًا عنها فى الماضى، إذ إن هذه اللعبة لم تقتصر فى أطرافها على روسيا وأمريكا - الوريث الإمبريالى لبريطانيا العظمى - فحسب، بل تمتد لتشمل الصين - تلك الإمبراطورية الاقتصادية الصاعدة والقوة العالمية المحتملة فى المستقبل - فهى أيضًا شريك ومنافس فى «اللعبة الكبرى».

تكمن مشكلة نفط بحر قزوين فى عملية نقله إلى الدول المستهلكة، إذ إن بحر قزوين غير مفتوح على بحار الدنيا، وبالتالى يتعين نقل المادة الخام عالية القيمة عبر خطوط أنابيب. ومنذ قام آية الله الخمينى عام ١٩٧٩ بطرد الشاه وانتزاع إيران من مجال النفوذ الأنجلوأمريكى، أصبح القانون الأمريكى يمنع الشركات الأمريكية من التعامل التجارى مع إيران (قانون D'Amato الصادر فى ١٤ أغسطس عام ١٩٩٦)، كما أن واشنطون ترفض بشدة إنشاء خطوط

إمداد نفطية بوسط آسيا عبر إيران. وهكذا بدأ التفكير فى حلول أخرى مثل مد خطوط الأنابيب النفطية تحت سطح الماء من تركمانستان حتى أذربيجان، حتى يتسنى الاستفادة من مليارى متر مكعب من الغاز الطبيعى تستخرج من تركمانستان. ثم يجرى نقل الغاز من هناك عبر خط أنابيب يمر بالأراضى التركية ليصل إلى البحر المتوسط. وقد دعمت أمريكا هذا المشروع وكانت حريصة على استبعاد روسيا من جميع المشروعات المتعلقة بخط الأنابيب لأطول فترة ممكنة؛ حتى لا تفتح الباب أمام تلك الدولة التى كانت قوة عظمى فيما مضى خشية أن تنهض اقتصاديًا.

وهناك إمكانية أخرى لنقل الغاز الطبيعى التركمانى دون المرور بالأراضى الروسية وذلك عن طريق إنشاء خط أنابيب عبر الأراضى الأفغانية. ولكن هذا يتطلب ضرورة وجود استقرار دائم بالدولة التي تعانى منذ عشرات السنين من الحروب والمشاحنات القبلية، والواقع يقول إن أفغانستان بعيدة عن ذلك السلام كل البعد، وحين كانت حكومة طالبان لاتزال تحكم البلاد دخلت الولايات المتحدة فى اتصالات معها، حيث كان ينظر إلى طالبان ـ المحتقرين اليوم ـ على أنهم قوة تعمل على استقرار البلاد، فتفاوضت معهم الولايات المتحدة حول موضوع مد خط أنابيب عبر أراضيهم.

يواجه حقل نفط كاشاجان بكازاخستان نفس مشكلة النقل هذه، صحيح أن إحدى شركات النفط الأمريكية قامت بمد خط أنابيب يمتد عبر إقليم القوقاز إلى منطقة نوفوسيبيرسك الروسية على البحر الأسود، إلا أن هناك تفكيرًا فى مد خط أنابيب إضافى آخر يمر عبر أراضى إيران أو أفغانستان رغم وجود معارضات أمريكية لهذه الخطوة. والإيرانيون معنيون بذلك ويرغبون فيه، إلا أن الأمريكان يعرقلون هذه الخطة كما هو شأنهم دائما على الرغم من أن إنشاء خط الأنابيب عبر إيران يحقق لهم أكبر فائدة وربح إذا نظرنا للمشروع من الناحية الاقتصادية. ولكن حتى يتسنى استبعاد روسيا إلى أبعد حد وعزل الحكومة الإسلامية فى طهران، فإن الأمريكان يفضلون إنشاء هذا الخط عبر أفغانستان التى لاتزال غير مستقرة، وإن كان قد تم تحريرها من حكم طالبان ومن أسامة بن لادن. كانت هناك اتصالات متبادلة بين وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) وأسامة بن لادن، وذلك حتى صيف عام ٢٠٠١ وقبل أسابيع قليلة من وقوع

هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية على نيويورك وواشنطون، ورغم الاعتداء على المدمرة كول الأمريكية بميناء عدن (أكتوبر ٢٠٠٠). كان أسامة بن لادن حينذاك يخضع لعلاج طبى بإحدى دول الخليج الصغيرة، والتمس الأمريكان ترتيب أوراقهم مع طالبان والقاعدة فى أفغانستان، لا لشىء إلا لمد خطوط أنابيب النفط والغاز الطبيعى، ولم تسفر المحادثات عن نتائج إيجابية، ثم جاءت أحداث ١١ سبتمبر عقب ذلك. ومنذ ذلك الحين يصعب الفصل بين الحرب ضد الإرهاب والحرب من أجل إمدادات النفط فى هذا الجزء من العالم.

ويمكن تحقيق الهدف الأمريكى فى تضييق مساحة اعتمادها على النفط السعودى، وذلك عن طريق مخزون النفط القزوينى. ويضاف لذلك أن كازاخستان ـ مثل روسيا ـ ليست عضوًا بمنظمة الأوبك؛ أى إنها لا تخضع بدرجة كبيرة لمرجعيات تحديد الأسعار، بل يمكن لها أن تمارس ضغوطًا على أسعار الأوبك ـ وهذه مسألة تتولاها حتى الآن السعودية ولو بشكل وأداء آخر. ففى حالة ارتفاع أسعار السوق العالمية تستطيع المملكة العربية السعودية وحدها وحتى الآن أن تلعب دور «المنتج المتأرجح»، فهى دولة يمكنها رفع ضخ نفطها بدرجة عالية سريعة، وبذلك تصل بالأسعار «بقرصة خفيفة» إلى أسفل عن طريق إغراق السوق بفائض من الإنتاج.

لا يمكن بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الصناعية الأخرى أن تفصل بين نفط بحر قزوين والنفط الخليجى وفى المستقبل النفط الإفريقى، إلا أن مخزون النفط السعودى والعراقى هو الذى يلعب الدور الحاسم؛ نظرًا لأحجامه العملاقة على المدى البعيد؛ ولذلك جاء تعبير الرئيس الأمريكى جيمى كارتر فى عام ١٩٨٠ يشير لهذا المعنى حين قال إن أى محاولة لإعاقة حرية الإمدادات النفطية من منطقة الخليج الفارسى سينظر إليها على أنها هجوم على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية وسترد عليها أمريكا بقوة السلاح إذا لزم الأمر.

وتقع إيران أيضًا تحت طائلة هذا المبدأ السياسى الذى أعلنه كارتر، فنظرًا لمخزونها من النفط ونظرًا لموقعها الجغرافى الحيوى فى إطار نقل النفط القزوينى فإن إيران لها دور استراتيجى. ومن سوء حظ الولايات المتحدة أنها لا تستطيع التأثير على هذا الدور منذ سقوط نظام شاه إيران الذى كان مستسلمًا ومطيعًا

للغرب، وأيضًا لأنها أضاعت على نفسها؛ باتباعها سياسة متحجرة، فرصة ممارسة نفوذ على سياسة النظام. كما أن احتلال العراق كان من شأنه إجبار إيران المتمردة منذ عام ١٩٧٩ على الانصياع والطاعة تمامًا وفقًا للمبادئ التى حددها الرئيس كارتر قبل ٢٣ عامًا.

إلا أن إيران تلعب دورًا ذكيًّا، فبعد أن عرقلت الولايات المتحدة إنشاء خطوط أنابيب نفطية - وضد إرادة مؤسساتها النفطية - عبر إيران، اتفقت حكومة طهران مع كازاخستان على عقد صفقة بينهما يطلق عليها تبادل النفط، حيث تقوم كازاخستان بموجب هذا الاتفاق بنقل نفطها فى حاويات على متن ناقلات النفط عبر بحر قزوين حتى المدن الشمالية لإيران. وفى مقابل ذلك تبيع إيران لها كمية مساوية لذلك من نفطها الخاص بها عبر موانيها. وهذا يعنى أن نفط كازاخستان يصل عبر إيران إلى السوق العالمى بطريق غير مباشر، وبدون خطوط أنابيب.

ولكن الولايات المتحدة لا تنهزم ولا تستسلم وشجعت على مد خط أنابيب بدأ العمل فيه منذ فترة وجيزة ويمتد من باكو فى أذربيجان عبر أراضى جورجيا غير الآمنة، حيث وضعت الولايات المتحدة بها لواء عسكريًّا صغيرًا تحسبًا لأى حادث حتى يصل إلى ميناء چيهان التركى الواقع على البحر المتوسط. وفى هذه الأثناء انتهى العمل من هذا الخط الذى تكلف أربعة مليارات من الدولارات بطول ٢٠٠٠ كم على وجه التقريب. ويتكلف نقل برميل النفط ٣,٢٠ دولار. ورغم ذلك لا تفزع الولايات المتحدة من هذه التكاليف الباهظة؛ لأن المشروع متوافق سياسيًّا: فخط الإمداد النفطى يتجاوز كلاً من إيران المتمردة وروسيا المنافس القديم[١٠].

وحين أجبر رئيس جورجيا إدوارد شيفرنادزه على التخلى عن منصبه فى نوفمبر عام ٢٠٠٣ ساد القلق فى كل من موسكو وواشنطون على حد سواء وبنفس الدرجة بشأن مستقبل الدولة. والسبب فى هذا الاهتمام يرجع إلى أهمية موقع جورجيا الإستراتيجى، لاسيما فيما يتعلق بطرق نقل النفط بها.

إلا أن اللعبة الكبرى من أجل النفط وطرق إمداداته لم تعد تصلح اليوم لأن ترفع سياسة تنفيذها شعار «واحد ضد الجميع»، وغالبًا ما يضطر القائمون على اللعبة - ولو على أقل تقدير من حين لآخر - لأن يتم التنسيق فيما بينهم. فلأول مرة فى تاريخ التكتلات السياسية تؤلف كل من الولايات المتحدة وروسيا

مجموعة عمل لمناقشة مستقبل استهلاك النفط وبحث مشروعات استثمارية فى مجال الصناعات النفطية الروسية. كانت روسيا فى عام ٢٠٠٢ أكبر منتج فى العالم بضخها ثمانية ملايين برميل يوميًا. وفى المقابل ظلت أمريكا أكبر مستهلك فى العالم. وقد أنشأ الروس فى مورمانسك ميناء جديدًا لتصدير النفط يريدون من خلاله بحلول عام ٢٠١٠ تغطية عشرة بالمائة من احتياجات أمريكا من النفط[١١].

إلا أن التعاون الجديد يمكن أن يصل إلى حدود التصادم بشأن أسعار النفط، وذلك لأن روسيا ترفع من سعر النفط المصدر نسبيًا لصالح عمليات التنمية الداخلية، فى حين يرغب الأمريكان فى الحصول على سعر منخفض عن أسعار السوق المعلنة ـ وليس سعرًا هابطًا لدرجة تثير مشاعر أصحاب شركات النفط الأمريكية الذين يتحملون نفقات تصنيع عالية. والواقع يقول: إذا ارتفع أو انخفض سعر النفط دولارًا واحدًا فإن هذا التأرجح ينتج عنه تأثر ميزانية الدولة الروسية بما قيمته مليار دولار مكسبًا أو خسارة.

ومن العلامات الفارقة ذات الدلالة فى الحرب الدائرة حول أسواق النفط وحول النفوذ السياسى تلك الصفقة الروسية. فقد سعت كل من الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية وإسرائيل أثناء الحرب الباردة فى استبعاد الاتحاد السوفيتى بقدر الإمكان من مجال التنافس بأسواق النفط، ولكن بعد انهيار مملكة الشر ونزوح مليون روسى وأغلبهم من اليهود من بلاد القوة العظمى السابقة إلى إسرائيل تغيرت العلاقات وتطلب ذلك إعادة ترتيب الأوراق من جديد. كانت إسرائيل قد أنشأت عام ١٩٦٧ خط أنابيب لنقل النفط يمتد من إيلات حتى عسقلان على البحر المتوسط، وأطلق على هذا الخط: «خط أنابيب ماوراء إسرائيل» (Israel Pipeline) ويعرف اختصارًا باسم (TIP)، وكان مخصصًا لنقل النفط الإيرانى إبان حكم الشاه إلى البحر المتوسط، تجنبًا لقناة السويس، وبعد تغير النظام وانتقال الحكم من الشاه إلى آية الله الخمينى، بما لايريح الأمريكان، توقف استعمال هذ الخط إلا قليلا، فلم يكن ينقل سوى كميات لا تذكر من الإنتاج المصرى الذى كان يضخ إلى إسرائيل، إلى أن توقفت أيضًا هذه الإمدادات النفطية المصرية عقب اندلاع الانتفاضة الثانية فى سبتمبر عام ٢٠٠٠. على أن الروس رغبوا منذ فترة وجيزة فى نقل جزء من نقطهم التصديرى القادم من نوفوسيبيرسك وأوديسا على البحر الأسود عبر مضيق الدردنيل ليصل إلى ميناء

عسقلان الإسرائيلى، ثم يتم نقله من عسقلان بمساعدة الصديق الجديد إسرائيل حتى يصل إلى إيلات على البحر الأحمر، وفى نهاية المطاف يتم تحميله على متن ناقلات النفط فى اتجاه جنوب شرق آسيا. وبذلك ظهر منافس جديد للمملكة العربية السعودية التى كانت حتى ذلك الحين المحتكر الوحيد تقريبًا لهذا الاتجاه. يضاف إلى ذلك ما تحققه إسرائيل من مكاسب عن طريق رسوم العبور[١٢].

إن القصة القصيرة لخط أنابيب النفط الإسرائيلى Tip لايمكن أن يكون لغزًا من ألغاز الكلمات المتقاطعة التى تدور حول النفط والسلطة، إذ كان هذا الخط يخدم فى المقام الأول المصالح الاقتصادية والسياسية للشاه وإسرائيل - أما اليوم فهو يخدم إسرائيل وشريكها الجديد روسيا، ولكن استبدال المهمة الخاصة بخط الإمداد الإسرائيلى ما هو إلا شكل من أشكال المناوشات البسيطة داخل السباق العظيم حول كنوز النفط فى العالم، وتظل ميادين المعركة الرئيسية الشرقين الأدنى والأوسط ووسط آسيا.

وقد مكنت الحرب ضد الإرهاب الأمريكان من نشر قواعد عسكرية لهم فى جورجيا وأوزبيكستان وطدجيكستان وقرجيزيا، أما إيران فقد أصبحت اليوم من الناحية العملية محاصرة بالقواعد الأمريكية، وكذلك الحال بالنسبة لأفغانستان. وتكاد القوة العسكرية الأمريكية تصل إلى حدود الصين؛ لأن المسافة من بشكيك - عاصمة قرجيزيا بما فيها من قاعدة واعدة، حتى الصين - القوة العالمية الجديدة فى المستقبل - لاتتعدى سوى مئات قليلة من الكيلومترات.

وبالطبع لا يسعد من فى موسكو وبكين بالدخلاء الجدد المسلحين تسليحًا قويًا، وكلهم على يقين من أن حرب أمريكا ضد الإرهاب متطابقة فى أغلب الأحوال مع مطامع أمريكا فى تأمين مصادر النفط فى المنطقة. إلا أنه بعد هجوم القاعدة على أمريكا فى يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لا يستطيع ولايرغب أحد فى معارضة الحشود الأمريكية وما بعثت به إلى المنطقة من فرق وقوات عسكرية. والآن يعسكر الأمريكان فى الجمهوريات السوفيتية السابقة المتعددة، وهى جميعًا أعضاء فى «مجموعة الدول المستقلة» (GUS) التى تهيمن عليها روسيا. وقد اعترفت الولايات المتحدة فى عام ١٩٩٩، قبل بداية الحرب على الإرهاب، فى أحد القرارات الإستراتيجية، بأهمية منطقة وسط آسيا، وتم إخراج هذه المنطقة من تحت «قيادة الباسيفيكى» ووضعت تحت ما يسمى «بالقيادة المركزية» (CENTCOM) التى يقع عليها أيضًا مسئولية القوات الأمريكية فى منطقة الخليج،

نظرًا لأن المنطقة التى تمتد من جبال الأورال حتى الحدود الغربية للصين، أصبحت «بسبب ما تحويه من احتياطات نفط وغاز طبيعى واسع المدى» «ذات قيمة إستراتيجية كبرى». وفى هذا الصدد كتب ميشيل ت.كلير فى مجلة «الشئون الخارجية» ما يلى: «إذا ما رسمنا على إحدى الخرائط حقول النفط العالمية وخطوط إمداداته والخطوط التى تسلكها ناقلات النفط، فسوف نصل إلى نتيجة مؤداها أن أربعة أخماس مجمل مخزون النفط وجميع طرق نقله تقع فى مناطق غير مستقرة سياسيًا بدرجة بالغة - وهى بالتحديد فى الشرق الأوسط ووسط آسيا وكولومبيا وقلب إفريقيا»[١٣].

إن خطوط الصراعات الراهنة والمستقبلية تشير جميعها - وإلى حد كبير - إلى أماكن ظهور مصادر الطاقة على ظهر الكرة الأرضية، والتاريخ يبين لنا أن الصراعات الاقتصادية وفقًا لجميع التوقعات لا تحل دائمًا بالطرق السلمية، فبعد أن أمَّم الرئيس المصرى جمال عبد الناصر عام ١٩٥٦ قناة السويس، وانتزع هذا العامل الاقتصادى من دائرة نفوذ البريطانيين، هجم البريطانيون والفرنسيون والإسرائيليون على مصر. وبعد أن قام عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٨ بانقلاب عسكرى فى العراق، تحرك الأمريكان نحو ساحل لبنان للحيلولة دون امتداد الثورة إلى دول أخرى ذات أهمية إستراتيجية. وقبل ذلك أحبطت الولايات المتحدة عن طريق تدخلات دبلوماسية مساعى السياسى اللبنانى كمال جمبلاط والمعروف عنه أنه اشتراكى، فى العمل على وجود حكومة مستقرة، إذ كانت الولايات المتحدة تخشى أن يشكل جمبلاط خطورة بأى شكل من الأشكال على إمدادات النفط من المملكة العربية السعودية إلى البحر المتوسط عن طريق خط الإمداد الذى أنشأته آنذاك شركة أرامكو، والمعروف باسم Tapline (خط أنابيب ماوراء شبه الجزيرة العربية) والذى كان ينتهى بميناء صَيْدَا. كما وقفت الولايات المتحدة الأمريكية شاهدة على الأحداث حين هجم اليمنيون فى المهجر على اليمن الجنوبى الاشتراكى حيث خرج منه الإنجليز (وحيث كان للإنجليز فى عدن قاعدة بحرية)، ثم تولوا أمر إسقاط الحكومة المتمردة على الانصياع للغرب. وأخيرًا شجعت الولايات المتحدة عام ١٩٧٣ شاه إيران على إرسال نحو عشرة آلاف جندى إلى مدينة ظفار المنشقة على عمان كى يقمع الحركة الانفصالية هناك[١٤].

إن «تحرير» الكويت عام ١٩٩١، و«تحرير» أفغانستان من طالبان عام ٢٠٠١/٢٠٠٢ ثم «تحرير» العراق من صدام حسين عام ٢٠٠٣ لا يخدم سوى الخطط الاقتصادية والإستراتيجية الكونية للولايات المتحدة وبريطانيا العظمى. فقد كانت نظم حكم صدام حسين وطالبان مرغوبًا فيها أو على أقل تقدير يمكن السكوت عليها، فقط حينما كانت تخدم المصالح الأمريكية. وحينما خرجت عن دائرة نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية فكان يتعين عليها أن تختفى من الوجود. لأن الهيكل الأساسى والأعمدة الرافعة لهذا البناء المشيد عقب الحرب العالمية الأولى، والذى تمتد أركانه بين البحر المتوسط وأفغانستان، وبين شبه الجزيرة العربية وإيران - ويضاف له مؤخرًا هذا الملحق الواقع على بحر قزوين - هذا البيت يجب أن يظل قائما من وجهة النظر الأمريكية البريطانية. وشبكة الدول العميلة التى صنعتها يومًا ما بريطانيا العظمى وفرنسا يجب أيضًا أن تستمر فى الوجود مثل الأعمدة الحاملة لمملكة «نفطستان» - أى النظم التى يتوسم فيها الغرب الود والصداقة، ومن غير المسموح به على الإطلاق الاقتراب من أو المس بإستاتيكية العمارة الاستعمارية.

وقد أمكنهما إعادة بناء هذا الصرح الاستعمارى بعد الحرب العالمية باستثناء إيران وسوريا، إلا أن هناك أعمدة أخرى تهدد بالانهيار، مثل العمود السعودى، ومن ثم بدأت على الفور الإجراءات التعزيزية بعملية «الحرية الدائمة للعراق».

الفصل الرابع عشر

أفغانستان ـ طبعة جديدة من المستعمر الكلاسيكي

«على صواب من يطلق على اللعبة أنها كبرى!... فمن ناحية الجنوب ـ ويعلم الله كم يبعد الجنوب ـ جاء المهراتا ولعب اللعبة الكبرى على الحياة والموت. والآن يتعين عليّ أن أتجه إلى بعيد، بعيد في اتجاه الشمال، لألحق من جديد باللعبة الكبرى. حقًّا، إن كل شيء يعمل في كل أنحاء الهند كما يعمل نول النساجين».

روديارد كيبلنج ـ رواية «كيم» عام ١٩٠١

كان عصرًا من عصور التاريخ أبدع أدبًا؛ إذ هبط الوحي على كثير من الأدباء من خلال التنافس بين القيصرية الروسية والإمبراطورية البريطانية في قلب آسيا، ولاسيما في أفغانستان. كانت رواية (Kim ـ كيم) ـ للأديب روديارد كيبلنج ـ سببًا جوهريًا في أن يحصل مؤلفها عام ١٩٠٧ على جائزة نوبل للأدب. فالعمل يصف لنا كيف أن رجلاً شابًا وهو كيمبال أوهارا يسقط في شبكة جاسوسية، تبادلت من خلال خدماتها القوى التي حاربت من أجل النفوذ في أفغانستان في منتصف القرن التاسع عشر ـ عمليات الرصد والمراقبة. ثم جاء البريطاني بيتر هوبكيرك في الآونة الأخيرة ـ في عام ١٩٩٠ ـ وأقام نصبًا تذكاريًا أدبيًا تاريخيًا بكتابه الذي يحمل عنوان «اللعبة الكبرى» تخليدًا لهذه اللعبة الكبرى التي جرى تقديمها وعرضها قبل مائة وخمسين عامًا[1].

فبعد أن تجنب الزائرون القادمون من مراكز السياسة الدولية «سقف العالم»، كما أطلق ذلك لورد كرزون قديمًا على أفغانستان، انصهرت ميادين المعارك في الشرق الأدنى ووسط آسيا وأفغانستان، مع بعضها البعض مرة ثانية. وتطورت ساحة أفغانستان من جديد لتصبح مركزًا لتنافس قوى جديدة. ورغم أنه تم استبدال بعض اللاعبين، ورغم أن الجهد المبذول اليوم مرتفع قليلاً، والموضوع والحبكة أكثر تعقيدًا عن الماضي ـ فإن المسرح ظل كما هو دون تغير بكواليسه الشامخة الوعرة،

وكومبارساته الذين يلوحون بأسلحتهم وبذاكرتهم التاريخية وما تحويه من أحداث ـ حين ترجع الذاكرة إلى الوراء فتتذكر طريق الحرير، الذى لم ينقل البضائع فحسب، بل كذلك الأفكار إلى وسط آسيا مما ساعد على نشر الإسلام ـ كل ذلك لم يتغير.

وعادت أفغانستان إلى مسرح تاريخ العالم بدقات الطبول حين فاجأ الاتحاد السوفيتى فى نهاية ديسمبر عام ١٩٧٩ الجميع وأرسل قواته إليها. لم يكن ليونيد بريجينيف يدرك حقيقة الآثار التى سوف تترتب على قراره وما سيتلوه من عواقب لا حدود لها، وأن الغزو ما هو إلا بداية النهاية للاتحاد السوفيتى الكبير. فبعد مرور عشر سنوات كاملة جاءت نهاية الإمبراطورية السوفيتية.

وفى الأيام القليلة التى سبقت هذا القرار القاتل كان هدف موسكو الذى تسعى إليه هو تحقيق مزيد من الانتشار فى إطار سباق الحرب الباردة مع الولايات المتحدة. فقد حاول الاتحاد السوفيتى أن ينشر نفوذه عسكريًا وسياسيًا فى كل من اليمن الجنوبى البريطانى سابقًا بما فيه من ميناء عدن الهام إستراتيجيًا، وفى الصومال وفى الهند وفى العراق بالتحالف مع حزب البعث وفى مصر تحت قيادة جمال عبد الناصر، وبذلك يتسنى له إقصاء الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى نحو مشابه لذلك لعبت القوة العظمى السابقة نفس الدور فى أفغانستان ـ ساحة الصراع الروسى البريطانى سابقًا، ولكن بعد أن حاول الرئيس ساردار محمد داود خان فى عام ١٩٧٥ أن يخرج من فلك موسكو باقترابه من باكستان والمملكة العربية السعودية وسار على دربه حكومات متتابعة مختلفة بحيث لم تعد أفغانستان كما كانت تريدها موسكو، ومن ثم اهتدى بريجينيف ورفقاؤه إلى قناعتهم بأنهم لن يحققوا تقدمات سياسية بمعنى الكلمة، وأنهم لن يحتفظوا بما توهموا تحقيقه فى أفغانستان إلا بغزوها.

وفى حين أعلنت موسكو عن هدفها فى أفغانستان بأن تعيد صياغة المجتمع البالى العتيق وفقًا للمفهوم الاشتراكى، إلا أن موسكو أرادت فى حقيقة الأمر أن تسيطر على البلد المجاور لتكون قاعدة لها لتتوغل سياسيًا فى الشرق الأدنى وجنوب آسيا[٢]. احتلت القوات السوفيتية كابول، وعلى سقف العالم صنعت ـ مرة ثانية وبشكل نهائى سياسة عالمية. لم يكن أطراف اللعبة هذه المرة بريطانيا العظمى وروسيا القيصرية، بل الولايات المتحدة والإمبراطورية السوفيتية، وصارت أفغانستان بما يشبه طاولة الشطرنج التى سيتقرر عليها مسألة «السيادة على العالم» (لورد كيرزون).

ولم يقتصر الأمر على أفغانستان؛ إذ اكتشفت الولايات المتحدة الجمهوريات السوفيتية الواقعة فى قلب آسيا شمال أفغانستان ـ أوزبكستان وتركمانستان وكازاخستان وقرجيزيا وطاجكستان بشعوبها الإسلامية على وجه الخصوص، التى تمثل شوكة فى جنوب الاتحاد السوفيتى يمكن غرسها فى جسده لإحداث قلق سياسى، وذلك بتدعيم المناوئين لنظام الحكم من المسلمين. وقد شعر أحد أحفاد لورد كيرزون وحفيد الرئيس الأمريكى تيودور روزفيلت، وهو أركيبالد روزفيلت، برياح ثلجية «تهب على» الحرب الباردة عبر مضيق خايبر. وكذلك أحد أفراد عائلة روزفيلت، وهو كيرميت روزفيلت، وابن عم أركيبالد روزفيلت، استنتج بالمنطق أهمية موقع أفغانستان ووسط آسيا واعتبرهما بمثابة لوحة القفز التى يمكن من خلالها إحداث تصدع فى الاتحاد السوفيتى. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية بقليل فى عام ١٩٤٩ كتب كيرميت روزفيلت، الذى أطلق على نفسه «كيم» كأحد المعجبين بروديارد كيبلينج، بحثًا ناشد فيه بلاده التماس الثقة فى التركمان والأكراد والأرمن وجيرانهم لإلحاق الضرر عن طريقهم بالسوفيت. وعلق كيم روزفيلت بقوله: إن تاريخ أفغانستان مثله مثل تاريخ بلاد صغيرة عديدة، فهى مليئة بالدروس التى تخبرنا بما يحدث عندما تشرع قوتان عظيمتان فى الاقتتال عن طريقها ومن خلالها[٢].

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى تحولت الشعوب والجمهوريات السوفيتية التى ذكرها كيم روزفلت إلى دول مستقلة، ثم أصبحت فى نهاية المطاف شخصيات فى الطبعة الجديدة للعبة الكبرى. فالنزاع حول إحكام السيطرة على منابع النفط والغاز وحول تمهيد طرق لخطوط جديدة لإمدادات النفط، يشبه إعادة شريط فيلم تم عرضه من قبل حول الشرقين الأدنى والأوسط. فالولايات المتحدة تتعامل بحفاوة شديدة مع النظم غير الديمقراطية والمستبدة مثل نظام إسلام عبدوجانيفتش كريموف فى أوزبكستان، حتى يكون لها قاعدة عسكرية فى أفغانستان. فقوة الصراع فى هذه المنطقة من العالم تقترب من مثيلتها فى الشرقين الأدنى والأوسط، على الرغم من أن هذه القوة ـ لحسن الحظ ـ هى أقرب فى الوقت الحالى إلى الحرارة الكامنة، أو تشبه المرض الذى يظهر على المريض، ولكنه يظل كامنًا فى خلايا الجسم. فحتى الآن لاتزال منطقة قلب آسيا بعيدة عن موجة العنف التى اجتاحت فلسطين والعراق. ولكن أهوال الحرب الأهلية فى طاجيكستان يمكن أن تكون المؤشرات الأولى لتفشى العنف.

وكما قام البريطانيون برسم حدود الشرق الأوسط، فقد جرى رسم حدود دول وسط آسيا أيضًا بصورة تعسفية، حيث وضع فى الحسبان وعن عمد عند رسم تلك الحدود نشوب صراعات. كانت الشعوب فى هذه الدول تعيش فى أشكال اجتماعية خاصة، وكانت تتشكل من نظام العائلات الكبرى والقبائل، وتتحدد هويتها وفقًا لمحل الإقامة والدين الإسلامى والأنساب. ولكن الاتحاد السوفيتى الذى قام على أنقاض تركة روسيا القيصرية فى وسط آسيا، تخوف من أن تقوم تلك الشعوب بتنظيم نفسها فى مواجهة سلطة موسكو الجديدة على أساس خطوط إسلامية موحدة أو إثنية. وحتى يواجه هذا الخطر، تم تقسيم الناس إلى «شعوب» مصطنعة، مثل حال شعوب طاجيكستان وقرجيزيا. ثم تحاط الشعوب بسياج «الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية». وقد خطط ستالين للحدود بحيث أوجب الجمع فى العيش والحياة بين الأعراق المختلفة فى كل واحدة من أشباه الدول المصطنعة داخل الإمبراطورية. ولا يستطيع أحد حل الصراعات المتوقع حدوثها والمرغوب فى حدوثها إلا عن طريق درجة قضائية واحدة ـ قيادة اللجنة المركزية الحزبية بموسكو.

كان النظام المعروف بـ «فرِّق تسُد» ـ أى نظام تفريق الشعوب الخاضعة حتى يمكن حكمها بشكل أفضل ـ مبدأ من المبادئ التى اعتمدها البريطانيون أيضًا. إلا أنه يستحيل ـ كما كتب ذلك الكاتب البريطانى هـ. ف. هودسون عام ١٩٦٩ ـ «التفريق والحكم فى حالة عدم استعداد المحكومين لأن يفرق بينهم أحد»[٤]. ومن المؤكد أن ذلك ينطبق على الشرق الأوسط، وتحديدًا على سياسة الأسرة الهاشمية وعائلة آل سعود فى بداية حكمهم ، كما ينطبق بدرجة أقل على جوهرة التاج البريطانى السابقة: الهند. فقد انقاد الهندوس والمسلمون طواعية للإنجليز، وساعدت سياسة الإنجليز فى الوقيعة بينهم على نشوب تنافس الخصوم مما أدى فى نهاية الأمر إلى قيام الإنجليز فى نهاية حكمهم فى عام ١٩٤٧ بتقسيم هذا الإقليم الشاسع المترامى الأطراف الذى يطلق عليه «شبه القارة» إلى دولتين. وإحدى هاتين الدولتين ـ باكستان ـ تشبه هيئة تلك الدولتين اللتين أوجدهما الإنجليز وهما العراق والأردن حيث خطت الحدود فى الصحراء المحيطة بهما فكانت بمثابة دولتين بلا شعب لهما. وذلك ينطبق على دولة باكستان التى هى فى الأصل لا شىء سوى اختصار لمناطق البنغال وأفغانستان (المنطقة الواقعة فى الشمال الغربى) وكشمير وإيران والسند وتوخارستان وبلوجستان. فاسم

باكستان مثل حالة شرق نهر الأردن، يدل على منطقة جغرافية لا يوجد بها فى الأساس شعب دولة يطلق عليه «باكستانيون»، تمامًا كما لا يوجد فى شرق نهر الأردن شعب دولة يطلق عليه أردنيون أو شعب شرق نهر الأردن. ورغم أن الهند وباكستان ـ التركيبتان الجديدتان ـ سرعان ما ألفا الوضع أو الصفة الجديدة لهما لكلمة «وطن»، إلا أن الثمن كان باهظًا. فقد فرت أعداد هائلة تقدر بسبعة أو ثمانية ملايين مسلم من الدولة الجديدة الهند واتجهت نحو الدولة الجديدة باكستان، ونفس هذه الأعداد الهائلة من الهندوس فرت من باكستان إلى الهند. وهناك أعداد تقدر بحوالى مائتى ألف نسمة لم تَنْجُ من براثن هذا النزوح، فمنهم من لقى حتفه أثناء الهروب ومنهم من ذبح على أيدى الأعداء.

إن التشوهات الخلقية التى صاحبت مولد الدول الجديدة فى الشرقين الأدنى والأوسط وفى وسط آسيا وشبه القارة الهندية أصبحت الآن فى ذمة التاريخ، إلا أن عواقبها تظلنا حتى اليوم. فلا يزال هناك صراع بين الهند وباكستان حول كشمير، وهناك تحالف فى أفغانستان عثر على قرينه فى تلك الأثناء، واستخرجت شهادة ميلاده عام ١٩٣٨ بالمملكة العربية السعودية التى تكبره فى السن بستة أعوام فى ذلك الحين وتم التصديق عليه هناك. فبعد أن تم الكشف عن نفط الدمام الواقعة على الخليج الفارسى، عقدت أمريكا الديمقراطية مع الدولة القبلية المتأسلمة المستبدة شراكة كانت حتى وقت قريب كاثوليكية، نظرًا للتصدعات التى لحقت بهذا التحالف الأيديولوجى المشوه فى السنوات الأخيرة فقط. فلم يكد يمر العقد السابع على هذا الزواج حتى تفاقمت المشكلات، والسبب أولاً وأخيرًا يرجع إلى دخول الولايات المتحدة فيما يمكن أن يطلق عليه بزواج ثان من سليل للشريك السعودى. لقد انقضت أعوام طويلة على ارتباط الولايات المتحدة بمسلمى المملكة العربية السعودية الذين لاقوا من الأمريكان كل حفاوة وكرم مادى وأيديولوجى، ثم اقترنوا بعد ذلك بطالبان. فقد تورطت القوة العظمى «الاتحاد السوفيتى» التى بدت عليها علامات الوهن آنذاك، فى حرب عصابات مدمرة. وقامت وكالة الاستخبارات المركزية CIA بتمويل المسلمين الأفغان الذين تحولوا إلى مقاتلين فى حرب عصابات ومقاتلين باسم الدين، ولم يشرف على عملياتهم أحد آخر سوى المواطن السعودي أسامة بن لادن. واضطر الاتحاد السوفيتى فى نهاية الأمر إلى مغادرة ساحة القتال مهزومًا ودفع ثمن مغامراته فى أفغانستان بغروب إمبراطوريته.

لقد هزمت الولايات المتحدة بمساعدة المملكة العربية السعودية فى أفغانستان نفسها عدوًّا، وصنعت فى نفس الوقت عدوًّا جديدًا لها: أسامة بن لادن وجماعة طالبان. ثم سعت بعد ذلك سعيها لترتيب أوراقها مع طالبان وزعيمهم الملا عمر. وحثت المملكة العربية السعودية على التسامح والاعتراف بالزواج الأمريكى. وانتهى الأمر بأن أظهر الملا عمر وتلاميذه من حفاظ القرآن قسطًا لا بأس به من الاستقرار. فمن شأن هذا الاستقرار أن يقود يومًا ما إلى إنشاء خطوط إمداد نفط آمنة لنقل نفط وسط آسيا وغازه الطبيعى. فدعمت الولايات المتحدة طالبان ـ على أقل تقدير فى الأعوام من ١٩٩٤ حتى ١٩٩٦، وكان الغرض من هذا التدعيم أيضًا أن يمارس حفاظ القرآن سياسة موجهة تجاه إيران والشيعة. وحقيقة الأمر أن طالبان ـ كما يرى ذلك بعض من لعبوا دورًا اتصاليًّا فى هذا الشأن من الأمريكان ـ ليسوا سوى بشر أتقياء، مقارنة بسكان الجنوب الأمريكى المتشددين تجاه دينهم وربهم والمعروفين بمناصرتهم العمياء لإسرائيل وهم جماعات «الحزام الإنجيلى» (Bible belt). إلا أن الولايات المتحدة ـ كما كتب ذلك الصحفى الباكستانى أحمد راشد ـ غضت البصر «عمدًا عن الأصولية الإسلامية لطالبان، وقهرهم النساء والاضطراب الذى أحدثته حركة طالبان فى وسط آسيا»[٥]. ولم يتغير ميزان المصالح إلا حين وضع الباكستانيون بعد عام ١٩٩٦ وطالبان والملا عمر أيديهم فى يد أسامة بن لادن، فقد شيد بن لادن للملا عمر منزلاً خاصًّا به، ومهد له الطريق إلى مطار قندهار، واقترنت أفكار كل من الملا عمر وأسامة بن لادن فى أحاديث مطولة حتى تقاربت شخصيتهما، إذ إن المنظور الإسلامى المتشدد يشبه على أى حال النسخة الأصولية التى يمثلها أسامة بن لادن.

وقد طلبت الولايات المتحدة فى نهاية التسعينيات من الملا عمر تسليم أسامة بن لادن ـ ولاسيما بعد عام ١٩٩٨ وهو العام الذى تعرضت فيه سفارتا الولايات المتحدة بكينيا وتنزانيا لاعتداءات مروعة. وتحول أسامة بن لادن بالنسبة للملا عمر بالتدريج من ضيف إلى «عبء» ثقيل، كما ذكر أحمد راشد فى كتابه. ولم يوفقا فى إبرام تحالف بينهما. وجاءت ساعة الحسم بعد هجمات أسامة بن لادن الإرهابية على نيويورك وواشنطون فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وما أسفر عنها من نتائج وخيمة أهمها مصرع ثلاثة آلاف أمريكى. عندئذ ارتبط مصير الملا عمر ـ شاء أم لم يشأ ـ بمصير أسامة بن لادن، وفقد حليف أمريكا، فى تحالفه الذى لم

يستمر طويلاً، سلطته على البلاد، واضطر كل من أسامة بن لادن والملا عمر إلى الاختفاء. وانتهى نظام حكم طالبان المروع على أفغانستان.

لم يتسن حتى تلك اللحظة التغلب على تبعات عصر الإرهاب، ولاسيما فيما يتعلق بالمملكة العربية السعودية، وذلك لأن الصدمات التى أيقظت أمريكا من نومها يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لم تنطفئ نيرانها فى النفوس حتى الآن. فلم يعد العالم يشهد منذ ذلك اليوم حربًا واحدة فقط على مستوى العالم، تلك الحرب التى يطلق عليها الأمريكان «الحرب على الإرهاب» والتى أعطت الولايات المتحدة أخيرًا المبرر للزحف على العراق ووضع نهاية لحكم صدام حسين. أما الذى أفزع الولايات المتحدة على نحو خاص فهو اكتشافها أن خمسة عشر من بين تسعة عشر إرهابيًا ممن شاركوا فى هجمات الحادى عشر من سبتمبر ينتمون للبلد الشريك لها لسنوات طويلة ـ المملكة العربية السعودية، بل إنه فى عام ١٩٩٨ وعام ٢٠٠٠، ووفقًا لما ذكره الكاتب الفرنسى باتريك كارام (Patrick Karam)، قام جورج بوش الأب بزيارة للمملكة العربية السعودية لإجراء اتصالات مع «مجموعة بن لادن» التى لا يزال لها وجود بالمملكة ولكن لا يديرها أسامة بن لادن، وكانت هذه الزيارة بتكليف من مجموعة شركات كارليل (Carlyle) الأمريكية[٦].

ويقود مجموعة شركات كارليل كل من فرانك كارلوتشى (Frank Carlucci) وهو نائب وزير الدفاع الأمريكى الأسبق، وجيمس بيكر ـ وزير الخارجية الأسبق على عهد بوش الأب. «فهذه الاتصالات الأفقية توضح لنا أن وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) اعتمدت وعقدت آمالاً على أسامة بن لادن أثناء الحرب على الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان»[٧].

والآن ـ وبعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ـ انضم إلى هذه العناصر دائرة أخرى قاتلة، هؤلاء الذين يطلق عليهم «الأفغان العرب» ممن قامت المملكة العربية السعودية بتدعيمهم ومساندتهم ـ وهم عرب وقفوا فى صفوف «المجاهدين» الأفغان فى حربهم ضد الاتحاد السوفيتى ـ لم يذعنوا بالطاعة مطلقًا. وهؤلاء المجاهدون الذين أنفقت عليهم المملكة السعودية ووكالة الاستخبارات المركزية (CIA) بالتعاون مع أسامة بن لادن لسنوات طويلة فى الحرب على مملكة الشر موسكو «انقلبوا فجأة على ممولهم وراعيهم السابق، الولايات المتحدة». وإذا «الجهاد» ينقلب تمامًا إلى أعمال اغتيالات لا معنى لها، ويلقى مواطنو الحليف السابق «أمريكا» وآخرون مصرعهم من أرض الحركة الوهابية ـ المملكة العربية السعودية.

لقد خرج مارد مخيف من القمقم المغروس فى أفغانستان وفى بلدان أخرى كثيرة، متمردًا على صانعه، وانطلقت القاعدة فى نشر الموت والفساد فى كل مكان فى الأرض، وخرج المارد من المملكة العربية السعودية ومن البطون الوعرة الساكنة فى منطقة الحدود الباكستانية الأفغانية، ويلغ الموت والفساد حتى فى العراق وفى تركيا مبلغه. إن هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم «شهداء» وهم فى الحقيقة معتدون آثمون، يذكروننا بتلك الطائفة الإسماعيلية المعروفة باسم «الحشاشون» (ومن هنا جاءت الكلمة الإنجليزية (assassin) أى المعتدون) التى عاشت فى القرن الحادى عشر. وأتباع هذه الطائفة كانوا يلقون بأنفسهم إلى الموت، كما يفعل انتحاريو القاعدة اليوم، حتى ينفذوا الأوامر التى صدرت إليهم بقتل أعدائهم من المسلمين والمسيحيين. وفى هذه الأثناء لم تعد القاعدة منظمة لها قيادة مركزية تصدر الأوامر عنها، بل أصبحت «القاعدة» مشروعًا فكريًا للإرهاب يعصف بكل من يواجهه فى علانية تامة ويحل دمه وقتما وأينما تكون الأهداف.

والبلد الذى خرج منها «حشاشو» العصر الحاضر - هو أفغانستان، بلد لا سبيل أمامه على الإطلاق لكى يصبح كيانًا منظمًا للمعيشة الإنسانية رغم تواجد قوات سلام أجنبية على أرضه (قوات السلام الدولية لحفظ الأمن فى أفغانستان (ISAF)). ولم ينجح الرئيس حامد قرضاى فى نشر سلطة حكومته المركزية المطلقة من كابول إلى جميع أنحاء البلاد، حيث نظمت فلول طالبان المهزومة صفوفها من جديد وتعمل دائمًا على إدخال الأمريكان بقدر الإمكان فى مصيدة اشتباكات تسفر نتائجها عن خسائر فادحة. وقد أخطأت الولايات المتحدة بعد انسحاب الاتحاد السوفيتى حينما تركت أفغانستان تدبر أمورها بنفسها وتخلت عنها. فغرقت البلاد فى حرب أهلية وتولت طالبان سلطة البلاد. إن إقرار السلام فى مجتمع تحكمه قبائل متصارعة متخاصمة مدججة بقوة السلاح يعد من المهام الصعبة التى يصعب إيجاد حل لها. فلا مجال للتعجب من استمرار الخطر فى أفغانستان، رغم وجود قوات السلام الدولية (ISAF) ورغم وجود قوات أمريكية وحتى بعد إسقاط حكومة طالبان ومطاردة عناصرهم. فقد عادت أفغانستان إلى الفوضى، وعاد عصر حكم بارونات الحرب ورجال العصابات، كما ورد فى منشور «مركز شئون العلاقات الخارجية» الأمريكى الصادر فى يونيو عام ٢٠٠٣[٨]. وقد عبر المؤلفون عن أسفهم من عدم إدراج خطوات تثبيت الأمن والسلام ضمن المهام المكلفة بها القوات الأمريكية المتمركزة فى البلاد.

وكما فشل الاتحاد السوفيتى من قبل فى مهمة خلق نظام مريح بالنسبة له، فإن الأمريكان والدول المعاونة لهم المتمثلة فى قوات السلام الدولية يخوضون الآن نفس التجربة الفاشلة. وأشد حجة دامغة على إمكانية إقرار سلام فى أفغانستان، هى حالة الإجهاد التى أصابت الأفغان فى خوض مزيد من الحروب. «فكل فرد مدرك الآن أن الحرب لا قيمة لها، والناس لا يرغبون اليوم على الإطلاق فى سماع صوت طلق نارى»(٩). وقد استمع إلى هذا القول المقنع ممثلو «مجموعة الأزمات الدولية» فى سبتمبر عام ٢٠٠٣ فى أحد اللقاءات التى أجرتها فى مزار الشريف، وجاء فى تقرير المجموعة أنه لايمكن إقرار السلام إلا فى حالة كسر سلطة بارونات الحرب. ورغم بعض الجهود المبذولة ـ كما يبدو ذلك للعيان ـ إلا أن أفغانستان يتعين عليها أن تنتظر قدوم هذه اللحظة طويلاً.

وهناك جماعة إسلامية أخرى، وهى «الحركة الإسلامية لأوزباكستان» التى تأسست عام ١٩٩١ على يد جمعة النمنجانى من بلدة نمنجان الواقعة فى تل فرغانة. وبالطبع فقد حصل النمنجانى ومجموعة من الشبان على أموال أجنبية وأسسوا مسجدًا ومدرسة لتحفيظ القرآن. وبدأ الشباب المتحمس لدينه فى دعوة أهل نمنجان إلى الصلاة، وحرموا على النساء ارتداء الملابس الملونة التقليدية. وبعد ذلك بقليل دعا هؤلاء المسلمون الذين ولدوا من جديد ـ كما يصفون أنفسهم ـ إلى الجهاد لإسقاط نظام حكم الرئيس الأوزبيكى المستبد كريموف(١٠).

أما حركة إحياء الإسلام فى وسط آسيا، كما يعبر عن ذلك أيضًا تلك الأنشطة التى يمارسها كل من حركة التحرير الإسلامية والحركة الإسلامية فى أوزبكستان، فترجع أسبابها أولاً وأخيرًا إلى قهر وتجريم الأديان لسنوات طويلة فى المملكة السوفيتية. فقد أفرغت الأديان من معانيها واعتبر أمر العقيدة والعبادة سواء الخاصة بالكنيسة الأرثوذوكسية أو بالإسلام شيئًا مبهمًا وغامضًا وبدائيًا. وقد تصدت كل من المسيحية والإسلام على وجه الخصوص لمآرب الحكم السوفيتى. وكان ظهور القوى الجديدة المتمثلة فى حزب التحرير الإسلامى والحركة الإسلامية لأوزبكستان لايقل أهمية فى إطار رفض هذه المآرب. واقترنت الأهداف الإقليمية غير الواقعية التى نادى بها زعيم حزب التحرير عبد القديم زلوم ـ فلسطينى ـ باتجاه شمولى يشبه مثيله الذى كان سائدًا فى الاتحاد السوفيتى سابقًا. فقد كان حزب التحرير على سبيل المثال يطمع إلى تحقيق اتحاد لمقاطعة جينيانج الصينية مع وسط آسيا فى دولة إسلامية موحدة. وكما حدث للحركات الإسلامية بالشرقين

الأوسط والأدنى ـ بدءًا من حركة حماس الفلسطينية حتى الجهاد الإسلامى والقاعدة ـ فإن جماعات التأثير فى وسط آسيا تمثل الإسلام الأصولى الذى يرغب فى إجبار الناس على اعتناق أيديولوجية ذات نسيج إسلامى.

وهناك كذلك نموذج سلوكى آخر معروف عن الشرقين الأدنى والأوسط يتكرر فى وسط آسيا، فقد ذكر أحمد رشيد أن الجنرال تومى فرانكس (القائد الأعلى للحرب على العراق فى ربيع ٢٠٠١) قام بزيارة منطقة وسط آسيا قبل عامين من غزو العراق. وهو بصفته رئيسًا «للقيادة المركزية» (CENTCOM) فقد استحضر فى الأذهان الخطر الناشئ عن «الإرهاب»، قائلاً: إن عددًا صغيرًا من الإرهابيين المتعصبين دينيًا يمكن أن يزعزع استقرار المنطقة بأسرها. كما طالب تومى فرانكس الإدارة الحاكمة فى العاصمة الأوزبيكية طشقند ـ أى الرئيس كريموف، وهو أحد أسوأ الديكتاتوريين بالمنطقة ـ بالتعاون العسكرى بين أمريكا وأوزبيكستان لمحاربة الإرهاب[١١]. ولم يأت فرانكس على ذكر أية إصلاحات ديمقراطية ضرورية يمكن أن تلعب دورًا هامًا فى سحب البساط من تحت قدمى الإرهاب. وهنا نرى بوضوح أن نموذج الشرق الأدنى والأوسط القائم على تحالف الولايات المتحدة مع نظم الحكم المستبدة لسنوات طويلة، يتكرر فى وسط آسيا، فلا نجد الولايات المتحدة تتحدث كلمة واحدة على الإطلاق عن تشجيع الديمقراطية ـ التى غزت الجيوش الأمريكية العراق من أجلها ـ فى أوزبيكستان على سبيل البداية. وحين سئل زعيم الأغلبية الجمهورية فى مجلس النواب الأمريكى ـ تومى دى لاى ـ فى نوفمبر عام ٢٠٠٣ فى حديث له مع محطة تليفزيون «بى بى سى» الدولية: لماذا تراهنون على الديمقراطية فى العراق ولاتذكرون أوزبيكستان؟ وجاءت إجابته المقتضبة: إن أوزبيكستان دولة «ناضجة» ويتعين أن نصبر عليها!

وأصبحت فى طى النسيان تلك النوايا الطيبة للسياسة الأمريكية التى أوصى بها ذات يوم نائب وزير الخارجية الأمريكى ستروب تلبوت (Strobe Talbott) على عهد الرئيس كلينتون، ونصح بانتهاجها فى وسط آسيا وفى أفغانستان. فقد أعلن تلبوت عام ١٩٩٧ أن بلاده لا مصلحة لها فى تكرار اللعبة الكبرى، وأنه يجب العمل على تفادى تكرار وقوع مثل هذه «النكسة». فشعوب وسط آسيا لديهم الفرصة فى أن يلقوا بهذه التجربة وراء ظهورهم، وألا يفكروا فى هذه المرحلة التى كانوا فيها بمثابة عساكر على رقعة شطرنج، «فى حين تسابقت القوى العظمى على حسابهم فى تكوين الثروة والنفوذ»[١٢]. ومن المؤسف أن تتخلف

حتى الآن مثل هذه الرؤية الصائبة المرشدة وتصبح بمثابة حبر على ورق. أما اليوم فإن الولايات المتحدة الأمريكية يفوتها، كما فاتها من قبل فى الشرقين الأدنى والأوسط، أن تحسب حساب غضبة الشعوب وأن تربط بين تقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية وبين تحقيق الإصلاحات الديمقراطية.

ولكن أفغانستان تظل محك الاختبار للنظام العالمى فى المستقبل. لم تقترب السكينة والطمأنينة من قلب هذا البلد الذى تصنع فيه سياسة عالمية من جديد. فبعد تحقيق الأمريكان النصر على طالبان وبعد ارتفاع صوت البناء والتصالح، وهو ما أسفر عنه هذا النجاح العسكرى، حلت الآن مرحلة «تبديد الجهد المبذول وبعثرته»[١٣]. وقد أوجز بيتر مونش فى مقال له فى صحيفة «زيد دويتشى تسايتونج» الوضع الحالى بقوله: «وفى أى مكان فى اللامكان لا تزال القوات الأمريكية تطارد الإرهابيين. أما عمليات حفظ السلام العالمى المنبتة الصلة عن ذلك فهى ترتكز على قواعد ثلاث: أشح وجهك ـ أغمض عينيك ـ أشر بإصبعك السبابة إلى الآخرين عملاً بمبدأ القديس سانت فلوريان»[١٤].

يمتد حزام الأزمات من وسط آسيا عبر أفغانستان وباكستان وإيران والعراق وشبه الجزيرة العربية وحتى إسرائيل وفلسطين. ويتوقف على هذه المنطقة بصفة جوهرية القرار الذى سيحدد مستقبل العالم. وفى الخلف تنتظر وتراقب القوة العالمية فى المستقبل ـ الصين. ومقومات ذلك الصراع الذى لا رغبة لأحد فى غلق ملفاته تتلخص فى إدمان مزيد من الطاقة والصراع بين القوة العظمى أمريكا وبين كيان دولى إرهابى هلامى غير محدد يصعب الإمساك به ويعمل بطريقة سرية لامركزية ويسىء إلى الدين الإسلامى، ثم أخيرًا هذا النزاع الأبدى بين اليهود والعرب حول تلك البقعة الصغيرة من الأرض التى تسمى فلسطين. والطبيعى فى الحياة أن الإنسان يجب أن يسعى سعيه فى تحليل حالة تأزم ذلك النظام الخاص بالقوى الكبرى إلى عناصره الأولية وأن يقترب من حل لكل جزئية فيه ثم ينتقل إلى التى تليها. فمثل هذا الإجراء والعمل تتطلبه ظروف الوقت الراهن بإلحاح شديد عنه فى أى وقت مضى، لأن الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش يضع جميع خصومه السياسيين تحت حكم واحد. فعلى سبيل المثال يضع حركة حماس فى نفس قفص اتهام القاعدة ثم فى حربه «العالمية» ضد الإرهاب. فهذا العجز فى التمييز بين الأشياء ـ ويمكننا أيضًا أن نتحدث بحدة فى هذا الإطار عن عولمة وخيمة العواقب للقرار السياسى ـ سينشغل به العالم وقتًا طويلاً.

خاتمة الطبعة العربية

ليس مدعاة للدهشة أن يثير تأمل ماضى العالم العربى من منظور ضحية الاستعمار فى هذه البلاد بعض الاهتمام، ومن ثم فإنه من المنطقى على نحو ما نشر الطبعة العربية لهذا المؤلف، وهو ما يدعونى إلى توجيه الشكر إلى الناشر «دار نهضة مصر» على هذه المبادرة. يوضح هذا الكتاب أن العرب كانوا على مدى فترات طويلة ضحية للتوسع الاستعمارى الغربى ولا يزالون كذلك حتى اليوم. وبعد سنوات طويلة من الإقامة والترحال فى أرجاء العالم العربى فإننى أشعر على المستوى الشخصى بخيبة الأمل لأن الحكام العرب لم يسعوا ولا يسعون إلى استلاب الحد الأدنى من الاستقلال ونفض نير التبعية. فلم يجد شعار العودة إلى الجذور (الإسلام هو الحل) نفعًا، ولم يحدث إرهاب أسامة بن لادن انقلابة فى صالح العالم العربى. فما ينقص العالم العربى هو بذل جهود كبيرة تنظيمية واقتصادية وعلمية، كما فعلت بعض دول جنوب شرق آسيا. وسوف يكون من المفيد تحقيق قدر معقول من إصلاح التعليم والديمقراطية لإيقاظ الطاقات الكامنة والنائمة فى العالم العربى والإسلامى. إلا أننا لا نشعر بشىء يشير إلى حدوث انفراجة من هذا القبيل.

وفيما يتعلق بالوضع الراهن، فقد انقضى قرابة عامين على صدور الطبعة الألمانية الأولى من هذا الكتاب. ولم تحدث فى تلك الفترة تطورات من شأنها أن تدفعنى إلى مراجعة أو تغيير تقييمى الأساسى للموقف على الساحة الجيوبوليتيكية الممتدة بين النيل وجبال تورا بورا، فالجذور التاريخية للصراعات الحالية لم تتغير ولم تتبدل، فضلاً عن أن الغرب لم يغير سياسته تجاه العالم الإسلامى، كما أن العالم الإسلامى لم يزل غارقًا فى سباته الداخلى. فلا تزال حكومة جورج دبليو بوش تحارب الإرهابيين بالصواريخ والدبابات، بينما لا تزال القاعدة وأخواتها تسعى إلى تركيع الغرب بقتل المدنيين، كما حدث فى لندن. وكلا الجانبين ينزويان فى جحرهما القديم العميق، ولا يوجد فى الأفق ما يشير إلى دخولهما فى حوار. وأما التراجيديا التى جلبها الغزو الأمريكى على شعب العراق فلم تدخل بعد فصلها النهائى. وإخلاء الإسرائيليين لقطاع غزة لم يقربنا من

السلام قيد أنملة. وأما الانتخابات الرئاسية الأولى التى سمح فيها فى مصر وفى العالم العربى للمرة الأولى لأكثر من مرشح بخوضها فلم تجلب سوى مسخ للديمقراطية. فصرخ كثير من الناس قائلين «كفاية»، إلا أنهم لم يحصلوا إلا على ما هو بال وما لم تثبت جدواه.

مثال العراق:

لا يقتصر الأمر هنا على أن هذا الغزو كان مخالفا للقانون الدولى فحسب، بل إن الأهداف العسكرية التى وضعها الغزاة لم تتحقق بصورة فاضحة، وقلما يتحدث الناس عن ذلك الأمر مثلما كان يحدث قبل فرض العقوبات. كثيرا ما تقوم المقاومة العراقية بتعطيل خطوط نقل النفط، كما أن كميات كبيرة من النفط الخام المخزونة فى مخازن البصرة تذهب إلى الجارة إيران بأسعار أقل من سعر السوق العالمى، كما أن البصرة نفسها تستعصى على حد كبير على رقابة الحكومة المركزية فى بغداد، وأصبحت المخابرات الإيرانية هى أقوى قوة فى الجنوب، وبمساعدتها تنشئ بعض المرجعيات الشيعية نوعا من نظام طالبان شيعى. ولا تستطيع قوة الاحتلال البريطانية الحيلولة دون حدوث هذا التطور، فالجنود البريطانيون يتحركون دون خطر يذكر فى الجنوب، وهذا الموقف الغريب يدفعنا إلى الارتياب فى أن كلا الجانبين قد توافقا فيما بينهما: على ألا تهاجم الميليشيات الجنوبية الجنود البريطانيين، مقابل أن يطلق البريطانيون يد الشيعة فى الجنوب، أما فى المناطق السنية فتسود من الناحية العملية حرب أهلية ، يقوم فيها الانتحاريون السنة بقتل الشيعة فى المقام الأول. والأكراد فى الشمال ينتهجون منذ أمد طويل سياستهم الانفصالية الخاصة. المحصلة: العراق تتفكك أوصاله، وهو تطور لم يتوقعه لا الأمريكان ولا البريطانيون . تمزق العراق وأصبح بعض العصابات وأمراء الحرب يتحكمون فيه، كما كان الحال فى لبنان إبان الحرب الأهلية. ولم تصبح إسرائيل أكثر أمنا، بعكس ما استهدفت مخططات المسئولين عن الغزو، ولم يتسن حصار إيران فى الزاوية، بل على العكس، فقد كسبت إيران سياسيًا وعسكريًا مجالاً جديدًا للحركة. فهى تستطيع إن شاءت أن تحول حياة الأمريكيين فى العراق إلى جحيم. والأمريكيون يحيلون إلى الهياكل الديمقراطية التى يبنونها فى العراق، إلا أن هذه الهياكل لا تكاد تعود بأية فائدة على العراقيين ماداموا أنهم يشعرون بالخوف على حياتهم.

مثال فلسطين / إسرائيل:

ذكر دانييل بارنبويم ، الذى قاد أوركسترا الديوان الشرقى الغربى فى الصيف الماضى فى رام الله أنه إذا كان الانسحاب من غزة هو خطوة أولى تتبعى خطى أخرى للانسحاب من الأراضى الفلسطينية ، فإننا ربما نستشرف مستقبلا مفعما بالأمل، أما إذا كان هذا الانسحاب هو الخطوة الوحيدة فإن ذلك يعد كارثة. والسؤال الذى يطرح نفسه هو: هل ستكون هناك خطوات أخرى، بمعنى هل سيتم تفكيك المستوطنات فى الضفة الغربية؟ لم يحن الوقت بعد للإجابة على هذا السؤال. على أنه يمكننا أن نضع بعض المعايير. لماذا أخلى شارون قطاع غزة؟ يمكننا أن نلتمس إجابات مختلفة على هذا السؤال. إن السيطرة على ١.٣ مليون إنسان لديهم موقف معاد لا يمكن أن تتحقق إلا بوسائل عسكرية صارمة ومكلفة على الدوام. ومثل هذا القهر يضر فضلا عن ذلك بسمعة إسرائيل فى العالم. ومن ثم فإنه يتعذر ، كما قال شارون وآخرون، الاحتفاظ بغزة، كما أنها لا تكاد تنتمى إلى أرض إسرائيل التوراتية. إلا أن هناك سببين على قدر عظيم من الأهمية، إذ أنه باستبعاد ١.٣ مليون فلسطينى من إسرائيل فإن كفة ميزان العلاقة العددية بين إسرائيل والفلسطينيين تميل مرة أخرى فجأة لصالح إسرائيل لأن السلاح الفعلى الموثر لدى الفلسطينيين فى مواجهة إسرائيل هو منذ وقت وطويل زيادة المواليد على الجانب الفلسطينى . فماذا سيحدث لو أصبح الفلسطينيون أغلبية عددية على أرض فلسطين التاريخية، هذا هو السؤال الذى يطرحه بوجل الإسرائيليون على أنفسهم منذ عهد طويل. وقد أراد شارون أن يواجه هذا الخطر من وجهة نظر إسرائيل بالسعى إلى تهجير مليون يهودى إلى إسرائيل فى غضون عقد من الزمان. إلا أن هؤلاء المهاجرين المستوطنين لم يأتوا إلى إسرائيل. ومن ثم فإنه من خلال فصل غزة عن إسرائيل يتم ولو مؤقتا إيقاف النمو السكانى الفلسطينى على الأقل من الناحية الإحصائية . والوسيلة الأخرى لتأمين إسرائيل هى بناء السور أو الجدار الحدودى. إن الإنسحاب من غزة وبناء السور يرتبطان ارتباطا وثيقا ببعضهما البعض، فمن خلال الإنسحاب من غزة يتم فصل ١.٣ مليون فلسطينى عن إسرائيل لا تستطيع إسرائيل أن تسيطر عليهم. ومن خلال بناء السور الذى يضم التكتلات الإستيطانية الكبيرة فى الضفة الغربية إلى إسرائيل . بالإضافة لمصادر المياه، فإن إسرائيل بذلك ترسم حدود الحد الأدنى للإقليم الفلسطينى التى تريد السيطرة عليه فى العقود القادمة. إن إسرائيل تطلق على السور بناء مؤقتا يمكن أن

يخضع فى أى وقت لنظام تسوية سلمية، لكن المستوطنات الأولى التى تم بناءها بعد عام ١٩٦٧ كانت تعتبر هى الأخرى مستوطنات مؤقتة، وقيل آنذاك أنها ستجلب الأمن لإسرائيل. إن هذه المستوطنات مخالفة للقانون الدولى كما قررت حتى الإدارة الأمريكية فى واشنطن . يعيش اليوم فى الضفة الغربية حوالى مائتى ألف مستوطن، كما يعيش عدد لا يقل عن هؤلاء فى قلاع الاستيطان المحيطة بالقدس. ولم يعد أحد فى إسرائيل يتحدث عن وضع مؤقت، إلا أن المستوطنات والسور لم يجلبا إلا مزيدًا من اللا أمن لأنها تواصل خنق الفلسطينيين . وكما اعترف دوف فايسجلاس، أحد مستشارى شارون، فإن الهدف من السور والانسحاب من غزة هو ضم مناطق واسعة من الضفة الغربية إلى إسرائيل والحيلولة دون قيام دولة فلسطينية. وقد بارك جورج بوش الإبن سرقة الأرض على هذا النحو. ويعود الفضل فى تحقق ذلك إلى الإستراتيجية المدمرة لحماس والجهاد الإسلامى وكتائب الأقصى، إذ أن حماس والجهاد الإسلامى وكتائب شهداء الأقصى قد مكنت شارون من خلال الهجمات التى شنت على المدنيين الإسرائيليين ومن خلال سوء إدارة الانتفاضة الثانية – مكنته من انتهاج سياسته الحالية وإعادة احتلال كثير من المناطق التى كانت إسرائيل قد أخلتها بموجب اتفاقيات أوسلو. نستخلص من ذلك دون جدال أن تأسيس دولة فلسطينية قادرة على الحياة وتحقيق سلام بين الإسرائيليين والفسطينيين أصبح أمرا بعيد المنال.

القاهرة فى ديسمبر ٢٠٠٥

هايكو فلوتاو

الهــوامـــش

الفصل الأول:

(١) جورج فريدمان: دخان ومرايا. الولايات المتحدة ـ العراق والمخادعة ـ ستراتفورد ٢١ يناير ٢٠٠١.
(٢) لوموند ديبلوماتيك. إصدار بالإنجليزية على الإنترنت. أبريل ٢٠٠٢.
(٣) وثائق فلسطين، ص ٦٦.
(٤) نفس المصدر السابق.
(٥) نفس المصدر السابق.
(٦) ستيفن رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية. ص ١٠٦ وص ٧٦٥.
(٧) أمين معلوف : الحملات الصليبية بعيون عربية، ص ٥٠ وما يليها.
(٨) هانس فولشليجر : رحلات الحج المسلحة إلى فلسطين . ص ١١.
(٩) أندرياس ماير : التكليف السياسي للإسلام. ص ٤٨ وما يليها.
(١٠) عبدالرحمن الجبرتي : بونابرت في مصر. ص ٨١ وما يليها.

(1) George Friedman: Smoke and Mirrors. The United Staes, Iraq and Deception. Stratfor, 21. Januar 2001.
(2) Le Monde Diplomatique, Engl.Internetausgabe, April 2002.
(3) Palestine Documents, S. 66.
(4) ebd.
(5) ebd
(6) Steven Runciman: Geschichte der Kreuzzüge, S. 106; und S. 765.
(7) Amin Maalouf: Les Croissades vues par les Arabes, S. 50 ff.
(8) Hans Wollschl?gerÅ: Die bewaffneten Wallfahrten nach Jerusalem, S. 11.
(9) Andreas Meier: Der politische Auftrag des Islam, S. 48 f.
(10) Abdel Rahman al-Garbati: Bonaparte in ?gypten, S. 81. ff.

الفصل الثانى:

(١) وثائق فلسطين، ص ٧٦.
(٢) رويرت جون/ سامى هداوى: دليل فلسطين. المجلد الأول، ص ٥٧.
(٣) نفس المصدر السابق. ص ٣٧ وما يليها.
(٤) راجع فى ذلك هنرى لورنس: الإمبراطورية العثمانية ـ القسم الخاص بأعمال السلب والنهب. لوموند ديبلوماتيك. إصدار بالإنجليزية على الإنترنت ـ إبريل ٢٠٠٣.
(٥) دليل فلسطين. المجلد الأول . ص ١٢٦ وما يليها.
(٦) جـ.م.ن. جيفريس: فلسطين الحقيقة. ص ٥٢٨ وما يليها.
(٧) استشهاد مأخوذ عن جون إسبوزيتو: التهديد الإسلامى ـ خرافة أم حقيقة. ص ٤٨.
(٨) وثائق فلسطين: ص ٨١ .
(٩) نفس المصدر السابق. ص ٦٤ وما يليها.
(١٠) هنرى كتان: فلسطين والقانون الدولى. ص ٥٤.
(١١) وثائق خاصة بالسياسة الخارجية البريطانية فى الأعوام ١٩١٩-١٩٣٩ السلسلة الأولى، المجلد الرابع. استشهاد عن هنرى كتان، نفس المصدر السابق، ص ٥٩.
(١٢) وثائق فلسطين، ص ١٠٨.
(١٣) صحيفة جمعية المحامين الأمريكان، المجلد ٤٣، ص ٥٢٢-٥٢٥، ١٩٥٧.
(١٤) مارى سى. ويلسون: الملك عبدالله والبريطانيون والتشكيل الوجودى للأردن، ص ٣.
(١٥) دافيد فرومكين: سلام لنهاية كل سلام، ص ٥٠٥ وما يليها.
(١٦) نفس المصدر السابق، ص ٤٥٥ وما يليها.
(١٧) روبرت كابلان: المستعربون، ص ٢٤٩.
(١٨) برنارد لويس: أزمة الإسلام، ص ١٨.
(١٩) روبرت ليسى: المملكة.
(٢٠) ساندرا ماكاى: الإيرانيون، ص ١٦١.
(٢١) نفس المصدر السابق، ص ١٦١ وما يليها.
(٢٢) ستيفن كينزر: جميع رجال الشاه، ص ٣١.
(٢٣) نفس المصدر السابق، ص ٣٩.
(٢٤) نفس المصدر السابق، ص ٣٩.
(٢٥) نفس المصدر السابق، ص ٦٤.

(1) Plestine Documents, S.76.
(2) Robert John, Sami HadawiÅ: Palestine Diary. Vol. 1, S.57.
(3) ebd., S. 37 f.
(4) Nachzulesen bei: Henry Laurens "Ottoman Empire_The Division of the Spoils, Le Monde Diplomatique, engl. Internetausgab ,April 2003.
(5) Palestine DiaryVol. 1, S. 126 ff.
(6) J.M.N Jeffries:_ Palestine, the Reality, S. 258 f.

(7) Zitiert nach John Esposito: The Islamic Threat, Myth or Reality, S. 48.
(8) Pakestine Documents, S. 81.
(9) ebd., S. 64 f.
(10) Henry Cattan: Palestine and International Law, S. 54.
(11) Documents on Britisch Foreign Policy 1919-1939 1 st series, Vol. IV. zitiert nach Henry Cattan, ebd. S. 59.
(12) Palestine Documents, S. 108.
(13) American Bar Association Journal, Vol. 43 S. 522-5, 1957.
(14) Mary C.Wilson: King Abdallah, Britain and the Making of JordaN; S. 3
(15) Fromkin: A Peace to end all Peace, S. 505 f.
(16) Fromkin, ebd. S. 455 ff.
(17) Robert Kaplan: The Arabists, S. 249.
(18) Bernard Lewis:: The Crisis of Islam, S. XVIII:.
(19) Robert Lacey: The Kingdom.
(20) Sandra Mackay: The Iranians. S. 161.
(21) bd. S. 161 f.
(22) Steven Kinzer: "All the Shahs Menz, S. 31.
(23) ebd, S. 39.
(24) ebd, S. 39.
(25) ebd, S. 64.

الفصل الثالث

(١) أفى شلايم : السور الحديدى، ص ١٣ وما يليها.
(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٣ وما يليها.
(٣) السور فى فلسطين، شبكة NGO المحيطة بفلسطين، ص ٣٢ وما يليها. راجع أيضًا: تقرير الأمم المتحدة الصادر فى ١٠ نوفمبر ٢٠٠٣.
(٤) التفاصيل التالية تستند فى أغلبها إلى كتاب باربارا و. توخمان «الكتاب المقدس والقوة العسكرية ـ كيف وصل البريطانيون إلى فلسطين».
(٥) كارن أرمسترونج : القدس، ص ٣٤٧ وما يليها.
(٦) فالتر لاكوير : الطريق إلى دولة إسرائيل، ص ١٩ وما يليها.
(٧) عاموس إلون : آباء وأبناء، ص ٧٧.
(٨) دونالد نيف : الأعمدة المتساقطة، ص ٥٢.
(٩) تيودور هرتزل : دولة اليهود، ص ١٥ وما يليها.
(١٠) تيودور هرتزل : رسائل ويوميات، الجزء الثانى، ص ٣٣٢.
(١١) برنارد لويس : الساميون والمعادون للساميين.
(١٢) تيودور هرتزل : يوميات صهيونية، ص ٣٦٧ وما يليها.
(١٣) ديفيد هيرست : البندقية وغصن الزيتون، ص ١٥ وما يليها.
(١٤) نفس المصدر السابق، ص ١٩.
(١٥) أنيتا شابيرا : الأرض والقوة ـ ملاذ الصهاينة إلى القوة العسكرية، من ١٨٨١ حتى ١٩٤٨، ص ٤٣.
(١٦) أفى شلايم : السور الحديدى، ص ١.
(١٧) سارا روى : نزع غزة، ص ٤٩.
(١٨) ديفيد هيرست : ص ٢٩ وما يليها، وكينيث ف. شتاين: «مشكلة الأرض فى فلسطين الأعوام ١٩١٧-١٩٣٩»، ص ٦٩ وما يليها.
(١٩) أنيتا شابيرا، ص ٢٢٧ وما يليها.
(٢٠) وثائق فلسطين، ص ٣٤ وما يليها.
(٢١) ليسلى ماكلولين : ابن سعود، ص ١٦٥.
(٢٢) بينى موريس : ميلاد مشكلة اللجوء الفلسطينية، ١٩٤٧-١٩٤٩، ص ١٣٢ وما يليها.
(٢٣) نفس المصدر السابق، ص ١٣٣ وما يليها.
(٢٤) تيودور هرتزل : يوميات صهيونية، الجزء الثانى، ص ١١٧.
(٢٥) بينى موريس، ص ١٣٦.
(٢٦) بينى موريس، نفس الصفحة.
(٢٧) نور مصالحة : ترحيل الفلسطينيين، ص ١٥٧ وما يليها.
(٢٨) حنا أرندت : من أجل حماية الوطن اليهودى. فى : اليهودى المنبوذ، نيويورك ١٩٧٨، ص ١٨٣.

(٢٩) أفى شلايم : السور الحديدى، ص ١٤٥ وما يليها.
(٣٠) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٥.
(٣١) أفى شلايم : نفس المصدر السابق، ص ٢٣٥.
(٣٢) نور مصالحة : أرض بلا شعب، ص ٨٠ وما يليها.
(٣٣) نفس المصدر السابق، ص ٨٤.
(٣٤) إدوارد و. سعيد : إلى حيث قادت المفاوضات. فى : نهاية عملية السلام، ص ١٤. نشر النص الأصلى بجريدة الحياة باللغة العربية بتاريخ ١ أكتوبر ١٩٩٥.
(٣٥) وثائق فلسطين، ص ٢٩٢.
(٣٦) وثائق فلسطين، ص ٣٠٣.
(٣٧) كولين شندلر : الأرض بعد الوعد، ص ٢٨٤.
(٣٨) نفس المصدر السابق، ص ٢٨٦.
(٣٩) أميرة هاس : المستوطنات الإسرائيلية. سياسة الحقائق الكاملة. فى : إينامو Inamo، العدد ٢٣/٢٤ – عام ٢٠٠٠، ص ١٥ وما يليها.
(٤٠) أفى شلايم : السور الحديدى، ص ٥٣٠.
(٤١) روبرت مالى : كامب دافيد ـ تراجيديا الأخطاء. فى: عرض كتب «نيويورك ريڤيو»، المجلد ٤٨، رقم ١٣ فى ٩ أغسطس ٢٠٠١.
(٤٢) سارا روى : نزع غزة، ص ٤٩.
(٤٣) الإحصاءات المذكورة وفقاً لمنظمة بيتسلم الإسرائيلية لحقوق الإنسان وجهاز الأمن الفلسطينى «الأمن الوقائى».
(٤٤) أفى بريمور : الإرهاب كذريعة، ص ١٤٣ وما يليها.
(٤٥) باتريك سيل : شارون وبوش وسباق إسرائيل العظمى. فى : الديلى ستار، بيروت فى ١٧ أكتوبر ٢٠٠٣.
(٤٦) صحيفة زود دويتشى تسايتونج الألمانية بتاريخ ١٢ سبتمبر ٢٠٠٣.

(1) Avi Shlaim: The Iron Wall, S. 13 ff.
(2) ebd., S.. 13. ff.
(3) The Wall in Palestine. The Palestinian Environmental NGO `` Network, S. 32 ff.
Und: Bericht der UN vom 10.November 2003.
(4) Die folgenden Ausführungen stützen sich überwiegend auf Barabara W. Tuchmans Buch Bible and Sword
- How the British Came to Palestine
(5) Karen Armstrong: Jerusalem, S. 347 ff.
(6) Walter Laqueur: Der Weg zum Staate Israel, S. 19 ff.
(7) z Amos Elon: Fathers and Sons, S. 77.
(8) Donald Neff: Fallen Pillars, S. 52.
(9) Theodor Herzl: Der Judenstaat, S. 15 ff.

(10) Theodor Herzl:Briefe und Tagebücher, Band 2, S. 332 ff.
(11) Bernard Lewis: Semites and Antisemites, S...
(12) Theodor Herzl: Zionistisches Tagebuch, S. 367 f.
(13) David Hirst: The Gun and the Olive Branch, S. 15 f.
(14) ebd., S. 19.
(15) Anita Shapira: Land and Power The Zionists Resort to Force 1881- 1948, S. 43.
(16) Avi Shlaim: The Iron Wall, S. 1.
(17) Sara Roy: "The Gaza Strip", S. 49.
(18) David Hirst, S 29. ff. u. Kenneth W. Stein: The Land Question in Palestine 1917-1939, S. 69 ff.
(19) Anita Shapira, S. 227 f.
(20) Palestine Documents, S. 34 ff.
(21) Lesley McLaughlin: Ibn Saud, S.' 165.
(22) Benny Morris: The Birth of the Palestinian Refugee Problem 1947-1949, S132 ff.
(23) ebd., S. 133 f.
(24) Theodor Herzl: Zionistisches Tagebuch, Band 2, S. 117.
(25) Benny Morris, S. 136.
(26) enny Morris, ebd.
(27) Nur Masalha: Exüulsion of the Palestinians, S. 157 f.
(28) Hannah Ahrendt: To Save the Jewish Hoomeland". In: "The Jew Pariah", S. 183. New York 1978.
(29) Avi Shlaim: The Iron Wall, S. 145 ff.
(30) ebd., S. 178.
(31) Avi Shlaim, ebenda, S. 235.
(32) Nur Masalha: A Land without a People, S. 80 ff.
(33) e bd., S. 84.
(34) Edward W. Said:"Where negotiations have led". In: The End of the Peace Process, S. 14. Ursprünglich in Arabisch in der Zeitung Al-Hayat 1.Oktober 1995.
(35) Palestine Documents, S. 292.
(36) Palestine Documents, S. 303.
(37) Colin Schindler: The Land Beyond Promise, S. 284.
(38) ebd., S. 286.
(39) Amira Hass: Israelische Siedlungen. Die Politik der vollendeten Tatsachen. In: Inamo, Heft 23-24, 2000, S. 15 f.
(40) vii Shlaim: The Iron Ewall, S. 530 40
(41) Robert Malley: Camp David - The Tragedy of Errors. In: The New York Review of Books, Vol.48, Number 13, 9.August 2001.
(42) Sarah Roy: The Gaza Strip, S. 49.
(43) Statistiken Sicherheitsdienst nach der israelischen Menschenrechtsorganisation Betselem und nach dem pal?stinensischen "Preventive Security".
(44) Avi Prinor: "Terror als Vorwand" S. 143 ff.
(45) Patrick Seale: "Sharon, Bush and the Race for Greater Israel". In: The Daily Star, Beirut, m17.Oktober 2003z 45
(46) Süddeutsche Zeitung vom 12.September 2003 46

الفصل الرابع:

(١) إيجون فريدل : تاريخ الحضارة المصرية والشرق القديم، ص ٢٢١ (طبعة صادرة عن فيدون لعام ١٩٤٧).
(٢) فيليب ك. حتّى : تاريخ العرب، ص ٢٩٢ ومايليها.
(٣) بيتر سلوجليت وماريون فاروق سلوجليت : العراق منذ عام ١٩٥٨، ص ٧ وما يليها.
(٤) جورج أنطونيوس : نهضة العرب، ص ٧٧.
(٥) إيليا نور فرانكلين ـ ايجان : الحرب فى مهد العالم، ص ١٠١.
(٦) دافيد فرومكين : سلام لنهاية كل سلام، ص ٢٠٠ وما يليها.
(٧) مصدر ما جاء فيما بعد، أخذ من جانيت والاخ : ملكة الصحراء، ص ١٩٣ وما يليها.
(٨) فرومكين : ص ٤٥١.
(٩) جانيت والاخ : ملكة الصحراء، ص ١٩٣ وما يليها.
(١٠) حنا بطاطو، ص ٧٧٢.
(١١) فرومكين، ص ٢٢٥.
(١٢) جانيت والاخ، ص ٢٢٥.
(١٣) سلوجليت، ص ١٣ وما يليها.
(١٤) هانا بطاطو، ص ٧٧٢.
(١٥) نفس المصدر السابق، ص ٨٠٢.
(١٦) دافيد ماك دوول : التاريخ الحديث للأكراد، ص ١٥٢ وما يليها.
(١٧) نفس المصدر السابق، ص ١٦٣ وما يليها.
(١٨) نفس المصدر، ص ٣٠٢ وما يليها.
(١٩) سلوجليت، ص ١٠٣ وما يليها.
(٢٠) هايكو فلوتاو : الخوف أن تتحول إلى غنائم صدام مرة ثانية. فى : صحيفة زود دويتشى تسايتونج الألمانية الصادرة بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٩٨، ص ١١.
(٢١) ماك دوول، ص ٣٦١ وما يليها.
(٢٢) هاينز هالم : الإسلام الشيعى، ص ١٥ وما يليها.
(٢٣) إسحق نكاش : شيعة العراق. ص ٢٥ وما يليها .
(٢٤) جوان كول : مكان مقدس وحرب مقدسة، ص ١١٠ وما يليها.
(٢٥) نقاش ص ١١٧ .
(٢٦) هالم ص ١٤٤ .
(٢٧) مجموعة الأزمات الدولية : (ICG) شيعة العراق تحت الاحتلال ٩ سبتمبر ٢٠٠٣ ص ١٢ وما يليها؛ جوان كول : جماعات عقيدة الشيعة تملأ الفراغ فى العراق، فى: تقرير الشرق الأوسط (MERIP) أون لاين ٢ إبريل ٢٠٠٣ ؛ جوان كول : SCIRP وفيالق بدر. فى:

لوموند الدبلوماسية، إصدار بالإنجليزية خاص بالإنترنت، يوليو ٢٠٠٣. وهناك أبحاث خاصة بالكاتب الذى توقف فى ذلك الوقت بالعراق.

(٢٨) مجموعة الأزمات الدولية : (ICG) الشيعة والاحتلال، ص ٨.

(٢٩) نفس المصدر، ص ٢١.

(٣٠) سلوجليت، ص ١٩٧.

(٣١) هايكو فلوتاو : شيوخ النجف. فى الطريق إلى المدينة المقدسة للمسلمين الشيعة. زود دويتشى تسايتونج فى ٧ مايو ٢٠٠٣، ص ٣.

(٣٢) مجموعة الأزمات الدولية (ICG)، ص ٤.

(٣٣) إسحق نقاش : الشيعة ومستقبل العراق. فى : العلاقات الخارجية، يوليو ـ أغسطس ٢٠٠٣، ص ١٧.

(٣٤) ديليب هيرو: فى عين العاصفة، ص ١٥٧؛ سلوجليت : العراق منذ عام ١٩٥٨، ص١٤٧.

(٣٥) جيوف سيمونس : تطهيرالعراق، ص ١ وما يليها.

(٣٦) نفس المصدر السابق، ص ٢.

(٣٧) حديث للكاتب مع عضو سابق بالحكومة الأردنية لا يرغب فى ذكر اسمه .

(٣٨) حديث للكاتب فى السنوات منذ عام ١٩٩٨ مع دبلوماسيين غربيين بالعراق.

(٣٩) نشرة برنامج «النفط مقابل الغذاء»، فبراير ٢٠٠٣.

(٤٠) سيمونس، ص ١١٨ ومايليها، إخباريات هانس فون سبونيكس إلى الكاتب.

(٤١) صفحة دعائية بالإنترنت www.parliament/publication.kk

(٤٢) أندرو كوكبورن وباتريك كوكبورن : خارج دوائر الرماد، ص ١٣٦ وما يليها.

(٤٣) بوب وود ورد : بوش فى حالة حرب، ص ٤٩.

(٤٤) مجموعة الأزمات الدولية : (ICG) «تغطية العراق» فى ٢٥/٨/٢٠٠٣، ص ٤.

(٤٥) نفس المصدر السابق.

1 Egon Friedell: Kulturgeschichte ?gyptens und des Alten Orients, S. 221, Ausgabe Phaidonpress von 1947

2 Philip K.Hitti: History of the Arabs, S. 292 ff.:

3 Marion Farouk Sluglett and Peter Sluglett;: ÑIraq since 1958ì, S. 7 ff.

4 George Antonius: ìThe Arab Awakeningî, S. 77

5 Eleanor Franklin Egan: ÑWar in the Cradle of the Worldì, S. 101

6 David Fromkin: ÑA Peace to end all Peaceì, S. 200 ff.

7 Das Folgende ist entnommen Janet Wallach: ÑDesert Queenì, S. 193 ff.

8 Fromkin, S. 451

10 Hanna Batatu: ìThe Old Social ClassesÖî, S. 173

11 Fromkin, S. 452

12 Janet Wallach, S. 225

13 Sluglett, S. 13 ff.

14 Hanna Batatu, S. 772

15 ebd., S. 802

16 David McDowall: ÑA Modern History of the Kurds, S. 152 ff.
17 ebd. 163. f.
18 ebd. 302 ff.
19 Marion-Farouk-Sluglett u. Peter >Sluglett: Iraq since 1958, S. 103 ff.
20 Heiko Flottau: ÑDie Angst, wieder Saddams Beute zu werden.ì In: S¸ddeutsche Zeitung vom 2.Dezember 1998, S. 11
21 McDowall, S. 361 ff.
22 Heinz Halm: ìDer schiitische Islamî, S. 15 ff.
23 Yitzhak Nakash: ìThe Shii of Iraqî, S.25 ff.
24 Juan Cole: ÑSacred Place and Holy Warì, S.110. f.
25 Nakash, S. 117,
26 Halm, S. 144
27 International Crisis Group (ICG): Iraqs Shia under Occupation, 9.September 2003, S. 12 f. u. Juan Cole: Shia Religious Groups fill vacuum in Iraq, in: Middle East Report (MERIP) Online, 2. April 2003; u.:Juan Cole: ìSCIRI and the Badr-Corpsî. In: Le Monde Diplomatique, Engl. Internetausgabe, Juli 21003. Und eigene Recherchen des Autors, der zu der Zeit im Irak weilte.
28 ICG: Shia under Occupation, S. 8
29 ebd. S.21
30 Sluglett, S. 197
31 Heiko Flottau,: ìDie Scheichs von Nadschaf. Unterwegs in der Heiligen Stadt der schiitischen Moslems.ì S¸ddeutsche Zeitung, 7.Mai 2003, S. 3
32 ICG, S. 4
33 Yitzhak Nakash: ìThe Shiites and the Future of Iraqî. In: Foreign Affairs, Juli-August 2003, S. 17
34 Dilip Hiro: ìIraq ñ In the Eye of the Stormî, S. 157. Und: Sluglett: ÑIraq since 1958ì. S. 147
35 Geoff Simons: ìThe Scourging of Iraqî, S. 1 ff.
36 ebd. S. 2
37 Gespräch des Autors mit einem damaligen jordanischen Regierungsmitglied, das nicht genannt sein will.
38 Gespr?ch des Autors in den Jahren seit 1998 mit westlichen Diplomaten im Irak
39 Mitteilung des ìî?l f¸r Lebensmittelprogrammsî Februar 2003.
40 Simons, S. 118 f. Mitteilungen Hans von Sponecks an den Autor
41 Website: www.parliament/publications.uk
42 Andrew Cockburn u. Patrick Cockburn: ìOut of the Ashesî, S. 136 f.
43 Bob Woodward: ìBush at Warî, S. 49
44 ICG: ìGoverning Iraqî,, 25.8. 2003, S. 4
45 ebd.

الفصل الخامس:

(١) ليسلى ماكلوكلين : ابن سعود.
(٢) جيلسى كيبل : الكتاب الأسود للجهاد، ص ٣٧٦.
(٣) لويس ألكسندر أوليفييه دى كورانكيس : تاريخ الوهابيين من بدايتهم حتى نهاية عام ١٨٠٩، باريس ١٨١٠، طبعة حديثة ١٩٩٥، ص ١٩ وما يليها.
(٤) روبرت ليسى : المملكة، ص ٢٧.
(٥) ليسى : المملكة، ص ٤٣ وما يليها.
(٦) فريد هاليداى : الجزيرة العربية بدون سلاطين، ص ٤٨.
(٧) ليسى، ص ١٤٩.
(٨) ماكلوكلين، ص ٦١ وما يليها.
(٩) نفس المصدر السابق، ص ٦٢.
(١٠) جورج أنطونيوس: نهضة العرب، ص ٣٣١ وما يليها؛ أليكساس فاسيليف: تاريخ المملكة العربية السعودية، ص ٢٤٣ ومايليها.
(١١) ماكلوكلين، ص ١٢٢.
(١٢) هاليداى، ص ٥١.
(١٣) هاليداى، نفس المصدر.
(١٤) إدوارد ل. مورس وجيمس ريتشارد : المعركة من أجل السيطرة على مصادر الطاقة. فى: العلاقات الخارجية، مارس ـ أبريل ٢٠٠٢، ص ٢١.
(١٥) ماكلوكلين، ص ٧٢.
(١٦) إريك رولو : مشكلة فى المملكة. فى : العلاقات الخارجية، يوليو ـ أغسطس ٢٠٠٢، ص ٨٤ وما يليها.
(١٧) نفس المصدر السابق، ص ٨١.
(١٨) ألان جريس: لوموند ديبلوماتيك، إصدار إنترنت، يونيو ٢٠٠٣.
(١٩) كلير هو مؤلف كتاب حروب مصادر الطاقة ـ الخريطة الجديدة للصراعات الكونية، نيويورك ٢٠٠١. يرجع الاستشهاد إلى مقالة «الطاقة والاستراتيجية الخاصة بالولايات». لوموند الدبلوماسية، إصدار بالإنجليزية على الإنترنت، نوفمبر ٢٠٠٢.
(٢٠) ألان جريس : المملكة العربية السعودية ـ الإسلام الراديكالى أم الإصلاح؟ فى : لوموند الدبلوماسية، إصدار بالإنجليزية للإنترنت، يونيو ٢٠٠٣.
(٢١) جريس، نفس المرجع السابق.

1 Lesley McLaughlin, Ibn Saud.
2 Gile Kepel: ìDas Schwarzbuch des Dschihadî, S 376
3 Louis Alexandre Olivier de Corancez: ÑThe History of the Wahabis from their Origin until the End of 1809. Paris 1810. Nachdruck 1995, >S. 19 ff
4 Robert Lacey: The Kingdom, S. 27

5 Lacey: The Kingdom S. 73 ff.

6 Fred Halliday: Arabia without Sultans, S. 48

7 Lacey, S. 149

8 McLauphlin: Ibn Saud, S. 61 ff., S. 78

9 ebd., S. 62

10 George Antonius: Arab Awakening, S. 331 ff., Alexei Vassiliev: The Histrory of Saudi Arabia, S. 243 ff.)

11 McLaughlin, S. 122.

12 Halliday, S. 51.

13 ebd.

14 Edward L. Morse und James Richard: The Battle for Energy Domi - nance. In: Foreign Affairs, Marz - April 2002, S. 21.

15 McLaughlin, S. 72.

16 Eric Rouleau: Trouble in the Kingdom. In: Foreign Affairs, Juli - August 2002, S. 84ff.

17 ebd, S. 81.

18 Alain Gresh: Le Monde Diplomatique, Internetausgabe, Juni 2003.

19 Klare ist Autor des Buches Resource Wars - The New Landscape of Global Conflict, New York 2001. Das Zitat stammt aus seinem Aufsatz "United states Energy and Strategy " Le Monde Diplomatique, engl. Internetausgabe, November 2002.

20 Alain Gresh:Saudi Arabia-Radical Islam or Reform? In: Le Monde Diplomatique, engl. Internetausgabe, June 2003

21 Gersh, ebd.

الفصل السادس:

(١) م.ى.ياب : تشكيل شرق أوسط جديد، ص ٢٢٥.
(٢) دافيد فرومكين : سلام لإنهاء كل سلام، ص ٥٠٨.
(٣) سعيد ك. أبو الريش : صداقة وحشية.
(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٢٠ وما يليها.
(٥) فيرنر بروكدورف : القوات الخاصة بالحرب العالمية الثانية، ص ٣٩٨-٤١٤.
(٦) ستيفن كينزر : جميع رجال الشاه ،/ ص ٥٣ وما يليها.
(٧) كينزر : نفس المرجع، ص ٨٠ وما يليها.
(٨) أبو الريش : صداقة وحشية، ص ٢٧٠.
(٩) الجارديان بتاريخ ٢٧ سبتمبر٢٠٠٣.
(١٠) فرومكين، ص ٤٣٧.
(١١) باربارا و. توخمان : الكتاب المقدس والقوة العسكرية، ص ٣٢٩.

1 M.E.Yapp: The Making of the Modern Near East, S 225
2 David Fromkin: A Peace to End all Peace, S. 508
3 Said K.Aburish: A Brutal Friendship, S. 11 f.
4 ebd., S. 120 ff.
5 Dt.Botschaft..
6 Steven Kinzer: ìAll the Shahs Menî, S. 53 ff.
7 Kinzer, ebd., S. 80 ff.
8 Aburish: A Brutal Friendship, S. 270
9 The Guardian, 27.September 2003
10 David Fromkin: A Peace to End all Peace, S. 437
11 Barbara Tuchman: Bible and Sword, S. 329

الفصل السابع:

(١) وثائق فلسطين، ص ١٥٥.
(٢) كارين أرمسترونج : القدس، ص ٣٧٥.
(٣) وثائق فلسطين، ص ١٠٩.
(٤) توم سيجيف : فلسطين واحدة كاملة، ص ٧٢. الأحداث في الخليل، نفس المرجع، ص ٣١٤ وما يليها.
(٥) وثائق فلسطين، ص ١٣١ وما يليها.
(٦) دافيد هيرست : البندقية وغصن الزيتون، ص ٧٦.
(٧) وليد خالدي : التاريخ الحقيقي لغزو فلسطين. في: مراجعة لدراسات فلسطينية، طبعة خاصة ١٩٩٨.
(٨) وثائق فلسطين، ص ١٥٦ وما يليها.
(٩) هيرست، ص ٩٣.
(١٠) من بين العديد من المراجع في شأن هذه الأحداث نكتفي بذكر دافيد هيرست في كتابه «البندقية وغصن الزيتون»، ص ١٢٦ وما يليها. ومن المراجع الهامة أيضًا كتاب المؤرخ الإسرائيلي إلان بابه : صناعة الصراع العربي الإسرائيلي، ص ١٦٢ وما يليها ؛ وكتاب وليد خالدي : دير ياسين : تمحيص المذبحة. في : مراجعة لدراسات فلسطينية.
(١١) أرئيل شارون (مع دافيد شانوف) : المقاتل ـ سيرة ذاتية، ص ٨٣ وما يليها.
(١٢) مجلة الدراسات الفلسطينية ١٢٤، المجلد ٣١، رقم ٤، صيف ٢٠٠٢، ص ٨٠.
(١٣) نفس المصدر السابق، ص ٨٢ وما يليها.
(١٤) هايكو فلوتاو : عقيدة حتى هزيم الرعد. تقرير من قبية. في : صحيفة زيد دويتشى تسايتونج الألمانية بتاريخ ١٣ مايو ١٩٩٨، ص ٣.

1 Palestine Documents, S. 155
2 Karen Armstrong: Jerusalem, S. 375
3 Palestine Documents, S. 109
4 Tom Segev: One Palestine-Completeì, S. 72. Die Ereignisse in Hebron ebd, S. 314 ff.
5 Pakestine Ducuments, S. 131 frf.
6 David Hirst. The Gun and the Olive Branch, S. 76
7 Walid Khalidi; L`Histoire Veridique de la Conquete de la Palestine. In†: Revue d`Etudes Palestiennes, Sonderausgabe 1998,
8 Palestine Documents, S. 156 ff.
9 David Hirst, S. 93
10 Aus der zahlreichen Literatur ¸ber diese Ereignisse sei hier nur David Hirst,, ìThe Gun and the Olive Branchî, S. 126 ff. erw?hnt. Wichtig auch der israelische Historiker Ilan Pappe: ÑThe Making of the Arab-Israeli Conflictì, S. 162 ff. und Walid Khalidi: Deir Yassin: Autopsie d`un Maqssacre. In: Revue d`Etudes Palestiennes, Nr. 17, Herbst 1998
11 Ariel Sharon (with David Chanoff: Warrior - An Autobiography, S.83 ff
12 Journal of Palestine Studies 124, Vol.XXXI, Nummer 4, Summer 2002, S.80
13 ebd., S 82-83
14 Flottau, Heiko: Glauben bis zum Donnerschlag. Bericht aus Qibia. S¸ddeutsche Zeitung vom 13.Mai 1998, S. 3

الفصل الثامن:

(١) البيانات الخاصة بعرفات ترجع إلى ك. أبو الريش : عرفات، ص ٧ وما يليها ومصادر بحثية خاصة بالكاتب.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٤٥ وما يليها.

(٣) الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، ص ٣١٧ وما يليها.

(٤) برنامج (ب.ب.سي بانوراما) التليفزيوني بتاريخ ١٧ يونيو ٢٠٠١.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، ص ٣٩٠ وما يليها.

(٧) أبو الريش : عرفات، ص ٢٠٦ وما يليها.

(٨) جيرمي باون في تليفزيون BBC .

1 Die Ausf¸hrungen ¸ber Arafat nach Said K.Aburish: ÑArafatì, S. 7 ff. und eigenen Recherchen

2 ebd., S. 45 ff.

3 The Israeli-Palestinian Conflict, S. 317 ff.

4 Fernsehsendung BBC-Panorama vom 17.Juni 2001

5 ebd.

6 The Israeli-Palestinian Conflict, S. 390 ff.

7 Aburish: ÑArafatì, S. 206 ff.

8 Jeremy Bowen im BBC-World Fernsehen, 16.Noevember 2003.

الفصل التاسع:

(١) وثائق فلسطين، ص ٥٨٥.

(٢) نيقولاس بلانفورد: حزب الله على خط النار. تقرير الشرق الأوسط (MERIP) أون لاين، ٢٨ إبريل ٢٠٠٣.

(٣) المصدر السابق (MERIP).

(٤) المصدر السابق (MERIP).

(٥) أمل سعد غريب: سياسات حزب الله ـ الدين. ص ٢٢ وما يليها، ص ٨٨ وما يليها.

(٦) مجموعة الأزمات الدولية: هل ثورة حزب الله دون سبب؟ ٣٠ يوليو ٢٠٠٣، ص ٦.

(٧) نفس المرجع السابق، ص ٩.

(٨) هكذا، الكاتبان الإسرائيليان شاؤول ميكال وأبراهام سيلا، في: حماس الفلسطينية، ص ١٨ وما يليها.

(٩) نفس المرجع السابق، ص ٥٧.

(١٠) المصدر السابق، ص ١٨١.

(١١) هايكو فلوتاو: نحن نطالب بفلسطين كلها ـ لقاء صحفي مع المتحدث باسم حماس محمود الزهار، في: صحيفة زيد دويتشي تسايتونج بتاريخ ١٨ يوليو ٢٠٠٠، وص ٨.

1 Palestine Documents, S. 585

2 Nichalos Blanford:Hisbollah in the Firung Line. Middle East Report Online, 28.April 2003

3 ebd.

4 MERIP, ebd.

5 Amal Saad-Ghorayeb: Hisbullah-Politics,Religion, S. 22ff., S 88.ff

6 International Crisis Group: Hisbullah-Rebel without Cause ? 30.Juli 2003, S.6

7 ebd. S. 9

8 S0 die israelischen Autoren Shaul Mishal u. Avraham Dela in: ìThe Palestionian Hamasî, S. 18 ff.

9 ebd., S. 57

10 ebs. S. 181

11 Heiko Flottau: : ÑWir beanspruchen ganz Palästina Ñ. Interview mit Hamas-Sprecher Mahmut Zahar, S¸ddeutsche Zeitung vom 18.Juli 2000, S. 8

(١) تقرير التنمية البشرية فى العالم العربى، نسخة باللغة الفرنسية، ص ٧٢. ما جاء بعد ذلك على ص ٢٧، ص ٥١.
(٢) دافيد برايس- جونس: الدائرة المغلقة، ص ٤٥.
(٣) عبد الحميد براهيمى فى: تقرير التنمية البشرية فى العالم العربى، ص ١١٥.
(٤) حنا بطاطو: الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية بالعراق، ص ٢٥ وما يليها.
(٥) نفس المصدر السابق، ص ٧٣٥.
(٦) أندرياس ماير: التكليف السياسى للإسلام، ص ١٣٣ وما يليها.
(٧) برايس جونس، ص ٧ وما يليها.
(٨) جورج أنطونيوس: نهضة العرب، ص ٢١٨ وما يليها.
(٩) أفى شلايم: إسرائيل والتآلف العربى فى عام ١٩٤٨، ص ٧٩ وما يليها. فى: أفى شلايم (ناشر) وأويجين ل. روجان: حرب فلسطين، إعادة كتابة التاريخ الخاص بعام ١٩٤٨.
(١٠) نفس المصدر السابق، ص ٨٥ وما يليها.
(١١) إلان بابه: خلق الصراع العربى الإسرائيلى فى الأعوام ١٩٤٧-١٩٥١ ، ص ٦٥.
(١٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٢ وما يليها.
(١٣) من كتاب لينى برينر: السور الحديدى، إصدارات زد، لندن ١٩٨٤، ويمكن الاطلاع عليه على الانترنت - "Google" لينى برنير.
(١٤) الموسوعة البريطانية، نسخة عام ١٩٩٣، الجزء الثانى ص ٢٢٩٩ وما يليها.
(١٥) مأخوذ من رفائيل باناى: العقل العربى، ص ٢٥٩ وما يليها.
(١٦) نفس المصدر السابق، ص ٢٥٥.
(١٧) نفس المصدر السابق.
(١٨) سعيد ك. أبو الريش: صداقة وحشية. الغرب وصفوة العرب.
(١٩) طارق على: بوش فى بابل، ص ٢٩.
(٢٠) فؤاد عجمى: أحلام العرب. أوديسا جيل. ص ٢٦ وما يليها.

1 Arab Human Development Report,, franzs.Fassung, S. 72. Das folgende S. 27 u. 51
2 David Price Jones: The Closed Circle, S. 45
3 Abdul Hamif Brahimi in ÑArab Human Development Reportì, S. 115
4 Hanna Batatu: The Old Social Classes and the Rvolutionary Movements of Iraq, S. 25 f.
5 ebd., S. 735
6 Andreas Meier: Der politische Auzftrag des Islam, S. 133 ff.
7 David Price Jones: The Closed Corcle, S. 7 f.
8 George Antonius: The Arab Awakening, 218 f.
9 Avi Shlaim: Israel and the Arab Coalition in 1948, S. 79 ffr. In: Eugene L.Rogan and Avi Shlaim (Hrsgb,): The War for Palestine. Rewriting the History of 1948.
10 ebd. S. 85 ff.
11 Jlan Pappe: The Making of the Arab-Israeli Conflict 1947-1951, S. 65
12 ebd., S22 ff.
13 Aus ndem Buch von Lenni Brenner: The Iron Wall, Zed Books, London 1984. bzw. im Internet unter der Suchmaschine Google, Lenni Brenner
14 Encyclopaedia Britannica, Ausgabe 1993, Band 2, S. 3299 ff.
15 Zitiert nach Rafel Patai: The Arab Mind, S. 259 ff.
16 Patai ebd., S. 255
17 ebd.
18 Said K.Aburish: A Brutal friendship. The West and the Arab Elite.
19 Tariq Ali: Bush in Babylon, S. 29.
20 Fouad Ajami: The Dream Palace of the Arabs. A Generations Odyssee, S. 26 ff.

الفصل الحادى عشر

(١) أندرياس ماير: التكليف السياسى للإسلام، ص ٥٠ وما يليها.
(٢) نفس المصدر السابق، ص ٦٥ وما يليها.
(٣) نفس المصدر السابق، ص ٨٤ وما يليها.
(٤) نفس المصدر السابق، ص ٩٢ وما يليها.
(٥) استشهاد مأخوذ عن ألبرت حورانى: الفكر العربى فى فترة الليبرالية (١٧٩٨-١٩٣٩)، ص ٣٢٩ وما يليها.
(٦) ماير، ص ١٧٥ وما يليها.
(٧) نفس المصدر السابق، ص ١٩٤ وما يليها.
(٨) جول بنين/ جو ستورك: الإسلام السياسى، ص ٣٢١.
(٩) أندرياس ماير، ص ٣٧٢.
(١٠) برنارد لويس: أزمة الإسلام، ص ١٠٧.
(١١) فاطمة المرنيسى: الإسلام والديمقراطية، ص ٣٧.
(١٢) نفس المصدر السابق، ص ٤٨.
(١٣) صحيفة فرانكفورتر روندشاو الألمانية بتاريخ ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٣.

1 Andreas Meier: Der politische Auftrag des Islam, S. 50 ff.
2 ebd. S. 65 f.
3 ebd. S. 84 ff.
4 ebd., S. 92 f.
5 Zitiert nach Albert Hourani: Arab Thought in the Liberal Age, S. 329 f.
6 Andreas Meier; Der politische Auftrag des Islam, S. S 175 ff.
7 ebd., S. 194 ffr.
8 Political Islam, S. 321
9 A.Meier, S. 372
10 Bernard Lewis: The Crisis of Islam, S. 107
11 Fatima Mernissi: Islam and Democracy, S. 37.
12 ebd. S 48.
13 Frankfurter Rundschau vom 25.November 2003.

الفصل الثانى عشر:

(١) ميشيل ليند: رجال القدر المشئوم خلف حرب جورج دبليو بوش. فى: نيو ستاتمان، لندن فى ٢٠٠٣/٤/٧ .

(٢) دونالد نيف: الأعمدة المتساقطة، ص ٣٦.

(٣) مرجع على الإنترنت www.newamericancentury/bushletter/html.

(٤) مرجع على الإنترنت www.cc.org.

(٥) مرجع على الإنترنت www.christianity.com.

(٦) إبراهيم وارد: أى رب فى صف من؟ فى: لوموند الدبلوماسية، إصدار بالإنجليزية على الإنترنت ـ سبتمبر ٢٠٠٢.

(٧) وارد: نفس المرجع السابق.

(٨) دونالد واجنر: حساب تاريخى لصهيونية مسيحية سلسلة مقالات فى الديلى ستار البيروتية، من ٥ إلى ١١ أكتوبر ٢٠٠٣.

(٩) نفس المصدر السابق.

(١٠) نفس المصدر السابق.

(١١) بروس مورفى: سحابة المحافظين الجدد تظهر فى سياسة الولايات المتحدة ـ العراق. فى: «ميلووكى جورنال سنتيننتال» بتاريخ ٥ إبريل ٢٠٠٣ ـ انظر www.jsonline.com.

(١٢) من: إعادة بناء نظم الدفاع بأمريكا. إستراتيجية، قوات عسكرية وموارد لقرن جديد. تقرير خاص بمشروع قرن أمريكى جديد، سبتمبر ٢٠٠٠.

(١٣) فى مجلة «الشئون الخارجية»، سبتمبر ـ أكتوبر ٢٠٠٢، ص ٤٩ وما يليها، رحب ج. جون اكنبرى، أستاذ علوم السياسة الطبيعية والعدالة الكونية بجامعة جورج تاون بواشنطون، بهذا الخطاب، ورفض النظام التقليدى للأمن الجماعى، نظرًا لأن أمريكا ستكون أكثر قوة عن دول أخرى. ولذلك ـ على حد قوله ـ فإن أى دولة ـ ليس فقط الولايات المتحدة ـ ستكون أفضل من ذى قبل تحت القيادة الكونية لأمريكا.

(١٤) استشهاد مأخوذ عن هشام بن عبد الله العلوى: العالم العربى بعد احتلال العراق. فى: لوموند ديبلوماتك، إصدار بالانجليزية على الانترنت، أكتوبر ٢٠٠٣.

(١٥) انظر على الانترنت (www.bbcworld.companorama)، برنامج بانوراما بتاريخ ١٨ مايو ٢٠٠٣. وعن ريتشارد بيرل انظر أيضًا سيمون هرش: غداء مع رئيس اللجنة. فى: النيويوركر بتاريخ ٢٠٠٣/٣/١٧.

(١٦) يمكن الحصول على ذلك بمعهد الدراسات السياسية والإستراتيجية المتقدمة، واشنطون ـ القدس. انظر على الإنترنت تحت (www.israeleconomy.org/strat1.html).

(١٧) إرسال برنامج BBC بانوراما فى ١٨ مايو ٢٠٠٣ .

(١٨) جوشوا ميكاح مارشال: التدريب على الخداع. واشنطون مونثلى أون لاين ـ أبريل ٢٠٠٣.

(١٩) بروس مورفى (انظر ملحوظة رقم ١١).

(٢٠) إريك هوبسباوم: الولايات المتحدة ـ أكثر اتساعاً وانتشارًا. فى: لوموند ديبلوماتك، إصدار بالإنجليزية على الإنترنت فى يونيو ٢٠٠٣.

(٢١) ألان جريش: أمواج الفوضى. في: لوموند ديبلوماتيك، إصدار بالإنجليزية على الانترنت في سبتمبر ٢٠٠٣.

(٢٢) فيليس بينيس: نداء المدافع. ص ١.

(٢٣) أفي شلايم: السور الحديدي، ص ١٨٩.

(٢٤) فيليس بينيس، ص ٢١٧ وما يليها.

1 Michael Lind: The Weird Men behind Geroge W. Bush`` s War. In: New Statesman, London 7.4.2003

2 Donald Neff: Fallen Pillars, S. 36

3 www.newamericancentury/bushletter/htm

4 www.cc.org

5 www.christianity.com

6 Ibrahim Warde: Which God is on Whose Side ? In: Le Monde Diplomatique, Engl. Internetausgabe, Sewpt. 2002

7 Warde, ebd.

8 Donald Wagner: A Historuical Account of Christian Zionism. Artikelserie im Beirut ìDaily Starî aus der Woche, die mit dem 11, Oktober 2003 endet.

9 ebd.

10 ebd

11 Bruce Murphey: Neoconservative Cloud seen in US-Iraq Policy. In: Milwaukee Journal Sentinentel, 5.April 2003. www.jsonline.com

12 Aus: Rebuilding Americas Defenses. Strategy, Forces and Resources for a New Century.î A Report nof the Project for the New American Century, September 2000.

13 In der vZeitschrift ÑForeign Affaisì September-Oktober 2002, S. 49 ff. begr¸sste G.John Ickenbury, Professor f¸r Geopolitik und globale Gerechtigkeit an der Gerogetown Universit?tdiese Rede. Ickenbury gab dem traditionellen System f¸r kollektive Sicherheit eine Absage, weil Amerika viel m?chtoger sein werde als andere Staaten. Deshalb werde jedes Land ñ nicht nur die USA - - unter der globalen F¸hrung Amerikas besser dastehen als je zuvor.

14 Zitiert nach: Hisham Ben Abdallah El Alaoui: ÑThe Arab World after the Occupation of Iraq. In: Le Monde Diplomatique, Engl. Internetausgabe, Oktober 2003

15 www,bbcworld.com(panorama. Sendung Panorama vom 18 Mai 2003. ?ber Richard Perle auch: Seymour Hersh: ÑLunch with the Chairman.ì In:The New Yorker, 17.03. 2003

16 Zu finden beim ÑInstitute for Advances Strategic and Political Stdies, Jerusalem-Washington. www.israeleconomy.org/strat1.htm

17 Sendung BBC World Panorama 18.Mai 2003.

18 Aus: Joshua Micah Marshall:Practice to Deceive. Washington Monthly Online, April 2003

19 Bruice Murphey. Siehe Anm. 11

20 ÑUnites States ñ Woider and Wider . In: Le Monde Diplomatique, Engl. Internetausgabe, Juni 2003

21 Alain Gresh: Waves of Chaos.Le Monde Diplomatique, September 2003, Engl. Internetausgabe

22 Phyllis Bennis : Calling th Shots, S. 1

23 Avi Shalim: The Iron Wall, S. 189

24 Bennis, S. 217 ff.

الفصل الثالث عشر

(١) توماس كيرنان: العرب، ص ٤٧٥.

(٢) ما جاء ذكره بعد ذلك: نفس المصدر السابق، ص ٤٨٤ وما يليها.

(٣) روبرت ليسى: المملكة، ص ٣٤١.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٣٠٥.

(٥) جراهام فوللر وجان أوليسر: أساطير الخليج الفارسى. فى: مجلة العلاقات الخارجية، إصدار مايو ـ يونيو ١٩٩٧، ص ٤٣ وما يليها.

(٦) كينيت م. بولاك: تأمين الخليج. فى: مجلة العلاقات الخارجية، إصدار يوليو– أغسطس ٢٠٠٣، ص ٣ وما يليها.

(٧) مجموعة تطوير سياسة الطاقة القومية، سبتمبر ٢٠٠١.

(٨) جان كريستوفر سيرفانت: ولايات النفط الخليجى الجديدة. فى: لوموند ديبلوماتيك، إصدار بالإنجليزية على الإنترنت فى يناير ٢٠٠٣.

(٩) نفس المصدر السابق.

(١٠) راجع بشأن تفاصيل وضع بحر قزوين، على سلسلة شبيجل أون لاين «الحرب من أجل نفط قزوين» بقلم لوتس س كليفيمان، ٨ أجزاء. إيران: الجزء ٦.

(١١) دافيد ج فيكتور وناديدا م. فيكتور: محاور النفط.. العلاقات الأمريكية الروسية الجديدة. فى: مجلة العلاقات الخارجية، إصدار مارس ـ إبريل ٢٠٠٣ ص ٤٧ وما يليها.

(١٢) التعاون الروسى الإسرائيلى ـ هل هو تهديد للنفط السعودى؟ فى: ستراتفور لخدمات الإنترنت بتاريخ ١٧ يوليو ٢٠٠٣.

(١٣) ميشيل ت. كلير: الجغرافيا الحديثة للصراع. فى: مجلة العلاقات الخارجية، إصدار مايو ـ يونيو ٢٠٠١، ص ٤٩ وما يليها.

(١٤) إيرينه جندتسير: السياسة والجيش فى «الحرب ضد الإرهاب» للولايات المتحدة الأمريكية. فى: إينامو (INAMO) رقم ٣٣، ربيع ٢٠٠٣، ص ١٥ وما يليها.

1 Thomas Kiernan: The Arabs. Se. 475

2 Das Folgende ebd, S. 484 ff.

3 Lacey: The Kingdom, S. 341

4 ebd. S.305

5 Graham Fuller u. Jan O.Lesser: ìPersian Gulf Mythsî. In: Foreign Affairs, Mai-Juni 1997, S 43 ff.

6 Kenneth M.Pollck: Securing the Gulf. In: Foreign Affairs, Juli-August 2003, S. 3 ff.

7 National Energy Policy Development Group, September 2001

8 Jean-Christopher Servant: The New Gulf Oil States. In: Le Monde Diplomatique, Engl. Internetausgabe, Januar 2003

9 ebd.

10 Einzelheiten ‚ber die Lage am Kaspischen Meer in der Spiegel-Online Serie ÑDer Kampf um das Kaspische ?lì von Lutz C. Klevemann, 8 Teile. Iran Teil 6

11 David G.Victor und Nadeida M.Victor: ÑAxis of Oilì ? The new Russion-Americcan Relationship.î In: Foreign Affairs, M?rz-April 2003, S. 47 ff.

12 Russian-Israeli Cooperation ñ A Threat to Saudi Oil ?î Aus: Stratfor-Internetdienst, 17.Juli 2003

13 Michel T. Klare: ÑThe New Geography of Conflict.ì In: Foreign Affairs, Mai-Juni 2001, S. 49 ff.

14 Irene Gendzier: ì?l, Politik und Milit?r im >Anti-Terror-Krieg < der USA.ì In: Inamo, Nr. 33, Fr‚hjahr 2003, S. 15 ff.

الفصل الرابع عشر

(١) بيتر هوبريك: اللعبة الكبرى. انظر فى ذلك أيضًا إلى مراجع البحث.
(٢) رالف هـ ماجنوس وإدان نابى: أفغانستان، ص ٦٠ وما يليها، ص ١٢٢ وما يليها.
(٣) كارل ماير: رماد الإمبراطورية، ص ١١٨ وما يليها.
(٤) نفس المصدر السابق، ص ٩١.
(٥) أحمد راشد: طالبان. نسخة إنجليزية، ص ١٧٦.
(٦) باتريك كارام: وسط آسيا، ص ٩.
(٧) نفس المصدر السابق، ص ٩.
(٨) مجلس للعلاقات الخارجية: أفغانستان ـ هل فقدنا السلام؟ يونيو ٢٠٠٣.
(٩) مجموعة الأزمات الدولية: بناء السلام فى أفغانستان، ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٣، ص ١٩.
(١٠) أحمد راشد: حرب مقدسة بجبال الهندوك، ص ١٥٢ وما يليها، ص ١٧٦ وما يليها.
(١١) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٨.
(١٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٥.
(١٣) بيتر مونش: السلام الحيوى. فى: صحيفة زيد دويتشى تسايتونج، بتاريخ ٣ ديسمبر ٢٠٠٣، ص ٤.

1 Peter Hopkirk: The Great Game. Siehe auch Literaturverzeichnis am Ende.
2 Ralph H.Magnus u. Edan Naby†: Afghanistan. S.60 ff. u. S. 122 f.
3 Meyer: The Dust of Empire, S. 118 f.
4 ebd. S.91
5 Ahmed Raschid; Taliban, engl.Ausgabe S.176
6 Patrick Karam: Asie Centrale, S.9
7 ebd. S. 9
8 Council on Foreign Relations: Afgjhanistan ñ Are we Losing the Peace ?. Juni 2003
9 International Crisis Group: Peacebuilding in Afghanistan, 29.September 2003, S.19
10 Ahmed Raschid: Heikiger Krieg am Hindukusch, S. 152 f. u.176 f.
11 ebd. S. 238
12 ebd. S. 235
13 Peter M¸nche: Der virtuelle Frieden. In: S¸ddeutsche Zeitung vom 3.12.03, S.4

قائمة المراجع

- أبو الريش، سعيد ك: عرفات. من مقاتل إلى ديكتاتور، نيويورك ١٩٩٨.
- أبو الريش، سعيد ك: صداقة متوحشة. الغرب صفوة العرب. واشنطون/ لندن ١٩٩٨.
- أبو الريش، سعيد ك: نهوض وفساد وطباشير سقوط بيت آل سعود. لندن ١٩٩٤.
- عجمى، فؤاد: أحلام العرب. أوديسا جيل. نيويورك ١٩٩٨.
- الجبرتى، عبد الرحمن: بونابرت فى مصر. ترجمة أرنولد هوتينجر. زيدريخ/ ميونيخ ١٩٨٣.
- على، طارق: بوش فى بابل. إعادة استعمار العراق. لندن / نيويورك ٢٠٠٢.
- أنطونيوس، جورج: صحوة العرب. فلوريدا ٢٠٠١. النسخة الأصلية صدرت عام ١٩٣٩.
- أرمسترونج، كارين: القدس. نيويورك ١٩٩٦.
- بطاطو، هانا: الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية بالعراق. جامعة برنكتون ١٩٧٨.
- بنين، جول / ستورك، جو (ناشرين): الإسلام السياسى، مجموعة مقالات من تقرير الشرق الأوسط. جامعة كاليفورنيا ١٩٩٧.
- بينيس، فيليس: نداء المدافع. نيويورك ٢٠٠٠.
- برينر، لينى: السور الحديدى. لندن ١٩٨٤.
- بروكدورف، فيرنر: القوات الخاصة بالحرب العالمية الثانية. ميونيخ/ فيلز ١٩٦٧.
- كاتان، هنرى: فلسطين والقانون الدولى. لندن ١٩٧٣.
- شومسكى، ناعوم: جراح شرق أوسطية صريحة. إسرائيل والفلسطينيون وسياسة الولايات المتحدة. هامبورج / فيينا ٢٠٠٢.
- كوكبرن، أندرو وباتريك: بعيداً عن دوائر الرماد. بعث صدام حسين. نيويورك ١٩٩٩.
- كول، جوان: أرض مقدسة وحرب مقدسة. سياسات وحضارة وتاريخ شيعة الإسلام. لندن ٢٠٠٢.
- إيدن، نابلى / رالف هـ. ماجنوس: أفغانستان. الملا وماركس والمجاهد. كولورا دو ٢٠٠٢.
- فولكن، حان ميشيل: المملكة العربية السعودية. باريس ١٩٩٥.
- فرانكلين - إيجان، إيليانور: الحرب فى مهد العالم. لندن ١٩٢٠ (بالتقريب).
- فريدل، إيجون: تاريخ الحضارة المصرية والشرق القديم. لندن ١٩٤٨.
- فرومكين، دافيد: سلام لنهاية كل سلام. تخليق شرق أوسط حديث (١٩١٤-١٩٢٢). لندن ١٩٨٩.
- هاليداى، فريد: الجزيرة العربية بدون سلاطين. لندن ١٩٧٥.

– هالم، هاينز: الإسلام الشيعى. من الدين إلى الثورة. ميونيخ ١٩٩٤.
– هرتزل، تيودور: دولة اليهود. محاولة لحل حديث لمشكلة اليهود. زيوريخ (وفقًا لطبعة عام ١٩٨٦).
– هرتزل، تيودور: رسائل ويوميات. يوميات صهيونية (١٨٩٥–١٨٩٩). برلين ١٩٨٣.
– هيرو، ديليب: العراق. فى عين العاصفة. نيويوك ٢٠٠٢.
– هيرست، دافيد: البندقية وغصن الزيتون. جذور العنف فى الشرق الأوسط. لندن ١٩٨٤.
– حتى، فيليب ك: تاريخ العرب. لندن ١٩٧٠.
– هوبكيرك، بيتر: اللعبة الكبرى. المهمة السرية فى أعالى آسيا. أوكسفورد ١٩٩٠.
– حورانى، ألبرت: الفكر العربى فى فترة الليبرالية (١٧٩٨–١٩٣٩). أوكسفورد ١٩٦٢.
– جيفريس، جـ . م. ن: فلسطين. الحقيقة. لندن ١٩٣٩.
– كابلان، روبرت: المستعربون. رومانسية صفوة أمريكية. نيويورك ١٩٩٣.
– كارام، باتريك: وسط آسيا. باريس ٢٠٠٢.
– كيبل، جيلس: الكتاب الأسود للجهاد. نهوض وغروب الحركة الإسلامية. ميونيخ / زيوريخ ٢٠٠٠.
– كيرنان، توماس: العرب. تاريخهم وأهدافهم وتطلعهم لعالم صناعى. نيويورك ١٩٨٤.
– كينزر، ستيفن: جميع رجال الشاه. نيوجرسى ٢٠٠٣.
– ليسى، روبرت: المملكة. جامعة أوكسفورد ١٩٨١.
– لاكور، فالتر: الطريق لدولة إسرائيل. تاريخ الصهيونية. فيينا ١٩٧٢.
– لويس، برنارد: أزمة الإسلام. حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس. لندن ٢٠٠٣.
– معلوف، أمين: الحملات الصليبية فى عيون العرب. لندن ١٩٨٤.
– ماكاى، ساندرا: الإيرانيون. بلاد فارس والإسلام وروح القومية. لندن ١٩٩٨.
– ماكاى، ساندرا: السعوديون. فى داخل مملكة الصحراء. نيويورك ٢٠٠٢.
– مصالحه، نور: أرض بلا شعب. إسرائيل ونقل الملكية والفلسطينيون (١٩٤٩–١٩٩٦). لندن ١٩٩٧.
– مصالحه، نور: ترحيل الفلسطينيين. مفهوم «نقل الملكية» فى الفكر السياسى الصهيونى (١٨٨٢–١٩٤٨). معهد الدراسات الفلسطينية. واشنطون ١٩٩٢.
– ماك دوول، دافيد: التاريخ الحديث للأكراد. لندن ١٩٩٦.
– ليسلى، ماك لفلين: ابن سعود. مؤسس المملكة. لندن ١٩٩٣.
– ماير، أندرياس: التكليف السياسى للإسلام. فويرتال ١٩٩٤.
– ميرنسى، فاطمة: الإسلام والديموقراطية. نيويورك ١٩٩٢.
– ماير، كارل ى. : رماد الإمبراطورية. سباق السعادة فى قلب آسيا. نيويورك ٢٠٠٣.
– ميشال، شاءول/ سيلا، إبراهيم: حماس الفلسطينية. نيويورك ٢٠٠٠.
– موريس، بينى: ميلاد مشكلة اللجوء الفلسطينية (١٩٤٧–١٩٤٩) مكتبة كامبريدج ١٩٨٧.
– ناكاش، إسحق: شيعة العراق. جامعة برنستون ١٩٩٤.

- نيف، دونالد: الأعمدة المتساقطة. سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه فلسطين وإسرائيل منذ عام ١٩٤٥. واشنطون ١٩٩٥.
- أوليفييه دى كوارنين، لويس ألكسندر: تاريخ الوهابيين من بداياتهم حتى عام ١٨٠٩. ريدج ١٩٩٥ (الطبعة الأصلية باريس ١٨١٠).
- بابه، إلان: خلق الصراع العربى الإسرائيلى فى الأعوام (١٩٤٧-١٩٥١). لندن ١٩٩٢.
- باتاى، رفائيل: العقل العربى. نيويورك ١٩٨٣.
- بريمور، أفى: الإرهاب كذريعة. لغة العنف. ديسلدورف ٢٠٠٣.
- برايس جونس، دافيد: الدائرة المغلقة. تحليل العرب. نيويورك ١٩٨٩.
- راشد، أحمد: طالبان. جنود الله الأفغان والجهاد. ميونيخ ٢٠٠١.
- راشد، أحمد: الحرب المقدسة بجبال الهندوك. الحرب من أجل السلطة والعقيدة فى وسط آسيا. ميونيخ ٢٠٠٢.
- روى، سارا: نزع غزة. واشنطون ١٩٩٥.
- روى، أوليفييه: سقوط الإسلام السياسى. لندن ١٩٩٤.
- رونسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية. ميونيخ ١٩٨٣.
- سعد غريب، أمل: حزب الله - سياسة ودين. لندن ٢٠٠٢.
- صباح، رائد: الموت هبة من الله. قصة انتحارى. ميونيخ ٢٠٠٢
- سعيد، إدوارد و. : مشكلة فلسطين. نيويورك ١٩٩٢.
- سعيد، إدوارد و. : سياسات نزع الملكية. الكفاح من أجل حق تقرير المصير الفلسطينى (١٩٦٩-١٩٩٤). لندن ١٩٩٥.
- سعيد، إدوارد و. : نهاية عملية السلام. أوسلو ثم بعد. نيويورك ١٩٩٥.
- سعيد، إدوارد و. : خارج المكان. مذكرات. لندن ١٩٩٩.
- سيجيف، توم: فلسطين واحدة متكاملة. اليهود والعرب تحت الانتداب البريطانى. لندن ٢٠٠٠.
- شابيرا، أنيتا: الأرض والقوة. ملاذ الصهاينة إلى القوة العسكرية من ١٨٨١ حتى ١٩٤٨. ستانفورد ١٩٩٢.
- شابيرا، أنيتا ورايفهارز، يهودا: أوراق أساسية للصهيونية. لندن ١٩٩٦.
- شارون، أرئيل: المقاتل. سيرة ذاتية. نيويورك ٢٠٠١.
- شندلر، كولين: الأرض بعد الوعد. إسرائيل والليكود والحلم الصهيونى. لندن ١٩٩٥.
- شلايم، أفى: السور الحديدى. إسرائيل والعالم العربى. لندن ٢٠٠٠.
- شلايم، أفى وروجان، أويجين: الحرب من أجل فلسطين. إعادة كتابة التاريخ الخاص بعام ١٩٤٨. كامبريدج ٢٠٠١.
- سيمونز، جيوف: تطهير العراق. العقوبات والقانون والعدالة الطبيعية. لندن ١٩٩٦.
- سلوجليت، بيتر وفاروق ـ سلوجليت، ماريون: العراق منذ عام ١٩٥٨. من الثورة إلى الديكتاتورية. لندن ١٩٨٧.

– سبونيك، هانز فون وتسوماخ، أندرياس: العراق ـ تأريخ لحرب مقصورة. كيف تم تضليل الرأى العام العالمى واختراق القانون الدولى. كولونيا ٢٠٠٣.
– شتاين، كينيث و. : مشكلة الأرض فى فلسطين من ١٩١٧ حتى ١٩٣٩. نورث كارولينا، ١٩٨٤.
– توخمان، بربارا و. : الكتاب المقدس والقوة العسكرية. كيف جاء البريطانيون إلى فلسطين. جامعة نيويورك ١٩٥٦.
– فاسيليف، ألكس : تاريخ المملكة العربية السعودية. جامعة نيويورك، ٢٠٠٠.
– والاخ، جانيت: مملكة الصحراء. لندن ١٩٩٦.
– ويلسون، مارى س. : الملك عبد الله والبريطانيون وخلق الأردن. مكتبة كامبريدج ١٩٩٠.
– وود ورد، بوب: بوش فى حالة حرب. نيويورك ٢٠٠٢.
– ياب، م.ى: خلق شرق أوسط حديث فى الأعوام ١٧٩٢-١٩٢٣. لندن ونيويورك ١٩٨٧.

مصـــادر أخـــرى

– يحيى، عادل هـ: اللاجئون الفلسطينيون من عام ١٩٤٨ حتى ١٩٩٨. البيرة رام الله ١٩٩٩.
– زقارول ـ إسلام، خان (ناشر): وثائق فلسطين. معهد الدراسات العربية الإسلامية نيودلهى ١٩٩٨.

Literaturverzeichnis

Aburish, Said K. Arafat. From Defender to Dictator.
Bloomsbury, New York 1998

Aburish, Said K.: A Brutal Friendship.. The West
And the Arab Elite. Indigo, Washington-London
1998

Aburish, Said K.: The Rise, Corruption and Coming
Fall of the House of Saud. Bloomsbury 1994

Ajami, Fouad: The Dream Palace of the Arabs. A
Generation`s OdysseyPantheon Books, New York 1998

Al-Garbati, Abdelrahman: Bonaparte in ?gypten.
Übersetzt von Arnold Hottinger. Artemis Verlag
Zürich-München 1983

Antonius, George: The Arab Awakening. Simon Publishers
Safety Harbor, Florida, 2001. Nachdruck der Original-
Ausgabe von 1939

Armstrong, Karen: Jerusalem. Albert A. Knopf
New York 1996

Beinin, Joel and Stork, Joe (Hrsgb.) : Political Islam. Essays
from Middle East Report. University of California Press. 1997

Bennis, Phyllis: Calling the Shots. How Washington dominates today`s
UN. Olive Branch Press, New York 2000

Brenner, Lenni: The Iron Wall.Zionist Revisionism from
Jabotinsky to Shamir. Zed Books, London 1984

Cattan, Henry: Palestine and International Law. The
Legal Aspects of the Arab-Israeli Conflict. Longman,
London 1973

Cockburn, Andrew and Patrick: Out of the Ashes. The
Resurrection of Saddam Hussein. HarperCollins
New York 1999 .

Cole, Juan: Sacred Place and Holy War. The Politics Culture and History of Shi`ie Islam. I.B.Tauris, London 2002

Eden Naby, Ralph H.Magnus: Afghanistan. Mullah, Marx and Mujahid. Westview Press, Boulder, Colorado, USA 2002

Elon, Amos: The Israelis. Foundres and Sons. Adam PublishersTel Aviv 1981

Franklin-Egan, Eleanor: The War in the Cradle of Thew World. London o.J. Ungef?hr 1920

Friedell, Egon: Kulturgeschichte ?gyptens und des Alten Orients. Phaidon Press. London 1948

Fromkin, David: A Peace to end all Peace. Creating the Modern Middle East 1914-1922. Penguin Books, London 1989

Foulqoier, Jean-Michel: Arabie Seoudite. La Dictature Protege. Editions Albin Michel, Paris 1995

Halliday, FredÅ: Arabia without Sultans. Penguin Books 1975

Halm, Heinz: Der schiitische Islam Von der Religion zur Revolution. C.H.Beck, München 1994

Herzl, Theodor: Der Judenstaat. Versuch einer modernen der Judenfrage. Manesse Verlag, Zürich. Nachdruck der Ausgabe von 1896

Herzl, Theodor: Briefe und Tagebücher. Zionistisches Tagebuch 1895-1899. Propyl?en Ber5lin 1983

Hiro, Dilip: Iraq. In the Eye of the Storm. Nation Books New York 2002

Hirst, David: The Gun and the olive Branch. The Roots Of Violence in the Middle East. . Faber and Faber, London. 2.Auflage 1984

Hitti, Philip K.: History of the Arabs. 10.Auflage
Macmillan, London 1970

Hopkirk, Peter: mThe Great Game. On Secret Service
In High Asia. Oxford University Press. 1990

Hourani, Albert: Arabic Thought in the Liberal Age
Oxford University Press, 1962 .19391798

Kaplan, Robert D.: The Aqrabists. The Romance
of an American Elite. Maxwell Macmillan International,
New York 1993

Karam, Patrick: Asie Centrale. Le Nouveau Grand Jeu.
L'Harmattan Press, Paris 2002

Kepel, Gilles: Das Schwarzbuch des Dschihad. Aufstieg
Und Niedergang des Islamismus. Piper, München-Zürich
2000

Kiernan, Thomas: The Arabs. Their History, Aims and
Challenge to the Industrialized World. . Abacus New York
1984

Jeffries, J.M.N.:Palestine: The Reality. Longmans, Green a.
Co. London 1939

Kinzer, Steven: All the Shahs Men. An American Coup
And the Roots of Middle East Terror. John Wiley
And Sons, Hoboken, New Jersey 2003

Lacey, Robert: The Kingdom. Oxford University Press
1981

Laquer, Walter: Der Weg zum Staate Israel. Geschichte des
Zionismus. Europaverlag Wien 1972

Lewis, Bernard: The Crisis oOf Islam. Holy War and
Unholy Terror. London 2003

Mackey, Sandra: The Iranians. Persia, Islam and the
Soul of a Nation. Plume-Penguin Books, London 1998

Mackay, Sandra: The Saudis. Inside the Desdert Kingdom.
Norton Books, New York 2002

Maalouf, Amin: The Crusades through Arab Eyes. Al-Saqi Books, London 1984

Masalha, Nur: A Land without a People. Israel, Transfer and the Palestinians 1949-1996.Faber and Faber London 1997

Masalha, Nur: Expulsion of the Palestinians. The Concept in Zionist Political Thought 1882-1948. {Transferz of Institute for Palastine Studies, Washington D.C. 1992

McDowall, David: A Modern History of the Kurds. I.B.Tauris, London1996

McLaughin, Leslie: Ibn Saud. Founder of a Kingdom. Macmillan Press, London 1993

Mernissi, Fatima: Islam and Democracy. Fear of the Modern World. Addison-Wesley Publishers New York 1992

Meyer: Karl E.: The Dust of Empire. The Race for Mastery In the Asian Heartland. Century Foundation, New York 2003

Mishal, Shaul u. Sela, Avraham: The Plaestinian Hamas. Vision, Violence and Coexistance. Columbia University Press 2000

Morris, Benny: The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949. Cambridge Middle East Library 1987

Nakash, Yitzhak: The Shi'is of Iraq. Princeton University Press, 1994

Neff, Donald: Fallen Pillars. U.S.Policy towaqrds Palestine And Israel since 1945. Institute for Palestine Studies, Washington D.C. 1995

Olivier de Corancez, Louis Alexandre: The History of the Wahabis from their orogin until the end of 1809. Garner Publishing Reading 1995, Nachdruck der Originalausgabe Paris 1810

Pappe, Ilan: The Making of the Arab-Israeli Conflict 1947-
I.B.Tauris, London 1992, .1951

Pappe. Ilan: The Israel/Palestine Question. Routledge,
London 1999

Patai, Raphael: The Arab Mind. Charles Scribner`s Sons
New York` 1983

Primor, Avi: Terror als Vorwand. Die Sprache der Gewalt.
Droste Verlag, Düsseldorf 2003

Pryce-Jones, David: The Closed Circle. An Interpretation
of the Arabs. Harper and Row, New York, 1998

Rashid, Ahmed: Taliban. Afghanistans Gotteskrieger und
der Dschihad. Droemer-Verlag, München 2002

Rashid, Ahmed: Heiliger Krieg am Hindukush. Der
Kampf um Macht und Glauben in Zentralasien.
Droemer, München 2002

Roy, Sara: The Gaza Strip. The Political Economy of
De-development. Institute for Palestine Stdies
Washington D.C. 1995

Roy, Olivier: The Failure of Political Islam. L.B.Tauris
Publishers, London1994

Runciman Steven: Geschichte der Kreuzzüge. C.H.Beck
München 1983

Saad-Ghorayeb, Amal: Hizbullah -Politics,Religion.
Pluto Press, London 2002

Sabbah, Raid: Der Tod ist ein Geschenk. Die Geschichte
eines Selbstmordattent?ters. Droemer, München 2002

Said, Edward W. : The Question od Palestine. Random House,
New York 1992

Said, Edward W.: The Politics of Disposession. The
Struggle for Palestinian Self-Determination 1969-1994.
Vintage Books, London 1995

Said, Edward W.: The End of the Peace Process. Oslo and a after. Vintage Books. New York 2001

Said, Edward W.: Out of Place. A Memoir. Granta Books London 1999

Segev, Tom: One Palestine Complete. Jews and Arabs Under the British Mandate. Little, Brown and Company London 2000.

Sharon, Ariel: Warrior. An Autobiography. Touchstone Books New York 2. Auflage 2001.

Shindler, Colin: The Land Bexond Promise. Israel, Likud And the Zionist Dream. I.B.Tauris, London 1995

Shlaim, Avi: The Iron Wall. Israel and the Arab World. Penguin Books, London 2000

Shlaim, Avi u. Rogan, Eugene L.: The War for Palestine Rewriting the History of 1948. Cambridge University Press 2001

Simons, Geoff: The Scourging of Iraq. Sanctions, Law And Natural Justice. Macmillan Press, London 1996

Shapira, Anita: Land and Power. The Zionist Resort to Force, 1881-1948. Stanford University Press 1992

Shapira, Anita u. Reinharz, Yehuda (Hrsgb.): Essential Papers on Zionism. Wellington House, London 1996

Sluglett, Peter ,Farouk-Sluglett, Marion: Iraq since 1958. From Revolution to Dictatorship. I.B.Tauris, London Nachdruck 2001 ^1987

Sponeck, Hans von u. Zumach, Andreas: Irak - Chronik eines gewolten Krieges. Wie die Welt?ffentlichkeit manipuliert und das V?lkerrecht gebrochen wird. Kiepenheuer und Witsch, K?ln, 2003

Stein, Kenneth W.: The Land Question in Palestine 1917- The University of North Carolina Press, 1984 .1939

Tuchman, Barbara W.: Bible and Sword. How the British Came to Palestine. New York University Press, 1956

Vassiliev, Alexei: The History of Saudi Arabia. New York University Press 2000

Wallach, Janet. Desert Queen. The Extraordinary Life of Gertrude Bell: Adventurer, Adviser to Kings, Ally of Lwarence of Arabia. Weidenfeld and Nicolson, London 1996

Wilson, Mary C.:King Abdullah, Britain and the Making of Jordan. Cambridge Middle East Library, 1990

Woodward, Bob: Bush at War. Simon and Schuster New York 2002

Yapp, M.E.: The Making of the Modern Near East Longman London-New York1987 .19231792

QUELLEN

Batatu, Hanna: The Old Social Classes and the Revolutionry Movements in Iraq. Princeton University Press, 1978

Meier, Andreas: Der politische Auftrag des Islam. Programme und Kritik zwischen Fundamentalismus und Reformen. Originalstimmen aus der islamischen Welt. Peter Hammer Verlag 1994

John, Robert und Hadawi, Sami: The Palestine Diary. Vorwort von Arnold J. Toynbee. 2 B?nde. The Palestine Research Center, Beirut 1970

Lukacs, Yehuda: The Israeli-Palestinian Conflict. A Documentary Record 1967-1990. Cambridge University Press1992

Yahya, Adel H. The Palestinian Refugees 1948-1998. An Oral History. Abu Ghush Press, Al-Bireh-Ramallah 1999

Zafarul-Islam Khan (Hrsgb.): Palestine Documents. The Institute of Islamic and Arabic Studies. New Delhi 1998

ZEITSCHRIFTEN

Foreign Affairs, USA

Revue d` Etudes Palestiennes. Beirut-Paris
http://palestine-studies.org

Journal of Palestine Studies., University of California Press
Berkeley, Cal. USA

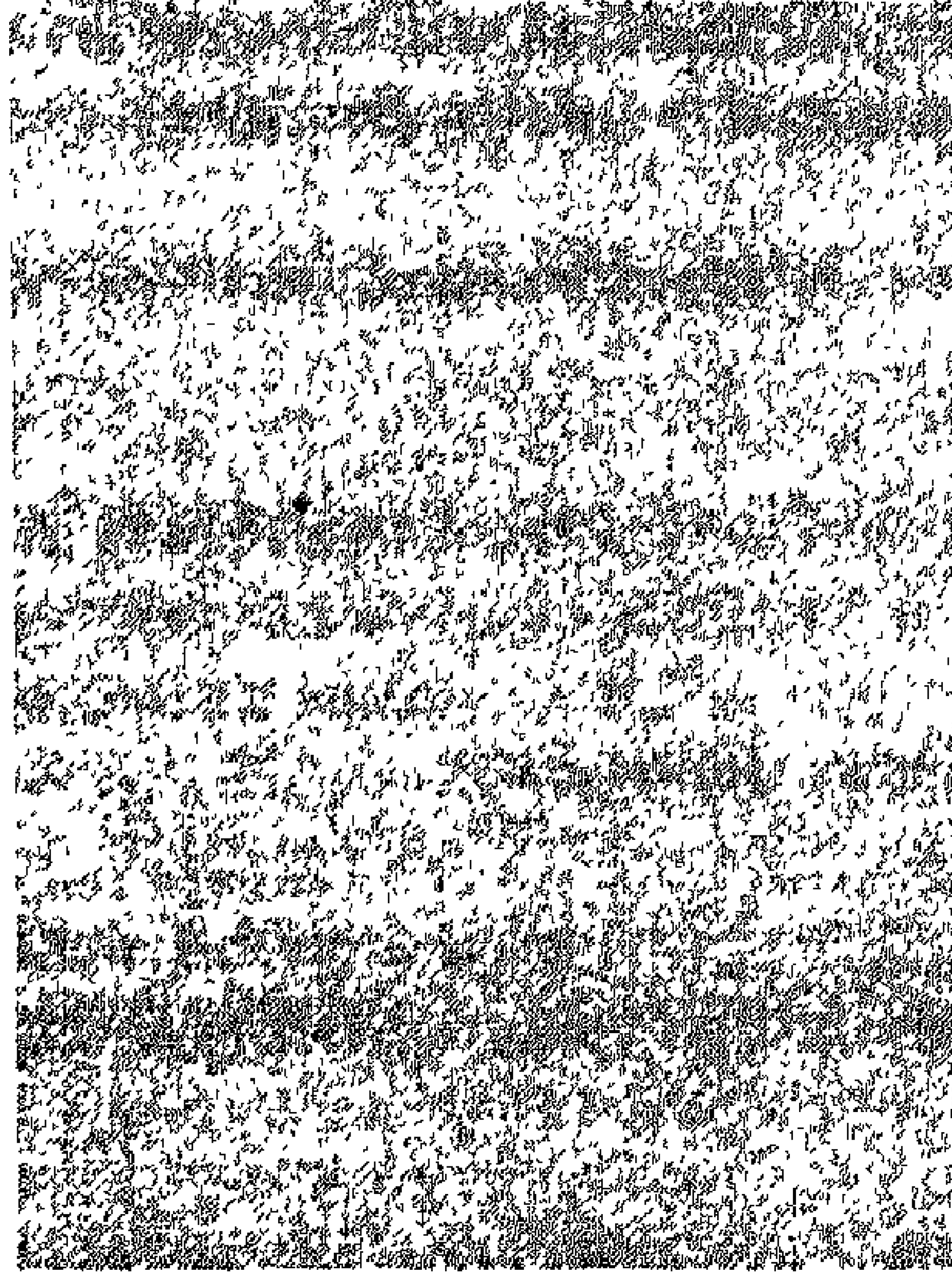
und Analysen zu Politik und Gesellschaft des Nahen und Mittleren Ostens, Berlin
INAMO. Informationsporjekt für den Nahen und Mittleren Osten. Berichte
Website: www.inamo.de

Websites:
International Crisis Group. www.crisisweb.org

Middle East Report, MERIP, USA. www.merip.org

Strategic Forcast (Strafor, gegen Gebühr) USA
www.stratfor.com

Stiftung Wissenschaft und Politik, Berlin
www. swp-berlin.org




نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع



من النيل إلى تورا بورا

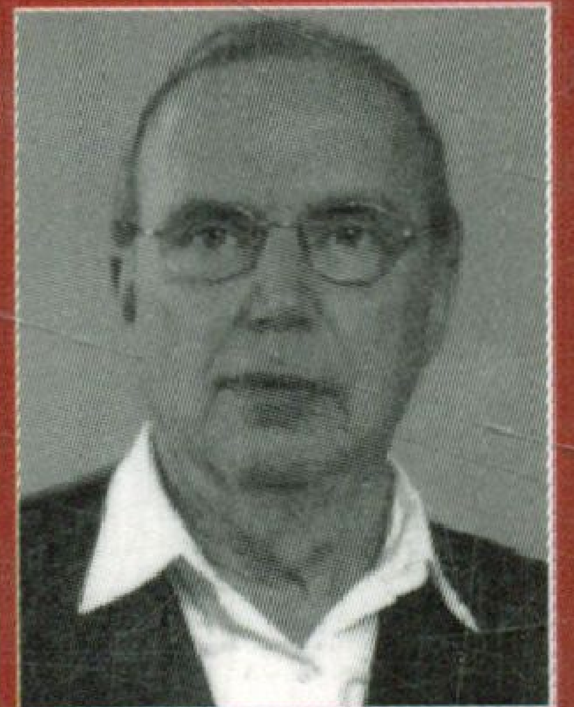
الشرق الأوسط والنظام العالمى الجديد

«فى ديسمبر عام ١٩٢٠، جلس كل من رئيس وزراء إنجلترا و فرنسا لويد جورج و جورج كليمنصو فى السفارة الفرنسية بلندن. وحينما كانا منفردين قال كليمنصو: والآن عن أى شيء تريدنا أن نتحدث؟ أجاب لويد: عن بلاد الرافدين وفلسطين. فقال كليمنصو: قل لى ماذا تريد؟. أجاب جورج: أريد الموصل. فقال: أتريدها؟! وهل هناك شىء آخر؟ فاستطرد جورج قائلاً: أريد القدس أيضًا. فأجاب كليمنصو: وتريد القدس؟! فعلق سكرتير مجلس الوزراء البريطانى موريس هنكى قائلاً: وهكذا يُصنع التاريخ!».

عبر كتابه الشيق والمؤلم إلى حد الصدمة، ينطلق الكاتب الألمانى هايكو فلوتاو فى رصد التصور الغربى لمنطقة الشرق الأوسط الكبير فى مائة عام مضت، وللوهلة الأولى يبدو أن الذاكرة الاستعمارية لا تزال نشطة ومتحفزة لتفتيت الشرق الضعيف.

ومن سايكس بيكو إلى بوش بلير، تعيش الأرض العربية المأساة ذاتها حتى يخيل أن التاريخ لا يعيد نفسه، كما يتصور البعض، بل لم يتحرك قيد أنملة طيلة مائة عام، ليكشف هذا التناقض المزعج الذى يلف وطنًا كبيرًا يلعب دور الجلاد والضحية بإخلاص نادر.

يفضح كتاب فلوتاو أخلاقية زائفة لغرب عنصرى يتلذذ بالرقص على وقع صرخات ضحاياه من كابول إلى رام الله مرورًا ببغداد، حتى تحول الشرق فى العهد الأمريكى إلى محمية أمريكية تسمى "نفطستان"، وذلك عبر تحليل مثير وأخاذ لا يمكن تجاهل كونه نتاج أيديولوجية غربية لا تنفصل عن محيطها التاريخى وإرثها الحضارى، إلا أن هذا لا ينفى أن "من النيل إلى تورا بورا" يعد واحدًا من أهم الكتب التى صدرت مؤخرًا فى أوروبا وأكثرها مبيعًا.



هايكو فلوتاو:

كاتب وصحفى ألمانى، عمل مراسلاً لصحيفة "زود دويتشى تسايتونج" الألمانية فى الشرق الأوسط طيلة عشرة أعوام، قام خلالها بتغطية بؤر الصراع المختلفة، و... المؤلفات فى السياسة الدولية.





